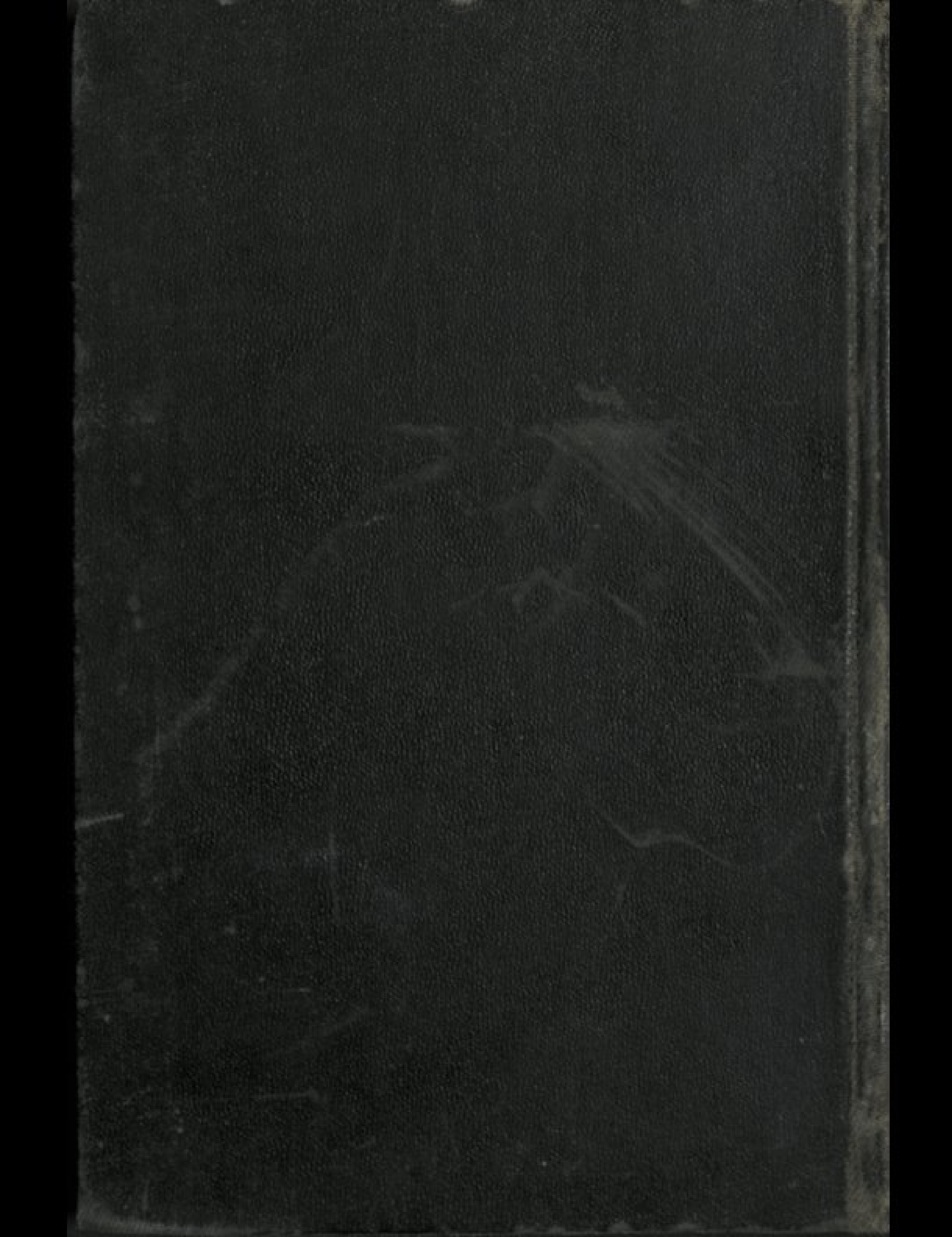
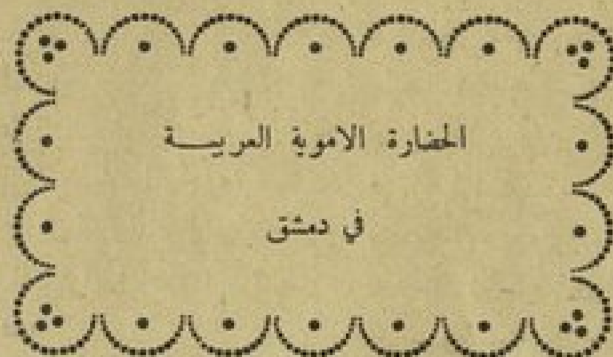




الحضارة الاموية العربيـــة

في دمشق



حقوق الطبع محفوظة

اهداء الكتاب

الى صاحب الفخامة السيد شكري القوتلي

رئيس الجمهورية السورية

يا صاحب الفخامة

ليس احق منك ، يا صاحب الفخامة في تقبل هذا الكتاب الذي يصف الحضارة في دمشق ، بلدك ومنازل الغر الميامين من اهلك وقومك وعشيرتك ، وعاصمة الجمهورية السورية العربية اليوم ، وعاصمة الخلفاء معاوية والوليد وهشام لأجيال خلت، هؤلاء الملوك الذين سبقوك على عرشها ، ففتحوا الفتوح ، وحشدوا الحشود، وبعثوا براياتهم تطل على سواحل المحيط الاطلنطيكي ، كما لوحوا بها مخضبة بالانتصارات فوق قلاع الهند ، ومجاهل الصين ... وكانوا الى ذلك في عهدهم ملء السمع ملء البصر ، وكانت امتهم اقوى امة في العالم ، وكانت دمشق عاصمة الارض ومن عليها ...

حتى اذا انتهيت من اثر الملوك والخلفاء في الحضارة والعمران والاحسان عمدت الى آثار العلماء والفقهاء والادباء والشعراء والمؤلفين والفنانين ، الذين انشأوا هذه الحضارة ، واقاموا هذه الدنيا الزاخرة بالعلوم والمعارف المعروفة في عهدهم ، والتي حاول كثير من المؤلفين التهوين من فضل دمشق فيها ، والاضعاف من عبقرية دمشق وسورية في خلقها وزرعها والعناية بها ، فان وفقت الى اعادة هذا الحق الى اصحابه ، اكون قد وفيت ديناً علي كمؤلف عربي لهؤلاء الخلفاء والملوك والعلماء والادباء والشعراء ، واكون قد قمت بالواجب نحوك كزعيم عربي تتمثل في روحه عبقرية سورية العربية ، وعبقرية هذا الشباب المتحفز من اهلها ، الذي يعمل جاهداً ليأخذ مكانه في صدر الوجود ...

وكل املي ان تتقبل مني هذا الكتاب المتواضع الذي سيصبح عظيماً بالانتساب اليك ، كبيراً عند رضائك عنه وقبولك له ..

بيروت في ٢٥/ ٧/ ١٩٤٨

عمر ابو النصر

مقدمة الكتاب

لعل هذا الكتاب الاول من نوعه في العربية ، فما اعلم ان مؤلفاً طرق هذا البحث واجراه على النحو العلمي الذي اجريته ، ولا كاتباً عرض له على هذا الشكل الواسع الحدود المعبد المسالك، ذلك انه ليس من السهولة بالقدر الذي يظن بعضهم، ولا هو من الموضوعات التي يستطاع اخضاعها للقواعد المألوفة في دراسة التاريخ ، فتاريخ الحضارة الاموية من الموضوعات الشائكة ، ومن البحوث التي لم يطرقها مؤلف سابق ، لضعف مصادرها وتشعب الوانها ، واختلاط اخبارها وامتزاجها بعضها ببعض . بحيث كان من السهل على المؤرخ ان يدرس الحضارة العربية جملة واحدة ، خصوصاً وان هذه الحضارة اذا كانت قد نشأت في العصر الاموي ، فقد اينعت واتت أكلها في العصر العباسي ، فتقسيم البحث والحالة هذه يجعل تاريخ الحضارة بين النقص ، ظاهر القلق ، محدود الاطراف ...

ولكني خلصت من هذا كله الى ضرورة انصاف هذه الدولة التي فتحت الفتوح ، فوصلت ما بين المشرق والمغرب، ووسعت رقعة الخلافة ، وكانت عربية خالصة ، وتأكدت من انه مهما قيل في سياستها وادارتها ، فانه يصح انصافها ، والاشادة بمحاسن اعمالها وآثارها ، فكان ان قررت المضي في التأليف لحضارتها ، كما فعلت لاعوام سبقت في التأليف لتاريخ بعض رجالاتها ، فكان من اثر ذلك هذا الكتاب الجديد الذي يعيد سيرة دمشق يوم كانت منازل الملوك ومواطن الخلفاء ، ودورة الفلك ، واعظم عواصم العالم القديم حضارة وثقافة وادارة وسعة امصار ، وكثرة جيوش ، ويوم كانت تجمع على شواطىء انهارها الصغيرة الشعر والادب والفن ، وقادة الفكر والعلم والحرب والادارة ، ويوم كانت دمشق الدنيا ، وكانت الدنيا دمشق ...

***

ولست الى هذا بمدع فضلاً فيما اكتب وانشر ، ولا اقصد بما كتبته قديماً وبما سأصدره من جديد جزاء ولا شكوراً ، وانما انا كاتب جاشت في صدره خواطر فلم ير من اظهارها بداً ، وخطرت له آراء فلم يجد من اذاعتها منصرفاً . واراد غاية مثلى فهو

يسعى اليها ويعمل جاهداً على اقرارها ...

ولقد يكون بين الادباء من يفسد الاخفاق عليه امره ، ويكون بينهم من يتاح له القصد في ذلك فلا يبطره الفوز ، ولا يضعفه الاخفاق ، وانما يسلك بين ذلك سبيلاً وسطاً .. ملتمساً لذته ومتعته في فنه وآثاره ، اكثر مما يلتمس ذلك في رأي الناس واعجابهم به ، وتهالكهم في الثناء عليه ...

وفي مرجوي ان يجد كتابي هذا عند جمهرة القراء من شباب العرب التقدير الذي يستحقه ، واذا استطاع ان يؤدي رسالته ، وان يثير في شبابنا حب الاعمار والاحسان ، وان يدفعهم الى كثير من العمل وقليل من القول ، فيمضون قدماً لبناء دنيا العرب الجديدة على غرار ما فعل اجدادهم ، واقر آباؤهم ، يوم كانت تتضاءل تحت اقدامهم مدن واقاليم ، ويوم كانوا امراء القرائح ، وسادة الادارة ، وملوك العمران والحضارة ، اكون قد وصلت الى الغاية التي اريدها ، والرسالة التي احاول تحقيقها ...

بيروت ٢٥/٧/١٩٤٨

المؤلف

- ١ -

العرب والحضارات الاولى

اصول الحضارة العربية

« من الحقائق التاريخية ان لغة الامة عنوان سموّ مداركها، كما انها نموذج لما سمت اليه في درجات الحضارة والرقي ، ويستحيل على امة متأخرة في المدارك غير متقدمة في الحضارة ان يكون لها لغة راقية ، ولسان بليغ ، وادب وشعر وفنون ناضجة . »

حيّرت هذه الحقيقة التاريخية المستشرق كايتاني [1] لما تناول في كتابه الضخم عن تاريخ الاسلام ، تاريخ العرب في الجاهلية ، فاذا هو امام شعب عربي ضعيف ، ومجتمع فاسد قلق ، لا يتناسب مع اللغة الراقية التي ينعم بها ، ولا اللسان البليغ الذي ينطق به ، ولا هذه الآداب والحكم ومختلف الفنون التي تجري على لسانه في شعره ، ووجد ايضاً انه ليست هناك ملابسة ولا قياس يجمعان بين ما هي عليه اللغة العربية من نموّ وتقدم وجدة وقوة ، وبين هذه الحالة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الضعيفة التي كان يحياها العرب عند وضع المعلقات ونزول القرآن ، خصوصاً وان قوة اللغة هي عنوان قوة المجتمع في شتى نواحيه ، وليس هناك امة في العالم تنعم بلغة قوية عفواً وارتجالاً ، دون ان يستبق ذلك حضارة سابقة ونمو عام يساعدان على نموّ اللغة وتقدّمها ..

(I) Leon Caetani, Annali dell islam -- Milan (1905 — 8 vol.)

واذن فاللغة العربية التي صدرت عنها المعلقات ، ونزل فيها القرآن الكريم ليست من نتاج المجتمع العربي الضعيف في العصر الجاهلي وعند ظهور الاسلام ، وانما هي نتاج مجتمع عربي قوي جبار ، غني في مادته ، غني في ادبياته ، لا يقلّ غناءً وقوة وتفكيراً وعبقرية عن المجتمعات الراقية في القرن الثامن عشر مثلاً ، ولولا ذلك ما تمكن هذا المجتمع من اقرار هذه اللغة التي تلابس في تراثها لغة هذه المجتمعات الاوروبية في العصر الحاضر .

وكما ان اهرامات مصر وقبورها، وبقايا مدن الرومان واليونان وما فيها من الآثار الفنية والصناعية الراقية ، يؤيدان المركز السامي الذي كان لهذه الامم في سابقات الايام في ميادين العلم والفنون والحضارة ، فكذلك اللغة وما فيها من ثروة ادبية وعقلية وجدة ، برهان قائم على ما وصلت اليه الامة التي تتكلمها من عمران وعبقرية وحضارة .

المصادر والآثار

ولما اخذ المستشرق كايتاني يتصعد في عصور التاريخ العربي ، وجد من المستندات الاثرية والحقائق العلمية الواناً واشكالاً ، ذكر تفاصيلها في كتابه وهي تؤيد ان الجزيرة العربية منذ نيف وعشرة آلاف سنة لم تكن صحراء مجدبة ولا بلاداً قاحلاً، ولكنها كانت ذات انهار وبحيرات وغابات وبساتين ومدن وقرى تعج بالناس ، وتنعم بطرق تجارية حسنة وحقول رائعة خصبة ، وايد هذه الحقائق المستشرق فيلبي في رحلته الاخيرة الى الربع الخالي من جزيرة العرب ، لما عثر فيه على مدن وسواحل لبحيرات عظيمة جافة ، وآثار لطرق معبدة سالفة ، وبقايا لحيوانات بالية ، وعظام حيوانات وغيرها مما لا يعيش إلا في الماء او على السواحل

وتحت ظلال اشجار باسقة وغابات وبساتين وارفة ، قد طمرتها الرمال ودفنتها بين طياتها منذ آلاف السنين .

ومن المؤكد ان غناء اللغة العربية حين نزول القرآن وتأليف المعلقات لا يمكن ان يولد من فقر المجتمع العربي في ذلك الحين ، وقد نحسن صنعاً اذا رددنا هذه الثروة في اللغة الى تلك الثروة في المدنية التي تؤكد لنا المستندات التاريخية والعلمية وجودها في جزيرة العرب قبل نيف وعشرة آلاف سنة ، خصوصاً وان علم «طبقات الارض» يؤكد من الجهة الثانية ان الكرة الارضية قد مرت باربعة ادوار جليدية آخرها انتهى دوره قبل عشرة آلاف سنة ، كما ان هذا العلم نفسه يقول : ان الجليد كان يغطي اكثر اقسام اوروبا الشمالية والوسطى ، وما كان يذوب منه كان ينحدر سيولا وانهاراً نحو آسيا الصغرى والهلال الخصيب ، ومنه الى جزيرة العرب ، وكان الجو في ذلك العهد شديد البرد في كافة اوروبا ، ولكنه بارد معتدل في الجزيرة العربية ، قليل الحرارة في مناطق خط الاستواء ، بحيث ان الجو في الجزيرة كان يساوق جو جنوبي اوروبا والبلقان في الوقت الحاضر ، وكانت الجزيرة الى هذا تزخر بالانهار والينابيع المتدفقة وكثرة الامطار بطبيعة الحال ، وللفلكيين في هذا تعليلات لا مجال الى سردها هنا ، واذا كان هذا حقاً فمن المفروض انه عندما انتهى الدور الجليدي الرابع وجفت انهار وبحيرات الجزيرة العربية صارت الامواج العربية تصعد شمالاً نحو الهلال الخصيب تخلصاً من الجفاف وارتياداً للكلاء والمراعي ، فكونت تدريجياً دول الهلال الخصيب وشمال افريقيا السامية من آشورية وكلدانية وفينيقية وفرعونية وبمرور العصور الطويلة انحرفت لغات هذه الامواج عن لغتها الاصلية ، فتكونت لغات هذه الامبراطوريات الجديدة التي هي عربية في الاصل ،

اما اللغة العربية نفسها فظلت سليمة في جنوبي الجزيرة العربيـــة حيث كانت لغة اليمن ونجد ، والحجاز وسائر القبائل العربية في قلب الجزيرة وصارت تتداولها ألسن الشعراء والفصحاء والادباء رغم ضياع ثروة البلاد على اثر الجفاف وزوال المدن العامرة والقرى الغنية ...

واذا كان هذا رأي المؤرخين المعاصرين في الحضارة العربية القديمة ، فان كتاباً يبحث الحضارة الاسلامية حتى اواخر العهـــد الاموي لا يكون كاملاً إلا اذا عرض للحضارة العربية قبل الاسلام .

بلاد العرب وطبيعة الارض

وتبلغ بلاد العرب ، او الجزيرة العربية ، ربع اوروبا وثلث الولايات المتحدة الاميركية ، وهي باجماع المؤرخين موطن الامم السامية ، ومنها هاجرت الجماعـات التي انشأت الحضارات في اشور وبابل وفينيقيا ، وفلسطين وغيرها .

واذا كان هناك ارض في العالم تلزم سكانها حياة معينة محدودة ، فهذه الارض هي الجزيرة العربية ، ولذلك رأينـا ان اكثر سكان كانوا مجبرين على الجري على حياة بدوية ، لان الارض التي تصلح للزراعة قليلة جداً ، ولأن المطر الذي يتنزل من السماء ، انما يتنزل على امكنة معينة ، بحيث يكون الكلاء مرة هنا ومرة هناك ، ويكون دائماً وابداً لوقت قصير جداً ...

الحياة في الجزيرة

اما حياة البدوي في الجزيرة ، فكانت تتكيف وفاقاً لهذه الحيـــاة الصحراوية القاسية التي يحياها ، مع ما يتبعها من التزاحم مـــع القبائل

الاخرى على ضروريات الحياة ، ومع ما يستدعي ذلك من عراك وعناء للحصول على مقومات هذه الحياة .

وكان سكان الواحات الخصبة في الجزيرة ، يجرون على حياة تختلف قليلاً عن الحياة التي يحياها البدوي ، لان المفروض في هذه الجماعات ان تقيم في هذه الارض الخصبة ، وان تزرعها وترعاها ، ولكنهم مع ذلك كانوا يتفقون مع البدوي في طريقة عيشه وتفكيره ، وكانوا ما في ذلك شك ولا ريب متأثرين بالحياة البدوية التي حولهم ، متأثرين الى حد بعيد بالتفكير البدوي نفسه ، في الشعر وغير الشعر من الفنون الادبية التي كانت تجد ارضاً خصبة في هذه الصحراء الملتهبة الجياشة ...

وفي هذه الارض الواسعة كانت الحياة تسير سبيلها متحركة ابداً ، مختلفة دائماً ، ولكنها تظل مطبوعة بطابع البداوة والصحراء ، فاذا هلكت قبيلة ، او هاجرت قبيلة الى مكان آخر ، اتت غيرها فحلت محلها ، وراحت تحيا حياتها وتعيش على غرارها .

والتاريخ الى ذلك يدلنا على انه كانت هناك عوامل فكرية تتمخض في هذه الجزيرة ، بينما لم يكن مثل هذه العوامل ظاهراً في غيرها من الصحارى كصحراء البربر في افريقيا وهي تساوق الصحراء العربية محلا وجدباً .

وطبيعة الجزيرة العربية تختلف باختلاف بعدها وقربها من البحر وانخفاضها وارتفاعها عنه ، فجبالها ليست كسهولها واواسطها تختلف عن اطرافها ، فليست الجزيرة نسقاً واحداً بخصبها واعتدالها ، وفيها واحات فيها نخيل واعشاب وبقول وحبوب ، وفي جنوبها (اليمن) بلاد عالية ومنخفضة ، حارة في بعضها باردة في البعض الآخر ، وفيها المياه وان قل الجاري منها ، تكثر امطارها في مكان ، وتقل في غيره ، فيقل الخصب

في الحجاز قليلا ، ويكثر في الطائف . واليمن اعمر الاقاليم العربية ولذلك دعيت (بالعربية السعيدة) فقامت فيها مدنية قديمة ، وقامت فيها دول عظيمة لخصبها وإمراعها ، ولما فيها من الحاصلات مما لا يوجد في غيرها ، كالطيب والورس ، والكندر ، والعصب والمبان والعقيق والخشب والمعرق من الجزع وغير ذلك [١]

كما ان مزروعاتها كانت من الضخامة والعظمة بقدر عظيم جداً ، وفي جبال بلاد العرب التي تكاد لا تنقطع سلسلتها من شمالها في ارض الشام حتى الطائف وصنعاء وما وراءها من الاعتدال ولطف الهواء ما يستغرب وجوده ، فالطائف تعلو ١٦٠٠ متر عن سطح البحر ، و (ابها) وهي في اليمن ٢٢٧٥ ، وصنعاء ٢٣٤٢ وكوكبان ٢٠٠١ وفي اليمن والحجاز معادن كثيرة كالحديد والفضة والذهب ومثل هذا يقال عن عمان وحضرموت والبحرين واليمامة والاحساء ، وما ظهور البترول مؤخراً في جزيرة العرب دليل جديد على ما تنعم به هذه الارض من خيرات وثروات ...

العرب قديماً وحديثاً

وليس لدينا من المعلومات ما يجري مجرى الثقة في الصلات التي تربط العرب الذين نسمع بهم في فجر التاريخ ، والعهد القديم ، مع عرب اليوم ، ولكن الواقع انهم يشابهونهم ويلابسونهم كثيراً ، فالحياة التي كان يحياها العربي في ماضيات الايام ما تبرح تجري على نفس الوجه عند عرب اليوم وعرب الامس القريب ، واول ما نسمع عن العرب في فجر التاريخ نزوحهم الى ما حولهم من المواطن المتحضرة ، فتقدموا نحو

---

١ الورس نبات كالسمسم ، والعصب شجر اللبلاب .

العراق ، ونفذوا الى فلسطين ، ففشلوا في بعض الحالات ، ونجحوا في بعض الحالات الاخرى ، وذلك قبل المسيح ، وفي التوراة القليل من اخبار العرب، فقد تقدموا نحو فلسطين كما يظهر ، وتمكنوا من الاستيلاء على بعض المزارع والاراضي الخصبة الواقعة على اطرافها ، ثم ارتدوا عنها في عهد القضاة وعهد داود ...

واما العرب الذين كانوا يقيمون في الجزيرة فان حياتهم الزراعية ، ورغبتهم في الاتصال بالعالم حولهم ، كانا يفرضان عليهم موالاة العرب البدو ، وعقد المعاهدات معهم لتأمين سلامة المواصلات وحماية القوافل، وكان العرب دائماً يحافظون على هذه العهود تعقد فيما بينهم ، ويحترمون ما ابرموا وما عقدوا .

اسم العرب

ويذهب بعض المؤرخين فيما يذهبون ، الى ان اسم (العرب) نفسه يعني الصحراء [1] واول ما نقع على هـذا الاسم في التاريخ القديم في الآثار الاشورية ، واما في التوراة فيصعب التأكد من هذا الاسم قبل عهـد (ارميـا) ، ويظهر من الآثار الفارسيـة خصوصاً في عهد الملك داريوس ان اسم (بـلاد العرب) كان يطلق على العراق وسورية وصحراء سينـاء ، ونقع على اسم العرب عنـد اليونان في كتابات (اشيلوس) ، وامـا هيرودتس المؤرخ اليوناني فانه يذكر العرب كشعب له اثره وخطره ، فيذكر مثلاً العرب الذين يسكنون المنطقة الواقعة بين فلسطين ومصر ، وكيف انهم يسيطرون على طرق التجـارة بين القطرين ، وهو طريق كان له خطره عند الفرس وغير الفرس ، ويُذكر اسم العرب في مؤلفات المؤرخين في عهده وبعد عهده ، كنحميا

١ نولد كه : فصل من تاريخ العالم الذي طبعته شركة دائرة المعارف البريطانية.

وكسنوفان ، وهذا الاخير يطلق اسم العرب على صحراء العراق .

ومن هـذا التاريخ – الذي يمتد الى مـا قبل المسيح – بدأ اسم العرب يرتبط ارتباطاً وثيقـاً بالجزيرة وسكانها ، واخذ يعني اللغة والقومية معاً .

الحضارات السامية

واكثر المؤرخين اليوم على ان الحضارات السامية ترجع في اصولها واهلها الي الجزيرة العربية نفسها ، وانهـا قامت على اكتاف العرب البدو الساميين الذين هاجروا من الجزيرة الى المواطن الخصبة في العراق وفلسطين وسورية ، ومن المؤكد اليوم ان اللغتين اليهودية والارامية يحملان في مفرداتهما مـا يدل على ان اليهود والاراميين هم من اصل بدوي سامي ، ويمكننا ان نتصور اليوم كيف حدثت الموجات العربية على وجه التقريب ، اذا اخذنا بعين الاعتبار حالة البدو وفقرهم وجدب الجزيرة وإمحالها ، وانتقالهم من مكان الى آخر طلباً للكلاء والماء، حتى اذا وصل بهم المطاف الى اطراف الجزيرة – فلسطـين ، العراق ، سورية – وابصروا فيها الماء الجاري ، والزراعة المثمرة ، وما ينعم به سكانها من حياة راغدة وعيش هنيء ، اغواهم الطمع فاكتسحوا الارض امامهم ، واستولوا عليها بالقوة ، وطردوا سكانها منها او نزلوا بالقرب منهم ، ثم يتتابع قدوم العرب مع الايام ، حتى يصبحوا وهم الاكثرية الساحقة في المكان الذي نزلوه اول مرة جماعات قليلة مستضعفة .

السامیون

وفي منتصف الالف الرابعة قبل المسيح (٣٥٠٠) كان البابليون

الاكاديون كما كانوا يسمون قبلاً نسبة الى عاصمتهم (اكاد) (Akkado) والاشوريون ، والكلدانيون بعدهم ، يسكنون ما بين النهرين (الدجلة والفرات) ،وفي سنة ٢٥٠٠ ق.م كان الاموريون والكنعانيون والفينيقيون يسكنون سوريا وسواحلها .. ١

وفي سنة ١٥٠٠ ق.م سكن الاراميون سورية ، ونزل اليهود فلسطين ، عند خروجهم من مصر وقد اثبتت الحفريات الاخيرة ، ودراسة اللغات الخاصة بكل من هذه الشعوب انهم يتلابسون كثيراً ، ويتصلون بعضهم ببعض اتصالاً قوياً ، بحيث نستطيع القول ان البابليين ، والاشوريين ، والاموريين ، والاراميين ، والفينيقيين ، واليهود ، والعرب ، والحبش ، قبل تفرقهم واختلافهم كانوا يسكنون مكاناً واحداً كشعب واحد .

ويجمع المؤرخون اليوم على ان هذه الشعوب كلها من اصل سامي ، ويكادون يجمعون على ان مهد السامية جزيرة العرب ، وان كان هناك من يذهب الى ان مهد السامية هو افريقيا ، ومنها نزل الساميون الى جزيرة العرب ، ويقول آخرون ان بلاد ما بين النهرين هى مهد السامية ، ولكن كثيراً من الصعوبات تعترض هذه المزاعم ، والاجماع ينعقد اليوم على ان مهد السامية جزيرة العرب ما في ذلك شك ولا ريب .

الموجات السامية

ولقد اشرنا قبلاً الى الاسباب التي دعت سكان الجزيرة العربية على مغادرتها الى غيرها ، واول هذه الموجات السامية قد اندفعت نحو

---

١ تاريخ العرب – فيلب حتى – الصفحة ٩ الطبعة الثالثة ١٩٤٣ (لندن) وهو غير الكتاب الصغير الذي نشر بالعربية في بيروت والذي كتب للامير كين بصورة خاصة...

مصر كما يظهر سنة ٣٥٠٠ ق‌م ، حيث الخصب والماء والكلاء ، وسكنت الجماعات السامية الجديدة مع السكان الحاليين سكان مصر الاولين ، ومن هذا التزاوج بين الشعبين خرج الشعب المصري المعروف في التاريخ .

وفي الوقت نفسه على الارجح خرجت موجة سامية اخرى من الجزيرة ، ومشت الى ما بين النهرين ، حيث كان يسكن السومريون ، ومن المؤكد ان الساميين من سكان الجزيرة العربية دخلوا ارض ما بين النهرين وهم يجهلون كل شيء ، ولكنهم تعلموا من السومريين الكثير مما كانوا يجهلونه ، تعلموا كيف يزرعون ، ويقيمون المنازل ، وكيف يكتبون ، ويعيشون عيشة القبائل المقيمة .

ومن التزاوج بين العنصرين خرج العنصر البابلوني ، الذي يعود اليه فخر الحضارات الاولى مع المصريين .

وفي منتصف الالف الثالثة قبل المسيح ، خرجت موجة سامية الى سورية ، وهم الاموريون ، ومنهم الكنعانيون والفينيقيون، والفينيقيون اول من اخترع حروف الهجاء في العالم .

وبين سنة ١٥٠٠ – ١٢٠٠ قبل المسيح يظهر اليهود في جنوبي سورية (فلسطين) ، والاراميون في شمالي سورية .

وحوالى سنة ٥٠٠ ق‌م يظهر النبطيون في سيناء ، وكانت عاصمتهم (بترا) وقد بلغوا مرتبة حسنة من الحضارة والعمران .

وفي القرن السابع المسيحي اصدرت جزيرة العرب موجة سامية جديدة بزعامة محمد بن عبد الله نبي العرب وزعيم الوحدة السياسية والدينية ...

وهذه الموجة الاخيرة من الساميين كانت ابعد الموجات اثراً واعظمها خطراً في تاريخ العالم .

ذلك ان العرب الذين خرجوا بزعامة محمد بن عبدالله وانصاره من بعده من الصحراء ، لم ينشئوا امبراطورية لا مثيل لها في تاريخ العالم فحسب ، وانما انشأوا ثقافة وحضارة وفناً لا تزال اوروبا الحديثة مديونة لها حتى اليوم ، وذلك بما حفظته من آثار الحضارات السابقة ، وما زادته في هذه الحضارات من حياة وخصب وجدة ، ولولا الحضارة العربية لاندثرت جميع الحضارات السابقة ، ولكان العالم الحديث ، غير ما هو عليه اليوم .

وكذلك لا تزال اللغة العربية لغة الملايين العديدة من البشر ، كما انها لا تزال لغة ثلاثمائة مليون مسلم بما تفرضه عليهم من قراءة القرآن بالعربية .

واذا كانت اللغة العربية ، ليست اليوم في الصف الاول من اللغات الحية ، فقد كانت في القرون الوسطى لغة الحضارة والثقافة العالمية ، وبين القرن التاسع والقرن الثاني عشر ، كانت العربية انشط لغات العالم في التأليف ، واوسع اللغات الحية انتشاراً ، بها وضعت اكثر المؤلفات التاريخية والفلسفية والرياضية والطبية والجغرافية وغيرها ، ومنها ترجمت الى اللغات الحية الاخرى ، وهي لا تزال حتى اليوم بعد اللاتينية تُستعمل حروفها الهجائية اكثر من سواها وغيرها في لغات العالم .

والعربي السامي الى ذلك بخلاف غيره من الشعوب الاخرى من اسرع الناس الى التكيف وفاقاً لمحيطه وبيئته الجديدتين ، كما انه اسرع الناس الى تلقف المعارف والعلوم والحضارات واساغتها على الوجه الاكمل والاحسن ، فقد اظهرت قريش القبيلة العربية اول الفتوح

العربية الاسلامية ، انها تنعم بعين لا ينضب من الخلفاء والقواد والامراء والحكام ، وقد ظهر قبل الاسلام حمورابي في بابل ، وانشأ للناس في عهده ، نظاماً اجتماعياً ما يزال حتى عصرنا الحاضر مدار اعجاب العالم ، وكذلك ظهر موسى النبي ، ودعا في صحراء سينا قومه الى دين جديد ، كما ظهرت زينب في تدمر ، وهي القائدة البارعة ، والاميرة النابهة ، واما فيليب العربي فقد اصبح امبراطوراً لرومة ، ولا تزال آثار (بترا) و (تدمر) تملأ السائحين والمستشرقين اعجاباً واجلالاً ، مما يدل على ان العربي بارع في البناء والاعمار ، والقيادة وانشاء الحضارات والثقافات ومختلف الفنون الرائعة البديعة .

جزيرة العرب

والجزيرة العربية اقليم في الجنوب الغربي من آسيا ، تحده شمالاً بادية الشام ، وشرقاً الخليج العجمي وبحر عمان ، وجنوباً المحيط الهندي ، وغرباً البحر الاحمر ، فهي والحالة هذه شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات .

وتنقسم بلاد العرب وفاقاً لطبيعتها الى خمسة اقسام :

١ — تهامة ، وهي الارض الواقعة بمحاذاة ساحل البحر الاحمر الشرقي ، وسميت بهذا الاسم لشدة حرها وركود ريحها ، وسميت كذلك الغور لانخفاض ارضها .

٢ — والحجاز : وتقع شمالي بلاد اليمن اي شرقي تهامة ، وتمتد الى فلسطين ، وسميت حجازاً لانها تحجز بين تهامة ونجد ، وتحتوي على المدينتين المقدستين مكة والمدينة .

٣ — ونجد : وتمتد بين اليمن جنوباً وبادية السماوة شمالا والعروض

واطراف العراق ، وسميت نجداً لارتفاع ارضها .

٤ – واليمن : وتمتد من نجد الى المحيط الهندي ، وتحيط بها حضرموت والشحر وعمان في الشرق .

٥ – والعروض : وتشمل اليمامة والبحرين ، وسميت عروضاً لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق .

وفي الجزيرة العربية مواطن خصبة ، خصوصاً في اليمن ، وفي حضرموت موطن البخور ، وفي الاحساء الواقعة على الخليج الفارسي ، واما الساحل العربي فارضه وعرة تتخللها التلال والكثبان ولكنها تمتاز بمراعيها ، وكانت في سالفات الايام احسن حالا مما هي عليه اليوم .

واما ارض بلاد العرب الوسطى المرتفعة – وهي نجد – وما يتخللها من الجبال المرتفعة هنا وهناك ، ووديانها الطويلة وسهولها التي يرعى فيها احسن الخيول العربية ، واليمامة الواقعة الى الجنوب الشرقي فقد كانتا تسدان حاجة العرب من القمح – كما كانتا في القرنين السادس والسابع لا تقلان عن ارض اوروبا اليوم خصباً وانتاجاً .

وبلاد العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ، وفيها الصحاري الرملية المترامية الاطراف ، ويتخلل هذه الجبال الوديان التي هيأتها السهول ، والاراضي القريبة منها خصبة التربة صالحة لاقامة الناس الذين يعتمدون على ما تنبت ارضهم ، وما يجدونه فيها من ماء يشربون منه ويسومون انعامهم .

واما ما بعد عن هذه الوديان فقفر غير صالح للسكنى ، واعظم واد في بلاد العرب « وادي الدهناء » وهو كثير الخير اذا اخصب ...

ولكن الماء في الجزيرة لا يسد حاجتها ، واكثره يغيض في الارض ، فلا يمكن الانتفاع به الا بالوسائل الهندسية الحديثة ، اللهم الا

في بلاد اليمن التي استطاع اهلها ان يحولوا مجاري الوديان ، فبنوا سداً محكماً يحجز الماء خلفه في ارض صلبة للانتفاع به عند الحاجة .

وبلاد العرب وان كانت صحراء ، الا انها تختلف عن غيرها من الصحاري في طبيعة سطحها ، فهي مختلفة الاجزاء ، بعضها مغطى بالكثبان الرملية ، والبعض الآخر بالاحجار ، وبعضها منخفض ، والبعض الآخر مرتفع ، مما حمل الكتاب الاقدمين الى تقسيم بلاد العرب الى ثلاثة اقسام ، الارض العربية الواقعة جنوبي غربي بادية الشام وعاصمتها بترا ، والارض الغربية الصحراوية ، وبادية الشام ، وقد اطلق هذا الاسم بعض الكتاب على شبه جزيرة العرب لجدبها بوجه عام . واخيراً العربية السعيدة ، وهي بلاد اليمن التي تسمى الارض الخضراء حيث قامت حضارة سبا وحمير وغيرهما من دول الجنوب .

الصحراء

وفي الجزيرة جزآن صحراويان ، الاول في شمالي هضبة نجد واسمه (النفود) ، ويمتد من شمالي هضبة نجد حتى جنوب فلسطين ، وهو عبارة عن كثبان رملية يتخللها وديان عميقة لا يصل اليها الماء ، ومن الممكن اختراق النفود من الشرق الى الغرب في نحو اربعين ساعة مع صعوبة وعناء .

والصحراء الاخرى تقع في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب ، وتقع شمال حضرموت وهي « الدهناء » او الصحراء الحمراء ، وهي اشق بكثير واجدب من صحراء الشمال ، وما عدا ذلك فان في بلاد العرب ارضاً زراعية وواحات يمكن السكن فيها ، وقد اكسبت طبيعة هذه الارض الشاقة اهلها النشاط والخفة ، خصوصاً البدو منهم الذين لا

يعتمدون كثيراً على الزراعة ، وانما جل اعتمادهم على انعامهم ، يأكلون لحومها ويشربون البانها ويكتسون اوبارهـا ، وهي التي تحملهم وتحمل امتعتهم الى حيث ينتقلون من مكان الى آخر طلباً للكلاء والماء ...

هذه الجزيرة العربية ، نزلها الساميون من العرب اول عهدهـا في التاريخ ، فلما كثر عددهم نفروا عنها الى سواها من المدن القريبـة المتحضرة القائمة على اطرافها ، كآشور وبابل وسوريا يجوسون ارضها ، وينتهكون معاقلها ، وينزلون فيها نزول الفاتح في ارضه ، ويمشون فيها مشية المليك في بستانه ، ويطبعون هذه الامم الجديدة بطابعهم السامي ويظل هذا حالهم آجالاً وعصوراً حتى عصر الجاهلية قبل الاسلام ، واذا العرب فيه مثلهم قبـلـه ، واذا هم لا يزالون ، تغلب عليهم البداوة ، ويعيش اكثرهم عيشة القبائل الرحــل ، فلا يتصلون بالارض اتصال المزارع الفلاح ، ولا يمكثون في البلد مكوث المقيم العامل ، بل تراهم يتربصون مواسم الغيث فيمشون اليهـا رجالا ونساء وشباباً وغلمانـاً وابلا ، وهذه حياة على ما فيها من جهـد ومشقة قلّ ان تسمح بقيام الجماعات المتحضرة ، وقلّ ان تمكن اصحابها من تأسيس حضارة وثقافة مستفيضة متينة .

ويعصم ربك الجزيرة فلا يكاد يهبطها غاصب او فاتح الا غراراً ، ثم ما شأن الفاتح في ارض ليس فيها من الخير ما يمكن لسكانها في الحياة ، وما شأنه في بلاد كلها قبائل وعشائر ، قلوبهم اسيافهم ومنازلهم رواحلهم ، فان هو حاول ان يجوس ارضهم نفروا عنه ، واستقروا في مكان آخر من الجزيرة سحيق .

ثم يكرون عليه ، فما يبرحون به كراً وفراً حتى يضيق معهم صبراً فينصرف عنهم ، وقد اضناه التعب ، وبرّح به طول الشقة وعضه الجوع ،

ولوحته الشمس ، فلا تعجب بعد ذلك ان لا يقتحم الجزيرة الروم والفرس إبان سلطانهم ، ويوم كانوا ملء السمع ملء البصر ، وقد دوخوا في عهدهم بلاداً ابعد منها ، وجماعات اكثر من العرب عدداً وعصبية ، وامضى سلاحاً .

وهي بعد بلاد قاحلة ما يتجه نظر احد للاستيلاء عليها ، وقبائل وعشائر بدوية تعتمد في قوامها الاقتصادي على التجارة وبعض الثمرات والماشية وما تتنضح به الماشية من البان وغيرها ، وهي بموقعها الجغرافي البديع بين آسيا وافريقيا طريق التجارة بين الامم المحيطة بها من اقصى البحر المتوسط . ثم لما كانت الثمرات والبان الماشية لا تكاد تسد من جوع ابنائها ، فقد كان من واجب البدوي ان يضرب الارض طلباً للرزق وان يطلبه في المدن العربية القائمة في الجزيرة ، والتي كانت وفيرة الحضارة باسقة العمران ، فكان ينزلها إما حامياً لقوافلها من غزو امثاله لها ، او صاحب رواحل تنقل المتاجر من مصدرها الى موردها . او تاجراً ينقل للشام وغير الشام ماشية الجزيرة على ان يعتاض عنها بما هو في اشد الحاجة اليه من مأكل ومشرب وملبس .

وكذلك كانوا يعيشون على ما تنتجه لهم ماشيتهم من لحوم والبان ، اما اصوافها فكانوا يلبسونها ويتخذونها مساكن لهم ، وكانوا يعتمدون في تغذية هذه الماشية على الطبيعة يخرجون في مواسم المطر الى منابت الكلاء لترعى ، حتى اذا انتهى الموسم كروا راجعين الى منازلهم ينتظرون الموسم التالي ريثما يحول الحول ويتنزل الغيث وقد لا يكفيهم هذا الغذاء فيعمدون الى الضب وغير الضب من حيوان البادية يزدردون لحمه ، وقد كان شهياً كما يقولون .

ثم انهم اذا احتاجوا الى اكثر مما تنتجه ماشيتهم ورأوا ان لا

مندوحة لهم عن طلب الغذاء او يهلكون جوعاً ، عمدوا الى مـــاشيتهم – كما قدمنا – يستبدلونها بالتمر والملابس وغيرهما ، هذا الى ما يكسبونه في الغزو من ماشية ومتاع ومال ، وهذا مركب صعب ، لان القبيلة المسلوبة تعود تتربص الفرص للاخذ بثأرها ، فاذا كان لها ما تريد عمدت الى الخصم ، فاستردت ماشيتها منه ، واجتاحت مـاشيته ، ومثل هـذه الحالات كانت اكثر ما تكون وقوعاً في الجاهلية وقبل الاسلام .

وهذه الحياة القاسية الجديدة التي اخذ يتكلفها العرب ، بعد ان تبدلت الارض غير الارض في بلادهم ، لم يكن بطوقها ان تنشيء حضارة ثابتة الاركان باقيـــة الاثر ، لان الحضارة ثمرة من ثمرات الاجتماع في الحاضر ، وهي فيض جديد متواصل من عمل الانسانية عن حاجاتها المادية والمعنوية .

ولعل امتع فصول التاريخ العربي قبل الاسلام هـذا العراك الذي كان يدور بين العربي وبين الطبيعة وبين الحياة ، طبيعة قاسية ، قليلة الماء ، شديدة الحر ، كثيرة الرمال بعيدة الغور ، حياة لا ترحم الضعيف ولا تستكين للفقير وابن السبيل ، ظالمـــة لا تجود على ابنائها بشيء ، وتطلب منهم كل شيء ، وبينما كان غير العربي يمشي بين الانهار والجنان والوان الترف والخصب والامراع ، كان على العربي ان يركب الصحراء من اقصاها الى اقصاها ليتبلغ الاقـل من المشرب والاقل من الغذاء ، ثم ان حياته كانت نهباً مقسماً للقوي ايان اراد ، ولذلك عودته هذه الحياة القاسية ، ان يكون غنياً في خياله وحياته المعنوية ، وانت فيما ترجع اليه من اشعار العرب قبل الاسلام لا تجـد إلا حديث الشاعر عن نفسه ، وحربه وغزواته وكرمه وامجاده ونسبه ، واما غير ذلك من من الوان الفلسفة ونظم الحياة فقد تجدها عند الرومان وغير الرومان

من الامم الغابرة ، واما عند العرب في جاهليتهم فانك لا تجد شيئاً من هذا ، ولن تجدها الا عند افراد ارتبطت مصايرهم بمصاير بعض الامم المتحضرة فتعرفوا عندها على بعض الوان حياتها وما فيها من جمال وجدة وعمق .

ثم ان هذه الجماعات البدوية كانت تؤلف في عهد الجاهلية وبعد الجاهلية قبائل تنازع بعضها الرئاسة والزعامة والحياة ، وقد انقسمت هذه القبائل بدورها الى جماعات خلقت لنفسها انساباً ، وسواء أصحت هذه الانساب ام لم تصح ، فان مما لا شك فيه ان العرب كانوا يتناجزون لاجلها ، حتى اصبحوا ولكل قبيلة منهم عصبية خاصة لها ...
والثابت اليوم انه لما جاء الاسلام كان العرب يرجعون بانسابهم الى اصول ثلاثة :

مضر ، وربيعة واليمن وقد اخذ شعراء هذه القبائل وكل يفخر بنسبه وامجاد قبيلته ، يستغلون هذه الظاهرة السياسية والحزبية فتراها قوية الاثر بليغة الشأن في عهد بني امية والعباسيين والاندلسيين .

ولقد كان افراد القبيلة يتضامنون اشد ما كان التضامن ، ينصرون اخاهم ظالماً او مظلوماً ، يسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم . هذه حالة العربي مع اهله وابنه واخيه وابن عمه وافراد قبيلته فاذا تشعبت بطون القبيلة الواحدة تنافس افراد كل بطن في الشرف والثروة ووقفوا لبعضهم بعضاً بالمرصاد ، وقد يبلغ العداء اشده وتراق الدماء بسبب هذه المنافسة . والبدوي شجاع كريم وشجاعته تتجلى في تاريخه الماضي وفي كثرة من نازلهم وقاتلهم من الناس ، واما كرمه فيتجلى في نحر الجزور للضيف واعانة البائس الفقير وان يعطي اكثر مما يأخذ ، وان يغشى الوغي ويعف عند المغنم .

ولقد دعاهم الكرم ان يأكلوا كثيراً ويشربوا كثيراً وبلادهم مجدبة قليلة الانتاج فكان حقاً عليهم ان يتصلوا باهل الشام والعراق واليمن وهم اهل حضارة وزراعة ورخاء يستعينون بهم على جدب ارضهم وقسوة اقليمهم .

اما المرأة البدوية فكانت تشارك الرجل في كل شؤون الحياة تحتطب وتجلب الماء ، وتحلب الماشية ، وتنسج المسكن والملبس ، ولما كانت ضعيفة وكانت اذا سبتها قبيلة خصيمة انزلت العار بقبيلتها ، سقط مقامها وانحطت منزلتها ، وكانت بعض القبائل تكره النساء فاذا بشروا احدهم بالانثى ، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، وبعضهم كان يدفنها وهي حية .

تلك كانت حياة العرب قبل الاسلام عزلة وشقاء وفاقة ومحافظة على النسب والجار ، وانت لن تجد في شعر الجاهلية معنى اسمى من هذه الحماية وبذل النفس والنفيس في سبيلها ، واستعداء من يعتدي عليها ، كما انك لن تجد عند الجاهليين من دوافع الطبيعة غير الغزل والنسيب الرقيق ، الى ان صار فناً يفكر معه الاعرابي في محبوبته على انها امل يتخيله وشعلة تنير ما امامه .

ولقد استقامت للعرب حضارة سالفة ، فشا امرها في اليمن وغير اليمن ، وحدثنا عنها هيرودتس المؤرخ اليوناني بشيء كثير من الدهشة والاعجاب ، وامكن لهؤلاء القوم الذين كانوا تجاراً ينقلون متاجر المجاورين وغير المجاورين من الامم الى اقطار العالم حتى الهند ، والذين كانوا حماة للتجارة من غزو المعتدين ، ان يلموا بطرف من حضارات الجماعات التي كانت تقوم حولهم فيما بين النهرين وفينيقيا ومصر والشام وغيرها من الامصار التي استقامت فيها حضارة سالفة بعيدة المدى في

العمران رائعة المظاهر في سالفات الازمان .

ومما لا جدال فيه ان الارض في الجزيرة العربية اليوم غيرهـا في ماضيات الايام ، وانها في الماضي كانت اكثر خصباً ثم تناولتها النوازل الجغرافية بكثير من الجفاف حتى اصبحت جرداء قاحلة ، والعمران انما يقوم في الارض الخصبة وعلى الماء وضفاف الانهر والبحار ، فلا يعجبن القارىء بعد ذلك اذا تبدلت الارض غير الارض ، واذا تدنت الحضارة وانهار العمران فان هذه كلها من لوازم المواطن الخصبة والمياه الوفيرة .

اما اثر الحضارة في الادب العربي من نظم ونثر قبل الاسلام ، فمن الثابت اليوم ان العرب كانوا ينعمون بحياة شعرية ادبية رائعة ، وليس ادل على ذلك من شعر الشعراء الذين ما نزال حتى اليوم نردد شعرهم ونحفظ قصيدهم ، ونتغنى بمدائحهم ووصفهم . والشعر العربي في هـذا العصر الجاهلي ينعم بصفة خاصة لا مثيل لها ،وهي هذا الصدق والاخلاص في تصوير الوان الحياة تصويراً اقل ما يقال فيه انه ما يزال حتى اليوم اساساً لدراسة التاريخ العربي في الجاهلية ...

الشمال والجنوب

والجزيرة العربيـة الى ذلك تقسم الى قسمين ، جنوبي وشمالي ، فالشمالي اكثره بدو ، يسكن الحجـاز ونجد ، ويتكلم لغة القرآن الفصحى ، والجنوبي سكان اليمن وحضرموت والسواحل ، واكثرهم حضر وهم اول من تحضر في الجزيرة ، وانشأوا حضارة لا تزال آثارهـا قائمـة حتى اليوم ، وسبب ذلك قربهم من البحر ، وخصب بلادهم ، ووقوعها في نقطة الوصل بين الشرق والغرب .

واما عرب الشمال فلم يظهروا ظهوراً بارزاً في التاريخ الا بظهور الاسلام في ربوعهم .

ويقسم العرب انفسهم الى ثلاثة اقسام : عرب بائدة ، وعاربة ، ومستعربة ، فالبائدة كعاد وثمود ، وقد ذهب الدهر بهم ، وذكرت ثمود في الآثار المتحدرة الينا عن سرغون الثاني ، واما (عاد) فقد ظهرت في حضرموت وفشا امرها فيها ، واما العرب الذين بقوا بعد اندثار عاد وثمود ، فيقسمون الى قسمين ، عاربة ومستعربة ، والاولون عرب اليمن ، من ولد قحطان والمستعربة اولاد اسماعيل سكان الحجاز ، وقد سبق القحطانيون العدنانيون في الحضارة كما قدمنا .

العرب والحضارات المجاورة

وكذلك نرى ان الجزيرة العربية كانت تقع « جغرافياً » بين حضارتين : الحضارة المصرية والحضارة البابلونية ، ولا يجب استثناء الحضارة الهندية بسبب اتصال جنوبي الجزيرة بالهند عن طريق البنجاب والبحر ، واما اتصال جنوبي الجزيرة او اليمن بمصر وافريقيا فكان عن طريق صحراء سينا والبحر ، ما كان البحر هادئاً ، وكان سكان سينا على اتصال دائم مع مصر ، يصدرون اليها النحاس الاحمر الذي يستخرج من ارضهم [1] كما ان مصر كانت على اتصال تجاري مع اليمن لما فيها من الثروة الطبيعية ، خصوصاً اللبان ، والجلود والعاج والبخور وغيرها ، وزاد هذا الاتصال في عهد توتموث الثالث سنة ١٤٧٩ ق م .

واشتهرت حضرموت في هذا العهد بتجارة اللبان ، ولا تزال هذه التجارة رائجة فيها حتى الآن .

---

(١) كان النحاس يستخرج من مكان بالقرب من مدينة الطور الجديدة .

وكذلك اتصل الاشوريون وقبلهم البابليون بالبلاد العربية في فترات مختلفة قبل المسيح ، وفي الآثار الاشورية ما يدل على الزحوف التي كان يبعثها ملوكها لاقتحام بعض اطراف الجزيرة خصوصاً سورية ، وذلك في ايام تيغلث بيلسر الثالث ٧٤٥ - ٧٢٧ ق م. ، الذي هاجم سورية غير مرة ليحافظ على الطريق التجاري بين اشور والعراق وبين البحر المتوسط ، وفي عهد سرغون الثالث ٧٢٤ - ٧٠٥، الذي فتح كركميش والسامرة من اعمال فلسطين ، نجد اثراً يؤيد اخضاعه لقبيلة ثمود التي ورد ذكرها في القرآن، وكيف انه نقل البقية الباقية من هذه القبيلة العربية الى السامرة .

وفي عهد سنحاريب ٦٨٨ ق م، نجد اثراً اشورياً يدل على انه اخضع سكان (ادوم) دومة الجندل اليوم ، وحمل معه الى نينوى عاصمة اشور ، الاصنام والتحف والملكة نفسها .

وتذكر الآثار الاشورية كثيراً من امراء العرب الذين صار اخضاعهم ، وهذا يدل على ان القبائل العربية كانت تضايق الحاميات الاشورية في سورية بعد احتلال اشور لها ، مما كان يضطر ملوك اشور الى تجهيز الحملات العسكرية لاخضاع الثوار العرب ..

وفي عهد الفرس نرى قمبيز كسرى فارس (٥٢٥ قم) يتفق مع امراء العرب ومختلف القبائل ويهادنهم في طريقه الى مصر لاخضاعها ، خصوصاً وانه كان مجبراً على المرور في ارض عربية للوصول الى وادي النيل، ويقول هيرودوتس ان ملوك الفرس لم يوفقوا الى اخضاع العرب ابداً ، واما اليهود القدماء فاصلهم سامي من الجزيرة، على هذا يجمع اكثر المؤرخين وفي طريقهم الى فلسطين من مصر، حوالى سنة (١٢٢٥ق م) صرفوا اربعين سنة في صحراء سينا والنفود ، وفيها دعا موسى قومه الى عبادة

الله ، وتزوج امرأة عربية من اهل مدين ، ودخل اليهود فلسطين كجماعة من البدو ، وفيها بدأ اتصالهم بالكنعانيين سكانها السابقين ، ولما تمكن اليهود من فلسطين وفشا امرهم ، وامتد نفوذهم الى شبه جزيرة سيناء ، كان لسليمان النبي اسطول في العقبة ، وفي التوراة ما يدل على خلافات عسكرية انتظمت بين اليهود والعرب ، حاربوا العرب الذين حولهم وحاربوهم واتصلوا بهم ، حتى اذا ظهر اليونان ثم الرومان بعدهم ، وجدنا كتاب هذين الشعبين يتحدثون عن العرب على استقلالهم وحرياتهم ، كما يتحدثون عن ثروة بلادهم العظيمة .

ولما حاول الرومان ، وهم في اوج عظمتهم التقدم نحو الجزيرة بمساعدة انصارهم من عرب النبط ، سنة (٢٤ ق‌م) فشلت حملتهم وشتتها العرب ، وكانت غاية هذه الحملة التي خرجت من مصر ، الاستيلاء على الطريق التجاري الذي يسيطر عليه عرب اليمن .

وفي الآثار الرومانية التي بين ايدينا ما يدل على ان الرومان كانوا يطمعون بالذهب الموجود في بلاد العرب ، والذي كان يستخرج من الارض الواقعة بين مدائن صالح واليمن ...

- ٢ -

الحضارات العربية الاولى

السبائيون

كان السبائيون او اهل سبأ اول شعب عربي متحضر بعد مملكة معين عرفه العالم ، ذكرته المصادر اليونانية حوالى سنة ٢٨٨ ق م ،وكانت مواطنه جنوبي الجزيرة العربية في (اليمن) .

وساعد خصب الارض ، وقربها من البحر ، واتصالها بالهند ، على تحضرها ونموها وازدهارها ، واشتهرت اليمن بالبخور الذي يصدر من ارضها ، وبالجواهر الكريمة التي كانت تصلها من الخليج العجمي ، وبالصناعات الهندية خصوصاً السيوف التي كانت تردها من الهند ، وبريش النعام الذي كان يردها من الحبشة ، وبالحرير الذي كان يصدر اليها من الصين ، فكانت والحالة هذه محطة تجارية عالمية ،وطريقاً حسناً للمواصلات بينها وبين غيرها من البلاد القريبة والبعيدة ...

وكان اهل سبأ بوقوع بلادهم على البحرين الاحمر والهندي يمثلون دور الفينيقيين في البحر المتوسط ، سيطروا على تجارة البحر ، وركبوا غاربه ، ونقلوا بضائع الامم المختلفة على سفنهم من مكان الى آخر ، وكانوا في الالف الاولى قبل المسيح وحدهم في هذا الميدان لا يزاحمهم احد ، وليس لاحد عليهم سلطان .

وهم الذين اختطوا الطريق التجاري البري بينهم وبين سورية ، لصعوبة الاتصال بحراً بين اليمن وسورية ، وذلك بطريق مكة وبترا ، ومنها الى مصر وسورية والعراق ، كما انشأوا بعض المحطات التجارية

في هذا الطريق البعيد السحيق .

وكانت لغة السبائيين الحميرية ، وهي قريبة من العربية .

مملكة معين

واول مملكة ظهرت في جنوبي الجزيرة العربية هي مملكة (معين) التي ازدهرت بين سنة (١٣٠٠ — ٦٥٠ قم) ونشأت هذه المملكة في الجوف من اعمال اليمن ، بين نجران وحضرموت ، وكان الملك وراثيا ، ويذكر المؤرخون ٢٦ ملكاً من ملوك معين ، ويظهر ان مملكة السبائيين نشأت من مملكة معين ، او هي تتمة لها ، وكان اول ظهورها سنة ٩٦٠ قم ، وامتدت الى سنة ١١٥ قم ، واول ملوك سباء ، هم اواخر ملوك معين ، وبعد ثلاثة اجيال تمكن السبائيون من السيطرة والسلطان ، وورثوا مملكة معين ، والدور الاول لمملكة (سبا) ينتهي سنة ٦٥٠ قم ، ولا تزال لهذه الدولة آثار بالقرب من (مأرب) ، ومأرب تعلو عن سطح البحر ٣٩٠٠ قدم ، وكانت مركز التجارة ، واشتهرت بخزاناتها ، التي كانت تحفظ لها كمية وافرة من الماء لحين الحاجة اليه للري والزراعة ...

وتبتدي الدورة الثانية للملكة السبائية من سنة ٦٥٠ — ١١٥ قم ، ويظهر لنا في هذه الدورة انه قد نُزعت عن الملك فيها اثواب القداسة ، فبعد ان كان ملكاً زمنياً ودينياً ، اصبح ملكاً زمنياً فقط يطلق عليه لقب (ملك سبا) ، واصبحت مأرب العاصمة في هذه الفترة من الزمن ، وهي تبعد ستين ميلاً عن صنعاء الحاضرة ، وسباء اسم المملكة والارض لا اسم بلد معين ، وكانت هذه الدورة من ملكة سباء من اروع ما ظهر في بلاد العرب من حضارة رائعة قبل المسيح .

مملكة حمير

ثم ظهرت سنة ١١٥ ق م مملكة حمير ، التي عاشت حتى سنة ٣٠٠ ق م ومملكة حمير ورثت مملكتي ، معين وسبأ ، وهي فرع منها على الاكثر ، لان اللغة واحدة مع بعض التفاوت ، وكانت عاصمتها (زفر) و (زافار) تقع على طريق صنعاء ، وقد قامت مقام مأرب عاصمة سبأ ، و (كارتو) عاصمة معين ، ولا تزال آثارها ظاهرة حتى اليوم بالقرب من بلدة (بريم) المعاصرة .

ويظهر ان ملوك حمير كانوا اقرب الى الملوك الاقطاعيين في اول عهدهم ، يعيشون في الحصون ، ويملكون الارض ، ويضربون الدراهم باسمهم ، وكانوا تجاراً ينقلون محصولات بلادهم ، ومحصولات الهند ، وشرقي افريقية على الجمال من مأرب الى مكة فسورية فمصر ، واحياناً كانوا ينقلونها بحراً اذا كانت الاحوال الجوية ملائمة ، وكانت الرحلة تدوم سبعين يوماً .

والواقع ان جنوبي بلاد العرب ظل يحتفظ بسيطرته وحضارته ، ورخائه ، ما ظل طريق التجارة في البحر الاحمر بيد ابنائه ، فلما اخذت السيطرة تنتقل الى الرومان الذين بدأوا بالظهور والسيطرة على العالم ، واخذوا يبنون الاساطيل ، وينشئون المستعمرات ، ويعملون للسيطرة على الطرق التجارية ، خصوصاً بعد ان استولوا على سورية وفلسطين ، اخذت السيطرة العربية بالضعف والانحطاط ، ولما تمكن الرومان من طرق المواصلات البرية بين العراق والهند ، وبين سورية وفلسطين ، تراجع العرب امامهم ، ولكنهم ظلوا يسيطرون على الطريق البحري مدة من الزمن ، وذلك حتى القرن الاول بعد المسيح ...

ولما كثر الطلب على محصولات اليمن وجنوبي الجزيرة رفع اصحابها اسعارها ، كما رفعوا الجزية المفروضة على المحصولات التي تمر بارضهم ، مما حمل التجار الرومان في عهد المؤرخ (بليني) على الاحتجاج والتأفف من من الاسعار الشديدة التي يفرضها العرب على بضائعهم التي كانت رومية بحاجة اليها ، والتي كانوا يضطرون الى دفع ثمنها نقداً ، لان ما لدى رومية من المحصولات لم يكن يحتاجه العرب ، فلم يكن والحالة هذه من سبيل الى المقايضة ، ومن هذا الوقت كثرت الاشاعات عن ثروة العرب العظيمة ، وقد استفادت بترا ، وتدمر ، البلدتين العربيتين في اواخر عهد المملكة الحميرية من هذه السوق التجارية العظيمة التي كانت رائجة في بلاد العرب ، ومن وقوعهما على طرق التجارة العالمية ، ولكن ظهور (روما) قلب الموقف رأساً على عقب كما قدمنا ...

ولما قويت مصر في عهد البطالسة ، ورثة الاسكندر الكبير ، اخذت تزاحم العرب في طريق التجارة البحرية ، وتمكنت مصر من القضاء على تجارة المملكة الحميرية ، ولما استولت (روما) على مصر ، واخذتها من البطالسة حوالى منتصف القرن الاول قبل المسيح ، اتمت ما سبقت اليه مصر من مزاحمة العرب على تجارة البحر الاحمر ، ولما بدأت البواخر الرومانية تمخر عباب المحيط الهندي ، كان ذلك ايذاناً بانهيار زعامة العرب في التجارة البحرية ..

وحوالى سنة (٣٠٠) ب م ، نجد اسم ملوك جنوبي الجزيرة يكتب كما يأتي : ملك سبأ ، ورغدان ، وحضرموت ، واليمن ثم ضمت اليها تهامه ، مما يدل على ان كل هذه البلاد كانت تحت سيطرة ملك عربي واحد ...

والواقع ان الآثار التي بين ايدينا تدل على ان مملكتي معين وسبأ قد نعمتا بجانب عظيم من القوة والثروة والحضارة ، وان سكان المملكتين قد اشتهروا بالتجارة ، وسيطروا على طرق المواصلات البرية والبحرية في عهدهم ، وامتدّ نفوذ الدولتين التجاري من الهند الى مصر ، ومن جنوبي الجزيرة العربية الى غزة من اعمال فلسطين .

ويتحدث لنا نولدكه المستشرق الالماني ، وفاقاً لما شاهده من الحفريات والاثار ، عن الحضارة العربية الرائعة التي قامت في اليمن منذ الالف الثانية قبل المسيح ، واذا كان يصعب علينا وصف هذه الحضارة بالتدقيق ، فان بقايا المباني الفخمة والنقوش الكثيرة ، التي لا تزال قائمة الى يومنا هذا تشهد بان الحضارة التي قامت في اليمن حضارة عجيبة .

ولقد اشتهر في اليمن مملكتان – بعد مملكة معين – سبأ وحِمير ، وكان سبب حضارة هاتين المملكتين ان اليمن كانت بلاداً زراعية خصبة تصلح للاعمار والانتاج ، وانها كانت واقعة على البحر ، وكان اليونان والرومان على معرفة بهذه الحضارة ، وشهدوا لها بالثراء والتمدن ، ولكن معلوماتهم كما يظهر كانت قليلة محدودة ، واما التوراة فقد تبسطت اكثر من الكتاب اليونانيين والرومانيين عند زيارة ملكة سبأ لسليمان النبي ، فان ما ظهرت به هذه الملكة من فاخر الثياب وثمين الحلى ، وما اهدته الى سليمان من الهدايا الثمينة يدل على حضارة مملكة بلغت درجة عظيمة في الترف والرخاء .

ويظهر ان اهل سبأ كانوا اصحاب ثروة كبيرة ، وانهم جمعوا ثروتهم هذه من احتكارهم التجارة في الجزيرة في ذلك العهد السحيق ، خصوصاً

المواد العطرية كالبخور الذي كان كثير الاستعمال في الهياكل والمعابد في مصر والحبشة وغيرهما، وقد ذكرت التوراة هذه العطور خصوصاً البخور والذهب والحجارة الثمينة كأنها من الاشياء التي اشتهر بها اهل سبأ .

وفي الآثار التي وجدت في الحجاز ما يدل على انه كان لسبأ محطات تجارية خارج بلادهم ، ومن المؤكد انهم اثروا كثيراً بحضارتهم على البلاد العربية القريبة منهم ، والبلاد التي كانت تمرّ بها قوافلهم .

ولكن الثابت اليوم ان هذه الحضارة اليمنية لم تخرج من بلاد العرب ، ولم ينعم بها غير العرب انفسهم .

انهيار الحضارة

اما ما يقال من ان سبب انهيار الحضارة اليمنية يرجع الى انهيار سد مأرب ، فرأي فيه كثير من الغلوّ ، لأنه يصعب علينا الايمان بان انهيار السد كان كافياً لانحلال هذه المملكة المتحضرة .

ثم ما كان يمنع اهل اليمن من اعادة بنائه كما فعلوا قبلا ، ولكن الرأي الصواب ان اهل اليمن اصيبوا بالانحطاط قبل انهيار السد بزمن بعيد، واخذ عدد كبير من اهلها بالمهاجرة الى الجهات الاخرى من جزيرة العرب ، وكان من اثر ذلك ان خفت العناية بالسد ، واهمله المتوكلون بشأنه ، فتصدعت جوانبه ، ولم يعد يحتمل هجمات السيول والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه ، فهوى وتدفقت المياه على ما حوله من القرى والمزارع فأتلفتها ، وكان ذلك في عهد احتلال الاحباش لليمن بين سنة ٥٤٢ و ٥٧٠ ب م .

وقد ساعد سكان اليمن من سبا وحمير ذلك الخصب الذي امتاز به هذا الجزء الذي كانوا يحتلونه من بلاد العرب على الاستقرار، كما انه كان

لتجارتهم الواسعة النطاق مع مصر وسورية وبابل والحبشة اثر كبير في تدفق الثروة عليهم، واما ما بلغته مدن سبا من الخطر والحضارة فتؤيده هذه الاخبار المستفيضة عن اواني الذهب والفضة، واعمدة الرخام والهياكل العديدة، مما لم يشهد العالم القديم مثله، كما ان القناطر التي اقاموها على الاعمدة لايصال مياه الشرب الى المدن تدل على براعة ومتانة في البناء، ومهارة في فن العمارة ومعرفة تامة بنظام الري.

باقيس

ومن اشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ، وقد زاوت سليمان الحكيم وذكرها القرآن الكريم، ومن تخوفها من سليمان – ومملكة سليمان لم تتجاوز فلسطين – ما يدل على ان مملكة سبأ لم تكن واسعة الارجاء عديدة الجنود، وان اهلها كانوا رجال تجارة وعمارة لا رجال حرب وسلاح. وبين سنة ٣٤٠ – ٣٧٩ ب م استولى الاحباش على اليمن، ثم عاد بعدها ملوك حمير الى الحكم، وظلوا حكام البلاد الى حوالى سنة ٥٢٥ ب م، ولم تكن هذه المرة الاولى التي غزا فيها الاحباش بلاد العرب، فقد سبق لهم ان سيطروا مدة من الزمن على بعض انحاء اليمن وسواحله.

وفي اواخر عهد المملكة الحميرية دخلت المسيحية واليهوديه اليمن، وكان السكان يعبدون القمر والنجوم قبلًا، فلما استقام امر المسيحية فيها انشأوا بعض الكنائس خصوصاً في نجران.

وكذلك دخلت اليهودية اليمن، وانتشرت فيها في عهد مملكة حمير الثانية، ويظهر ان اليهودية دخلت الى بلاد العرب بعد ان دمر تيطس الروماني القدس سنة ٧٠ ب م، فهرب بعض اليهود الى شمالي

الجزيرة ، ونزل بعضهم في جنوبها ، ثم اخذوا مع الايام يبسطون سلطانهم ، تجارة اولاً ثم سياسة وحكماً حتى ان آخر ملوك حمير وهو (ذونواس) اعتنق اليهودية [١] ، ولما كانت المسيحية تؤيدها الحبشة ، والحبشة عدو سياسي لليمن ، فقد اضطهد ذونواس المسيحيين واحرقهم بالنار سنة ٥٢٣ ، فاستنجد المسيحيون بالقسطنطينية ، فطلب جوستينيان امبراطور الدولة البيزنطية من نجاشي الحبشة غزو اليمن ، فارسل هذا قوة من جنده بقيادة ارباط القائد ، فمشى هذا اليها ، وغلب على اليمن ، وقتل (ذونواس) وانهارت دولة حمير بعده ، وضاع سلطان اليمن السياسي .. [٢]

ثم خلف ابرهة الحبشي ارباط في حكم اليمن ، وظل الاحباش في بلاد العرب من سنة ٥٢٥ الى ٥٧٥ بعد المسيح

وفكر ابرهة في بناء هيكل في صنعاء يصرف به الحجاج عن مكة ، ثم غزا مكة لهدم الكعبة والقضاء على الوثنية فيها ونشر المسيحية ، فلم يوفق وارتد مدحوراً ٥٧١ - ٥٧٤ ، وفي عهد الاحتلال الحبشي انهار سد مأرب وذلك بين سنة ٥٤٢ - ٥٧٠ قم ، ولقد تصدع السد قبلاً ، فصار اصلاحه كما يظهر ، ثم تصدع نهائياً ...

ولما تصدع السد في المرة الاولى ، هاجرت قبيلة بني غسان الى حوران واستوطنت فيها ، كما هاجر بنو لخم الى العراق ، واسسوا دولة المناذرة اللخميين ، وكانوا انصار الفرس ، كما كان الغساسنة انصار الرومان البيزنطيين .

---

(١) لا يزال يعيش حتى اليوم في اليمن عدد من اليهود .

(٢) ولا يزال يوجد حتى اليوم قبيلة من حمير بالقرب من عدن حيث كانت مواطن المملكة السابقة .

ولكن الروح القومية لم تمت في اليمن باحتلال الاحباش لها ، فما عتم ان ظهر فيها سيف بن ذي يزن من العائلة المالكة الحميرية ، وبمساعدة كسرى الفرس تمكن من طرد الاحباش ، وملك اليمن وارضها ، وفرض كسرى على سيف بن ذي يزن جزية وخراجاً يؤديهما اليه في كل عام ، وانتهى امر سيف في اليمن بان قتله حبشي فاستقل الفرس بالحكم بعده في اليمن . وظل امر اليمن على هذا الحال حتى سنة ٦٨٨ حيث تقبل الاسلام آخر حاكم فارسي على اليمن ، وهو (باذان) وبظهور الاسلام انتقل السلطان السياسي في الجزيرة العربية من الجنوب الى الشمال او من اليمن الى الحجاز .

الحضارة والعمران في شمالي الجزيرة

ولقد ظهرت في شمالي سورية قبل الاسلام ممالك صغيرة لم تنل حظاً مذكوراً من الخطورة الحربية والاثر السياسي ، ولكنها نالت حظاً من التجارة والتبسط في العمران ، وانشاء المدن ، واقامة المباني الفخمة والآثار العجيبة ، إلا تدمر التي وفقت توفيقاً حسناً في الوقوف بوجه رومية ، واقتحام بعض املاكها واطرافها ، ولكن هذا لم يدم طويلاً فما عتمت رومية ان استرجعت ما أخذ منها ، وما عتمت ان قضت على تدمر ودمرتها ...

فاذا كان القرن الرابع قبل المسيح ، فاننا نجد قبيلة عربية من النبط في ضواحي فلسطين ، وعاصمتهم (بترا) في وادي موسى من اعمال شرقي الاردن اليوم ، وفي الآثار التي بين ايدينا ما يدل على ان الانباط قد استولوا اولاً على ارض الادوميين ، كما استولوا على بترا ايضاً ، والادوميون قبيلة يهودية ، واما بترا فكانت منذ اواخر القرن الرابع

قبل المسيح مركزاً تجارياً ممتازاً يقع في الطريق التجاري بين صبا والبحر المتوسط .

واول ما نعرفه عن الانباط انهم كانوا على جانب من القوة والبأس حول سنة ٣١٢ ق م ، بحيث استطاعوا مقاومة القوة السورية التي ارسلها عليهم احد قواد الاسكندر الكبير ، الذي استقل بسوريا بعد وفاة الاسكندر ، ويظهر ان الانباط كانوا تحت حكم البطالسة في مصر ، او انهم كانوا يؤيدونهم سياسياً ، ثم اصبحوا انصاراً لرومية ، وساعدوها في الهجوم الفاشل الذي قامت به على الجزيرة العربية ولم توفق كما قدمنا ، وكان الهجوم بقيادة (كالوس) القائد الروماني ، وذلك في سنة ٢٤ ق م.

ووصلت مملكة النبط الى اوجها في عهد الحارث الرابع ٩ ق م — ٤٠ ب م وكانت تمتد في عهده حتى دمشق ، وقد استخلصوها من ايدي السلوقيين ورثة الاسكندر ، سنة ٨٥ ق م تقريباً ، وظلت هذه المملكة العربية حرة مستقلة استقلالاً ذاتياً حتى سنة ١٠٥ ب م ، حين قضى عليها الامبراطور تراجار الروماني ، واصبحت مستعمرة رومانية .

والظاهر ان الرومان بعد قضائهم على مملكة الانباط منحوا (بترا) نوعاً من الاستقلال الذاتي ، لتكون سداً في وجه المملكة البارثية التي كانت تحاول السيطرة على الطريق التجاري الممتد من البحر المتوسط ، وكانت بترا كما قدمنا محطة تجارية من الطراز الاول ، فيها تستقر القوافل ، وتبدل الحبول ، كما يصار في اسواقها الى التجارة والمبادلة .

وفي المائة الاولى بعد المسيح نجد اسماء امراء واشراف من العرب في تدمر والرهاء وادسا — اورفه — وغيرها ، والآثار الكثيرة التي وجدت في تدمر تدل على ان اكثرية سكان هذه البلدة التجارية العظيمة كانوا

عرباً، ويظهر انه في اثناء انحلال المملكة السلوقية اخذ العرب يسيطرون على هذه المدن التي وجدت فيها آثار عربية كثيرة ، ولا يبعد ان يكون بعض امرائهم قد استقلوا بها ولو ردحاً من الزمن قصير ..

ومن المؤكد لدينا اليوم ان كثيراً من القبائل العربية سكنت سوريا في العهد الروماني ، وقد استعمل هؤلاء العرب اللغة الآرامية في كتاباتهم ، لان العربية لم تكن تعتبر في ذلك الوقت لغة صالحة للكتابة والتجارة . .

تدمر

وبتقدم المواصلات ، وازدياد الحاجة الى محطات تجارية في الطرق التجارية الكبرى ، ظهرت مدينة جديدة في سماء السياسة العربية ، وهي مدينة تدمر ، التي لا تزال آثارها مدعاة للاعجاب والاكبار والاجلال .

ولما كانت تدمر واقعة بين الرومان والمملكة البارثية فقد رغبت في حفظ التوازن بين الدولتين ، واخذت بسياسة الحياد للوصول الى هذه الغاية .

وتدمر هذه مدينة قديمة كما يظهر ، لانها مذكورة في الآثار الاشورية منذ سنة ١١٠٠ ق م ، وبين سنة ٣٨ ق م – ١١٧ ب م ، اصبحت تدمر مملكة تابعة لرومية ، وزارهـا الامبراطور هدريان سنة ١٣٠ ب م ، وحوالى القرن الثالث الميلادي نرى تدمر مملكة مستقلة استقلالاً اداريا مع دخولها ضمن النفوذ السياسي الروماني ، وما كان الرومان ليجهلوا اهمية هذه المدينة من الوجهتين السياسية والتجارية ، وقد كانت طريقهم من دمشق الى العراق .

وبين سنة ١٣٠ – ٢٧٠ ب م بلغت تدمر اوج عظمتها ، وآثارها

ترجع كلها الى هذا الوقت ، ووصلت تجارتها العالمية الى الصين ، واخذت مكان بترا ، واحتلت المكان الارفع في العالم القديم .

ولم يُظهر سكان تدمر شيئاً من المواهب الحربية الا في عهد (اوذينة) سنة ٢٦٥ بم ، الذي اخرج شابور الاول امبراطور الفرس من سورية ، وكان الفرس قد حلوا محل المملكة البارثية على حدود تدمر الشرقية ، وكان شابور قد اسر الامبراطور فاليريان الروماني واستولى على قسم كبير من سورية ، وظل اوذينة يتأثر شابور حتى ابواب عاصمته المداين ، وفي معركة سابقة ايد اوذينة الرومان ضد الفرس ، فأعطاه الرومان لقب نائب الامبراطور في الشرق ، ومعنى هذا انه كان حاكماً عسكرياً على آسيا الصغرى ومصر وسورية وشمالي الجزيرة العربيـــة ، وبعض ارمينيا ، وفي سنة ٢٦٦ — ٢٦٧ ب م ، قُتل اوذينة ونجله الاكبر في حمص ، ويقال ان الرومان هم الذين دفعوا القتلة الى الجريمة ، لما اوجسوا شراً من ازدياد نفوذه ، وتعاظم شأنه .

زينب

فقامت مقام اوذينه في حكم البلاد زينب العربية امرأته ، وبرهنت على انها خير خلف لخير سلف ، وحكمت باسم ابنها الصغير ، (وهب اللات) واسمت نفسها ملكة الشرق ، ووقفت في وجه الرومان في غير معركة ، وتمكنت من اخضاع مصر وبعض آسيا الصغرى لسلطانها ، وطاردت القوات الرومانية حتى انقره ٢٧٠ بم ، وفي سنة ٢٧١ استولت على الاسكندرية ، ثاني مدينة في العالم ، وحكم ابنهـا مصر ، وصك النقود باسمه ، بعد ان حذف صورة اورليان الامبراطور الروماني منهــا ، واخيراً تحرك اورليان ، وفي المعركة التي وقعت قرب حمص ، تمكنت

الجيوش الرومانية من كسر الجيوش التدمرية، وفي ربيع سنة ٢٧٢ ب م دخل اورليان تدمر ، ففرت زينب من وجهه الى الصحراء ، فادركها رجاله واسروها ، وبينما اورليان في طريقه الى عاصمته ثارت تدمر على رجاله ، فعاد اليها وهدم اسوارها ومنازلها ، فضعف شأنها ، وانهار سلطانها ، وكان ذلك آخر عهد اهلها بالسؤدد والمجد والسلطان ، اما زينب فانها اخذت الى رومية حيث ماتت فيها .

وكانت الحضارة التدمرية مزيجاً من مختلف الحضارات المعروفة في ذلك العهد لوقوعها على طرق التجارة العالمية كما قدمنا ، وكان اهلها يعبدون الاوثان ويقدسون الشمس والنجوم كما كان حال ابناء عمهم من سكان جنوبي الجزيرة .

غسان

وبسقوط تدمر انتقل طريق التجارة العالمية الى بصرى ، من اعمال حوران فاستفادت مدن الغساسنة الواقعة في هذه المنطقة من سقوط تدمر ، كما استفادت تدمر قبلاً من سقوط بترا .

وكذلك نرى كيف ان بلاد العرب كانت طريقاً تجارياً عالمياً يجمع بين الشرق والغرب ، لأن العرب لم يكونوا امة منعزلة عن العالم كما يتصور بعض المؤرخين ، بل كانوا امة عملت اكثر من سواها على تقريب المواصلات بين الهند والعراق وفارس وجزيرة العرب وبين مصر وسورية والبحر المتوسط .

وكان في بلاد العرب طريقان عظيمان للتجارة بين الشام والمحيط الهندي ، احدهما يسير شمالا من حضرموت الى البحرين على الخليج الفارسي ، ومن ثم الى صور على البحر المتوسط ، والثاني يبدأ من

حضرموت ايضاً ، ويسير محـاذياً البحر الاحمر متجنباً صحراء نجد وهجيرها ، ومتجنبـاً هضاب الشاطىء ووعورتها ، وعلى هـذا الطريق تقع مكة .

ولما انهار سلطان اليمن قبض على ناصية التجـارة عرب الحجاز ، وعرب الشام ، وعرب العراق ، اي ان تجارة اليمن تقطعت بين القبائل في شمالي الجزيرة ، فكان الحجازيون يشترون السلـع من اليمنيين والحبشيين ثم يبيعونهـا على حسابهم في اسواق الشام ومصر ، دون فارس ، لان اسواق فارس كانت بيد عرب الحيرة من سكان العراق ، وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم ، كما جعل عرب الشام بصرى ، وعرب العراق الحيرة ، ووضع عرب مكة الطريق التجاري تحت حمايتهم وعلى تجـارة مكة كان يعتمد الروم في كثير من شؤونهم ، حتى فيما يترفهون به كالحرير مثلاً .

وكان التجار يخرجون بتجارتهم قوافـل عظيمة ، وقد تبلغ القافلة خمسمائة والف بعير ...

وكان عرب الحيرة يتعهدون بحماية قوافل التجارة الفارسية عنـد مرورها في بلاد العرب مقابل مبلغ من المال يأخـذونه من الفرس ، ويقال ان الفرس استكثروا مرة هذا الجعل فابوا دفعه ، فهاجم العرب قافلة فارسية وهزموا حماتها ، وكان من اثر ذلك يوم ذي قار ، وبه تغنى الشعراء وعدوه نصراً للعرب على الفرس ...

وكانت القوافل التي تذهب من بـلاد العرب الى الشام تنزل في اسواق معينة عينتها لهم الحكومة الرومانية لتحصيل الضرائب المفروضة كما يظهر ، وكانت هذه القوافل اول ما تنزل في البلاد الرومانية تنزل في (ايلة) – العقبة – ومنها تذهب الى غزة ، وهناك تتصل بتجـار

البحر الابيض ومن غزه يذهب بعض التجار الى بُصري .

والغساسنة قبيلة من أزد اليمن قدموا الى حوران والبلقاء لما بدأ سد مأرب بالتصدع ، وذلك في اواخر القرن الثالث المسيحي ، ونزلت هذه القبيلة في مواطن قبيلة عربية سبقتها ، وهم الضجاعمة ، واخذوا مكانهم في الجنوب الشرقي من دمشق على شمالي الطريق التجاري الذي يربط مأرب بدمشق ، ثم تنصروا مع الايام ، وتعلموا اللغة الارامية السورية ، دون ان يفقدوا لسانهم العربي ، وفي اواخر القرن الخامس المسيحي خضعوا لنفوذ الامبراطورية البيزنطية السياسي ، ووقفوا سداً منيعاً بين الولايات الرومانية والقبائل العربية التي كانت تغزوها من حين الى آخر .

ويظهر ان عاصمتهم لم تكن مستقرة في مكان واحد ، ففي الشعر العربي القديم ما يدل على ان الجابيه ، وجُلق وحليمه بالقرب من دمشق كانت عواصم لهم . ووصلت مملكة الغساسنة الى اروع ايامها ، وابهى سلطانها في القرن السادس المسيحي ، وكذلك كان حال مملكة الحيرة مناظرتها ، ففي هذا القرن سيطر الحارث بن جبلة الغساني ٥٢٩ – ٥٦٩ ، والمنذر الثالث بن ماء السماء العراقي ٥٥٤م ، على السياسة العربية فكانا فيها ملء السمع ملء البصر ، ولما تمكن الحارث الغساني من كسر شوكة مناظره اللخمي المنذر سنة ٥٥٤ م ، عينه الامبراطور جوستينيان اميراً على القبائل العربية في سورية واعطاه لقباً هو الثاني بعد لقب الامبراطور نفسه في الامبراطورية البيزنطية . وكان سبب الحرب بين الملكين العربيين النزاع على الاراضي الممتدة على جانبي الطريق الحربية من دمشق الى ما بعد تدمر .

وقد صرف الحارث حياته يحارب في سبيل الرومان البيزنطيين ، وسافر الى القسطنطينية ، واستصدر من الامبراطور امراً بتعيين المطران

يعقوب وهو من الرها رئيساً دينياً للعرب السوريين، واليه ينسب اليعقوبيون اصحاب المذهب اليعقوبي ، وخلف الحارث ابنه المنذر الذي اختلف مع القسطنطينية على المذهب اليعقوبي ، الذي كان يؤيده وتعارض فيه العاصمة ، وفي سنة ٥٨٠ م زار القسطنطينية مع ولديه في عهد تيبريوس الثاني ، واستقبل فيها استقبالاً حافلاً ، وفي هذا العهد ايضاً حارب ملوك الحيرة ، واحرق عاصمتهم ، ولكن هذا كله لم يمنع القسطنطينية من القبض عليه واساءة الظن به وسجنه ، ولما حاول ابنه النعمان الثورة كان مصيره مصير والده .

وبعد المنذر والنعمان بدأت مظاهر الضعف تغمر مملكة الغساسنة ، واخذت القبائل العربية التي كانت تحت نفوذها تستقل عنها الواحدة بعد الاخرى، ولما زحف الفرس على البلاد السورية في عهد خسرو امبراطور فارس ، واستولوا على دمشق والقدس ٦١٣-٦٣٤ قضوا على الغساسنة القضاء التام ، ولا يعرف بالتحقيق فيما اذا كان هراقليوس بعد انتصاره على الفرس قد اعاد الى الغساسنة عزهم وامجادهم ، ولكن مؤرخي العرب يقولون ان جبلة بن الايهم كان آخر ملوكهم او امرائهم ، وانه حارب مع الروم في معركة اليرموك ، سنة ٦٣٦، ويقولون انه اسلم بعد ذلك ، ثم ارتد عن الاسلام لما اراد عمر بن الخطاب معاقبته لانه لطم عربياً وطيء فضل ازاره ، وهرب الى قيصر ومات في القسطنطينية سنة ٢٠ للهجرة .

وقد وصل الغساسنة في عهد الرومان الى درجة حسنة من العمران والحضارة ، وسبقوا ملوك الحيرة في حضارتهم وعمرانهم ، وكانت حضارتهم مزيجاً من الثقافات والحضارات المعروفة في عهدهم فهي حضارة رومانية سورية عربية يونانية في وقت واحد ، وترك الغساسنة من بعدهم

آثاراً عديدة ، منها القصور المختلفة ، واقواس النصر ، والحمامات العامة ، والدور ، والكنائس والمراسح ، حتى حوران نفسها لا تزال تحوي الى اليوم ما يقرب من بقايا ثلاثمائة مدينة ، ليس فيها اليوم منها إلا اقلها .

وكان ملوك الغساسنة من الادباء الذين يتذوقون الشعر ويجيزون الشعراء ، فوفد عليهم لبيد والنابغة وحسان بن ثابت ، وأحسنوا اليهم ، واجازوهم .

ملوك الحيرة

ولقد عودتنا القبائل العربية ان تترك مواطنها في الجزيرة ما كان الى ذلك سبيل ، خصوصاً اذا خافوا إملاقاً ، او احسوا جدباً وفقراً ، فلما اخذت بلاد اليمن بالانحطاط اخذ اهلها يهاجرون الى ارجاء البلاد العربية ، فسار ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز ، وانتهى الى المدينة فغلب اهلها وكان اكثرهم من اليهود ، وسار حارثة بن عمرو — وهو من خزاعة — بمن معه فاقتحموا الحرم واجلوا عنه سكانه من جرهم وهم من اليمنيين ، وسار عمران بن عمرو نحو عمان واستوطنها ، وهم ازد عمان ، وسار جفنة بن عمرو الى الشام ، وهو ابو الملوك الغساسنة ، ومنهم قبيلة لخم بن عدي الذين منهم نصر بن ربيعة ابو الملوك المناذرة بالحيرة ، ومنهم طيء الذين نزلوا الشمال الشرقي من المدينة المنورة ..

وكذلك تفرقت القبائل اليمنية واحتلت اخصب بقاع جزيرة العرب .

والارجح انه حوالي القرن الثالث المسيحي نزلت (قبيلة من تنوخ) ادعت انها قدمت من اليمن في ارض العراق ، ونصبت خيامها الى جنوبي الفرات ، ولعل هذا كان حوالي سنة ٢٢٦ ، لما انهارت الامبراطورية البارثية ، وقامت الامبراطورية الفارسية مقامها ، وعاش التنوخيون

اول امرهم في الحيم ، ثم استقروا في مدينة اسموها الحيرة، وهي تبعدثلاثة اميال جنوبي الكوفة، وكانت في ارض خصبة تمر بها فروع من نهر الفرات وكان سكان الحيرة باكثريتهم من المسيحيين النسطوريين، ويرجع الدروز بانسابهم الى بني تنوخ ، وقد هاجروا الى جبل الدروز ولبنان لاجيال خلت ، لا نستطيع التأكد من تاريخها بالضبط والتحقيق .

وكانت الدولة الفارسية بعد الهزيمة التي منيت بها جيوشها في عهد الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ ق م ، قد اصبحت دويلات صغيرة يحكمها ملوك يعرفون بملوك الطوائف وقد اتبع الاسكندر سياسة التجزئة هذه في بلاد فارس حتى لا تهـــدد هذه الدولة بعده الدولة اليونانية الناشئة ، واستمر ملوك الطوائف يتولون حكم بلاد فارس الى سنة ٢٢٦م حتى نبغ فيهم اردشير بن بابك مؤسس الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان او الاكاسرة ، واستمر في الحكم الى سنة ٢٤١م فوحـــد كلمة الفرس في عهده ، كما اعاد الى سلطانه الاراضي العربية المتاخمة لبلاده ومنها الحيرة والانبار ، ومنحها الاستقلال الذاتي واقامها سداً بينه وبين الروم ، واحلافهم من الغساسنة على الحدود الفارسية البيزنطية .

وقد نشأت دولة الحيرة كما قدمنا في القرن الثالث الميلادي، واستمرت الى ظهور الاسلام ، وكان لاهلها اثر كبير في الحضارة العربية، فعززوا التجارة في انحاء الجزيرة العربية واشتهروا بتعليم القراءة والكتابة فساعدوا بذلك على نشر العلوم والمعارف ، كما ساعدوا على نشر النصرانية في بلاد العرب لما اعتنق بعض ملوكهم الدين المسيحي ، وكانوا الى ذلك اي اهل الحيرة همزة الوصل بين الحضارة الفارسية والعرب .

واول ملوك الحيرة ، عمر بن عدى بن نصر بن ربيعة بن لخم ، واخبار

بمملكة الحيرة وتطورها من هـذا التاريخ الى ظهور الاسلام معروف متوفر ، كما نعرف اسماء خمسة وعشرين ملكاً من ملوك الحـيرة ، من اشهرهم النعمان الاول الملقب بالاعور ، وهو الذي بنى الخورنق القصر المشهور على مقربة من الحيرة ، لينزله بهرم غور ابن يزدجرد الاول ٣٩٩-٤٢٠م الذي اراد ان ينشأ ولده في البادية ، والخورنق قصر مشهور اسبغ عليه الشعراء كثيراً من الاجلال والجمال والروعة ، وظل النعمان طيلة حياته وثنياً ، وفي فترة من الزمن راح يعذب المسيحيين وينتقم منهم ، ثم تبدل بعد ذلك واعتدل ، ثم بنى السدير وهو قصر آخر جميل اقامه بين سوريه والحيرة في الصحراء ، وفي ايام النعمان خليفة المنذر الاول ٤١٨-٤٦٢م لعبت الحيرة دورها السياسي الخطير في التاريخ العربي قبـل الاسلام ، واستطاع النعمان ان يحمل كهنة فارس واشرافها على مبايعة بهرام لعرش فارس دون غيره من المنافسين .

وفي سنة (٤٢١) حارب الامبراطورية البيزنطية مع الفرس ، وفي اوائل القرن السادس المسيحي حكم الحيرة المنذر الثالث بن مـاء السماء ٥٠٥-٥٥٤م وكان من رجال الحرب المعدودين ، حارب الروم غير مرة ووصل الى انطاكية حتى رده عنها الحارث الغساني .

واما ابنه وخليفته عمر بن هند ٥٥٤-٥٦٩ فقد كان عاسفاً قاسياً ، وشعراء الجاهلية يذكرونه كثيراً ، وهو صاحب طرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، وقد لقي نهايته على يد عمرو بن كلثوم الشاعر ، لانه اهان والدته ، وحاول تحقيرها .

وانتهت مملكة الحيرة بالنعمان الثالث «ابو قابوس» ٥٨٠-٦٠٢ م ابن المنذر الرابع ، وهو صاحب الشاعر النابغة الذبياني ، واعتنق المسيحية ، وهو اول من اعتنقها من ملوك الحيرة ، ونقم عليه كسرى فحبسه ومات

في حبسه ، ولم تبلغ الحيرة من العظمة والجلال في العمران ما بلغته بترا وتدمر ومملكة الغساسنة ، وكان سكانها يتكلمون العربية ، ويكتبون السريانية ، كما كان يفعل الانباط وسكان تدمر قبلهم ،الذين كانوا يتكلمون العربية ، ويكتبون بالارامية ، ومن المؤكد ان الحيرة كانت ذات اثر بليغ على العرب الرحل في عهدها ، ويقال ان قريشاً نقلت بعض عباداتها الوثنية عن الحيرة ، ومنها تعلمت الكتابة ، وكان سكان الحيرة يجوبون الارض للتجارة ، واشتغلوا بتعليم القراءة والكتابة ، وكانت علاقاتهم مع فارس اقرب الى نظام المحالفات منها الى شيء آخر ، وكانوا ينعمون باستقلالهم الداخلي ، ولكن كسرى فارس كان ينعم بصلاحية اختيار الملك من قبيلة لخم ، واذا مات الملك عين من يختاره من اهل بيته .

وحلّ الضعف بالمناذرة قبل عهد ابي قابوس ووفاته في سجن كسرى ، وكان للحروب التي توالت بين الفرس وقياصرة القسطنطينية اكبر الاثر في اضعافهم ، لاضطرارهم الى موالاة الفرس في الحروب المذكورة ، وكانت اول الحوادث التي نزلت بالمناذرة هزيمة المنذر بن ماء السماء وقتله على يد الحارث بن ابي شمر الغساني في موقعة مرج حليمة ، سنة ٥٥٤ م ، ثم هزيمة ابنه وقتله على يد المنذر بن الحارث الغساني سنة ٥٧٠ ، ثم تلى ذلك تنازع اولاد المنذر على العرش ، ولما استتب الامر للنعمان بن المنذر غضب عليه كسرى وقتله كما ذكرنا ، ثم اقام مكانه ياس بن قبيصة خلفاً للنعمان على بلاد الحيرة ، ولم يكن من اهل بيت الملك ، واشرك معه رجلاً فارسياً في الحكم .. وبذلك ضاع استقلال المناذرة ، وظل الحال على هذا المنوال حتى زحف العرب على العراق بقيادة خالد بن الوليد ، واستولوا على الحيرة سنة ٦٣٣ .

وكان من اثر هذا الضعف الذي تولى بمملكة الحيرة ان نشبت حرب

(ذي قار) بين إياس بن قبيصة حاكم الحيرة وتأييد الفرس، وبعض العرب من طيء وبهراء واياد وتغلب والنمر، وبين العرب من بني شيبان في جموع من بكر، فكان النصر للعرب ودارت الدائرة على الفرس وانصارهم .

وفي يوم ذي قار يقول ابو تمام الشاعر يمدح ابا دلف الشيباني :

اذا افتخرت يوماً تميم بقوسها وزادت على ما وطدت من مناقب
فانتم بذي قار امالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

ملوك كندة

وهناك مملكة عربية اخرى، وهي مملكة كندة، كانت تقف من اليمن موقف غسان من الروم، والحيرة من الفرس، وكان مواطنها في وسط جزيرة العرب .

ومن المؤكد ان كندة ترجع بانسابها الى قبائل جنوبي الجزيرة وكانوا يسكنون حضرموت، ولكن هذه القبيلة القوية لا تذكر في الآثار القديمة قبل القرن الرابع المسيحي، واول من اسسها (حجر اكل المرار) وهو نسيب أحد ملوك حمير – حسن بن ثوبة – وقد عينه لزعامة قومه سنة ٤٨٠ ب م وبعض القبائل العربية الاخرى في وسط الجزيرة .

وفي فترة من الزمن نرى مملكة كنده هذه تستولي على الحيرة لتفقدها بعد ذلك بوقت قصير، وذلك سنة ٥٢٩، وقد استعادها المنذر الثالث الذي قتل ملك كنده الحارث مع خمسين من العائلة المالكة .

وعلى اثر ذلك نشب الاختلاف بين ابناء الحارث، فسقطت المملكة، وارتدت كنده الى حضرموت بعد ان خسرت سيادتها الفعلية على وسط الجزيرة .

ومن ابناء ملوك كندة امرؤ القيس الشاعر الجاهلي المشهور الذي حاول استعادة ملكه، فذهب الى القسطنطينية يطلب مساعدتها فلم يوفق، ومات بانقره في طريقه الى بلاده مسموماً ...

ومن اشهر رجالات كنده في الاسلام الاشعث بن قيس الذي اشتهر في حروب سورية والعراق .

وكان تاريخ مملكة كنده عبارة عن محاولة غير ناجحة تقوم بها قبيلة كبيرة، لتوحيد القبائل العربية المختلفة تحت شعار واحد ومملكة واحدة، اسوة بالدول التي كانت قائمة حولها في سورية والعراق، وجنوبي الجزيرة (١).

— بترا —

(١) يذهب بعض المؤرخين الى ان مدينة (بترا) هي التي ذكرها داود في مزاميره بقوله « من ذا الذي سيقودني الى المدينة الحصينة » لان بترا مدينة محفورة في الصخور ومنقورة بها نقراً فهي احدى عجائب الآثار الشرقية، بل هي اعجب هذه الآثار في نظر العلماء والفنانين، تقع على الحد الشمالي الغربي لصحراء العرب في منتصف الطريق تقريباً بين خليج العقبة والبحر الميت، فوق رأس الجبل الذي نحت باحدى صخوره . اما تاريخها فيقسم الى اربعة عصور :

(١) عصر الجاهلية التاريخية ولهذا العصر فنه وآثاره التي ظهر في الاحافير وما ضمت من تحف. (٢) عصر قدماء المصريين يدل عليه ما لهم من آثار باقية الى اليوم ومعابد قائمة وقبور نقشت جدرانها باللغة الهيروغليفية كما ترى على جدران الآثار المصرية سواء بسواء . (٣) العصر اليوناني وقد خلف لنا المسارح المحفورة بالجبل حفراً والخزائن المنحوتة نحتاً وما على جدران هذه وتلك من الكتابة اليونانية القديمة. (٤) عصر الرومان تدل عليه المعابد والقبور الجبلية المنحوتة على الطراز الروماني القائمة كالكهوف والمغاير وما حولها من قبور رومانية هى آية في جمال الفن .

بقي عهد واحد هو عهد بني حمير وبني سبع حين سكنوا المدينة ولم يخلفوا بها شيئاً اللهم الا الذكرى التاريخية فحسب .

وقد حاول المؤرخون جميعاً ان يقفوا على اسرار هذه المدينة والعصر الذي انشئت فيه، فوصلوا من بحثهم هذا الى انها كانت موجودة على رأس جبل هارون الذي تقوم على رأسه

اليوم ايضاً منذ القرن التاسع قبل الميلاد ، وكان عدد سكانها يقارب الستين الفاً . ويرجحون انها كانت مملكة ايدوم ، وسكنها الانباط من سلالة اسماعيل عليه السلام عام ٣٠٠ قبل الميلاد ، وقد سماها اليونان « بترا » لانها مدينة الصخور والمغاور وذكرها (استرابون) المؤرخ اليوناني الذي عاش في بداية القرن الاول الميلادي .

ولقد ظلت مدينة بترا عامرة الى اوائل القرن الرابع الميلادي ثم دب اليها الخراب لما تحولت عنها طريق القوافل الآتية من الشمال تقصد البحر الاحمر الى خليج العجم فلم يدركها عام ٥٣٦ ميلادية الا وقد هجرها سكانها واصبحت نسياً منسياً . وظلت كذلك الى ان عثر عليها الاستاذ سيتزن الرحالة الشهير عام ١٨٠٧ ميلادية ، ثم زارها الاستاذ « بيركارت » الالماني عام ١٨١٢ متنكراً في زي الاعراب .

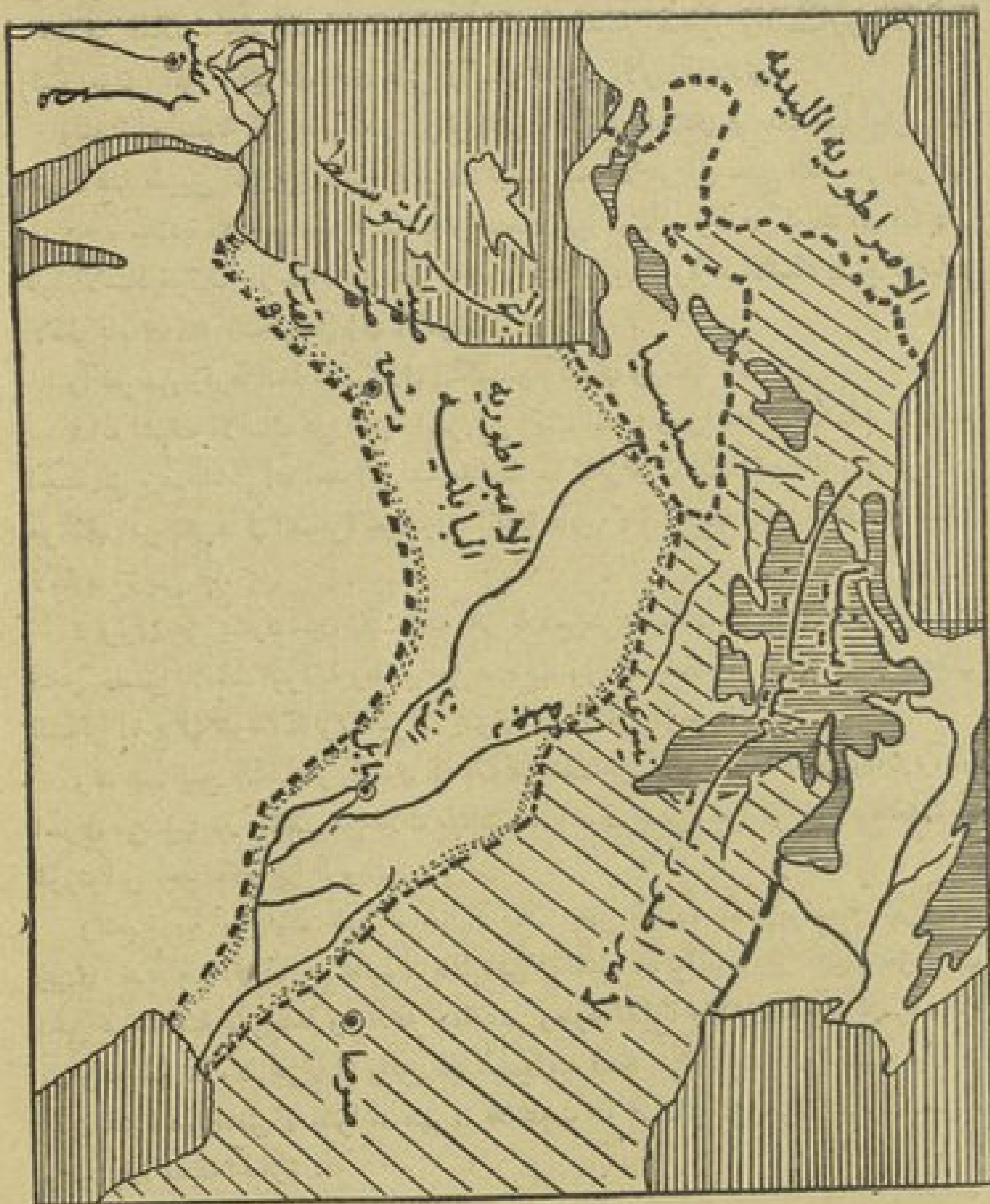
وآخر من زارها العالم الانكليزي الكسندر كنيدي ووصفها قائلاً :

« اذا اشرف الانسان على المدينة ابصر عن كثب الملعب وخزانة فرعون ذات الاعمدة الجميلة التي يزعم الناس ان احد الفراعنة مدفون بها كما يزعمون ان الامبراطور «ادريان» هو الذي امر بنقرها في الصخرة حين زار المدينة عام ١٣١ ميلادية وامر باتخاذها معبداً لالهة « ايزيس » .

« وترى على يسارك حين تترك تلك الخزانة مسرحاً عظيماً « مدرجاً » يسع الوفاً من الناس خصص للالعاب اليونانية وما اليها من صراع الحيوانات المفترسة . وهذا المسرح هلالي الشكل ابدع في نقره الفنانون اليونان يحتوي على ثلاثين درجة متشابهة .

وقد نقب السير الكسندر كيندي في بترا فكشف عن قبور للانباط والرومان وآثار اخرى من بينها قبر مؤلف من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض وهذا هو قبر سكستاس فلورنتيناس احد حكام بترا الرومانيين ..

والمدينة آية من آيات الفن والجمال ، كان يصل اليها الماء بواسطة نهر صغير يجري قديماً بالوادي الواقع بجانبها ، فاذا فاض في الشتاء حولوا ماءه الى نفق منحوت في الجبل عرضه ستة عشر قدماً وارتفاعه تسعة عشر وطوله ثلاثمائة وثلاثين قدماً ، فينصرف الماء الى واد اخر ، ولا يجري في واديهم الا اليسير منه الذي يفي حاجتهم . واهل بترا هم الذين نحتوا هذا النفق كما نحتوا مدينتهم ، فلا عجب اذا سماهم المؤرخون جبابرة العصر ، وسموا بترا مدينة الجبابرة .



الشرق القديم

- ٣ -

الجزيرة العربية قبل الاسلام

— الحياة الروحية والدينية —

تقسيم العهد التاريخي العربي

جرى بعض المؤرخين على تقسيم التاريخ العربي وفاقاً للاثار العربية التي صار اكتشافها حديثاً الى ثلاثة اقسام (١)

١ — العهد السبائي الحميري : ويبتدي من القرن الثامن قبل المسيح وينتهي في آخر القرن الخامس بعده .

٢ — العهد الجاهلي : وهذا العهد يطلق على المائة سنة التي سبقت ظهور الاسلام في الجزيرة العربية .

٣ — العهد الاسلامي : ويبتدىء من ٦٢٢ بعد المسيح وهي السنة التي هاجر فيها رسول الله من مكة الى المدينة .

والعهد الجاهلي هو الفترة التي كان فيها العرب لا ينعمون بدين ولا ايمان حقيقي وكان اكثرهم وثنياً .

شمالي الجزيرة

ويختلف شمالي الجزيرة عن جنوبها — وقد عرضنا لتاريخ الجنوب — في ان اكثر سكانه من البدو الرحل وتاريخ هؤلاء البدو ، ليس الا

---

(١) تاريخ العرب الادبي : هرولد نيكولسن : الطبعة الاخيرة ، لندن ، ١٩٤١

عبارة عن هذه الغزوات التي كانت تقع بين القبائل بعضها مع بعض ، وتسمى (ايام العرب) ويحصل فيها حروب ومعارك يكثر فيها السلب والنهب ، ويقل عدد القتلى والجرحى .

ومصادر هذا العهد ترجع الى ما كتبه المؤرخون المسلمون بعد هذا التاريخ بثلاثمائة سنة او اقل او اكثر قليلاً ، اذ ليس هناك مصدر عن هذه الايام ، وليس هناك مصدر عربي قديم كتب عنها ابان وقوعها ، ومهما يكن في هذه المصادر من الحقيقة ، فانها على كل حال تمثل لنا لوناً من الوان الحياة العربية في العهد الذي سبق الاسلام ، ولو كان في هذا التمثيل بعض الاغراق والاسراف .

وكذلك لم يترك عرب الشمال اثراً يذكر قبل محمد ، وليس هناك من المصادر المتحدرة عنهم الينا ما يستحق الذكر ، او يساعد على تفهم تاريخهم ، ودراسة حياتهم الاجتماعية على الوجه الاكمل والافضل .

القبائل العربية

ومن الثابت اليوم ان هناك بعض قبائل يمنية عاشت في شمالي الجزيرة ، كما ان بعض سكان الشمال نزلوا جنوبها ولكن هؤلاء كانوا اقلية لا تكاد تذكر .

واذا نظرنا الى تاريخ هذه القبائل التي لعبت دوراً خطيراً في تاريخ الاسلام وقبل الاسلام ، وفي ماضيات الايام ، فانا نرى في تطورها الاخير ما يدهش ويثير العجب .

فقبيلة قريش مثلاً ، التي خرج منها القواد والحكام والابطال في صدر الاسلام ، اصبحت اليوم ممثلة في بعض افراد من البدو الفقراء في الحجاز وقد ذهب مجدها السابق ، ودالت سيطرتها السالفة .

وقبيلة (طي) ذات الشهرة في الماضي ، والتي كان يطلق بعض المؤرخين الاقدمين اسمها على جزيرة العرب كلها ، اصبحت اليوم بطناً صغيراً من قبيلة شمر .

والواقع ان الحياة في الصحراء قاسية شديدة لا ترحم الضعيف ، ولا تأسو على العاني البائس ، فكما يذهب الفرد في الصحراء غنيمة باردة للوحش الضاري اذا لم يكن قادراً على الدفاع عن نفسه ، فكذلك تضيع مختلف القبائل اذا لم تدافع عن نفسها ، ويذهب سلطانها وتضطر للاندماج مع غيرها من القبائل.

وبعض القبائل ترجع في اصولها الى رجل واحد ، كان كثير الولد ، وكان اولاده مثله كثرة وولداً ، فاسسوا قبيلة جديدة حملت اسمه – اسم الاب طبعاً (١) – واستقلوا عن غيرهم من القبائل ، وانضم اليهم جماعة تركوا قبائلهم ، لاسباب شخصية او لاختلافات محلية ، ومن هنا كان الاكثار من الاولاد مفيداً للعربي ، لان في ذلك قوة له ، وتعزيز العصبيته ، وتوطيداً لمركزه ..

والمفروض في زعيم القبيلة او شيخها ان يكون قوياً جريئاً باسلا ذكياً حازماً ، فليس في الصحراء مكان للضعيف الجبان ، وليس ما يمنع قيام الابناء مقام الاب في زعامة القبيلة شرط ان يكونوا مثله حزماً وقوة ، وان يكونوا في عصبية تمنعهم وتؤيدهم ، ومن الصعب على انسان في الجزيرة فرض سلطانه على غيره اذا لم يكن متحلياً بالصفات التي ذكرناها .

ذلك انه يصعب على العربي قبول حكم المتوسط الذكاء والدهاء ، والبسالة والجرأة ، وهذا العناد من العربي ، وانكاره الانقياد لحكم غير

(١) قد تحمل القبيلة الجديدة اسم مكان ، او اسم حيوان من حيوانات البادية ايضاً .

العبقري القوي الباسل من زملائه ، كان من نتائجه عدم استقرار التاريخ العربي واضطرابه ، لان العباقرة والزعماء الكبار لا ينزلون على الارض بكثرة ، واشتراط العربي لخضوعه وجود زعيم كبير او عبقري نابغة ، لم يمكن الممالك العربية من الاستقرار والثبات ، وجعلها ابداً عرضة للانقلابات والاضطرابات .

وهناك شيء آخر اضرّ القضية العربية والملك العربي ، وهو صعوبة اقناع العربي باحترام هيئة غير قبيلته ، ذلك ان العربي لم يكن يحاول ان يعرف ان هناك في الحياة غير القبيلة ، ولم يكن يريد ان يفطن الى ان هناك نظماً سياسية غير النظم السياسية الموجودة في الصحراء – والتي كانت معدومة طبعاً – ولذلك كان تقبله للنظم الجديدة صعباً ، وكان اقناعه بانها لمصلحته مستحيلاً ، فالعربي كان يحب قبيلته ولا يعترف بشيء سواها في حياته الاجتماعية والسياسية ...

ولذلك كان يصعب عليه العمل مع جماعة غير جماعته ، ولو كانت هذه الجماعة تعمل لمصلحته ، لانه كان لا يفهم ذلك ولا يعرفه ، واذاً فهو ضعيف الوطنية كما نعرفها نحن ، لان الوطنية عنده كانت ممثلة في قبيلته ، بحيث انه لم يكن يجد كبير امر في محاربة القبائل العربية الاخرى حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة ...

تقسيم القبائل

ولقد اختفت قبائل عربية عديدة قبل الاسلام ، او انها ضعفت جداً ، وانضمت الى غيرها ، وذهب اسمها والباقي منها كان يقسم الى اقسام هذا تفصيلها :

قبائل الشمال كانت مؤلفة من ثلاثة اقسام كبرى : وكانت تسمى

الاسماعيلية ، ومنها : مضر ، وربيعة ، واياد ، وهم ابناء نزار ، حفيد عدنان ، من اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام .

فقبيلة اياد بعد حياة مضطربة ، اختفت من المسرح العربي ولم تترك خلفاء يذكرون .

واشهر قبائل مضر : قيس عيلان وقد لعبوا دوراً خطيراً في بناء الامبراطورية العربية .

ومن مضر هوازن : وكان منها هلال وكلاب في الماضي وعقيل والمنتفك في الحاضر ، وهم يسكنون العراق اليوم .

ومنها : عدوان وسليم وغطفان ، وغطفان تنقسم الى القبيلتين الشهيرتين عبس وذبيان وكان العداء مستحكماً بينهما في الجاهلية ...

ومن مضر : تميم وكانت تسكن بادية البصرة ، وهذيل التي كانت تسكن جبالا قريبة من مكة ، واسد وكنانه ، وتسكن جنوبي الحجاز ، ومن كنانة خرجت قريش ...

واشهر قبائل ربيعة : بكر وعبد القيس سابقاً ، وعنزة اليوم ، وقد ظهروا في القرن الثامن عشر ولا يزالون يسيطرون على الصحراء السورية .

وقد كان بين ربيعة ومضر عداء شديد ظل قروناً طويلة ، وكانت ربيعة تتحالف غالباً مع اليمنيين لمقاتلة المضريين :

قبائل جنوبي الجزيرة

وأما اشهر قبائل جنوبي الجزيرة العربية فلخم الذين اسسوا مملكة العراق في الحيرة ، وهمذان ، وطيء ، ومن طي خرجت قبيلة شمر المعاصرة . والازد الذين كان منهم الغساسنة ملوك الشام ، وخزاعة

الذين سيطروا في السابق على مكة حتى اجلاهم عنها القرشيون ، ثم الاوس والخزرج الانصار من سكان المدينة .

وهناك قضاعة التي كانت تقول انها يمنية ، والتي تزاوجت مع القبائل الشمالية خصوصاً مع مضر ، وبعض الشعراء يزعم انهم من عرب الشمال.

واهمية قضاعة ان منها خرجت قبيلة (كلب) التي لعبت دوراً خطيراً في اول عهد الدولة الاموية ، والتي كانت ام يزيد بن معاوية منها.

وليس هناك شك في ان الخلاف السياسي بين كلب ، وقيس عيلان كان من الاسباب التي قضت على الدولة الاموية .

ومن قضاعة ظهرت صالح ، وتنوخ ، وجهينة .

وهناك غير هذه القبائل الكبيرة ، قبائل صغيرة ، لا تزال حتى يومنا هذا ، كحطيم ، والشراوات ، وسليب ، ولا شأن سياسي لهذه القبائل .

وقبيل الاسلام نجد قبائل عربية كثيرة على الحدود السورية والعراقية وبعضها كان قد تخطى هذه الحدود ، وراح يسكن في الارض السورية والعراقية ، كقبيلة (بكر) فانهم كانوا ينزلون الارض التي نسبت اليهم وهي (ديار بكر) وقبيلة (كلب) وكانت تنزل تدمر ، وتسيطر على الطريق التجاري الذي يمر فيها .

كل شيء هادىء

وكذلك كانت الحالة هادئة في الجزيرة العربية في هذه السنوات الاولى التي سبقت ظهور الاسلام ، وكان العرب الى ذلك لا يزالون يصرفون اوقاتهم ، ويقسمون حياتهم على النحو الذي وصفناه ، وذلك ما بين غزو وخلاف ، وسعي خلف الكلاء ، وشرب للخمرة ، وتشبيب

بالنساء ، وقول للشعر ، وعبادة للاوثان ...

ولم يكن هناك في الواقع ما يدل على الخطر القريب ، والحادث العظيم المنتظر فقد كان الهدوء يملأ الجزيرة ، ويسير على النحو الذي كان يجري عليه لعشرات خلت من السنين .

وفي الجنوب كان المسيحيون واليهود يعملون للسيطرة الواحد على الآخر . وكانت بعض الامصار الشمالية من الجزيرة العربية تحت حكم الفرس بينما كانت اقسام اخرى في الشمال تحت السيطرة البيزنطية . اما وسط الجزيرة فقد كان بعيداً عن السيطرة الاجنبيـــة ، وخلواً من الاختلافات الدينية ، بحيث استطاعت قبائله ان تعيش حرة ، تغزو بعضها بعضاً أحياناً ، وتنكمش احياناً اخرى ، لا تعرف الاتفاق ، ولا تؤمن بالاتحاد والعمل المشترك .

وفي هذا الجو الهادىء — من حيث ان الاختلافات بين القبائـــل العربية بعضها مع بعض كان شيئاً عادياً — كان بعض العرب قد تقبلوا اليهودية او المسيحية ، واما وسط الجزيرة فقد احتفظ بوثنيته واصنامه .

والذي لا شك فيه اليوم ان العرب كانوا يؤمنون بكائن اعلى محيط بالعالم وما يحويه من كائنات هو خالقها ، وانه الذي يرسل عليهم المطر من السماء ، وكانوا يعتقدون الى ذلك انه ليس له كهان ولا هياكل كتلك التي خصوا بها اوثانهم .

وكانوا يعظمون الجن ويمجدونهم ، بسبب صحاريهم الواسعة التي كانوا يضلون فيها الاسابيع فيتمثلون فيها الرؤى المختلفة المخيفة المثيرة ، وكانوا يؤمنون بان اجسام الجن تشغل جزءاً من الفضاء وانها مخلوقة من النار او الهواء فلا تراها العين ، وان بطوقهم افضاء الخير او الشر الى الانسان ، فعليهم والحالة هذه تمجيدها وتقديسها ، كما راحوا يعتقدون

ان لكل جني موطناً خاصاً به ...

مكة واصنامها.

وعبد العرب الاصنام المختلفة ، وكان لبعض القبائل اصنام خاصة بها ، كما عبد البعض الاخر الشمس ، وغيرها القمر ، وبعضهم النجوم .

ولكن الحياة الدينية عند العرب كانت ضعيفة جداً ، وكان هناك بينهم من ينكر عبادة الاصنام ، ويفكر في الحياة الاخرى ، ولكنهم كانوا جماعة قليلة وعدداً محدوداً ، وتفكيرهم الديني كان ضيقاً قاصراً ..

وكانت مكة مهد الوثنية ومهد الثقافة في وسط الجزيرة ، وقد بنتها قريش في منتصف القرن الخامس الميلادي ، في واد رملي شديد الضيق ، حتى ليبلغ اقصى اتساع فيه نحو سبعمائة خطوة ، واما اضيق مكان فيه فلا يزيد عن مائة خطوة ، تكتنفه جبال عارية مقفرة يتراوح ارتفاعها بين مائتي قدم وخمسمائة .

وفي مكة كانت الكعبة ، وقد صار بناء مكة حول الكعبة ، والكعبة اقدم من مكة بما يصعب تقديره على الوجه الاصدق والاصح ، والكعبة(١) مؤلفة من اربع حوائط مبنية بحجارة لم يهذبها الصقل ، وقد رصف بعضها الى بعض دون ان يتخللها الملاط ، وغطيت بملاءة او بقطعة من القماش ، واما ارتفاعها فيزيد عن ارتفاع الرجل ، واما مساحتها فتبلغ مائتي قدم .

وكان لقريش اصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان اعظمها هُبل ، وهو الصنم الرئيسي بين اصنامها منذ النصف الاول من القرن الثالث ، وهو تمثال من عقيق احمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى ، وقد ادركته

(١) سميت كذلك لانها ترى من بعد على شكل مكعب منتظم الاضلاع .

قريش كذلك، فجعلوا له يداً من الذهب، وجلبه من الخارج بعض رؤساء قريش ، ويقال ان اول من نصبه خزيمة بن مدركة ، وكان يقال له : (هبل خزيمة) وكان هُبل في ذلك العهد رباً لقبيلة قريش ، واما الكعبة نفسها فلم تكن ملكاً لهم بل كانت مشاعاً لاكثر القبائل التي تربطهم بها وشائج المصلحة السياسية والتجارية العامة ، بحيث ان الكعبة كان لها صبغة عامة لا خاصة .

ووضعت كل قبيلة من هذه القبائل التي تربطها بالكعبة مصلحة سياسية او دينية او تجارية كما قدمنا ، صنمها الذي تعبده في الكعبة حتى بلغ عدد الارباب ثلثمائة وستين رباً ، وكان التسامح الديني سائداً كما يظهر عند هؤلاء العرب الوثنيين اذ كنت ترى في الكعبة مع الاصنام صورة ابراهيم الخليل وصور الملائكة ، وصورة العذراء مع طفلها المسيح عيسى بن مريم .

الحجر الاسود

وكان العرب الى ذلك يقدسون الحجر الاسود ، وهو قطعة من الحجر البركاني ، تلمع في انحائه نقط بلورية ، وتبدو في بعض جهاته قطع صغيرة من النوع الذي يطلقون عليه اسم (فيلسبار) لونها تارة احمر باسفله ظلال قاتمة ، وتارة اسمر يميل الى السواد .

وقد تعاورته ظروف مختلفة ، فكسر اكثر من مرة حتى غدا في هذه الايام مؤلفاً من اثنتي عشرة قطعة مضموم بعضها الي بعض ، والاكثرية على انه حجر سقط من السماء .

تقديس الكعبة

والظاهر ان قريشاً مـع الايام زادت في تقديس الكعبة ، وزاد اجلالهم لها ، حتى قدسوا ما جاورها من البقاع ، التي خلعت عليها الكعبة مسحة القداسة ، ثم اصبح ما يكتنفها الى بعد عدة فراسخ حراماً لايجوز لكائن من كان ان يفتك بانسان فيها ، او يصطاد من حيوانها احتراماً لها.

وروى ابن الكلبي في كتابه الاصنام « انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيما للكعبة ، وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم بها ، وصبابة بالحرم وحباً له ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على ارث ابيهم اسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار .

وكان يؤم الكعبة في كل عام من العرب في الجاهلية جمهور غفير من الناس لتأدية الشعائر الدينية ، ولحضور الاسواق التجارية التي كانت تقام حول مكة وقت الحج .

عبادة الاصنام

وتقول المصادر العربية القديمة ان اول من ادخل عبادة الاصنام هو (عمر بن لحي) وانه اول من بدّل دين اسماعيل ونصب الاوثان ، وقد جـــاء في كتاب الاصنام : ان السبب في ذلك انه مرض مرضاً شديداً فقيل له: ان في البلقاء من الشام (حمة) ان اتيتها براءت ، فاتاها فاستحم بها فبرأ ، ووجد اهلها يعبدون الاصنام فقال :

— ما هذه ؟

فقالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدد .

فسألهم ان يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة .

ولكن عبادة العرب الاولى فقدت معناها الاول ، وقوتها السالفة في القرن السادس من الميلاد ، ودب فيها الفساد ، وتغير جوهرها فاصبحت طائفة من الخرافات والاوهام ، كان يعرف ذلك منهم - اي من اهل مكة - عدد كبير من الزعماء وغيرهم ، ولكنهم ظلوا يحتفظون بها للفائدة التجارية التي كانت تدرها عليهم من وجودها في مكة وحج العرب لمكة وطوافهم حول الكعبة واصنامها ، ومتاجرتهم مع هؤلاء الحجاج من العرب ، وبيعهم ما جلبوه من البضائع المختلفة الى مكة ، اذ كانت مكة مركزاً تجارياً عظيما ، وطريقاً برياً للتجارة العالمية في ذلك العهد .

ومن المؤكد لدينا اليوم ان رجالات مكة ، وهم الذين يدل التاريخ على انهم كانوا ينعمون بذكاء وعبقرية عظيمتين ، ما كانوا يؤمنون بارباب يضعونها بايديهم من الحجارة والخشب ، لولا هذه المصلحة التجارية .

كانوا في ظاهر امرهم يمجدون هذه الارباب ، ويحجون الى محرابها ويحتفون بمواسمها السنوية ، ويذبحون القرابين في هيا كلها ، ويريقون دماءها على تلك الالهة التي يعبدونها ، سواء اكانت من الحجر ام من الخشب ، بل لقد كانوا يلجأون اليها كلما حزبهم امر يلتمسون منها البركة ، ويتكشفون بواسطتها مستقبل امرهم الغامض .

ومن المؤكد ان عقيدتهم فيها لم تزد على هذا القدر من المظاهر ، اما فيما عدا ذلك ، فقد كانوا لا يترددون في تحطيم آلهتهم اذا لم تتحقق نبوءتها ، وقد تنزل باحدهم كارثة فينذر لاحد الاصنام ان يذبح نعجة قرباناً له اذا تكشفت غمته ، فلا يكاد يزول عنه الخطر ، حتى يستبدل

النعجة بغزال لا يكلفه ثمنه اكثر من ان يصطاده بيده ، يفعل ذلك ثقة منه ان هذا المعبود لا يفرّق بين النعجة والغزال ، والنعجة طبعاً اثمن من الغزال : وكان لها قيمة عند العرب لانهم كانوا ينتفعون بلبنها وصوفها ولحمها ، واما الغزال فكان محدود الفائدة ، سهل الصيد ..

ثم ان نبوءات الالهة او الاصنام لم يكن لها قيمة عندهم ما لم توافق رغباتهم ، وفي التاريخ العربي الكثير من قصص الاعراب الذين قتل ابوهم فراحوا يستشيرون الاصنام في الثأر له على طريقتهم ، فلما لم توضهم نتيجة الاقتراع ضربوا وجه الصنم قائلين :

– لو كان ابوك المقتول ما رفضت الثأر له ...

وكان بنو حنيفة وهم قبيلة من العرب اقل الناس احتراماً لآلهتهم ، اذ كانوا يأكلونها ، لانهم كانوا يصنعونها من العجوة واللبن والزبد ، فاذا وقعوا في قحط او مجاعة اكلوها.

وفي كل ما تقدم برهان على ان العرب لم تكن عظيمة الايمان باصنامها التي لم تكن تنفعهم ولا تضرهم ...

عقائد شتى

والعرب الى ذلك لم يكونوا باجمعهم عبدة اوثان وانصاب ، فقد كان هناك بينهم – وهؤلاء اقلية طبعاً – من يؤمن باليهودية ومن يؤمن بالمسيحية ومن يؤمن بالحنفية ، والحنفية هذه فكرة روحية دينية ، تولاها بعض العرب قبل الاسلام ، وكانوا يردون اصلها الى ابراهيم نفسه ، ومنهم من كان يؤمن بحياة ثانية بعد هذه الحياة ، ويدين باليوم الآخر ، ولا يقف عند حد الاعتقاد ببعث الانسان بل يدين ببعث الحيوان ايضاً ومن ثم كان يدفن راحلته الى جانبه او يتركها تموت على قبره ليركبها

يوم البعث ، فلا يتكبد عناء السير على قدميه .

ولكن سوادهم كان ينكر فكرة البعث ويسخر منها ، وكانوا يدينون برأي القائل :

حياة ثم موت ثم حشر حديث خرافة يا ام عمرو ..

وهذه الفكرة من تأثير اليهودية طبعاً لان بعض اليهود ويسمون بالصدوقيين نسبة الى (صدقيا) وهو من اسرة ارستقراطية ومن احبار بيت المقدس كانوا لا يعترفون بغير التوراة المكتوبة ، ويرفضون كل ما عداها مما زيد عليها من الاحاديث الشفوية المروية عن موسى ، كما كانوا يرفضون كل ما اضيف اليها من التفاسير والشروح التي ادخلها عليها من جاء بعد موسى من رجال الدين والنساخ ...

ولهذا رفض الصدوقيون الايمان باهم الاسس التي بُنيت عليها الديانة اليهودية ، فلم يؤمنوا بالبعث ، ولم يقبلوا فكرة الخلود ، ولا فكرة الجزاء في الدار الآخرة .

والذي يستغربه المؤرخون هو انه مع ضعف الديانة العربية وخرافاتها ، فلا المسيحية ولا اليهودية تمكنتا من التأثير على العرب وحمل هذا الشعب البدوي المتعطش الى المعرفة على ترك دينه ، واعتناق دين جديد .

نعم لقد انتشرت المسيحية في بعض انحاء الجزيرة العربية ، انتشرت في سوريا ، وغزت مدينة نجران من اعمال اليمن في جنوبي الجزيرة ، ودانت بها شبه جزيرة سينا ، ولكن هذا الانتشار كان محدوداً ضعيفاً واما في اواسط بلاد العرب ، وفي قلب الجزيرة ، فلم تنجح المسيحية في كثير ولا قليل ...

ويفسر لنا (دوزي) في كتابه عن تاريخ الاندلس فشل

المسيحية(١)» بانها بما تحويه من معجزات واعاجيب ، وبما فيها من عقيدة التثليث ، لم تكن تنعم بما يساعدها على التبسط في الجزيرة ، ولا بما يمكنها من التأثير في نفس العربي على الوجه الاكمل والاوسع ... »

ويضرب لنا دوزي مثلاً حديث الاسقف الذي زار في سنة (٥١٣) المنذر الثالث ملك الحيرة يحاول اقناعه باعتناق المسيحية فلم يوفق ، ويقص علينا قصة جرت بين الاسقف والملك لا نرى فائدة من سردها فليراجعها القارىء في مصادرها ...

اليهودية في الجزيرة

اما اليهودية فكانت اكثر حظاً في الجزيرة الى حين ... نزل عدد كبير من اليهود الجزيرة العربية بعد ان شرّدهم الامبراطور اورليان الروماني ، وبثوا دعاتهم فيها ، فدان باليهودية بعض قبائل الجزيرة ، حتى سيطروا على اليمن فترة من الزمن ...

ولكن هذا الدين ايضاً لم يلق تأييداً من العرب ، لانه دين غامض مليء بالشكوى والآمال الغامضة ، وليس هذا مما يلائم العقل العربي ، الذي كان قليل الحماسة الدينية كما قدمنا ، والذي كانت حياته نهباً مقسماً بين المرأة والغزو والأخذ بالثأر وذبح الذبائح واقامة الولائم ...

والواقع ان العربي رجل عملي مادي ، لا يعني بغير الحقائق حتى في شعره ، فهو لا يسبح في الخيال والوهم ، ولا يميل الى الاخذ بالالغاز والمعميات الدينية ، التي يعتمد الانسان في استيعابها على التخيل اكثر من اعتماده على العقل .

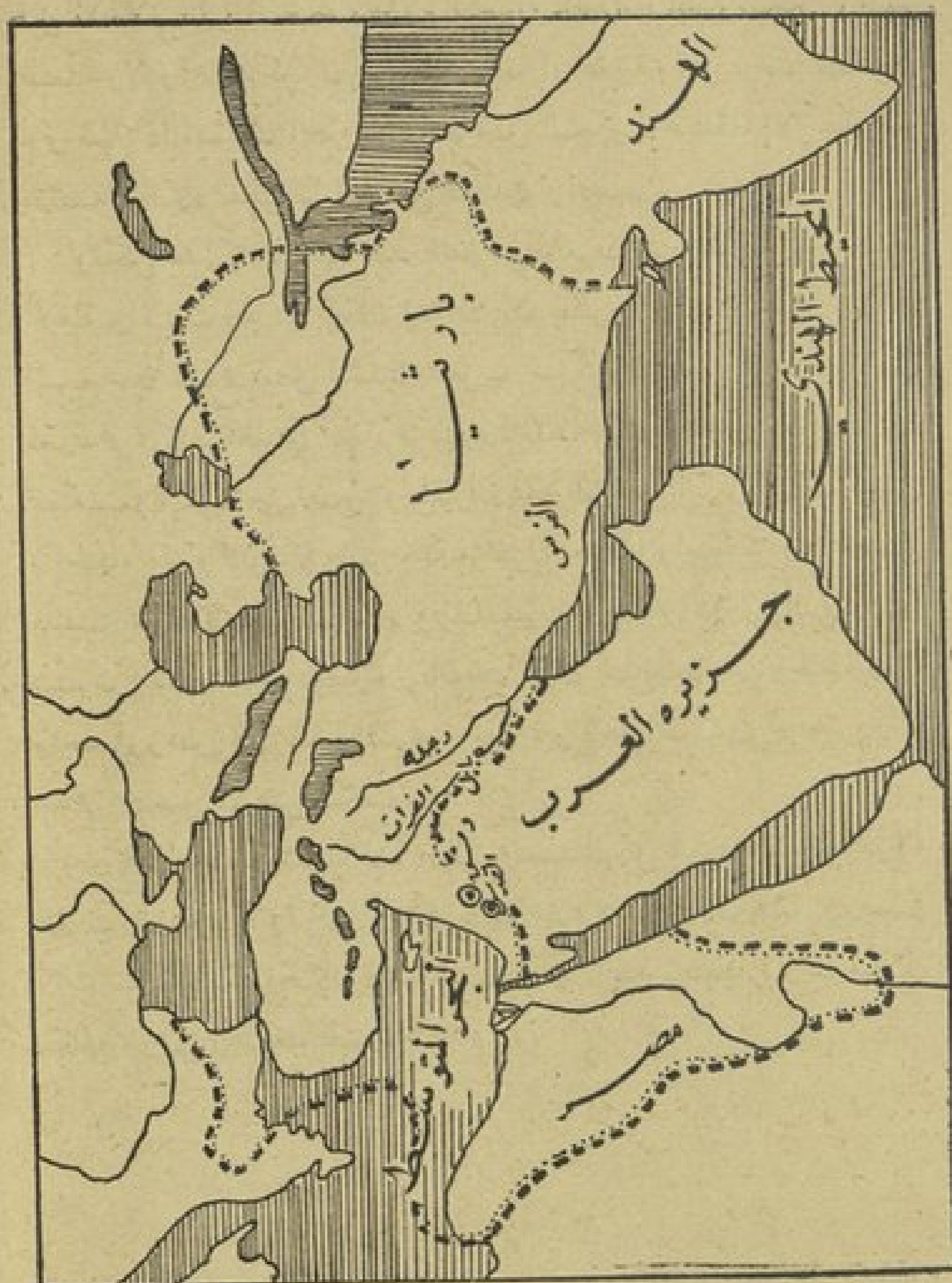
وليس ادل على ذلك من هذا الشعر الذي تركه شعراء الجاهلية

(١) ص ١٣ - ٢٤

قبل الاسلام لنا ، فاننا – وهؤلاء الشعراء يمثلون جيلهم وتفكير زمنهم طبعاً – لا نراهم يذكرون في شعرهم ديناً او عقيدة، ولو عرضنا قصائدهم لم نر فيها اذا استثنينا اسماء الآلهة وبعض الشعائر المختلفة ، إلا عبارات مقتضبة لا تكاد تفسر لنا شيئاً عن عقائدهم واديانهم ...

ولكن هذا كله لم يمنع جماعة قليلة من العرب من تقبل الوحدانية الالهية والايمان بالله ... وكان لهذا الايمان خطره في القرن السادس بعد المسيح حين نسمع بعض الشعراء العرب يذكرون الله والوحدانية في قصائدهم ، كما نشاهد في اشعارهم شعوراً يقظاً بالتبعة المترتبة على ما تصنعه ايديهم من خير او شر ، وهذه الفئة من الناس كانت تسمى (الحنفاء) ، وكانوا كما يظهر ، لا يؤلفون جماعة واحدة ، ولا يضمهم مذهب بعينه كما يفعل الصابئة المنتسبون الى (ابراهيم) والذين كانوا يسمون انفسهم حنفاء ايضاً ، وكان لهاتين الطائفتين من الحنفاء رأي واحد في رفض اليهودية والمسيحية معاً ، والاعتراف بدين ابراهيم والد جدهم اسماعيل مؤسس الكعبة ...

وكانت الحنفية مذهباً ليناً سمحاً ، معبّد السبل ، سهل الاساغة لهؤلاء العرب العمليين ، ولكنها لم تكن ثابتة مقررة ، ولا كان هيئة روحية ذات سيادة دينية ، فكان ذلك سبب ضعفها وعدم تبسطها ، وقبوعها في مكانها ، وانهيارها بعد ظهور الاسلام ...



بابل وبلاد الفرس ومصر والدولة البارثية في الشرق القديم

مكة وتاريخها قبل الاسلام

— الحياة الاجتماعية والادبية في الحجاز —

فجر محمد بن عبدالله

وفي هذه الاثناء ، وبينما كانت الحياة في الجزيرة تسير على النحو الذي وصفناه ، وفي الوقت الذي انتهت فيه الحرب العنيفة الطويلة القاسية بين الرومان والفرس ، وذلك في اوائل القرن السابع الميلادي ، ولما ظن الناس ان الحياة ستعود سيرتها الاولى ، وان السلام سيسود الشرق الادنى ، بحيث تنصرف الدولتان الى تعمير ما تهدم من بلادهما وتنظيم ما تصدع من اسبابها ونظمها ، ظهر في مكة شاب عربي لم يفطن احد الى عظيم شأن وكبير خطره ، اخذ يلفت انظار الناس اليه باخلاقه وهدوءه وعمق نظراته ، وكان ظهور هذا الشاب الذي ابصر النور في اواخر القرن السادس الميلادي مؤذناً بعهد جديد ، وحدث عظيم ..

فما هو شأن مكة في تاريخ العربية ؟ ومن هو محمد بن عبدالله ؟

تاريخ مكة

في تاريخ مكة شيء من الغموض ، واغلب الظن انها ترجع في تاريخها الى مئات تقطعت من الاعوام قبل الاسلام ..

وهي الى ذلك تقع في طريق القوافل التي كانت تضرب الارض في

الجزيرة قبل الاسلام وبعده بقليل ..

وكان العمالقة اول من سكن مكة ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمنية عليها وفي عهدهم نزلها اسماعيل بن ابراهيم وصاهر الجرهميين ، وسكن بينهم ، فلما زاره ابراهيم بعد ذلك تعاونا على رفع القواعد من البيت الحرام ، ليتوجه الناس اليه الى الله وحده ..

ولما مات اسماعيل تولى امر البيت بعده ابنه نابت ، وهو اكبر اولاده ،ثم تولاه ولاة من جرهم ، واستمرت ولايتهم عليه الى سنة ٢٠٧ بعد المسيح .

وظل امر مكة لجرهم بعد ان غلبوا العماليق عليها الى عهد مضاض بن عمرو ابن الحارث ، وراجت تجارتها في عهدهم ، كما نضب ماء زمزم واخذ عرب خزاعة يفكرون في الوثوب الى مناصب الامر في البلد الحرام .

واغرقت جرهم في ترفها ولهوها ، فاحزن ذلك مضاض بن عمرو ، وادرك ان الامر زائل عنهم ، فاعمق حفر زمزم وعمد الى غزالتين من ذهب كانتا مع طائفة من الاموال بالكعبة ، فدفنها بقاع البئر واهال الرمال عليها ، وخرج ومعه بنو اسماعيل عن البلد الحرام ،ووليت خزاعة الامر فيه ، وظلت تتوارثه حتى آل الى قصي بن كلاب الجد الخامس للنبي ...

رجوع قصي

ولما رجع قصي (١) الى مكة بعد اعوام عديدة سنة (٤٠٠م) كانت سدانة البيت في خزاعة لحليل بن حبشية ، فتزوج قصي ابنته ، ووفقه الله

(١) اجمع المؤرخون على ان قريشاً الذين منهم قصي بن كلاب الجد الرابع للرسول عليه السلام هم من ولد كنانة الذي يرجع نسبه الى عدنان وينتهي الى اسماعيل

في تجارته فزادت امواله وفشا شأنه ، وعظم شرفه ، حتى آلت اليه سدانة البيت ومفتاح الكعبة ، وحتى تمكن من اجلاء خزاعة عن البيت الحرام بمعونة قريش وبعض القبائل الاخرى .

ولما تم لقصي امر مكة جمع قريشاً وامرهم ان يبنوا بها ، وابتدأ هو فبنى دار الندوة يجتمع فيها كبراء اهل مكة تحت امرته ليتشاوروا في امورهم ، ولم يكن يتم امر الا بموافقتهم ، فلم تكن تنكح امرأة ولا يتزوج رجل إلا في هذه الدار ، وبنت قريش بامر قصي حول الكعبة دورها وتركوا مكاناً كافياً للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين طريقاً ينفذ منه المطاف .

وكان عبد الدار اكبر ابناء قصي ، لكن اخاه عبد مناف كان قد تقدم عليه امام الناس وقد شرف فيهم ، فلما كبر قصي وضعف بدنه وعجز عن تولي امور مكة جعل الحجابة لعبد الدار ، وسلم اليه مفتاح البيت كما اعطاه السقاية واللواء والرفادة ، وكانت الرفادة قسطاً تخرجه قريش كل عام من اموالها فتدفعه الى قصي يصنع منه في موسم الحج طعاماً ينال منه من الحجاج من لم يكن ذا سعة ولا زاد .

وتولى عبد الدار مناصب الكعبة كأمر ابيه وتولاها ابناؤه من بعده . ولكن ابناء عبد مناف كانوا اشرف في قومهم واعظم مكانة ، لذلك اجمع هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنو عبد مناف على ان يأخذوا ما بايدي ابناء عمومتهم ، وتفرق رأي قريش تنصر طائفة هؤلاء ، واخرى اولئك ، وعقد بنو مناف حلف المطيبين لانهم غمسوا ايديهم في طيب جاؤوا به الى الكعبة ، واقسموا الا ينقضوا حلفهم ، وعقد بنو عبد الدار حلف الاحلاف ، وكان هؤلاء واولئك يوشكون ان يقتتلوا في حرب تذيب قريشاً ، لما تداعى الناس الى الصلح على ان يعطوا بني

عبد مناف السقاية والرفادة ، وان تبقى الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار ، ورضي الفريقان بذلك ، وظل الامر على هذا الحال الى ان جاء الاسلام .

اجداد محمد

وكان هاشم كبير قومه وكان ذا يسار فولي السقاية والرفادة ودعا قومه الى مثل ما دعاهم اليه قصي جده ، دعاهم الى ان يخرج كل منهم من ماله ما ينفقه في اطعام الحاج اثناء الموسم ، واتصل بره وكرمه باهل مكة انفسهم ، فلما اجدبت مواسمهم ، برهم في ايام الجدب والقحط ، وهاشم هو الذي سن رحلتي الشتاء والصيف ، رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام . وبهذه المظاهر كلها ازدهرت مكة وسمت مكانتها في انحاء شبه الجزيرة ، واعتبرت العاصمة المعترف بها ، وسهل هذا الازدهار لابناء عبد مناف ان يعقدوا معاهدات امن وسلام . وقد عقد هاشم بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع امير غسان معاهدة حسن جوار ومودة ، وحصل من الامبراطورية على الاذن لقريش بان تجوب الشام في امن وطمأنينة ، وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع النجاشي كما عقد نوفل والمطلب حلفاً مع فارس ومعاهدة تجارية مع الحميريين في اليمن . وكذلك ازدادت مكة منعة جاه كما ازدادت يساراً ، وبلغ اهلها من المهارة في التجارة حتى اصبحوا ولا يدانيهم فيها مدان من اهل عصرهم ، كانت القوافل تجيء اليها من كل صوب وتصدر عنها في رحلتي الشتاء والصيف ، وكانت الاسواق تنصب فيما حولها لتصريف هذه التجارة فيها او لتصريفها عنها ، ولذلك مهر اهلها في النسيئة والربا وفي كل ما يتصل بالتجارة من اسباب المعاملات .

وظل هاشم يتقدم به السن وهو في مكانته على رئاسة مكة لا يفكر احد في منافسته حتى خيل لابن اخيه امية بن عبد شمس انه قد بلـــغ مكاناً يسول له هذه المنافسة ، ففعل فلم يوفق (١).

المطلب

ومات هاشم فخلفه اخوه المطلب في مناصبه ، وكان المطلب اصغر من اخيه عبد شمس ، ولكنه كان ذا شرف وفضل وكانت قريش تسميه الفيض لسماحته وفضله .

وفكر المطلب يوماً بابن اخيه هاشم فذهب الى المدينة وطلب الى امه ان تدفع اليه الفتى وقد بلـــغ اشده ، واردف المطلب الفتى على بعيره ودخـل مكة فظنته قريش عبـداً له جاء به فتصايحت : عبـــد المطلب ...

فقال المطلب : ويحكم انما هو ابن اخي قدمت به من المدينة .

على ان هذا اللقب غلب على الفتى فدُعي به ونسي الناس اسم شيبة التي تسمى به منذ ولد .

واراد المطلب ان يرد على ابن اخيه اموال هاشم ، لكن نوفل ابى ووضع يده عليها ، فلما اشتد ساعد عبد المطلب استدعى اخواله بالمدينـة على عمه كي يردوا عليـــه حقه ، واقبل ثمانون فارساً من خزرج يثرب لنصرته ، فاضطر نوفل الى رد ماله اليه ، وقام عبد المطلب في مناصب هاشم ،له السقاية والوفادة من بعد عمه المطلب ، وقد لقي في القيـــام بهذين المنصبين ، وبالسقاية بنوع خاص ، شيئاً غير قليـل من المشقة ، فقد كان الى يومئذ وليس له من الابناء الا ولده الحـارث ، وكانت

(١) محمد : لحسين هيكل باشا... ابن الاثير والطبري ...

سقاية الحاج يؤتى بها منذ نضبت زمزم ، من آبار عديدة مبعثرة حول مكة فتوضع في احواض الى جوار الكعبة ، وقد كانت كثرة الولد عوناً على تسيير هذا العمل والاشراف عليه ، فأما ولم يكن لعبد المطلب من ولد حين ولي السقاية والرفادة الا الحارث فقد عناه الامر وطال فيه تفكيره .

حفر زمزم

وكانت العرب ما تزال تذكر زمزم منذ طمرها مضاض بن عمرو لثلاثمائة سنة خلت من السنين ، وتتمنى لو انها كانت باقية ما تزال ، وكان عبد المطلب بطبيعة مركزه اكثرهم تفكيراً في هذا الامر واشدهم تمنياً ان يكون ، والح هو باحثاً عن زمزم حتى اهتدى اليها بين الوثنين اساف ونائلة ، وجعل يحفر مستعيناً بابنه الحارث حتى نبع الماء وظهرت غزالتا الذهب واسياف مضاض الجرهمي ، وارادت قريش ان تشارك عبد المطلب في البئر وفي ما وجد بها فقال لهم :

— لا . ولكن هلموا الى امر نصف بيني وبينكم ، نضرب عليها بالقداح ، فنجعل للكعبة قدحين ، فمن خرج قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له .

فارتأوا رأيه ثم اعطوا القداح صاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل في جوف الكعبة ، فتخلف قدحا قريش وخرجت الاسياف لعبد المطلب والغزالتان للكعبة ، فضرب عبد المطلب الاسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب غزالتي الذهب حلية للبيت الحرام ، واقام عبد المطلب على سقاية الحاج بعد ان يسرتها زمزم له .

واحس عبد المطلب قلة حوله في قومه لقلة اولاده فنذر ان يولد له

عشرة بنين ثم بلغوا معه حتى يمنعوه من مثل مـــا لقي حين حفر زمزم لينحرن احدهم لله عند الكعبة . وتوافى بنوه عشرة انفس فيهم المقدرة ان يمنعوه ، فدعاهم الى الوفاء بنذره فاطاعوا ...

ثم فتقت لقومه الحيلة ففدى نذره بمائة من الابل ، فنحرت كلهـــا وبركت مكانها لا يصد عنها انسان ولا حيوان ولا يمنع .

الكعبة ومكة وقريش

والكعبة بيت صغير مربع الشكل يحيط به بناء مكشوف ، وهي الى ذلك رمز لمجد القبائل العربية ، فقد كان لكل قبيلة فيهـا صنمها ، وتمثال « هبل » صنم قريش وهو من العقيق ، كانوا له اكثر احتراماً وتقديساً من جميع الاصنام الاخرى .

وقد اسست قريش في مكة وحول الكعبة حكومة جمهورية مصغرة ، ولما كانت قريش قبيلة تجـارية فقد رأت من حسن السياسة ولباقة الحيلة ان تتخذ جزءاً من الارض المجاورة توليه احترامها وتعتبره مقدساً وتجعله حراماً لا يحل فيه القتال ، واخذوا على عـاتقهم حمايته فاطمأنوا عندئذ الى انهم في امن وسلام من اعتداء القبائل عليهم ونشوب المعارك في جوارهم ، وقد زاد في مجد قريش انهـــا في مكة ، وان الكعبة في مكة .

واما نظام الحكم في قريش فلا يذكر التاريخ عنه شيئاً مذكوراً قبل عهد قصي الذي انشأ دار الندوة بمكة ، وكان له من مظاهر الرياسة اربعة امور :

١ - رئاسة الندوة حيث تتشاور قريش في مهـام الامور ، ويصار فيها الى الزواج وكان لا يسمح بدخولها الا لمن بلغ الاربعين من عمره .

٢ – كان امير اللواء فلا تعقد راية لحرب الا بامره .

٣ – حماية الكعبة وسدانتها ، فلا يفتح باب الكعبة الا هو ، وهو الذي يتولى خدمتها ايضاً .

٤ – سقاية الحاج ورفادته ، وكانوا يملأون للحجاج احواضاً من الماء يحلونها بشيء من التمر والزبيب ، واما الرفادة فهي طعام كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافة ، وقد قام بهذه الضيافة بعد قصي ابنه عبد مناف ، فابنه هاشم ، فابنه عبد المطلب ، ثم ابنه ابو طالب ، ثم اخوه العباس عم النبي .

وكانت اشهر الحج عندهم اشهراً حرماً يعقدون فيها اسواقهم التجارية حول الحرم فلا يجرؤ احد على الاخلال بحرمة البيت ، واثارة الشقاق والخلاف والحرب حوله .

واما حلف الفضول فقد كان عاملاً كبيراً من عوامل الامن والسلام والعدل في الجزيرة ، وخبره ان قريشاً اخذت على نفسها ان ترد كل مظلمة لاهلها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره .

والواقع ان كل هذه العوامل التجارية والدينية والاجتماعية ساعدت على اعلاء منزلة قريش ، بحيث تزعمت العرب في عهدها ، وزاد خطرها شأناً ، وامرها عزة ، لما مشى ابرهة الحبشي الى الكعبة يريد هدمها فلم يوفق .

ابرهة والكعبة

ولقد كان سبب هذا الزحف الحبشي على مكة وكعبتها ان ما بلغته مكة في بلاد العرب من مقام عظيم لبيتها الحرام وحج الناس له ، وتقاطر التجار اليه ، مما كان يزيد في ثروة القرشيين ويوفر لهم الخير

والثراء ، ان اخذت بعض الامم تفكر في انشاء بيت على غرار البيت في مكة لعلها تصرف العرب عنه ، فاقام الغساسنة بيتاً في مواطنهم ، واقام ابرهة الحبشي بيتاً باليمن ، فلم يغن ذلك العرب عن بيت مكة ، ولا هو صرفهم عنه ، فاغضب ذلك ابرهة واحقده وقرر الزحف على مكة وهدم بيتها ... وتهيأ للحرب في جيش من الحبشة تقدمه هو على فيل عظيم ركبه .

وأسقط في يد العرب وعظم عليها ان يقدم رجل حبشي على هدم بيت حجهم ومقام اصنامهم ، وهب رجل كان من اشراف اهل اليمن وملوكهم يدعى ذا نفر ، فدعا قومه ومن اجاب من غيرهم من العرب لمقاتلة ابرهة وصده عما يريد من هدم بيت الله ، لكنه لم يستطع ان يصمد لابرهة بل هزم وأخذ اسيراً ، وهزم كذلك نفيل بن حبيب الخثعمي واخذ هو الآخر اسيراً فاقام نفسه دليلاً لابرهة وجيشه .

فلما نزل ابرهة الطائف كلمه اهلها بان بيتهم ليس هو البيت الذي يريد ، انما هو بيت اللات ، وبعثوا معه من يدله على مكة ، فلما اقترب من مكة ، بعث رجلاً من الحبشة على فرسان له فساق اليه اموال اهل تهامة من قريش وغيرهم وبينهم مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهمت قريش ومن معهم من اهل مكة بقتاله فرأوا ان لا طاقة لهم به ، وبعث ابرهة رجلاً من رجاله يدعى حناطة فسأل عن سيد مكة .

فذهبوا به الى عبد المطلب بن هاشم فابلغه رسالة ابرهة اليه : انه لم يأت لحرب وانما جاء لهدم البيت فان لم تحاربه مكة فلا حاجة له بدماء اهلها .

فلما ذكر عبد المطلب انهم لا يريدون حرباً ، سار به حناطة ومع عبد المطلب بعض ابنائه وبعض كبار مكة حتى بلغوا معسكر الجيش

فاكرم ابرهة وفادة عبد المطلب واجابه الى رد ابله اليه ، ولكنه رفض رفضاً باتاً كل حديث في امر الكعبة ورجوعه عن هدمها برغم ما عرض عليه اهل مكة من النزول له عن ثلث ثروة تهامة ، وعاد عبد المطلب وقومه الى مكة ، فنصح الى اهلها ان يخرجوا منها الى شعاب الجبل خيفة من ابرهة وجيشه ، حين يدخلون البلد الحرام لهدم البيت العتيق .

وذهب عبد المطلب ومعه نفر من قريش فاخذ حلقة باب الكعبة واخذ يدعو ويدعون ، يستنصرون آلهتهم على هـذا المعتدي على بيت الله ، فلما انصرفوا وخلت مكة منهم وآن لابرهة ان يوجه جيشه ليتم له ما اعتزم فيهدم البيت ويعود ادراجه الى اليمن ، كان وباء الجدري قد تفشى في الجيش واخذ يفتك به ، وكان فتكاً ذريعاً لم يعهد من قبل قط ، ولعل جراثيم الوباء جاءت من الريح من ناحية البحر واصابت العدوى ابرهة نفسه فاخذه الروع وامر قومه بالعودة الى اليمن ، وفر الذين كانوا يدلون على الطريق ، ومات منهم من مات ، وكان الوباء (الجدري) يزداد كل يوم شدة ، ورجال الجيش يموت منهم كل يوم بغير حساب ، وبلغ ابرهة صنعاء وقد تأثر جسمه من المرض ، فلم يقم الا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه وبذلك ارخ اهل مكة عام الفيل هذا وقدسه القرآن بذكره له ، وفي هذا العام ولد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

نتائج عام الفيل

اما اثر هذا الحادث العظيم في إكبار مقام مكة الدينية والتجارية فكان عظيماً حقاً ، زاد مكة رفعة ، وزاد الكعبة اجلالاً وتقديساً ، وزاد اهل مكة مرحاً وفخراً ، واكثاراً من المباهاة ، واغراقاً في

الرخاء والترف ، والاستمتاع بالاشربة خصوصاً النبيذ ، واطلاقاً لعنان شهواتهم ، كما زادهم حرصاً على حريتهم وحرية مدينتهم ، والذود عن هذه الحرية ما كان الى ذلك سبيل .

وعادت الحياة الهانئة الوادعة الى مكة بعد هذا الحادث ، فاخذاهلها يجلسون في كل صباح ومساء الى جانب نيف وثلاثمائة صنم ، يقص بعضهم على بعض اخبار البادية واطراف البادية ، وما يقع في الحيرة وعند الغساسنة ، مما ترويه القوافل ، او يتناقله اهل البادية .

ولم يكن بمكة من اليهود والنصارى الا عدداً قليلاً ، وكانت مكة وكعبتها مركز الوثنية في الجزيرة كلها ، وكانت منازل اهل مكة تحيط بدار الكعبة وتقترب منها او تبتعد عنها ، وفاقاً لما تنعم به كل اسرة او فخذ من جلال الخطر ، وجليل المقام ، فكان القريشيون اقربهم اليها داراً ، واكثرهم بها اتصالا ، كما كانت لهم سدانتها وسقاية زمزم ، وكل القاب الشرف الدينية الوثنية ، التي قامت من اجلها حروب ، وعقدت من اجلها احلاف ، ووضعت بينها وبين القبائل معاهدات صلح حفظت في الكعبة وبين اصنامها تسجيلاً لها ، وليحل غضب الاصنام بمن يخل بتعهداتها ، وفيما وراء منازل قريش كانت تجيء منازل القبائل التي تليها في الخطر ، ثم تلي هذه منازل من دونهم حتى تكون منازل العبيد ، وكانت منازل اليهود والنصارى بمكة بعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء.

الحجاز

وكانت مكة واقعة في الحجاز ، والحجاز مؤلف من ثلاث مدن مكة والمدينة والطائف ، وكانت الطائف تعلو ستة الاف قدم عن سطح البحر ، وهي مصيف الاشراف من قريش ، ولا تزال كذلك الى اليوم

وهي تشبه جبال لبنان في جمالها وكثرة اشجارها ، يستخرج منها العسل والموز ، والتين والعنب ، والزيتون ، والطيب من بعض الزهور .

واما المدينة فكانت تبعد ثلاثمائة ميل شمالا عن مكة ، يكثر فيها النخيل ، وكانت مدينة زراعية عامرة .

ومهما يكن من ضعف الحجاز في الثقافة والحضارة قبل الاسلام وبعده ، وعدم تمكنه من انشاء دولة ونظام سياسي مستقر ، فان سكانه لم يكونوا بعيدين عن الثقافة والحضارة المعروفتين في عهدهم ، اذ كانت اكثر تجارات الامم المتحضرة تمر بارضهم ، فتجارة اليمن والحبشة في طريقها الى سورية والعراق وغيرهما من الامصار ، كانت تمر بمكة ، وبواسطة الحيرة عاصمة العراق كانت تدخل الثقافات الفارسية والارامية والنسطورية الى الحجاز ، كما ان الحجاز كان على اتصال دائم بالغساسنة والسوريين المتحضرين بسبب القوافل التجارية التي كانت تسير بين سورية ومكة .

الحياة البدوية

والعرب من حيث حالتهم الاجتماعية ينقسمون الى قسمين : البدو وهم اغلب سكان الجزيرة ، والحضر وهم سكان المدن وما يقوم على اطرافها من مزارع وغيرها ، وهؤلاء كانوا يكثرون في اليمن ويقلون في الحجاز ، اذا استثنينا مكة والمدينة والطائف .

وقد وصفنا في فصول سابقة كيف كان البدو يعيشون ، وكيف وكيف كان سكان المدن يقيمون في مدنهم ، وينعمون بهذه الحضارة والرفاهية التي كانت تسوقها المدنية اليهم ..

ونحن حين ندرس الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية لابد لنا ان

نعرض لخيام البدو التي هام في وصفها الشعراء ، كما كثر بكاؤهم على اطلالها والاثار الباقية بعد رحيل اصحابها عنها .. كما تجب الاشارة الى الابل التي كانت عماد الحياة في الجزيرة يأكلون من لحومها ويشربون من البانها ، ويكتسون من اوبارها ، ويحملون عليها اثقالهم ويقايضون عليها في المقابضات ، كما يقوّمون بها ثروتهم ، ويفتدون بها اسراهم ، ويؤدون منها دية القتلى ، ويمهرون بها في الزواج ، فكل هذه الاسباب دعتهم الى العناية بتربيتها ودعتهم الى ان يكيفوا حياتهم وفاقاً لحياتها ، يرحلون من مكان الى آخر لاجلها ، ويتطلبون اماكن الدفء لتوليدها ، كما بنوا كثيراً من لغتهم عليها ، وضربوا فيها الامثال الكثيرة ، وتغنى الشعراء في وصفها ، وتغنوا باشعارهم في حدائها ...

وكانت لديهم الخيل يعنون بها ، ولكنها كانت متاع المترفين ، واما الابل فهي متاع العرب جميعهم .

واما العلاقات بين القبائل العربية فكانت علاقات عداء غالباً ، ومن اجل هذا شغلت حياة القبائل والافراد الحروب والغزوات ، يتغنى بها الشعراء في قصيدهم ، ويتحدث بها الاعراب في منادرهم ، وكانت ظاهرة الاخذ بالثأر والانتقام شديدة عندهم ، طغت على كل ما عداها في حياتهم الاجتماعية ، بحيث ملئ الشعر الجاهلي بوصف الوقائع والحروب والتمدح بالاخذ بالثأر ، والفخر بالانتصار ، والانفة من المذلة ، والاعتزاز بالقوة ، والحرص على الشرف دون الحياة والمال ، كما ملئ بوصف الات الحرب من رماح واسنة وسهام ومجان ودروع وسيوف ، فسادت الاخلاق الحربية حياتهم ، وغمرتهم الوان الشجاعة والكرم والوفاء ، فاطنبوا في مدحها وعدوها غاية الغايات .

وكما كان الصيد من متع الحياة عندهم ، كانت الخمرة فاشية بينهم ،

فلا ترى شاعراً جاهلياً يتحدث عن حياته من غير ان يتحدث عن الخمر وكرمه اذا شرب .

الحضريون

اما الحضريون وهم اهل الامصار والمدن فقد كانوا اقل شجاعة واكثر حباً للمال ، واكثر توفراً على اسباب الترف والنعيم ، وقد نبغوا في التجارة ، وجابت قوافل القرشيين البلاد طولا وعرضاً كما فعل اهل اليمن قبلهم ، فوصلوا الى غزة وبيت المقدس ودمشق وعبروا البحر الاحمر الى الحبشة ، وكانت ميناء جدة وتبعد عن مكة اربعين ميلاً واسطة عقد التجارة بين الحجاز والحبشة ، فكانت تحمل كنوزها الى القطيف في اقليم البحرين حيث تنقل في القوارب مع اللؤلؤ الذي كان يستخرج من سواحل الخليج الفارسي الى مصب الفرات .

ومن المؤكد ان هذه الصلات بين قريش والامم المتحضرة حولها ، قد افضى اليها بكثير من الفوائد الاجتماعية ، وزادها معرفة بالجماعات التي تعيش على اطرافها ، فارتقت مداركهم ، وحسنت ادارتهم لشؤون الكعبة وشؤونهم الخاصة واثرى بعضهم اثراء عظيما .

ايام العرب

وايام العرب في الواقع ليست إلا معارك صغيرة ، لاسباب تافهة تحصل بين القبائل المتفرقه ، من اختلاف حول الكلاء والمرعى والماء ، وجمل ضل ، وناقة ضاعت ، فاخذتها قبيلة ثانية ، وهذه الايام تمثل لنا العربي في صحرائه احسن وصف ، فتصف لنا تمسكه بالاخذ بالثأر ، واجارة المظلوم ، واكرام الضيف ، كما تصف لنا بطولة الافراد ،

ورغبة القبائل في الغزو ، واحراز المجد عن طريق السلاح والبطولة والاقدام والبأس والشجاعة ، وتبدأ هذه المعارك او الايام عادة باختلافات او اختلاف يقع بين الافراد ، ثم يتعداه الى عامة افراد القبيلة الذين يتضامنون مع نسيبهم ظالماً كان ام مظلوماً .

كذلك كان يوم « بوات » بين الاوس والخزرج في المدينة ، وحرب « الفجار » بين قريش و كنانه وبين هوازن ، وكان محمد صغيراً يومئذ ، ولكنه اشترك مع عشيرته في هذه الحرب .

واهم هذه الايام حرب البسوس التي وقعت في اواخر القرن الخامس المسيحي بين بني بكر وبني تغلب ، وكانت سبب الحرب تعرض كبير من بني تغلب لبقرة تخص امرأة من بني بكر وجرحه لها ، فنشبت الحرب بين القبيلتين ، وظلت مستعرة اربعين سنة ، وانتهت اخيراً بالصلح سنة ٥٢٥ بتوسط المنذر الثالث ملك الحيرة ، بعد ان انهكت الحرب القبيلتين وافنت رجالها ، وكان يتزعم بني بكر وشيبان الحرث بن مرة ، ويتزعم تغلب المهلهل الشاعر .

وهناك ايام داحس والغبرا التي وقعت بين عبس وذبيان في وسط بلاد العرب ، ونشبت الحرب بين القبيلتين حول سباق خيل ، بين داحس والغبرا ، وابتدأت سنة ٥٢٥ - ٦١٥ اي بعد انتهاء حرب البسوس ، واشتهر فيها اسم عنترة العبسي البطل العربي والشاعر المشهور .

مركز الحجاز ومكة

وكان الحجاز عامة ، ومكة خاصة مركز الحركة الدينية والتجارية والاجتماعية عند العرب ، لانه متى كثر اقبال الناس على بلد من البلاد ، زادت تجارته انتشاراً ، وامره تبسطاً ، واذاً فقد كان حج العرب الى

مكة و كعبتها يحدث حركة تجارية عظيمة ، وحركة ادبية كبيرة ، وكان امتناع الناس في هذه الاشهر الحرم عن ايذاء بعضهم بعضاً ، يساعد على اقبال العرب على هذه المواسم ، التي كانت تحدث نشاطاً فكرياً وتجارياً ودينياً عظيماً ، لا سبيل الى انكاره ، رددت آثاره الاخبار والقصائد والنادر الادبية التي حملها لنا التاريخ عن شعراء الجاهلية وخطباء الجاهلية ، في هذه الاسواق التجارية الادبية التي كانت تقام في عكاظ والمربد ، وغيرهما من اسواق العرب ...

وكانت عكاظ تقع في الجنوب الشرقي من مكة ، وعلى بعد عشرة اميال من الطائف ونحو ثلاثين ميلاً من مكة في مكان منبسط وواد فسيح فيه نخيل واعشاب وماء .

وسبب اهمية سوق عكاظ كما يقول المؤرخون : ان موعد انعقادها كان قبيل الحج ، وهي قريبة من مكة ، فمن اراد الحج من جميع قبائل العرب ، سهل عليه ان يجمع بين الغرض التجاري والاجتماعي بغشيانه سوق عكاظ قبل تأدية الحج ، وبين الغرض الديني بالحج . وان موسم السوق كان في شهر من الاشهر الحرم على قول اكثر المؤرخين ، والعرب كانت في (الشهر الحرام) لا تقرع الاسنة ، فيلقى الرجل قاتل ابيه او اخيه فيه فلا يهيجه تعظيماً له ، وفي انعقاد السوق في الشهر الحرام مزية واضحة ، وهي ان يأمن التجار فيه على ارواحهم واموالهم ، وان كانوا احياناً قد انتهكوا حرمة الشهر الحرام فاقتتلوا كالذي روي في الاخبار عن حروب الفجار ، ولكن هذا كان نادراً والقتل في هذا الشهر كان عملاً قبيحاً مستهجناً .

« وكان يأتي عكاظ ، قريش وهوازن وغطفان والاحابيش وطوائف من افناء العرب ، وكانت كل قبيلة تنزل في مكان خاص من السوق ، وفي التاريخ ان رسول الله ذهب مع عمه العباس الى عكاظ ليريه العباس منازل الاحياء فيها ، ويروي كذلك ان رسول الله جاء كندة في منازلهم بعكاظ .

بل كان يشترك في سوق عكاظ اليمنيون والحيريون ، ويقول الازرقي : (١)

« كان في عكاظ اشياء ليست في اسواق العرب ، كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والحلة الحسنة والمركوب الفاره ، فيقف بها وينادي عليه ليأخذه اعز العرب ، يراد بذلك معرفة الشريف والسيد، فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته ، ويروي ابن الاثير عن ابي عبيدة «ان النعمان بن المنذر لما ملكه كسرى ابرويز على الحيرة كان النعمان يجهز كل عام لطيمة — وهي القافلة من التجارة — لتباع بعكاظ» .

فترى من هذا ان بلاد العرب جميعها كانت تشترك في هذه السوق .

واختلفت الاقوال في موعد انعقادها ، واكثرها على انه كان في ذي القعدة من اوله الى عشرين منه ، او من نصفه الى آخره ، وقال الازرقي في تاريخ مكة :

« فاذا كان الحج ... خرج الناس الى مواسمهم فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة فيقيمون به عشرين ليلة تقوم فيها اسواقهم بعكاظ، والناس على مراتبهم وراياتهم متحازين في المنازل تضبط كل قبيلة

(١) تاريخ مكة... الازرقي.

اشرافها وقادتها ، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء ، ويجتمعون في بطن السوق ، فاذا مضت العشرون انصرفوا الى مجنة فاقاموا بها عشراً ، واسواقهم قائمة ، فاذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا الى ذي المجاز ثم الى عرفة ، وكانت قريش وغيرها من العرب تقول لا تحضروا سوق عكاظ والمجنه وذا المجاز الا محرمين بالحج ، وكانوا يعظمون ان يأتوا شيئاً من المحارم او يعدو بعضهم على بعض في الاشهر الحرم وفي الحرم » .

في سوق عكاظ

وكانت سوق عكاظ تقوم بوظائف شتى فهي متجر تعرض فيه السلع على اختلاف انواعها ، يعرض فيه الادم والحرير والوكاء والحذاء والبرود من العصب والوشي وغيرها ، ويباع بـه الرقيق ويعرض فيه كل سلعة عزيزة وغير عزيزة ، فما تهديه الملوك يباع بسوق عكاظ ، ويتقاتل ابن الخمس مع الحارث بن ظالم فيقتله ابن الخمس ويأخذ سيف الحارث يعرضه للبيع في عكاظ ، وعبلة بنت عبيد بن خالد يبعثها زوجها بالسمن تبيعه له بعكاظ .

ولم تكن العروض التي تعرض في سوق عكاظ قاصرة على منتجات جزيرة العرب ، فالنعمان يبعث الى سوق عكاظ بقافلة من حاصلات الحيرة وفارس لتباع بها ، ويشتري بثمنها حاصلات اخرى ، بل كان يباع في عكاظ سلع من مصر والشام والعراق ، فيروون انه قبل البعث بخمس سنين حضر السوق من نزار واليمن ما لم يروا انه حضر مثله في سائر السنين ، فباع الناس ماكان معهم من ابل وبقر ونقد وابتاعوا امتعة مصر والشام والعراق .

وكانت السوق تقوم باعمال مختلفة اجتماعية ، فمن كانت له خصومة عظيمة انتظر موسم عكاظ ، وكانوا اذا غدر الرجل او جنى جناية عظيمة انطلق احدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر فيقول : الا ان فلان ابن فلان غدر فاعرفوا وجهه ، ولا تصاهروه ولا تجالسوه ، ولا تسمعوا منه قولاً ، فان اعتب ، وإلا جعل له مثل مثاله في رمح فنصب بعكاظ فلعن ورجم .

ومن كان له دين على آخر انظره الى عكاظ .

ومن كان له حاجة استصرخ القبائل بعكاظ كالذين حكى ألاصفهاني ان رجلاً من هوازن أسر فاستغاث اخوه بقوم فلم يغيثوه فركب الى موسم عكاظ واتى منازل قبيلة مذحج يستصرخهم .

وكثيراً ما تتخذ السوق وسيلة للخطبة والزواج فيروى الاغاني انه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ ، وقدم امية بن الاسكر الكناني وتبعته ابنة له من اجمل اهل زمانها فخطبها يزيد وعامر . فتردد ابو هاشم ، ففخر كل منهما بقومه وعدّد فعالها في قصائد ذكرها . (١)

ومن كان صعلوكاً فاجراً خلعته قبيلته – ان شاءت – بسوق عكاظ وتبرأت منه ومن فعاله ، كالذي فعلت خزاعة :

« فقد خلعت قيس بن منقذ بسوق عكاظ ، واشهدت على نفسها بخلعها اياه ، وانها لا تحتمل له جريرة ، ولا تطالب بجريرة يجرها احدعليه » .

ومن كان داعياً الى اصلاح اجتماعي او انقلاب ديني كان يرى ان خير فرصة له سوق عكاظ ، والقبائل من انحاء الجزيرة مجتمعة ، وكثيراً ما كانوا يرون قس بن ساعدة يقف بسوق عكاظ يدعو دعوته ، ويخطب

(١) الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني .

فيها خطبته المشهورة على جمل له ، فيرغب ويرهب ويحذر وينذر .

محمد في عكاظ

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اتجه الى دعوة الناس بعكاظ لانها بجمع القبائل ، وروى الواقدي : ان رسول الله اقام ثلاث سنين من نبوته مستخفياً ، ثم اعلن في الرابعة فدعا عشر سنين ، يوافي الموسم ، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ والمجنة وذي المجاز ، يدعوهم الى ان يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فلا يجد احد ينصره حتى انه يسأل عن القبائل ومنازلهم قبيلة قبيلة ، حتى انتهى الى بني عامر بن صعصعة فلم يلق من احد من الاذى ما لقي منهم ، وفي خبر آخر انه اتى كندة في منازلهم بعكاظ فلم يأت حياً من العرب كان ألين منهم ، وعن علي بن ابي طالب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج في الموسم فيدعو القبائل فما احد من الناس يستجيب له نداءه ، ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتي القبائل بمجنة وعكاظ ومنى ، ثم يعود اليهم سنة بعد سنة ، حتى كان من القبائل من قال له :

– اما آن لك ان تيأس منا ؟... من طول ما يعرض نفسه عليهم .

وروى اليعقوبي : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء فقال :

– « يا ايها الناس قولوا لا اله الا الله ، تفلحوا وتنجحوا » ، وكان يتبعه رجل يكذبه وهو عمه ابو لهب بن عبد المطلب .

وكان لعكاظ اثر كبير لغوي وادبي ، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها ، وملك الحيرة يبعث تجارته اليها ، ويأتي التجار من مصر والشام والعراق ، فكان ذلك وسيلة من

وسائل تفاهم القبائل ، وتقارب اللهجات ، واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى انه اليق بها وانسب لها ، كما ان التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على اشياء مما رأوا من احوال تلك الامم الاجتماعية ، وفوق هذا كانت عكاظ معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب وينشد ذلك كله ويهذب قال ابو المنذر : « كانت بعكاظ منابر في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مآثره وايام قومه من عام الى عام . »

نظام سوق عكاظ

وكانت القبائل – كما اسلفنا – تنزل كل قبيلة منها في مكان خاص بها ، ثم تتلاقى افراد القبائل عند البيع والشراء او في الحلقات المختلفة . كالذي حكي ان الاعشى رأى الناس يجتمعون على سرحة ، او حول الخطيب يخطب على منبر ، او في قباب من ادم تقام هنا وهناك ، ويختلط الرجال بالنساء في المجامع ، وقد يكون ذلك سبباً في خطبة او زواج او تنادر وكانت تحضر الاسواق – وخاصة سوق عكاظ – اشراف القبائل « وكان اشراف القبائل يتوافون بتلك الاسواق مع التجار لان الملوك كانت تخص كل شريف بسهم من الارباح ، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظ فانهم يتوافون بها من كل اوب » .

والظاهر ان المراد بالملوك هم الامراء ورؤساء القبائل الذين يرسلون بضائعهم لبيعها في اسواق العرب كملك الحيرة والغساسنة وامراء اليمن ونحوهم ، وكانت القبائل تدفع لروسائها اتاوة في نظير اقامتهم بالسوق ، فقد ذكر اليعقوبي في تاريخه اخبار اسواق كثيرة كان

يعشرها اشرافها – اي يأخذون العشر ، وفي عكاظ كانت القبائل تدفع لاشرافها هذه الاتاوة . فهوازن كانت تدفع لزهير بن جذيمة الاتاوة كل سنة بعكاظ ، وهو يسومها الخسف وفي انفسها منه غيظ وحقد ، وكانت الاتاوة سمناً وغنماً وغيرهما ، وكان عبد الله بن جعدة سيداً مطاعاً وكانت له اتاوة بعكاظ يأخذها ، ويدفعها له هذا الحي من الازد وغيرهم ، ومن هذه الاتاوة ثياب .

وكان الاشراف يمشون في هذه الاسواق ملثمين ، ولا يوافيها (عكاظ) شريف إلا وعلى وجهه برقع مخافة ان يؤسر يوماً فيكبر فداؤه .

وكان على سوق عكاظ كلها رئيس اليه امر الموسم واليه القضاء بين المتخاصمين ، حتى جاء الاسلام فكان يقضي بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع .

تاريخ عكاظ

ومن العسير جداً ان نحدد بدء عكاظ ، فلسنا نجد في ذلك خبراً يصح التعويل عليه ولكنها على كل حال ليست قديمة جداً وقد لا تمتد الى اكثر من مائة سنة قبل الاسلام .

واستمرت عكاظ في الاسلام ، وكان يعين فيها من يقضي بين الناس ، فعين محمد بن سفيان بن مجاشع قاضياً لعكاظ ، وكان ابوه يقضي بينهم في الجاهلية وصار ذلك ميراثاً لهم .

وضعف شأن هذه الاسواق بعد الفتوح فاصبحت البلاد المفتوحة اسواقاً للعرب خيراً من سوق عكاظ ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة لقضاء اغراضهم ، فضعفت اسواق العرب ومنها

عكاظ ، ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بهـا قبيل سقوط الدولة الاموية . قال الكلبي : « وكانت هذه الاسواق بعكاظ ومجنة وذي المجاز قائمة في الاسلام حتى كان حديثاً من الدهر » فأما عكاظ فانما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع ابي حمزة المختار بن عوف الازدي الاباضي في سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس ان ينهبوا وخافوا الفتنة فتركوها ، ثم تركت مجنة وذو المجاز بعد ذلك واستغنوا بالاسواق بمكة وبمنى وبعرفة ...

فعكاظ عاصرت العصر الجاهلي الذي كان فيه ما وصل الينا من شعر وادب ، وجرت فيها احداث تتصل بحياة النبي صلى الله عليه وسلم قبيل مبعثه ، ومهدت السبيل قبيل الاسلام لتوحيد اللغة والادب ، وعملت على ازالة الفوارق بين عقليات القبائل ، وقصدها النبي صلى الله عليه وسلم يبث فيها دعوته ، وعاصرت الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الاموي ولكن حياتها في الاسلام كانت اضعف من حياتها قبله ، وبدأ ضعفها من وقت الهجرة لما كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة او بين المؤمنين والمشركين ، فلما فتحت الفتوح رأى العرب في اسواق المدن المتحضرة في فارس والشام والعراق ومصر عوضاً عنها ، ثم كانت ثورة ابي حمزة الخارجي بمكة فلم يأمن الناس على اموالهم فخربت السوق ، وختمت صحيفة لحياة حافلة ذات اثر سياسي واجتماعي وادبي في تاريخ العرب.

المربد

اما (المربد) فضاحية من ضواحي البصرة في الجهة الغربية منها مما يلي البادية ، بينه وبين البصرة نحو ثلاثة اميال وكان سوقاً للابل ، وهو

واقـــع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة اليها ، ويظهر انه نشأ سوقاً للابل ، انشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شؤونهم قبل ان يدخلوا الحضر او يخرجوا منه .

وكان هذا السوق اقل خطورة من عكاظ ، وكان سوقـــاً للدعوات السياسية ، وعاشت هذه السوق الى العصر العباسي ، فكانت اطول عمراً من عكاظ ، وان كانت اقل منها شأناً واهمية .

الحالة الادبية

اما حالتهم الادبية فليس من شك انها كانت تساوق حياتهم التجارية تقدماً وتبسطاً وازدهاراً ، واذا كان التعليم في الجاهلية لم يكن منتشراً بين العرب كل الانتشار ، فان مغامراتهم التجارية ، وتجوالهم من منطقة الى احرى قد افادهم كثيراً ، وجعلهم يتصلون بالامم المجاورة لهم والتي كانت اكثر منهم علماً ومعرفة وثقافة ، فخرج من هذا الاختلاط هذه الحركة الادبية التي فشت قبل الاسلام في الشعر خصوصاً ، والتي بلغت درجة سامية من الرقي، مما يدل على انها ليست وليدة هذه السنوات القليلة التي سبقت الاسلام ، وانما هي قديمة تضرب في الجاهلية لا اقل من مائتي سنة .. على الارجح .

وسبب ذلك ان ما وصلنا من الشعر الجاهلي كامل في تعبيره ، راق في معانيه ، وهذا يستحيل ان يحصل ارتجالا وعفواً ، فلا بد ان يكون قد سبقه شعر اقل منه اتزاناً ، وادنى تعبيراً .

وكان الشاعر الى ذلك ضروري لكل قبيلة عربيـة ، فهو الذي يرد بشعره كيد اعدائها ، ويحمسها في الحرب ، ويصف مناقبها ، ويتبسط في تاريخها ومفاخرها ، فالشاعر اذن كان داعية سيارة لقبيلته ، وصحيفة

تدافع عنها ، وترد جور الخصوم وتبني لها المجد الذي تستحقه والذكرى التي هي خليقة بها ، وكان الشعراء الجاهليون من ارقى الطبقات عقلاً ، وارقهم شعوراً ، سبقوا قومهم الى ادراك كثير من حقائق الحياة فصاغوها في شعرهم ، كما وصفوا الحياة في زمنهم وصفاً نعتقد بحق انه اصدق وصف للحياة في العصر الجاهلي ، واذا كانت غاية الادب ان يصف الكاتب الحياة في عصره ، فشعراء الجاهلية قد وفقوا في ذلك توفيقاً يدعو الى الاعجاب والاكبار .

وليس في العالم كما يظهر للباحثين لغة كانت تؤثر على اهلها كاللغة العربية ، فتثير عواطفهم ، وتنسيهم انفسهم ، وتحفزهم للقتال ، والاقدام والاستبسال والتضحية ، وتخلق حولهم جواً جديداً لا عهد لهم به من قبل ، ولذلك لم يفطن العربي لغير لغته من الوان الحضارة والثقافة ، فعنى بها اكثر من عنايته باي شيء آخر ، وصرف حياته في تشذيبها ، ووضع قصيدها ، ورصف عباراتها ، واختيار مفرداتها ، في اسلوب رائع ، وكلمات مختارة ، ما تزال حتى يومنا هذا مدار اعجاب الباحثين والمحققين ، فالشاعر الذي ينبغ عندهم كان حقيقاً بالتبجيل والاكبار ، وهو الى ذلك يماثل الخطيب السياسي اليوم ، او الجريدة المعاصرة ، بقصيده تفصح القبيلة عن اغراضها ، وباشعاره تعلن عن رأيها ، وتتبسط في غاياتها وامالها وامجادها ومفاخرها ، والقصيدة الرائعة كانت تعلق على الكعبة ، اعظاماً لها واكباراً لبلاغتها وجمالها الفني .

والواقع ان العربي لم يفطن لغير لغته ، وكان ضعيف الايمان بكل شيء حتى باوثانه ، ولذلك لم يخلق حولها الشعائر الدينية المفروضة ، والموجودة عند غيره من الامم الوثنية ، فعبادته كان عليها مسحة عربية من البداوة والبساطة .

وليس من شك في ان من اراد ان يخلق لنفسه اسماً في الجزيرة العربية كان عليه ان يخلق هذا الاسم في سوق عكاظ او في مكة ، وفي إبان المواسم التي ذكرناها ووصفناها ، وليس بعجيب بعد كل هذا ان ان تصبح مكة مركزاً عظيما دينياً وتجارياً ،خصوصاً بعد سقوط سلطان حمير في جنوبي الجزيرة ، فقد اصبحت مكة اعظم مدينة في العربية ، وليس مرد سلطانها هذا الى وجود الكعبة فيها فحسب ، بل ان شيئاً كثيراً من هذا السلطان يعود الى ذكاء القرشيين وتقدمهم الثقافي بالنسبة لغيرهم من القبائل العربية الاخرى ، كما وان مركز مكة التجاري ووقوعها على طرق المواصلات العالمية كما قدمنا قد ساعد على حمل ثقافات الامم المتحضرة والمجاورة الى مكة وسكان مكة ، ولا ادل نشاط قريش وتقدمها الثقافي والتجاري من قيام نسائها بالمتاجرة مستقلات عن الرجال ، كما كان حال خديجة زوج رسول الله ، مما يدل طبعاً على حرية اجتماعية رائعة ، وحياة اجتماعية رفيعة ، وثروة عريضة ، والثقافة والحضارة يتبعان الثروة دائماً وابداً ، اذ يصبح الانسان في رفاه من العيش يحمله على التفكير في العوالم التي حوله والتفكير اول الحضارة والتقدم .

ثم ان مكة الى ذلك كانت تنعم بحياة ونظم سياسية مقررة ، كدار الندوة التي كانت تتشاور فيها قريش في مهام الامور ، ويصار فيها الى الزواج ، والى إقرار الحرب وغير ذلك من المسائل الخطيرة ، مما يدل على وجود نظام ثابت مقرر تقبلته قريش ، ورضيت بالنزول تحت سلطانه .

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY

واذا فنحن في مكة وفي اول القرن السابع الميلادي امام نظام اجتماعي وسياسي يمثل ما كانت عليه العرب في ذلك العهد ، مع تمزقها وانقسامها الى قبائل مختلفة ، لا يعرف فيها العربي غير قبيلته ولا يعمل لغير قبلتيه ، واما الوطنية العربية والوحدة العربية فكانت شيئاً بعيداً عن فهمه وعقله .

وكذلك كان ينقص العربي شيئاً آخر ، هو الطاعة ، كان هناك في البادية زعماء وشيوخ ، ولكن احداً من هؤلاء لم يكن يستطيع فرض سلطانه على العربي فرضاً تاماً ، ولكي يصبح العربي امة موحدة كان لا بد له من اعجوبة او معجزة ، وهذه المعجزة خلقها محمد وحده ، محمد بن عبدالله الطفل الفقير اليتيم الذي ولد عام الفيل في مكة بالقرب من الكعبة .



نماذج من الصناعة الكريتية القديمة



نماذج من فن الصناعة العربية



ابو الهول والاهرام نماذج من فن العمارة المصري

- ٥ -

محمد بن عبد الله

— صلى الله عليه وسلم —

المعجزة

ليس من ينكر تأثير الاديان الجديدة والانبياء على الانسانية والحضارات القائمة والماضية ، ولكن احداً في العالم وتاريخ الانسانية ، سواء اكان نبياً مرسلاً ، ام عبقرية بارزة ، لم يبدل نظام العالم ، ويفرض سلطانه على الشعوب والامم بمثل السرعة التي فرضها محمد ودينه ، على شعوب العالم وحضارته .

واذاً فمن الصعب تفهم الجماعات التي قامت بواسطة الاسلام تنشر دينه وحضارته الجديدة في مختلف امصار العالم قبل درس صاحب الدين الجديد ، وبحث تعاليمه ، والوسائل التي استعملها للوصول الى زعامته المطلقة العجيبة .

والواقع ان هناك فروقاً عظيمة بين زعماء اليوم والماضي ، وبين زعامة محمد ، فان الزعماء الذين يذكرهم التاريخ على هامشه انما بلغوا زعامتهم عن طريق الحزبية او الثروة او القوة ، وهي زعامة اقليمية لا قيمة لها إلا في ارضها ، ولا سلطان لها في غير مواطنها ، واما محمد فقد بلغ الزعامة العالمية عن طريق الالم ، والفقر ، والغربة والجهاد ، وفي سبيل المثل العليا والمصلحة العالمية ، ثم جعل في عشر سنين من الرعاة

المشتتين على رمـــال القفر ، امة متماسكة الاجزاء متحدة الاهواء ، متساندة القوى ، متجانسة الطباع ، بلغت رسالة الله ، وحكمت عامر الارض ، ومدنت اكثر العالم .

وزعماء اليوم يكونون قبل الزعامـــة ناساً كالناس ، ثم يصبحون بعدها آلهة كالالهة ، ينقضون ما وعـدوا ، ويستحلون ما حرموا ، ولا يرون كبير امر في الاحتفاظ بهذه الزعامة ، ولو تنكبوا عن الكرامة ، واستدبروا كل مروءة وخلق كريم .

اما محمد فقد ملك الحجاز واليمن وهي الجزيرة كلها وما داناهـا من العراق والشام ، وظل ينام على فراش من ادم حشوه ليف ، ويبيت هو واهله على الطوى ، لا يتبلغون إلا الاقل من الغذاء ، وكان عبارة عن التمر والماء ، ويمكثون الشهر لا يتوقدون ناراً ، ويلبس الكسا الخشن ، ويقسم على الناس اقبية الديباج المذهب ، حتى اذا اقبل عـلى اصحابه فقاموا اجلالا له قال لهم :

« لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضاً ، انما انا عبد آكل كما يأكل العبد ، واجلس كما يجلس العبد »

وزعماء اليوم يسيرون الجنود الى الخنادق ، ويبيتون عـــلى حشايا الديباج ويرسلون العمال الى المسالك ، ويظلون هم في ابراج العاج .

اما هو فكان يقاتل مع الجندي حتى يدمي ، ويعمل مع العامل حتى ينصب ، وكان صحبه اذا احتدم البأس واحمرت الحدق اتقوا بـــه فما يكون احد اقرب الى العدو منه .

واما القول انه الوحي ، فما كانت اعمال الرسول كلها وحياً ، ولكنها الرجولة الكاملة والخلق العظيم والعبقرية الفذة والشخصية القـوية التي جعلت من هذا الفتى شخصية عجيبة ما رأى العالم لها مثيلاً ، وحـدت

الصفوف ، وآخت بين الناس ، وقضت على التقاليد ، وهدمت الجسور ، ومحت فاسد الاخلاق ، وجعلت هؤلاء العرب الذين كانوا ابداً يأنفون الحكم ويرفضون السلطان ، يجمعون على حبه اجماعاً لا يخرقه إلا الكفر بالله . فاقواله سنن تتبع ، واعماله عهود تحفظ ، واراؤه اوامر تطاع ، واحكامه اقضية تنفذ ، وكذلك نرى ان محمداً خلق من اخلاقه هذه الامة التي عملت المعجزات ، فاوحت هذه الانتصارات العظيمة التي امتدت من المشرق الى المغرب ،والتي ما تزال تثير اهتمام المستشرقين حتى اليوم ، يحاولون الوصول الى اصولها واسبابها الحقيقية ، والتي كان ابو بكر وعمر وغيرهما من الابطال المغاوير مثلاً صارخاً لها..

حسن المعاملة

وكان محمد ذات مرة في سفر فامر اصحابه باصلاح شاة ، فقال رجل:

– عليّ ذبحها .

وقال ثان : عليّ سلخها .

وقال ثالث : عليّ طبخها .

فقال الرسول : وعليّ جمع الحطب .

فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل .

فقال : علمت انكم تكفونني اياه ، ولكني اكره ان اتميز عليكم .

وزعماء اليوم اذا تزعموا لا يفطنون لغير مثوبة الصديق وعقوبة العدو ، فلا تخرج اعمالهم وآمالهم عن دائرة الحزبية الصغيرة الحقيرة ، اما محمد فكان يعادي في الله ومثله العليا ، ويصادق في الله ومثله العليا ، ثم كانت سياسته كنوز الارض لا تعرف الحدود ولا المقاييس ولا الزمن ، كانت تعم القريب والبعيد ، والصديق والعدو .

محمد في طفولته

ولد محمد بن عبدالله يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول عام الفيل سنة ٥٧٠ ميلادية ، وذلك بعد شهرين من وفاة والده عبدالله ، فخرج الى الدنيا يتيماً فقيراً ، لم يترك له والده غير خمسة من الابل وقطيعاً من الغنم وجارية هي ام ايمن حاضنة محمد .

وكانت مكة هادئة الهواء ، شديدة الحر ، هادئة النفس ، ما احس اهلها شيئاً ، ولا ألقي في روعهم امر ، واذا هم ينصرفون في صباح (الميلاد) الى امورهم ومعاشهم ، واذا عبد المطلب قائم مقامه وحوله ابناؤه وجماعته من قريش ، فيمشي اليه البشير مسرعاً ، حتى اذا انتهى اليه بشره بالمولود الجديد ، فيهب جذلان فرحاً ، ويمضي الى بيت آمنة ، فينظر الى المولود وتحدثه امه بما رأت وسمعت وشاهدت ، فلا يعجب لشيء ولا ينكر امراً ، ثم يحمل الصبي على ذراعيه الى الكعبة فيطوف فيها ، ثم يقوم داعياً لله شاكراً له ما اعطاه ، ذلك ان عبد المطلب كان محباً لعبدالله ولده ، ولوعاً به ، فلما توفاه الله ملأه النكد ، وغلبه الحزن ، فاذا ما رأى المولود الجديد جلا الله الحزن عن قلبه ، وحبب الصبي الى جده ، فكان من اكثر الناس عطفاً عليه وبراً به ، ورعاية له .

ثم يخرج الشيخ بحفيده فيدفعه الى امه وهو يقول :

– لقد اسميته محمداً .

وهو اسم جديد في العربية ، ليس يقع علمنا حتى الآن على ان العرب كانت تسمي مواليدها بهذا الاسم قبلاً .

ولسنا نعلم شيئاً كثيراً عن حياة محمد في طفولته ، إلا ما كان من ارساله الى البادية للرضاعة فيها ، كعادة العرب في ذلك العهد ، ويظهر

لنا من تنكر المرضعات لمحمد وهو في طفولته ، وما تذكره لنا السيرة من انه لما عرض على المرضعات ابينه لما قيل لهن انه يتيم ، ذلك انهن انما كن يرجون المعروف من والد الصبي ، فان تولى هذا الموت ، فلا امل لهن بشيء من النعمة او حظ من البر ، كل هذا يدل على ان ما تركه له والده من ابل وغنم لم يكن بعد شيئاً مذكوراً ، كما ينعقد الاجماع على ان عائلة محمد مع شرفها وعظيم مركزها كانت عائلة فقيرة .

فاذا كان محمد في السادسة من عمره توفيت امه ، فكفله جده عبد المطلب .

موت عبد المطلب

ويصبح الشيخ ذات يوم مريضاً مثقلاً فيعلم انه زائل وانه مفارق مكة فراقاً لا رجوع بعده ، ويقف محمد امام فراش جده ، يشاهد انتقال وليه الى العالم الاخر ، ويضطرب قلبه ، فتنهال من عينيه دموع ، ويخفق في قلبه اشفاق كثير .

لله من دموع اليتيم ما احرّها واشدها ، هذا الفتى اليتيم ما يعرف اباه وما اكتحلت عيناه بمرأى امه الا قليلاً ، فاذا ما كفله جده ، وراح يبر به ويعطف عليه ، راح يأخذه الموت من بين يديه ، كأنما الاقدار تريد هذا الفتى ان يكون يتيما حقاً ، ما تضطرب حوله عاطفة ولا تبتسم امامه بشرة راضية ، وهو في ذلك ضعيف ما يملك للاقدار رداً ، ولا يستطيع لها دفعاً .

وكذلك يموت عبد المطلب ، فيكفل اليتيم عمه ابو طالب وقد غلب الصبي الحزن والالم ، فيمضي كثيراً من يومه وبعض ليله يذكر فيه اباه الذي لم ير له وجهاً ، ويذكر امه التي لم تتوفر لها العناية به إلا بمقدار ،

ويذكر جده الذي فارقه منذ امد قصير ، ثم يطلق بصره الى السماء يطلب منها ملجاءً وحامياً وهو اليتيم الغريب الفريد .

حاضنة محمد

لم يبق لمحمد بعد ابويه وجده غير حاضنته ام ايمن جارية ابيه عبدالله التي شهدت ليلة الوضع ، والتي ما كادت ترى الطفل يسقط على الارض ساجداً حتى يلقي الله حبه في قلبها ، وحتى يمتلىء قلبها عطفاً عليه وشغفاً به ، واذا هي تحضن الطفل وتحنو عليه ، واذا هي تغمره بصنوف من الحنان والمحبة والبر ، وما تحويها غير قلوب النساء ، فاذا ما اخذته المرضع الى البادية ، أسقط في يدها وتولاها من الحزن شيء كثير .

فاذا ما عاد الطفل الى مكة ، وتوفيت امه بعد ذلك ، خلص اليتيم الى الحاضنة من دون الناس ، فتقف نفسها عليه ، وتختصه بحبها وحنانها كله ، وهي امة حبشية هذه الحاضنة ما عرفت الحنان والحب والعطف إلا في هذا الطفل ، ولا تفهمت ما فيها من المعاني الرائعة الا حين رأت اليتيم واختصت به .

ومن المؤكد ان محمداً لما توفي جده عبد المطلب كان في الثامنة او التاسعة من العمر ، ولا ندري على وجه التحقيق شأنه في هذه السنوات التي تقطعت بعد وفاة جده ، ولكنا نؤكد انصرافه فيها الى رعي الابل والغنم للحصول على بعض معاشه او لاعالة نفسه ، لان عمه (ابا طالب) الذي كفله بعد وفاة جده كان رجلاً فقيراً كثير العيال ، فكان لا بد والحالة لمحمد من القيام بعمل يكفيه بعض الكفاية حتى لا يكون عالة على عمه .

ومن المؤكد اليوم ان رعي الابل والغنم في ذلك العهد ، وفي مكة

خاصة لم يكن من الاعمال التي يقبل عليها اشراف الناس واغنياؤهم، وانما كان عملاً خاصاً بالفقراء والايتام من اهـل مكة، من الذين لم يكن بمقدورهم القيام بتجارة، خصوصاً وان التجارة في مكة كانت نافقة رابحة في ذلك العهد، فكان كل اهلها من التجار، حتى نساؤها كن يتعاطين التجارة، كما هو حال خديجة زوج محمد قبل ان تعرفت به، واتفقت معه على الذهاب بتجارة خاصة الى دمشق.

ومن المفروض في قوم يشتغل نساؤهم في التجارة، ان يكون رجالهم اكثر اقبالا عليها، ونفاذاً بها، ويقدر بعض المستشرقين مقدار الاموال التي كانت قريش تضعها في تجارتها وتوسلها الى دمشق في السنة الواحـدة بما لا يقل عن مائة الف دينار ذهباً.

السفر الى دمشق

اما سفر محمد الى الشام مع عمه ابي طالب وتعلقه به، وسؤاله له في الحاح الصبي واغرائه ان يحمله معـه في سفره، وهو الى ذلك ما يزال يضطرب في التاسعة من عمره، فامر لا يزال موضع اخذ ورد عند كثير من المستشرقين..

ذلك ان بعضهم يرى في القصة المشهورة عن السفر الى دمشق او الى الشام واجتماعه الى بحيرا الراهب المسيحي، وتحذير بحيرا لعمه من خطر اليهود على اليتيم، قصة تجعلها قريبة الى الاختراع منها الى الامر الواقع.

والمستشرقون تناولوا حديث هذه السفرة كما تناولوا سواها وغيرها من الاحداث التي ارتبطت بتاريخ الرسول، وذهبوا في تأويلها المذاهب فانكرها بعضهم، واشار الاخرون الى اهميتها وخطورتها، وكيف ان اليتيم قد وفق فيها الى استماع حديث بعض الرهبان مـن الذين حبسوا

انفسهم في الصوامع ، فما تولى عنهم الا بعلم وفير وخير كثير يتصل بالحياة الدينية في عهده ، وعبادة الاصنام في بلده ، وان الدين الحق لا يستقيم الا بعبادة الله وحده ، اما نحن فما نعلم ان صبياً مهما بلغ ذكاؤه واستطارت عبقريته ، يتوفر على تفهم هذه الاسرار المتصلة بالحياة والدين وهو ما يزال في التاسعة من عمره ، ونعتقد بحق ان حديث هذا الاتصال مع بحيرا وغيره اقرب الى الخيال منه الى الحقيقة ، وانه مختل الرواية مضطرب الاسباب ، واذا كان قد توفر لمحمد في سفرته هذه بعض المعرفة بعقائد النصرانية واليهودية في زمنه ، فان هذه المعرفة ليست تعدو الصور الخارجية يطلق المرء بصره عليها ، فيرى فيها لوناً جديداً ليس يفهمه ويعهده ولكنه لا يوفق الى تفهم ما فيها من اسرار ، هي دون ما شك عسيرة كل العسر على من كان مثله وفي سنه ، وقد انكر كارليل وغير كارليل من مشاهير الكتاب هذا الزعم وقالوا انه تغرير ، وانه بعيد عن الحقيقة ، لان محمداً في رأي هؤلاء لا يستطيع ان يتفهم هذه الاسرار في مثل هذه السن .

ولست انكر ما قد يتوفر للفتى النابه بضرب الارض في تجارة مع جماعة من الناس ، وقد تبسط اكثرهم في مواطن الحضارة في ذلك العهد ، واستقامت لهم معرفة ببعض الوان الحياة في ذلك الزمن ، فيروح يتحدث بها وبما شاهده في سفراته السابقة من الوان واحداث حين يجن الليل ، وتسكن الطبيعة ويأوي رجال القافلة الى شيء من الراحة هم باشد الحاجة اليه ، بعد نهار قضوه في قطـــع المفاوز تحت تلك الشمس المحرقة وفي تلك الصحراء المقفرة .

والواقع ان حياة محمد قبل الخامسة والعشرين من عمره لا تزال حتى اليوم محوطة بكثير من الغموض والابهام .

واما بعد الخامسة والعشرين فان محمداً يدخل في التاريخ ، فلا يخرج منه بعد ذلك ابداً .

حرب الفجار

فاذا كان محمد في الخامسة عشر من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس ، وكان قائد قيس جميعها حرب بن امية لمكانته فيهم سناً وشرفاً ، وكان رئيس بني عبد المطلب الزبير بن عبد المطلب ، وقد حضرها محمد فكان يجهز لعمومته النبل للرمي .

ثم تداعت قريش (لحلف الفضول) والمتحالفون هم : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبنو اسد بن عبد العزى ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة ، وقد تحالفوا وتعاقدوا ان لا يجدوا بمكة مظلوماً من اهلها او من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه ، حتى ترد اليه مظلمته ، وتم ذلك الحلف في دار عبدالله بن جدعان التميمي ، وشهده محمد بن عبدالله ، وقال فيه بعد الرسالة .

– لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ما احب ان لي به حمر النعم ... ولو دعيت به في الاسلام لاجبت (١)

(١) وسبب حرب الفجار ان النعمان بن المنذر كان يبعث كل سنة قافلة من الحيرة الى عكاظ تحمل المسك وتأتي بديلاً منه بالجلود والحبال وانسجة اليمن المزركشة ، فعرض البراض الكناني نفسه ليقود القافلة في حماية قبيلة كنانة ، وعرض عروة الهوازني نفسه كذلك على ان يتخطى الى الحجاز طريق نجد ، واختار النعمان عروة ، فاحفظ ذلك البراض فتبعه وغاله واخذ قافلته ، فنهدت هوازن للاخذ بالثار ولحقت بقريش قبل ان يدخلوا الحرم فاقتتلوا وتراجعت قريش حتى لاذت من المنتصرين بالحرم ، فانذرتهم هوازن الحرب بعكاظ المقبل ، وقد ظلت هذ الحرب تنشب بين الفريقين اربع سنوات متتابعة انتهت بعدها بالصلح .

اتصاله بخديجه

اما اتصاله بخديجه فلا يزال الى يومنا هذا سراً من الاسرار .

كيف عرفت به خديجة ؟

ولماذا اختارته وفضلته على غيره من شباب بلدها وهو الفقير البائس ؟

ثم ما هذه الشوائع التي كانت تروج عن امانته وصدقه ، وما هو سببها ؟ لان المفروض في مثلها ان ترتبط بحوادث وقعت ، واخبار واعمال صدرت عن محمد وانتشرت بين الناس ، وذاع امرها في مكة ، حتى اطلقوا على صاحبها لقب الامين !!

والنتيجة المنطقية لكل هذا ، هو ان خديجة تعرفت على محمد او استمعت الى اخباره ، وصدقه واخلاصه وامانته ، من اشخاص اتصل بهم محمد ، وعرفوا فيه الامانة والاخلاص والصدق ، ولما كانت امرأة تاجرة قليلة الثقة باهلها كما يظهر ، فقد كان من مصلحتها الاعتماد على شخص تؤمن باخلاصه وصدقه ، وكان الشخص الذي وقع اختيارها عليه محمد بن عبدالله ، فقربته اليها واستدعته الى بيتها وكلفته السفر بتجارة لها الى الشام ، ففعل وعاد موفقاً ناجحاً ، فاعتزمت الزواج به ، وعرضت الامر عليه فلم يرفض .

والظاهر ان محمداً ذهب يتحدث الى اعمامه بالامر ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن اسد والد خديجه ، فخطب ابنته لابن اخيه ...

وفي بعض المصادر ان عائلة محمد جميعها كانت موافقة على الزواج ، وكذلك كان محمد وخديجه ، واما الشخص الوحيد الذي عارض اول

الامر ، فهو والد خديجة ، الذي كره كما يظهر ان يشاركه شخص آخر في ثروة ابنته ومالها .

تجديد بناء الكعبة

فاذا استقام محمد في الخامسة والثلاثين من عمره ، كان هدم قريش للكعبة وتجديد بنائها ، وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ، حتى اذا وصلوا الى مكان الحجر الاسود اختصموا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه ، واشتد النزاع بينهم ، ثم اتفقوا على تحكيم محمد بن عبدالله ، لم يختلف عليه احد ، فبسط رداءه ووضع عليه الحجر الاسود ، وطلب من الرؤساء ان يمسك كل رئيس بطرف منه ، وامرهم ان يرفعوه ، حتى اذا حاذى موضعه اخذه بيده فوضعه مكانه .

ثلاثون سنة من حياة اليتيم

ويتساءل من يحاول التأريخ لمحمد بن عبدالله – وذلك بعد عودته من زيارة الشام ومشاهدته ما كانت تنعم به من آثار الروم والغساسنة – عن اثر هذا الاتصال الاول بالحضارة الرومانية والمسيحية في هذا الشاب الناعم الرقيق !!

ترى ما كان من اثرها في نفسه ؟ وما كان من تأثيرها عليه ، لقد اطلق اليتيم بصره حقاً في بيعها ومعابدها وقصورها وقبابها ، وانكشفت له ارضها عن جمال بارع وطلعة جديدة لم يكن له بها بعد عهد في صحراوات الحجاز ، فهل اشجته هذه الروعة الجديدة ، وهل فتحت قلبه هذه الرياض الماتعة ، ام تملكت مشاعره صحراوات الحجاز وضواحي مكة ورمالها ، فكانت عنده اشد انساً ، واكثر استساغة من

هذه الجنة على الارض وهذه الحضارة المليئة بالاكاذيب والاوهام !!

ثم ترى يعرف كيف مضى اليتيم سنواته الاولى وطفولته العذبة ؟

وهل كان له اصدقاء يخالطونه ويخالطهم ويجالسونه ويجالسهم ويأنسون اليه ويأنس اليهم ؟

ثم ما كان شأن اليتيم بين السنة التاسعة والخامسة والعشرين من عمره ؟ وكيف راح يصرف هذه الاعوام العديدة من فتوته الجميلة ؟

ثم ما هذه الشوائع – حين استوى اليتيم في الخامسة والثلاثين من عمره – تملأ مكة ، وشعاب مكة ، وتتحدث عن استقامته وجميل خلقه ، وصدق حديثه ؟؟

مثل هذه الشوائع لا تخلق ارتجالاً ولا تسير بين الناس عفواً ، اذا لم تسبقها اعمال وفضائل ومكارم صالحات ، معروف امرها ملموس شأنها مصدقة اخبارها ...

واذا كان اليتيم قد ذهب يرعى الغنم في ماضيات ايامه قبل البعثة ، فكيف كان باستطاعته ان يتصل بالناس هذا الاتصال الوثيق ، بحيث تفطن لامره خديجة بنت خويلد ، فتكافه الاتجار لها ، وتستأجره لعملها ؟

ان كتب السيرة لا تتولاك بشيء من اخباره الاولى ، وكل ما يمكننا قوله هو ان اليتيم كان راعياً في نشأته وتاجراً في شبابه ، وان صدقه وامانته ، اشتهرا بين الناس فدعته خديجة الى العمل لها ، حتى اذا وفق في عمله ، وارضاها في تجارته ، ورأت في معاملته مصداق ما حدثها الناس عنه ، عرضت عليه الزواج بها ، فاتسقت عندئذ لليتيم حياة جديدة ، فيها شيء كثير من الرفه ورغد العيش .

فاذا انتهينا من تصوير حياة اليتيم بين السنة العاشرة والخامسة والعشرين ، فنحن امام خمسة عشر عاماً اخرى تبتدىء بزواجه وتنتهي

ببعثته ، فهذه ايضاً لا يعرض لها المؤرخون ، الا ما كان من شأنه وهو في الخامسة والثلاثين من عمره لما اعـاد الحجر الاسود الى مكانه في الكعبة ...

من المؤكد ان محمداً اخـذ يفكر في هذه الفترة ، اي بين السنـة الخامسة والعشرين والاربعين من عمره – وبعد ان اطمأن الى معاشه ومشربه – تفكيراً جدياً في العوالم التي حوله ، والاسرار التي تغمر هذه الارض ومن عليها . واداه تفكيره هذا الى التعبد في غار حراء يبحث عن الحقيقة ويفكر في اسرار الكون .

وبودي لو اوفق الى تصوير هذه الايام يقضيها سيد العرب في هـذا الغار ، ولكن احداً من المؤرخين لم يعرض لها ، ولا حاول تفسيرهـا وتصويرها .

ولذلك فلا يزال غار حراء سراً من الاسرار ، ولا يزال تعبـد الرسول فيه لغزاً من الغاز الحيـاة ، ونحن اذا وجهنا الفكر الى هـذا الجبل وحاولنا تصوير هـذه الحياة المحمدية ، فقـد لا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا ذهبنا نقول ان الرسول كان يأوي الى الغار ما بين حاشيتي النهار ، نائماً حيناً ، مفكراً حيناً آخر ، وان تعبـده وهجوده وتقليب بصره في السماوات ، انما كان في الليـل ، والقمر مشرق ، والهواء رطب عليل ، والسماء غارقة في انوارها ، ومن المؤكد انه كان يغادر الغار ما بين حاشيتي الليل متمشياً على سفح الجبـل مولياً وجهه شطر السماء ، كانما هو يحاول الاتصال بها ، والتحدث اليها ، وما يزال هـذا شأنه حتى تلمس اشعة الشمس شعوره المرسلة على جبينه و كتفيه .

معلومات محمد

وكان محمد امياً ما نعلم انه قرأ او كتب على وجه التحقيق ، واذا كانت مكة قد تأثرت ببعض الآراء والافكار الفلسفية التي حملت اليها من العراق وغير العراق ، فانه لم تقم فيها نهضة علمية ، ولا كان في جزيرة العرب كلها من المعارف غير قرض الشعر ، ودرس الانساب ، ومع ان رسول الله كان ينعم بموسيقية لفظية وطرافة جذابة في حديثه واقواله ، فانه كان قليل الميل للشعر ، ولعل سبب ذلك ما كان يتعلق به الشعراء من الكذب والاغراق والمبالغات ، وهو ما كان ينكره ويحتقره ويزدريه ، كما ان الشعر الجاهلي في نظره كان يمثل الوثنية وعادات الجاهلية ، وكلها كانت مكروهة بغيضة اليه .

اما فن الكتابة فقد كان ضعيفاً وقليلاً في مكة ، ومن المؤكد ان محمداً لم يكن يحسن الكتابة ولا يعرف القراءة .

ويظهر لنا ان الكتابة لم تكن ضرورية للتجار والتجارة ، وان المعاملات في ذلك العهد كانت من البساطة بحيث يستطيعها المرء دون ما حاجة الى دفتر للحسابات ، وكتاب للمعاملات ، ولولا ذلك لصعب على خديجة تكليف محمد بتجارتها ، وهو الشاب الامي ، إلا ان يكون في ارسالها خادمها ميسرة معه ما يدل على انه كان يقوم بهذه المعاملات عن محمد .

محمد في غار حراء

تزوج محمد خديجة وهو في الخامسة والعشرين من العمر ، وكما مضى سنوات الطفولة والشباب في جو يكاد يكون مجهولاً جهلاً تامـاً

عندنا ، فكذلك قضى محمد خمس عشر سنة اخرى بعد زواجه في جو اقل ما يقال فيه اننا لا نعرف عنه فيه شيئاً بذكر ...

ولكن هناك شيئاً واحداً يستلفت النظر ، وهو انه ما كادت الحياة العائلية العذبة تنساق الى محمد بعد زواجه بخديجة ، حتى اخذ الموت يزوعه ببنيه الواحد بعد الآخر ، لقد غمرت السعادة الزوجين لما ولد لهما القاسم وعبدالله ، ثم زينب ورقية وام كلثوم وفاطمة من البنات فلما تناول الموت القاسم وعبدالله ، حزن الزوجان ، ورعش قلب خديجة النبيلة التي جرحت امومتها في فترة من الزمن كانت العرب فيها لا تفضل بالولد الذكر شيئاً ، بينا كانوا ينظرون الى الانثى نظرة فيها كثير من الاحتقار والاشفاق .

اما ما كان من تأثير ذلك على محمد نفسه ، فهذا ما لا يحدثنا عنه التاريخ في قليل ولا كثير ، ولكننا نستطيع ان نفطن للوعته وحزنه وحبه للولد من حزنه على موت ابنه ابراهيم ، فقد ادمى هذا الفراق قلبه ما في ذلك شك ولا ريب ...

والواقع ان الحياة ما اشفقت على محمد في كثير ولا قليل ، فقد ثكلته بامه وابيه ، ثم بجده فبولديه ، وكانت غاية الانسان في الجاهلية ان يكون له من الولد ما يحفظ اسمه ، ويعزز عصبيته ، ويدافع عنه ، كانما اراد القدر ان يظل محمد يتيماً حتى آخر يوم من حياته ، وان لا يكون له من الولد إلا البنات ، والبنات في الجاهلية والاسلام شيء ضعيف لا يرفع شأناً ولا يؤيد سلطاناً .

هذا الالم الذي كان يحز صدره ، ولا يظهر على وجهه ، جعله يصرف حياته في هذه السنوات التي استبقت النبوة والوحي ،إما في تجارة لزوجه ، او في استمتاع بوحدته التي كان يحن اليها ويفضلها على سواها

من الوان الحياة الاخرى ، وهي وحدة كانت تساوق رغباته وتصل الى قرارة نفسه ، كما كان يجد فيها راحة وطمأنينة لا عهد له بها في حياته المريرة القاسية .

ويمضي فتيان مكة وشبابها الى نعيمهم وملاذهم ويمشي محمد الى نفسه يفكر في هذه الحياة وشأنها ومصايرها ، وينظر الى الاصنام فاذا هي لا تغني عنه من الله شيئاً ، واذا هي حجارة لا تضر ولا تنفع ، واذا هو كلما حاول تفهم ما حوله من الاسرار باحثاً عن الحقيقة طالباً الهدى والحق لم يوفق في بحثه ولا تفكيره .

وانقطع محمد قبيل الاربعين من عمره الى العبادة – كما كان من عادة مفكري العرب ان يفعلوا – وطلب الوحدة فالفاها في غار حراء ، وهو غار يقرب من ثلاثة امتار في مترين في قمة جبل على يسار السالك من مكة الى عرفة .

كان محمد في هذه الايام على نحو ما تقول كتب السيرة ، يألف العزلة ، ولم يكن احب شيء اليه من ان يخلو وحده .

وكان يقضي شهراً مجاوراً في غار حراء .

فيمَ كان يفكر ؟ وما الذي كان يطلب ؟ وما هذا التحول الجديد الذي طرأ عليه ؟ وما الذي جعله يتهرب من الناس ، وينفر منهم ؟

هذا ما لا يزال حتى اليوم سراً من الاسرار .

ولكن الشيء الذي لا شك فيه ان محمداً كان في هذه الفترة ، وعلى الاخص في غار حراء في حيرة عظيمة عبّر القرآن عنها بقوله « ووجدك ضالا فهدى » لم يعجبه دين قومه ولا نوع حياتهم ولا كفرهم ولا ايمانهم ولا اخلاقهم ، ثم اداه ذلك الى الايمان بانه لا بد ان يكون في الحياة شيء اشرف من هذا واكمل ، وان هذا الشرف والكمال يوجدان في

السماء التي فوق رأسه والتي حيره نظامها ونجومها ..

لقد ذهب محمد الى غار حراء بشراً حائراً ، وانساناً مرتبكا مضطرباً، وغادره انساناً نبياً ، ورسولا كريماً ...

العبادات الاسلامية المحمدية ومكة

دعا محمد قومه الى عبادة لا اله الا الله ، وان محمد عبده ورسوله ، وترك الاوثان ، وعدم الاشراك بالله ، ولما كانت الاوثان في نظر سكان مكة من العوامل التجارية الفعالة في حياتهم ، ومن الاسباب التي تدعو العرب من مختلف انحاء الجزيرة الى زيارة مكة لما فيها من اوثان ، ولما لكعبتها من مقام ، فقد كانت دعوة محمد ، ضربة شديدةعليهم ، وتمزيقاً لما الفوه من عادات ، واقاموه من مصالح ، وانشأوه من تجارات بعيدة المدى بين مكة وغير مكة .

كانت مكة كما قدمنا مركز الوثنية في جزيرة العرب لوجود الكعبة فيها ، وكان تدفق عرب الجزيرة على مكةواوثانها مورداً عظيما من موارد العيش عند سكان مكة ، وكان زعماء مكةمن قريش يسيطرون طبعاً على غيرهم من القبائل في الاشهر الحرم التي ينزلون مكة في إبانها ، وكانوا يستفيدون تجارياً وادبياً واجتماعياً من قدوم الحجاج الى مدينتهم وقيام الاسواق التجارية حولهم .

فجماعة هذه حالتها الاقتصادية والاجتماعية ، وارتباط هـــذه الحالة الاجتماعية والاقتصادية بالمدينة نفسها ومركز الكعبة والاوثان فيها ،كان من المفروض فيها طبعاً ان تحارب كل تبديل وتعديل في نظمها الدينية والاجتماعية هذه النظم المرتبطة الى حد وثيق وعظيم بحياتها الاقتصادية ، سواء اكان محمد صاحبها ام غير محمد ...

ولا عجب والحالة هذه اذا حارب اهل مكة وتجارها محمداً ودينه لان دعوته كانت كفيلة - في نظرهم - بالقضاء على مصالحهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

ثم ان العرب كما قدمنا كانوا لا يعرفون شيئاً اكبر من القبيلة في حياتهم الاجتماعية ، ولا يحاولون النزول تحت سلطان غير سلطان القبيلة ، ودعوة محمد كانت تدعو الى المساواة بين جميع المسلمين ، وكان من نتائجها تمزيق عرى الوحدة القبلية بين العرب ، وهذا ما كان يرفضه العرب في مكة وخارج مكة ، كما ان فكرة المساواة نفسها كانت بعيدة عن زعماء مكة لا تفهمها عقولهم ولا تقبلها تقاليدهم .

محمد ومكة

وقف سكان مكة في اول الامر من دعوة محمد موقفاً وسطاً فيه كثير من عدم الاهتمام والقلق ، وسبب ذلك انهم لم يفطنوا اول الامر لخطر الدعوة ، وظنوها من هذه الدعوات التي ما تلبث حتى تموت في مهدها ، ثم انهم في الوقت نفسه كانوا ضعيفي الايمان بعقائدهم الدينية ، والوثنية ، فلم يدخل في روع احدهم ان من الضرورة الدفاع عن هذه العقائد والاوثان ، ولذلك تركوا محمداً وشأنه ، في اول امره ، فلما وجدوه اخذ ينتقد اوثانهم ، وينكر اديانهم ، ويستخف بتقاليدهم ، وادركوا ان مثل هذا الاستخفاف والتنكر والانتقاد قد يؤثر على تجارتهم ، وتجارتهم انما تقوم على بقاء هذه الاصنام الذي يدعو محمد الى هدمها وازالتها ، تنكروا له ، وقاموا يحاربونه ويحاربون انصاره ...

وطبعاً اخذ اهل مكة في اول الامر ينتقمون من ضعفاء المسلمين ، ومن لا عصبية قوية تمنعه في مكة ، واما محمد ، فلم يتعرضوا له اول الامر ،

لان بني هاشم عائلته منعته ووقفت تدافع عنه ، لا ايماناً بدينه ، وقبولا لتعاليمه ، وانما عصبية منها ، ووفاقاً لعادات العرب في الجاهلية ، من ضرورة الدفاع عن ابن البيت ظالماً كان ام مظلوماً .

ولكن دعوة محمد ظلت تجد انصاراً واعواناً برغم اضطهاد قريش للمسلمين ، وكان اكثر المسلمين في هذه الفترة من الزمن من ابناء الطبقة المتوسطة الابعض افراداً قليل عددهم فانهم كانوا من الطبقة الارستوقراطية .

وعندئذ رأت قريش ان تقاطع محمداً وعائلته من بني هاشم وانصاره من المسلمين فلا تعاملهم ولا تتجر معهم ولا تخالطهم ، وتمنع احداً من معاملتهم والاتجار معهم حتى يموتوا جوعاً ، وكذلك حجزت قريش محمداً وعشيرته من بني هاشم والمطلب في بعض شعاب مكة ، وقضى بنو هاشم والمطلب في الشعب نحو ثلاث سنين ، قاسوا فيها جهداً وضائقة عظيمين حتى لقد كان يسمع صوت صغارهم وهم يتضورون جوعاً ، وحتى قام من قريش من حركتهم عاطفة الرحم والقرابة فسعوا الى اخراجهم من الشعب فاخرجوا .

وكان بعض المسلمين قبل هذه الفترة وقبل هذا الحصار قد ذهبوا الى الحبشة هرباً من اذى قريش وعدوانها ...

والظاهر ان محمداً بعد خروجه من هذا الحصار الذي فرضته مكة واهلها عليه ، قد أيقن ان الامل ضعيف باجتذاب قريش وعظمائها اليه والى دينه ، ففكر في الذهاب الى الطائف علّه يجد فيها قوماً يؤيدونه وينصرونه على عدوان مكة عليه ...

وذهب محمد الى الطائف فلم يوفق ، فعاد الى مكة حزيناً مضطرباً ، وكان قبل ذهابه الى الطائف قد مات عمه ابي طالب ، وفقد بعد عمه زوجته خديجة ، وكانا يحنوان عليه ، ويقويانه ، ويساعدانه ، فاصبحت

الحالة سيئة جداً امامه، واصبح الموقف مظلماً ...

وفي هذه الاثناء لاحت في الافق بارقة من النور ، فقد تعرف محمد على بعض اهل المدينة ، ووعده هؤلاء بتأييده والدفاع عنه ...

ولكن قريشاً عرفت بهذا الاتفاق ، وادركت ان الموقف اصبح يستدعي شيئاً من الحزم والسرعة ..

الاجتماع الخطير

ففي يوم من ايام شهر صفر من عام الهجرة ، اتفق عظماء قريش على الاجتماع في (دار الندوة) للبحث في (القضية المحمدية) ...

وكانت (دار الندوة) عبارة عن برلمان قريش، ولم يكن للدار نظام مكتوب ولا دستور مخطوط ، وانما كان لها دستور او قانون متعارف، خلقته الاوضاع والتقاليد ، واما اعضاء الدار ، فكانوا من رجالات قريش الذين اظهروا شخصيته وقاموا بافعال مكنتهم من تزعم قبيلتهم، على ان يكون واحدهم قد بلغ الاربعين من عمره .

وكانت دار الندوة في دار قصي بن كلاب ، توارثها اعقابه بعده ، وخصوها للتشاور في عظائم امورهم ، وكانوا لا يقضون امراً الا فيها ، وكانت تقع في الجانب الشمالي من الكعبة ، وهو الان جزء من المسجد الحرام ..

وكان الاجتماع ، وقد حضرته قريش كلها ، وتشاوروا فيما بينهم حتى استقام رأيهم على ان يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً فيهم ، ثم يعطوا كل فتى سيفاً صارماً فيعمدوا الى محمد بن عبدالله فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، ويذهب دمه في القبائل فلا يقدر بنو هاشم على حرب قومهم جميعهم ..

وكذلك ارادت قريش ، واراد الله غير ذلك ، ولما علم محمد صلى الله عليه وسلم بما اجمع القوم عليه من ايذائه قرر الهجرة الى المدينة ، في اول ربيع الاول سنة ٦٢٢ ميلادية ، وبانتقال رسول الله من مكة الى المدينة انتقل الاسلام الى طور جديد ووضع حديث ... حتى اذا وصل رسول الله الى مقره الجديد اقبل اهل المدينة يدخلون في الاسلام افواجاً ، فيؤاخي الرسول بينهم وبين المهاجرين من القرشيين الذين هاجروا معه ، ويكون بينهم وحدة متراصة لضخام الاعمال وجليل الافعال ، ويواجه رسول الله بقوته الجديدة وايمانه الراسخ خصومه في طول الجزيرة وعرضها ..

محمد في المدينة

اصبح محمد في المدينة شخصاً جديداً ، فقد كان في مكة يعمل على نشر دينه واما في المدينة فقد كان عليه ان يؤسس حكومة ، ويخلق نظاماً سياسياً وادارياً وعسكرياً لانصاره واعوانه من المهاجرين ، وسكان المدينة الذين ايدوه وتقبلوه فيما بينهم .

وكانت اول اعمال محمد ان ألف بين المهاجرين والانصار ، بين المسلمين الذين هاجروا معه من مكة الى المدينة وبين الانصار من سكان المدينة الذين نصروه ، ثم رتب مسألة الصلاة ، التي يقول فيها المستشرقون : « انها نوع من التدريب العسكري ما في ذلك شك ولا ريب ... »

والواقع ان الصلاة الاسلامية فيها نوع من الرياضة البدنية التي يقول اليوم الاوروبيون بضرورتها ولزومها لكل امة تريد ان تحيا وتعيش ، ثم ان فيها من التدريب العسكري شيئاً كثيراً ، من الوقوف

صفاً واحداً على قياس واحد ، ثم القيام بالحركات المفروضة من ركوع وسجود ، وفاقاً لامر يصدره الامام ، على ان يصار الى انفاذ ذلك جماعة واحدة ، وصفاً واحداً ...

واذا نظرنا الى ان العرب الفخورين بانفسهم وعاداتهم وتقاليدهم لم يكونوا يقبلون نوعاً من انواع التقييد والحصر ، ادركنا خطورة هذه الصلاة التي فرضت عليهم الائتمار بامر رجل واحد ، في وقوفه ، وركوعه وسجوده ، مما كان جديداً عند العرب ، غريباً عنهم وعن تقاليدهم وعاداتهم .

واذاً فما يذهب اليه المؤرخون الغربيون من ان المساجد كانت معسكرات للتدريب العسكري ليس يعدو الحقيقة اذا نظرنا الى ان الحركات التي يصار الى اقرارها في الصلاة انما هي حركات رياضية عسكرية .

ثم ان هذه الاجتماعات المقررة لكل المسلمين في المسجد قد خلقت فيهم نوعاً من روح المخالطة والتفاهم بعضهم مع بعض ، خصوصاً بعد اقرار مذهب المساواة في الاسلام مما قضى على رابطة القبيلة ، واحلّ محل هذه الرابطة الضيقة رابطة عربية اسلامية انسانية واسعة ، كانت الخطوة الاولى للوحدة العربية ، التي جمعت العرب ، وقذفت بهم الى العالم .

وهناك (الزكاة) وهي ظاهرة جديدة في العالم ، ذلك ان الدين الجديد لم ير من الحكمة ولا من الفائدة ان يترك مساعدة الفقير للجماعة نفسها ، بل فرض ذلك فرضاً ، وحدده تحديداً ، وجعله من اركان الدين ، وكلف الحكومة ان تقوم بجمعه ثم تعمل على تقسيمه بين المستحقين ، مما يجعل محمد ابن عبدالله ، صاحب اول فكرة اشتراكية

في العالم .

وكذلك نرى ان محمداً كان من الانبياء المشترعين وليس من الانبياء الفلاسفة ، فلم يفكر في مظاهر الانسان الفردية وعلاقاتها مع الروح ، وانما رأى الضرورة تدعو الى انشاء مملكة لله على الارض ، وانذر قومه ان هناك يوماً تعرض فيه الحسابات وتفرض العقوبات ، فمن واجب الانسان ان يستعد لهذا اليوم ويتهيأ له .

ولما كان محمد في مكة كان رسولاً فقط ، ولكنه لما ذهب الى المدينة اصبح رسولاً وزعيماً وطنياً ، وقوته كرسول ونبي مكنته من اقرار تشريعه السياسي والاداري في البلد الجديد .

ومع ان محمداً كان عربياً قرشياً ، فان العادات العربية فيما يتعلق بوشائج القبيلة لم تتعلق به ولم تؤثر عليه في حال من الاحوال . لقد كان على استعداد لمغادرة بيته ووطنه وبلده وقبيلته في سبيل الله ، ودينه الجديد كان يقضي على كل ما يدعو الى الانقسام والخلاف ، كان ديناً وطنياً شعاره توحيد الصفوف في الدين والاجتماع ، فاما في الدين فقد وحد الناس حول آله واحد ، بعد ان كانت الاوثان تعد بالمئات ، واما في الاجتماع فقد وحد الناس عامة ، لا فرق بين قبيلة وقبيلة ، ولا بين عربي وغير عربي ، فكان احد المسلمين الفرس مستشاره العسكري في معركة الخندق ، وبلال العبد الاسود مؤذنه ومؤذن المسلمين .

وكان محمد الى ذلك كالصخر امام المسائل الاساسية ، كالايمان بالله وبرسوله وعدم الاشراك به ونبذ الاوثان ، وترك العصبية الجاهلية والتفاخر بالانساب وغيرها ، وكان الاسلام في بعض المسائل الثانوية اقرب الى التساهل منه الى التشدد ، فقد ترك للعرب بعض عادات جاهلية لم يمنعها إلا على قدر ، كتعدد الزوجات والرق ، وبعض الشعائر

القديمة ولكنه نهى عن الاغراق فيها ، ونصح بتركها خصوصاً الرق .

ولما انتهى رسول الله من تثبيت امره في المدينة انصرف الى اهل مكة ، وكان اول ما فكر به العمل على اضعاف سيطرة مكة التجارية ، وشل حركتها المالية ، بالقضاء على تجارتها وتهديد سلامة قوافلها ، فارسل البعوث لمطاردة القوافل ، وضرب الحصار على طرق المواصلات الخاصة بها .

قلة عدد المسلمين

وكان نجاح الدعوة الاسلامية ضعيفاً ليناً في اول الامر ، واذا اعتمدنا المصادر التي بين ايدينا ، والتي تقول ان ٨٣ عائلة من المسلمين هاجرت الى الحبشة ، وحسبنا العائلة مؤلفة من اربعة اشخاص مثلاً وحسبنا من بقي من المسلمين في مكة ، فانا نجد ان المسلمين لم يكونوا يزيدون عن خمسمائة شخص بين رجل وامرأة وغلام .

ومع ذلك فان هذا العدد اخاف اهل مكة واقضّ مضاجعهم ، لان عدد المكيين انفسهم كان قليلاً ، وخروج مثل هذا العدد من بين ظهرانيهم اضعفهم ، فارسلوا وفداً الى النجاشي يرجونه اخراج المسلمين من بلاده ، فرفض طلبهم ، لانه رأى الدين الاسلامي يساوق كثيراً من العقائد المسيحية ، ولانه في الوقت نفسه كان يكره مكة واصنامها ...

ومن المؤكد ان تأييد الدولة الحبشية للمسلمين اخاف المكيين وما كان لهم ان ينسوا اطماع الحبشة في بلادهم وتجارتهم وكعبتهم ، فقرروا عندئذ مقاطعة المسلمين ثم فكروا جدياً بالقضاء على محمد ما كان الى ذلك سبيل ، خصوصاً بعد ما عرفوا باتصال محمد باهل يثرب ، واذا

كانوا قد اعتبروا محمداً خطراً عليهم بسبب عطف نجاشي الحبشة عليه وعلى شيعته ، فكيف به اذا نزل يثرب ، وايده اهلها وهي محطة تجارية تقوم على الطريق الذي يربط مكة بالشام . فلما لم يوفقوا وتمكن محمد من الهجرة الى يثرب ، احسن المكيون من قريش وحلفائها ان الامر قد خرج من يدهم ، وانهم امام احداث خطيرة قريبة .

وكان اول هذه الاحداث حصار محمد لمكة ، والعمل على القضاء على تجارتها ، وكانت خطته هذه من الاسباب الاولى التي ادت الى معركة بدر وظفر المسلمين فيها .

وكان عدد المسلمين قليلاً يوم بدر وحملة السلاح منهم لا يزيدون عن مائة من المقاتلة ، وسبب ذلك ان اكثر اهل المدينة لم يكونوا قد تقبلوا الاسلام ، وكانوا لا يجدون انفسهم مرتبطين بمساعدة محمد اذا كان مهاجماً ، واما اذا هاجمه خصومه ، فالواجب يقضي عندئذ بمساعدته والمدافعة عنه ..

اما اهل مكة فقد اضطروا طبعاً الى محاربة محمد دفاعاً عن تجارتهم ، وخوفاً من انتقال الحركة التجارية من مكة الى المدينة ، ورغبة منهم في القضاء على الخطر الذي يهددهم .

رسول الله واليهودية

وهنا يتسائل المرء لماذا لم يحاول اليهود الاستفادة من تطور الحركة التجارية لمصلحة المدينة خاصة والبلاد العربية عامة ،لانه اذا زاد نفوذ محمد قوة ومنعة وتمكن من اخضاع اهل مكة لسلطانه ؟ اصاب اهل المدينة منها الخير الكثير ، واليهود عدد كبير في المدينة ، فهم طبعاً سينعمون بالخير الذي سينعم به غيرهم ؟

يفسر المؤرخون موقفهم العدائي نحو محمد، بان مرده تعصبهم الديني، وكرههم للتعاون مع غير اليهود كما هو شأنهم ، وكما هو حالهم حتى يومنا هذا ، وكما كانت فرديتهم في السابق سبباً في شقائهم وتشردهم ، فان هذه الفردية التي توارثوها من الماضي البعيد ، والتي ما تزال عالقة بهم ، قد اضرت بهم في الحاضر ومزقتهم وجعلت الشعوب المختلفه في اوروبا لا تطيق التعامل معهم ، والعيش واياهم .

وكذلك اضطر محمد الى مقاومة اليهود ومحاربتهم لان فرديتهم كانت تعارض انسانيته الواسعة وحبه للتعاون مع المجتمع ، وكما ضرب محمد اليهود وشرّدهم ، فعل باهل مكة مثله فقضى على سلطانهم الوثني الذي كان رأس المفاسد في الجزيرة العربية .

واول ضربة اصابت اهل مكة هي معركة بدر ، التي انتصر فيها محمد انتصاراً عظيما عليهم ، ومع ان محمداً قد فشل في غزوة (احد) التي وقعت بعد بدر بسنة واحدة ، فان هذا الفشل ، كان من الهوان بحيث انه كان موضعياً لم يضعف المسلمين ، ولم يؤثر على معنوياتهم وسلاحهم ..

معركة بدر

وحديث بدر انه لما تقدمت قريش في ١٦ مارس من السنة الثانية للهجرة نحو (بدر) كان المسلمون بانتظارهم في صفوف متراصة منتظمة، وكان رسول الله نفسه قد سوّى صفوفهم ، وثبت نفوسهم ، وادخل في قلوبهم انهم الغالبون .

لقد كان اهل مكة يعدون الف مقاتل تقريباً والمسلمون لا يزيدون عن ثلث عدد خصومهم ، ومع ذلك فقد اشتد عجب اهل مكة لما هجمت

خيلهم على المسلمين فلم يتراجع احد ، ولم يرتـد شخص ، وثبتوا امامهم ثباتاً مدهشاً ، اقلقهم واخذوا يحسبون له الف حساب ، ثم عادوا الى صفوفهم لا يدرون كيف يفسرون هذه الظاهرة الغريبة التي شاهدوها من ثبات مشاة المسلمين امام هجوم الفرسان، وعندئذ بدأت المبارزات الفردية ، وانتهت بانتصار المسلمين على اعدائهم ، ودام هذا حتى المساء ، وعندئذ اصدر رسول الله امره بالهجوم العام ، فلم يثبت اهل مكة مع كثرتهم امام المسلمين الا قليـــلاً وولوا الادبار ، تاركين على الارض سبعين قتيلاً ، ومثلهم من الاسرى ، ولم يخسر المسلمون الا اربعة عشر قتيلاً .

معركة احد

اما معركة احد التي حدثت بعد معركة بدر بسنة واحـدة ، فقد كان عدد رجال محمد يقـــارب السبعمائة شخص ، واهل مكة يقاربون الثلاثة آلاف مقاتل ، ولقد انجلت هذه المعركة عن فشل المسلمين لعدم تمسكهم بالاوامر التي صدرت اليهم وعدم تنفيذهـــا حرفياً ، خصوصاً الرماة منهم الذين صدر اليهم الامر بالابقاء في مراكزهم مهما حصل ، ومهما تقلبت مصاير المعركة ، ففـــادروا مراكزهم لما شاهدوا المكيين يتراجعون رغبة منهم في الحصول على نصيبهم من الغنائم والسلاح ، وقد فطن خالد بن الوليد الى الفراغ الذي احدثه في الدفاع الاسلامي انسحاب الرماة من اماكنهم – وكانوا يحمون مؤخرة المسلمين – فهاجم المؤخرة ، واتى المسلمين من خلفهم فكان الفشل .

ومن هذا يظهر لنا ان سلطان التعاليم الجديدة لم يكن قد بلـغ الغاية من نفوس المسلـمين العرب بحيث ينسيهم عاداتهم الجاهليـــة ،

وحرصهم على عدم الانصياع للاوامر الصادرة ، ويحملهم على قبول النظام المفروض عليهم والذي لم يتعودوه قبلاً .

ولقد حاول اهل مكة بعد معركتي بدر واحد، القضاء على سلطان محمد فالبوا عليه القبائل وجمعوا الاحزاب وحصروه في المدينة ، ولكنهم لم يوفقوا ، فاضطروا اخيراً الى الاتفاق معه ، والاعتراف به كممثل لجماعة مثلهم سلطاناً وقوة ، وهذا الاعتراف منهم بسلطان محمد الذي حاولوا قتله لسنوات خلت ، كان ايذاناً باندثار سلطانهم واندحارهم ، وهو ما وقع فعلاً لما مشى محمد من المدينة الى مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين ، ودخل مكة دخول الفاتح ، وانزل الاصنام عن الكعبة ، ودخل اهل مكة في الاسلام ، ولما عاد محمد الى المدينة ، كانت مكة بلداً تابعاً لها ، بعد ان كانت مركز الحركة الدينية والتجارية والسياسية في الجزيرة قبل الاسلام .

ولما كان اهل مكة تجاراً اذكياء ، وجماعة من الاشخاص العمليين البارعين فقد ادركوا بعد ان تقبلوا الاسلام ، ان في بذور هذا الدين من الفوائد والسلطان والامجاد الشيء الكثير ، فاخلصوا للدين الجديد اخلاصاً ملحوظاً نجد آثاره بثباتهم وعدم ارتدادهم بعد وفاة رسول الله وعند ارتداد العرب بعده .

فلما كانت الفتوحات كان سكان مكة اول من قدّم القواد والحكام والامراء للبلاد المفتوحة الجديدة ، وللدولة العربية الناشئة ، كما نرى بني امية الذين كانوا من اشد الناس مقاومة لمحمد ودينه في اول الدعوة يقيمون باسم هذا الدين الجديد الذي انكروه اول الامر ، امبراطورية عظيمة عاصمتها دمشق ، بعد ان اصبحت المدينة العاصمة الاولى غير صالحة لان تكون عاصمة الامبراطورية الواسعة الاطراف .

-٦-

نشوء الدولة

وفاة رسول الله

اصبح اليوم الثامن من شهر تموز سنة ٦٣٢ جاهماً عابساً ، واصبح الناس بين الساعة الثانية والثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم وبينما كانت الشمس قد اخذت تسير الى مستقرها ، وتحاول ان تأذن بمغيب ، يزدحمون حول المسجد النبوي في المدينة ويقفون حوله صفوفاً متراصة ، لا يأبهون لشدة الحر ، ولذعة الهاجرة ، ولا يفطنون لشدتهما ، وكأنهم في عالم آخر غير العالم الذي هم فيه ، وكانوا الى ذلك جماعات عديدة ، بعضهم اخذ مكانه تحت باسقات النخيل القائمة حول المسجد ، والبعض الاخر استند الى جدران المسجد القائمة ، والكل يتحدثون باصوات خافتة ، واضطراب ظاهر ملأ وجوههم ، واستولى على افئدتهم وقلوبهم.

وكذلك كان يرى الناظر جماعة من البدو تروح وتغدو ، كما كان هناك بعض النساء والاطفال في حالة عصبية لم تكن تظهر على الاطفال عادة ، ولكن هذا الجو الجاهم الذي ملأ الفضاء ، حمل الاطفال انفسهم على السكون والانكماش ، وعدم الاخذ بما يأخذون به عادة من لعب ولهو ومرح .

كان كل شيء يدل على ان القوم ينتظرون حادثاً خطيراً سيقع قريباً ...

كما ان اصوات البكاء التي كانت تصدر من ناحية المسجد، كانت تفسر

نوع هذا الحادث الخطير واهميته .

وكان البيت الذي وقف حوله الناس ، او اخذوا مكانهم على مقربة منه ، ملاصقاً للمسجد ، وكانه قطعة منه ، ظاهر البساطة ، صار بناؤه من حجارة لم تشذب ، وقطع من الطين المجفف ،وذلك في فترات منقطعة من الزمن ، ولم يكن البناء يعلو كثيراً عن طول الرجل المعتدل ، واما سطح المنزل فقد صار صنعه من عسف النخل وبعض الطين بحيث يمنع ماء المطر من التسلل الى الداخل ...

وجلس خارج الباب الوحيد للمنزل اشخاص على مقاعد من الطين اقيمت على جانب الحائط ، وفي قسمات وجوههم ما يدل على انهم ينتظرون خبراً من الداخل .

وفجأة وقف بلال يدعو الناس الى الصلاة ، فقاموا الى صلاتهم وما كان اشد عجبهم حين شاهدوا ابا بكر يصلي بهم ، وعهدهم لساعات خلت برسول الله مكانه ...

هنا ادرك المسلمون ان رسول الله قد ساء مرضه واشتد ، ولولا ذلك ما كلف ابا بكر القيام قيامه ، واما رسول الله فكان متمدداً في بيت عائشة ، يغالب الحرارة وتغالبه ، وقد اشتد عليه الوجع ، واخذت قواه تضمحل شيئاً فشيئاً وهو ينظر الى السماء بعينيه ، وكأنه يريد الصعود اليها باسرع ما يكون من الوقت ..

والواقع ان وفاة رسول الله كانت صدمة عظيمة للمسلمين ، حتى ان بعضهم وعمر منهم ابوا الايمان بان محمداً سيذهب عنهم ويغادرهم ، او ان الموت الذي ينزل بالناس سينزل بالرسول الكريم ، الذي خلقهم خلقاً جديداً ، ووحد صفوفهم ، والف بين قلوبهم ، وجعلهم امة قوية تستطيع ان تفرض سلطانها في الارض ، وان تكون اذا شاءت وارادت في

صدر الوجود .

مسألة الحكم

والواقع انه ما كاد ينتقل رسول الله الى الملأ الاعلى ، حتى فطن المسلمون الى ظاهرة خطيرة يتعلق عليها مصيرهم ، ذلك ان رسول الله الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة من شؤون الحياة ومطاليبها الا بحثها وعرض لها ، لم يعرض لمسألة الحكم بعده بقليل ولا كثير ، وكما ان القرآن لم يعرض لهذه الناحية الخطيرة ، فكذلك اغفل رسول الله هذا الامر الخطير ليس بصفته رسولا فحسب ، وانما بصفته مؤسساً لدولة عربية جديدة ، المفروض في مؤسسها ان يعرض لولاية العهد من بعده ، حتى لا تكون فوضى ولا اختلاف..

يعرض المستشرقون لهذه الناحية فيذهبون المذاهب في تأويلها ، فيقول بعضهم : اكان سبب هذا الاغفال ان رسول الله لم يبحث مسألة موته كمسألة عملية قريبة ؟ ، خصوصاً وان احداً في المدينة كما يظهر — وكما ثبت من موقف عمر بن الخطاب وانكاره موت رسول الله — لم يكن يفطن الى ان رسول الله ذاهب لمآبه ، على الاقل بمثل هذه السرعة ؟

وسواء اكان رسول الله قد تجاهل بحث مسألة الحكم المقبل حتى لا يثير اختياره سابقة وسنة من بعده فيختار كل خليفة من يشاء من رجاله واصحابه واهله ، ام خشي الفتنة بين اصحابه ، والاسلام لا يزال طرياً ليناً ، ام استقر رأيه على ان الخلافة ليست من العقائد الاساسية الاسلامية في كثير ولا قليل ، فترك الامر للمسلمين يختارون من يشاؤون تجنباً لتفضيل واحد من اصحابه على الاخر ، فان الواقع ان

رسول الله لم يعين خلفه من بعده ، وانه وقف من اهله واصحابه موقفاً واحداً ، فترك للجميع حرية الرأي والاختيار .

وكان موقف رسول الله سليما مكيناً ، فالمسلمون عند الله وعنده سواء ، لا يفضل احدهم الآخر الا بما يقضيه من خدمات للمصلحة العامة ، والعصبية الى هذا كانت لا تزال قوية عند العرب ، فقد كان هناك الانصار والمهاجرون ، وكل يريد الحكم لنفسه ، وكان الانصار والمهاجرون في الوقت نفسه ينقسمون فيما بينهم ، فكان الانصار يضطربون في حزبين ، الاوس والخزرج ، والمهاجرون ينقسمون مثلهم الى حزبين هاشم وامية ، وكانت الروح العربية كما قدمنا لا تعرف غير رابطة القبيلة التي هدمها الرسول وانكرها ، ولكن تعاليمه هذه لم تكن قد بلغت الغاية من نفوس القوم ، وكان لا بد لها من الوقت الطويل لتحمل ثمارها ، كل هذه العوامل باعتقادنا حملت رسول الله على تأخير بحث مسألة الحكم من بعده للساعة الاخيرة ، فلما كانت الساعة الاخيرة ، غلبه الوجع ، واشتدت عليه الحمى ، فذهب الى رحمة ربه ملقياً على المسلمين انفسهم مسؤولية خطيرة عظيمة .

والواقع انه ما كاد يعلم الناس بموت رسول الله حتى ظهر الاختلاف ، واول ما ظهر الاختلاف بين المهاجرين والانصار الذي آخى رسول الله بينهم ، فقد رفض الانصار النزول تحت حكم المهاجرين وقرروا اختيار امير منهم ، كما رفض بنو هاشم في الوقت نفسه قبول حكم شخص غريب عنهم ، واما موقف العرب الذين اسلموا مؤخراً في اطراف الجزيرة فقد رفضوا اداء الجزية ، وبعضهم ثار على الحكم الاسلامي ، والبعض الآخر انكر الاسلام . واما بنو امية فلم يحركوا ساكناً ، وهم زعماء مكة ، ووقفوا يرقبون الفرصة ، ويتطلعون الى الربح ...

وكان ابو بكر احب الناس الى المسلمين في ذلك العهد ، وليس سبب ذلك مركزه عند رسول الله ، وحب الرسول له ، وتكليفه بالصلاة مكانه في مرضه ، وانما مرد هـذا الحب كريم خلقه ودماثة اخلاقه ، وجميل صفاته ، وصدقه واخلاصه ، وكبر سنه ، وكبر السن عند العرب اذا كان الشخص المختار حـائزاً لبعض الصفات التي ذكرناها ، من اوكد الاسباب لاختياره وتزعيمه .

والواقع ان عمر بن الخطاب في تسرعه بمبايعة ابي بكر في سقيفة بني ساعده قد حدّد الموقف (١) واحدث اعظم انقلاب عرفه التاريخ ، لقد كان ابو بكر يرغب في الخروج من هذا الامر لا عليه ولا له ، كان كل همه ان يخرج الاسلام من هذه الساعة الجاهمة وهو اقوى سلاحاً ، واعظم سلطاناً ، وكان لا يرى كبير امر في اختيار عمر بن الخطاب او ابي عبيدة عامر بن الجراح لتولي شؤون العرب المسلمين ولكنه ما كاد يدعو الناس الى اختيار احد هذين الرجلين حتى صاح عمر منكراً منه موقفه هذا ، قائلاً : ان احداً لا يتقدم عليه ، ثم طلب منه ان يبسط يده ، فبسط يده فبايعه وبايعه الانصار ، دون ان يفطن ابو بكر الى اهمية هذا الحدث الخطير ، ودون ان يفطن عمر في الوقت نفسه الى ان مصير الاسلام السياسي كان معلقاً بهذه المبايعة واقرارها على الوجه الاكمل والاحسن ، ولو ان الناس بايعوا احد الانصار ، او اختلفوا ، لتمزق الاسلام ، وهذه العصبية التي كان عمر مشهوراً بها ، والتي كانت

---

(١) انظر الطبري وابن الاثير واليعقوبي والبداية والنهاية ، والمسعودي في مروج الذهب ...

تظهر اماراتها فيه حين يرى مخالفة من بعض الناس لما يعتقده حقاً وواجباً ، كانت لفتة مباركة للقضية الاسلامية والوحدة العربية يوم السقيفة (١) لانها مكنتهم من تسوية قضية الحكم بسرعة ، ليتفرغوا صفاً واحداً لمواجهة اخطر ثورة داخلية عرفها الاسلام في تاريخه واول نشأته ...

ومن غريب امر عمر بن الخطاب انه لما تولى الخلافة ، همدت عصبيته وزالت سرعة لفتاته ، وحل محلها الاعتدال وضبط النفس ، بحيث لم يشهد العالم منه في عهده موقفاً استعمل فيه عواطفه واجراها في وجوه الحكم والسلطان .

وفي اليوم التالي بايع الناس ابا بكر في المسجد وتخلف عن البيعة سعد بن عبادة زعيم الاوس ، وعلي بن ابي طالب وبعض بني هاشم ، فكانت هذه المبايعة دستوراً جديداً للدولة الجديدة ، وهذا الدستور يقوم على انتخاب الخليفة من وجوه الناس في العاصمة ، وموافقة الناس في الامصار على هذا الاختيار بعد ذلك .

حروب الردة

وما كاد يعلم عرب الجزيرة بموت رسول الله حتى ارتد بعضهم عن الاسلام ، واستقل البعض الآخر وابى ربط مصايره بمصاير الدولة الجديدة ، وكان موقف الخليفة الاول من المرتدين والثائرين العرب موقفاً موفقاً فلو تساهل في شيء من امور الدين معهم لفسد الامر ، وتصدعت اصول الاسلام ، وكان ابو بكر الى ذلك رجلاً مؤمناً كل

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا عمر بن الخطاب مع ذكر جميع المصادر والشواهد ...

الايمان برسالة محمد ودين محمد ، وكان هذا الايمان الذي ملك عليه عواطفه وقلبه من اكبر العوامل في نجاح سياسته ، وانتصار جيوشه ، خذ مثلاً ارساله لجيش اسامة بن زيد الى مشارف الشام مع حاجة العاصمة ومكة الى هذا الجند بسبب الثورة التي غمرت الجزيرة من اقصاها الى اقصاها ، فان ارساله لهذا الجيش مع قيام هـــذا الخطر الداهم – لان رسول الله امر بانفاذ هذا الجيش قبل وفاته – لم يكن من الحكمة العسكرية في كثير ولا قليل ، ولكنه كان عملاً رائعاً يدل على صلابة في العقيـدة تنهار امامها الجبال ، وهذه الصلابة في العقيدة ، وهذا العناد في الايمان ، مكنتا ابا بكر من تخضيد الثورة ، لانه بث روحـه في قلوب جنوده ، فحملوا ايمانه معهم ، وهزموا عدوهم وهم فئة قليلة لان ايمانهم كان شيئاً فوق الوصف وفوق التصوير ...

وكذلك رأينا ابا بكر يقف ثابتاً امام ما يعتقده حقاً بصرف النظر عن خطورة الموقف ، واضطراب الحال ، ومن المعـلوم ان الصلابة في الخطأ افضل من التردد في الحق ، وبذلك فازت سياسة الخليفـة الاولى ونجحت .

فلما انتهت حروب الردة بانتصار الجيوش الاسلاميـــة ، خرجت جزيرة العرب من ثورة دامية ، لعب فيها التدمير دوراً عظيما ، مما اهاب بالخليفة الاول الى ارسال هذه الجيوش التي تولت قمع الفتن ، مـع من يريد الانضمام اليها من رجال القبائل شرط ان لا يكونوا ارتدوا عـن الاسلام ، الى غزو البلاد المجاورة ، تمكيناً للدولة العربية الجديدة ، وعملاً بسياسة الرسول من نشر الاسلام والدعوة له .

ولما كان الاسلام قد وحد الصفوف في الجزيرة ، ومنع الغزو والاعتداء ، ولما كانت حروب الردة قد افقرت كثيراً من القبائل ،

فقـــد رأى الصديق فوق رغبته في نشر الاسلام ، ان الحالة الاقتصادية تدعو الى توسع القبائل العربية ونزولها على المواطن الخصبة التي كانت حولهـــا .. (١)

ولكن الاسباب الاقتصادية وحدها لا تكفي، وما نعلم ان مثل هذه الاسباب قد مكنت امة من الامم من انشاء دولة عالمية ، ثم ان العرب كانوا اضعف سلاحاً ، واقل جنداً من الامم المجاورة ، وما كان بطوق العرب والحالة هذه محاربة سواهم ، او مهاجمة جيرانهم ، لولا الاسلام الذي وحد صفوفهم ، وخلق فيهم روح القومية بدلا من روح القبيلة ، ثم اعطاهم شيئاً ما كانوا لولاه ليظفروا او ينجحوا وهو الايمان ..

يقول بعض المؤرخين ان السياسة طغت على الدين في اول الفتوحات وان الرغبـــة في السيطرة والحكم كانا اقوى من الفكرة الروحية ، ويضربون مثلاً على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وهما من اكبر القواد العرب ، فان الروح الدينية عندهما كانت ضعيفة لينـة ، ومع ذلك فقد فتحا الفتوحات ، وبسطا سلطان الاسلام ، واذا فهما قد فعلا ذلك بدافع الوطنية والعصبية لاعلاء مجد العرب لا بدافـــع روحي ديني ، وهذه الفكرة خاطئة جداً لان المفروض فيها الحكم على شيء مجهول ، فما الحجة التي لا تدفع والتي تؤيد ان خالد بن الوليد كان قليل الايمان ؟؟ وانه انما فتح الفتوح ، وضحى بنفسه في المعارك بدافع سياسي زمني ؟: لا بدافع ديني .

ثم ما قول هؤلاء المؤرخين بعمر بن الخطاب ، وما قام فتـــح الا

---

(١) هـــذا ما يذهب اليه كثير من المؤرخين المستشرقين ، الذين يجعلون الاسباب الاقتصادية اساساً للزحوف العربية ولكننا نذهب في هذا مذهباً وسطاً ، فنقول انه من جملة الاسباب .

بامره ، ولا سار جيش الا باذنه ، اكان قليل الايمان ، فعل ما فعل في سبيل السياسة والسيادة العربية ؟؟

اما القول بان الذين قادوا الجيوش وفتحوا البلاد كانوا اقل ايماناً من سواهم ، فليس الايمان بمظاهره الخارجية ، وانما هو بالعمل والافعال ، ونحن امام افعال واعمال لا سبيل الى انكارها ، وامام تضحيات في سبيل نشر الدعوة ، غذت ارض الفتوح من مشرق الارض الى مغربها بدماء الشهداء من العرب المسلمين ..

ومن المؤكد عندنا ان الفتوحات قامت بدافع من الدين والوطنية معاً ، فبعض القبائل العربية في المعارك كانت تنادي بعض الاحايين بشعارها في الجاهلية ، وكانت تحارب متماسكة مستقلة ليظهر خطرها ، وتذهب بفخر النصر دون سواها ..

معركة ذي قار واثرها

خذ مثلاً معركة ذي قار التي وقعت بين العرب والفرس قبل الاسلام وفي الجاهليه ، فقد غلب فيها العربُ الفرس ، وكان لهذا الانتصار العربي نتائج بعيدة المدى في الاسلام .

وقد دلت معركة ذي قار على ان العرب كانوا ينعمون بحركة اجتماعية انسانية عظيمة ، ولكن هذا الشعور ظل فردياً لا يعرف الظهور حتى جاء الاسلام فوحد العرب ، وجمعهم ، وافضى اليهم بروح وطنية جديدة ، وكان له الفضل الاكبر في الدور الذي لعبه الشعب العربي في الحضارة العالمية .

وكانت قبيلة بني شيبان قد انجلت منتصرة في معركة ذي قار ، فلما كان الاسلام وانتقل رسول الله الى ربه ﷺ ، اخذت هذه القبيلة بزعامة

كبيرها المثنى بن حارثة الشيباني تحارب الفرس على حدود العراق ، بسبب الفخر الذي ناله من انتصارها الاول ، والقوة الجديدة التي نفخها الاسلام في صدور ابنائها وكبارها .

وكذلك نرى ان بني شيبان كانوا اول من غزا الفرس في الاسلام من العرب ، حتى اذا انتهى امر الردة وجه ابو بكر الجيوش لمساعدتهم بقيادة خالد بن الوليد القائد الذي لم يغلب في المعارك الكثيرة التي نشبت بينه وبين الفرس ابداً ...

لقد سحق العرب الفرس في معركتين (القادسية) و (نهاوند) ، وسحقوا الروم في معركة واحدة (اليرموك) ووصلت الفتوحات العربية في ايام عمر بن الخطاب واول عهد عثمان بن عفان وذلك في الشرق الى نهر جيحون الذي كان يفصل بينهم وبين القبائل التركية وبلاد الترك ، واما غرباً فوصل العرب الى اواسط افريقيا واستولوا في اقل من خمسة عشرة سنة على كل بلاد فارس والافغان وسورية ومصر ، وافريقيا ، وهو حادث عجيب طبعاً ، ولم تعد الفتوح الى سابق عهدها وكانت قد توقفت في عهد عثمان بسبب الاختلافات الداخلية ، إلا في عهد الوليد بن عبد الملك لما اخذ قتيبة بن مسلم يتقدم نحو خوارزم وبلاد ما وراء النهر ، حتى اخضعها وفرض على اهلها ضريبة قدرها مليونا قطعة ذهبية واقام في خوارزم مسجداً متواضعاً صلى فيه بعد ان كسر الترك واجلاهم ، وما زال هذا شأنه حتى وصل الى بلاد الصين ، وفرض الجزية على ملوكها .

وفي الوقت نفسه كان محمد بن القاسم القائد العربي الشاب يقتحم حدود الهند ، ويفرض على اهلها الجزية والاسلام ، هذا في الشرق ، واما في الغرب فان موسى بن نصير وطارق بن زياد راحا يضمان بلاد

الاندلس الى الدولة العربية ، ويفكران بالمضي بفتوحها في بلاد فرانسا والمانيا ...

وهذه الفتوح الاسلامية العظيمة التي وقعت بهذه السرعة العجيبة ، كانت شيئاً لم يسبق له مثيل في التاريخ ، حتى قال الكثيرون ان العرب فتحوا في ثمانين سنة – غير متصلة ولا متتابعة – اكثر مما فتح الرومان في ثمانمائة سنة ، وكان نابليون يقول : ان العرب فتحوا نصف الدنيا في نصف قرن . ونابليون الذي كان ينظر الى الحوادث من الناحية العسكرية ، كان يذهب الى ان العرب قبل الاسلام كانوا ذوي بصائر بالحرب وخبرة عظيمة ، وان حروب القبائل العربية بعضها مع بعض كانت قد ساعدت في تنظيم افرادها وتدريبهم الى الحد الذي صيّرهم امة محاربة من الدرجة الاولى ...

وكان نابليون من المعجبين بمحمد الذي خلق هذه الامة العجيبة اعجاباً عظيماً حتى راح في فترة من الزمن ، ووفاقاً للمصادر التي بين ايدينا يريد الدخول في الاسلام ، وحمل جيشه في مصر على مثل ذلك .

العربي

ثم ان العربي نفسه وقد خلقه الاسلام خلقاً جديداً اصبح قوة عظيمة ، فهذا البدوي الذي يصبر على الصحراء وحياتها المرهقة ، ومطالبها القاسية ، وعنائها الشديد ، ولا طعام له سوى اللبن والتمر احياناً ، مما لا يطيقه غيره ، ولا يتحمله سواه ، ثم يأتي الاسلام فيبث فيه روحاً جديدة ، ويخلقه خلقاً جديداً ، ليسهل عليه ولا شك ان يقف وحده في وجه العشرة من جنود الفرس والروم ، ولا عجب اذا كان بضعة آلاف من هؤلاء الاشداء الخشنين قد عصفوا بمئات الآلاف

من جنود الدور الرومانية التي كانت تقيد جنودها وتصفدهم لتمنعهم من الهرب والفرار .

هذه الحياة في الصحراء التي كانت تعرض صاحبها ومن يعيش فيها للبوار والهلاك في كل لحظة ، كانت تجعل من العربي كما قدمنا رجلاً يرى الحياة ولا قيمة لها ، فاذا اضفت الى هذا فعل العقيدة والايمان الراسخ بحياة اخرى – حملها الاسلام اليه – وهي اطيب واعز واكرم ، فهل يستغرب احد ان هؤلاء البدو الحفاة ، الذين لا يملكون إلا السيف والرمح والايمان ، اكتسحوا دولاً كبيرة وممالك عظيمة ، وهدموا بناء كان يبدو شامخاً قائماً .

وكذلك نرى ان الايمان الجديد مكن العرب من الخروج من جزيرتهم الى البلاد التي حولهم ، ثم انحدروا على العالم المتمدن في زمنهم كما ينحدر السيل الجارف فاغرقوه ، ولم يغرقوه فقط ، ولم يفتحوا البلاد ويحكموها فحسب ، بل قلبوها عربية خالصة ، واذا كان الفرس قد استطاعوا ان يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم وبروحهم القومية – بما لم يستطع البيزنطيون مثله – لأن الفرس كانوا اكثر صلابة في وطنيتهم من البيزنطيين، يضاف اليه ان البلاد التي فتحها العرب من دولة الأكاسرة كانت فارسية واهلها من الفرس على خلاف ما فتح العرب من بلاد الدولة الرومانية ، فانها كانت اجنبية لا رومانية ولا بيزنطية ، فبقاء الشعور القومي في بلاد فارس طبيعي ومعقول والفتح لا يمكن ان يقتله ، وانعدام مثل هذا الشعور فيما فتحه العرب من املاك الدولة الرومانية معقول ايضاً ، لأنه لم يكن هناك في الاصل ، ولهذا بقيت فارس شوكة في جنب الدولة العربية .

ولكن الصحراء التي جعلت من هؤلاء القوم جماعة اشداء اقوياء لا يأبهون للموت ، ولا يفطنون للحياة والنعيم والترف ، لم تكن تصلح لان تكون مقر الدولة العظيمة التي اخضعها ابناؤها ، وفتحها شبابها . نعم تستطيع بسهولة ان تحتفظ باستقلالها وعزتها ولكنها لا تقوى على حكم اقطار اخرى بعيدة كالشام والعراق ومصر . وقد بقي الحجاز مقر الدولة العربية في صدر الاسلام وعلى عهد الخلفاء الراشدين ولكن هذا كان زمن التوسع والامتداد ، لا زمن الاستقرار والنظام الدائم ، فلما انتهت الفتوح او معظمها واهمها ، وصارت الفتوح بعد ذلك عبارة عن توسع طبيعي لدولة مستقرة تغريها ما انست من نفسها من القوة والبأس والشوكة بالتوسع والزحف ، وتدفعها مقتضيات المحافظة على ما في اليد الى هذا الزحف ، صارت جزيرة العرب لا تصلح ان تكون هي مركز الدولة ، اما في زمن ابي بكر فقد كانت الحاجة تدعو الى توطيد الامر في قلب الجزيرة اولا ، قبل امكان التفكير في غيرها . واما في زمن عمر فقد كانت الجيوش تزحف فلا يعقل ان تنقل العاصمة قبل ان يستتب الأمر . نعم فتحت البلاد في عهده ، ولكن الفتح يستدعي التمكين والتوطيد اولاً . ثم ان عمراً كان يشق عليه ان يخرج من الجزيرة ، وكانت صلته بالنبي عليه الصلاة والسلام اوثق من ان تسمح له بترك الجزيرة حتى ولو كان كل شيء قد استقر وانتظم . ولم يكن قد عاش في الشام او مصر او العراق حتى تبدو له مزية التحول بقاعدة الدولة الى جهة اخرى . واما زمن علي وعثمان فقد كان زمن اضطراب ونزاع وانقسام ، وكان هذا حسبهما شاغلاً عن اقامة مركز الدولة اقامة ثابتة نهائية في

مكان آخر غير الحجاز . ولما انتهى النزاع بفوز معاوية كان هـذا قد ادرك مزية البلاد الاخرى وعرف فضلها كمركز للملك ومقر للدولة التي شادها بفضل ما تولى منها في الفترة السابقة .

وبلاء جزيرة العرب انهـا مجدبة قاحلة ، فاذا امتدت لهـا رقعة ملك اهلها الى التحول عنها الى غيرها ، لان الحياة في غيرها تكون ارغـــد والعيش اطيب . والمرء يحن الى الراحة والدعة مهما بلغ من اعتيــاده الخشونة والمشقة والشظف ، وفرق بين هجرة تدعو اليها كثرة السكان ، وهجرة تدعو اليها الفاقة والمحل . ولا بد لبلاد تريد ان تكون مقر دولة كبيرة ان تكون هي ذات موارد كافية الى حد ما . ولهـــذا لم يكد العرب يفتحون الاقطار المجاورة حتى كثرت هجرتهم اليها طلبـاً للرغد والراحة ، ومن ألف التنقل وكثرة الرحيل من ناحية الى اخرى انتجاعاً للرزق لم تشق عليه الهجرة الى بلاد بعيدة لأنه لم يزل ابداً مهاجراً في قلب بلاده ، وما دامت الدولة واحدة في الحجاز ومصر والشام والعراق فأخلق بهذا ان يكون مشجعاً على الهجرة ومستحثاً على النزوح .

ومما يلفت النظر في امر الجزيرة وسكانها ان القبائل العربية البدوية لم تتقبل الاسلام في اول الامر عن طيبة خاطر وعن اخلاص ، وهـذا يفسر قوة الردة بعد وفاة رسول الله ، ولكن ابا بكر عرف كيف يعلم العرب الثائرين ان سياسة الرسول التي تدعو الى الوحـــدة القومية ، وربط قبائل العرب بعضها مع بعض هي سياسة خلفائه من بعده ، وبعد انتهاء حروب الردة لم يبق في جزيرة العرب جماعة ثائرة ، ولا قبيـــلة عاصية ، فاصبح من حق ابي بكر والحالة هذه ان يفكر في اقرار سياسة الرسول خارج الجزيرة ، وتوحيد العرب المقيمين على اطرافهـــا وفي الامصار القريبة منها والذين كانوا تحت حكم الروم او الفرس .

وما كان ابو بكر ليستطيع ذلك لولا ما تم له من النجاح في الجزيرة ، لان الامة التي تعجز عن توحيد نفسها لا تستطيع الغلبة على غيرها ، والظفر على سواها ، وكان هناك امام الخليفة الاول ، طريق يضرب نحو الشمال ، وآخر نحو الشمال الشرقي ، فما تأخر في ارسال الجنود على الطريقين ، وضرب الروم والفرس من جهتين .

وكذلك نرى ان المسلمين الذين لم يكونوا في معركة بدر يشكلون قوة تزيد عن ثلاثمائة مقاتل ، والذين اصبحوا في غزوة تبوك ثلاثين الفاً ، قد استطاعوا في الحروب الاولى وفي عهد الخليفة الاول ان يجمعوا ما لا يقل عن ستين الف جندي لمحاربة الروم والفرس معاً .

واما القول بان ابي بكر لم يكن ينعم بفكرة واضحة مقررة في هذه الزحوف ، وانها كانت مجرد غزوات لاشغال العرب ، فمردود بالاوامر التي اصدرها الى قواده الاربعة لما وجههم الى الشام ، واقر كل قائد منهم على حكم البلاد التي ينجح في الاستيلاء عليها ...

واذا كانت جزيرة العرب قد خسرت سيادتها السياسية في عهد علي بن ابي طالب لما نقل عاصمته الى الكوفة ، وفي عهد الامويين لما نقلوا عاصمتهم الى دمشق ، فانها احتفظت بسيادتها الدينية ، وما تزال تحتفظ بها حتى اليوم .

والواقع ان الزحوف الاولى التي قام بها سكان الجزيرة افقرتها من الرجال ، لان كثيراً من اهلها بعد الزحوف الاولى استقروا في الامصار المفتوحة ، فخسرت الجزيرة والحالة هذه ليس فقط قسماً كبيراً من سكانها ، وانما خسرت ايضاً اذكى رجالها الذين وجدوها ضيقة على مواهبهم ، ورأوا في الامصار الواسعة والانهر القائمة حول الجزيرة ميداناً واسعاً لنشاطهم .

ولقد حـــاولت الجزيرة استعادة مركزها السياسي بواسطة عبدالله بن الزبير فلم توفق ، وبمقتل عبدالله بن الزبير سنة ٦٩٢ ميلادية ، انتقلت السيادة السياسية الى دمشق ، ومنها الى بغداد في عهد العباسيين، ثم الى منازل اخرى من المدن العربية، ولكنها لم تعد الى الجزيرة ابداً.



تمثل هذه الصورة فارس روماني في العهد العربي ..

-٧-

النظام السياسى للدولة العربية

الخلافة

ذهب السلف الى ان اساس كل حكم في الاسلام « الخلافة » او « الامامة العظمى » ، وجروا في تعريف الخلافة على انها رياسة في امور الدين والدنيا نيابة عن رسول الله ، وان منزلة الخليفة من الامة ، منزلة رسول الله من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم ، فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه وله حق القيام على شئون دنياهم ايضاً ، بيده وحده زمام الامة ، فكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية او دنيوية متفرعة عن منصبه ، فهو الحاكم الزمني ، وهو الحاكم الروحي .

والخلافة شيء جديد لم يكن قبل الاسلام ، وليست منبعثة عن نظام سياسي سابق ، ولكنها شيء نشأ بعد وفاة رسول الله ، واول من تلقب بهذا اللقب ابو بكر الصديق الخليفة الاول في الاسلام ، وتوارث هذا اللقب من جاء بعده من امراء المسلمين .

وقد ذهب كثير من المستشرقين يقولون ان الخلافة ونظامها يساوقان نظام الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي نشأ في اوروبا في العصور الوسطى ، وراح بعضهم يحاول التقريب بين النظامين ، والتأليف بين المذهبين ، ولكن الواقع ان الخلافة شيء ، والامبراطورية المقدسة شيء آخر ، وقد فطن الى الفوارق العظيمة بين المذهبين والنظامين السر

توماس ارنولد في كتابه الخلافة فقال : (١)

« لما صرح البابا اينوسنت الثالث بان المسيح قد استودع بطرس الرسول شؤون الكنيسة العالمية ، وحكم العالم كله ايضاً ، اعلن مذهب الدين العالمي الذي كانت تدعو اليه الكنيسة منذ نشأتها، ومن هنا نشأت فكرة الامبراطورية الرومانية المقدسة التي يكون الامبراطور فيها امبراطوراً عالمياً ، وحاكماً مرشداً لشؤون المؤمنين الدنيوية بسلطات واسعة جداً حتى تعم سلطته العالم كله.

« والاسلام كذلك دين عالمي ، يدعو جميع الناس الى الايمان بالله ورسوله ، او يدفعون الجزية كشعوب خاضعة للسيادة الاسلامية التي يشرف عليها سياسياً ودينياً الخليفة .

« ومع وجود فكرة او مبدأ السيطرة العالمية بين المذهبين فانهما يختلفان فيما بينهما من حيث ان الامبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود ، وانما هي منبثقة عن امبراطورية وثنية سابقة ، كما نجد فيها حاكمين احدهما (زمني) وهو الامبراطور ، والاخر (روحي) وهو البابا ، واما الخلافة فنظام مستحدث ، ووليد ظروف واحوال نشأت عند وفاة رسول الله ، والخليفة الى ذلك حاكم سياسي وديني ، ولكن وظيفته الدينية لا تتعدى المحافظة على الشؤون الدينية المقررة في الاسلام ، وليس له صلاحيات دينية كهذه التي ينعم بها البابا ، من عصمة وغفران للخطايا ، فان مثل هذه الامور ليست من شأن الخليفة في كثير ولا قليل ، وانما هي شيء يتعلق بين المرء وربه ، والله وحده عند المسلمين يغفر ويصفح ويمحق الذنوب .

« ولسنا ننكر ان الخليفة كان ينعم بصلاحيات سياسية عظيمة ،

(١) السر توماس ارنولد « الخلافة » (لندن)

ولكن صلاحياته الدينية كانت ضعيفة جداً – وهذه هي نظرية السنة في هذا الموضوع – وان كان الشيعة يذهبون الى ان (الامام) وهو ما يطلق على الخليفة في نظرهم ، « يجب ان لا يفوض امره الى نظر الامة ، وان الامامة ركن من اركان الدين ، لا يجوز لنبي اغفاله ولا تفويضه الى الامة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، وان يكون هذا الامام معصوماً عن الكبائر والصغائر . »

الخليفة

واذاً فنظرية الشيعة في الامامة اوسع وابعد مدى من نظرية السنة فيها وهي عندهم ملكية قائمة ، ووراثة دائمة ، وهي اصل من اصول الدين والامام معصوم في نظرهم ، واما الخليفة عند السنة ، فرجل من عامة المسلمين صار اختياره لهذا المنصب لفضله وشرفه واخلاقه ومقدرته على الاضطلاع باعباء الحكم اذ لا نص من رسول الله على خليفته ، والحديث الموضوع المتعلق بان الخلافة في قريش ، ظاهر التحريف والوضع ، ولو كان صادراً عن رسول الله لعرف به الصحابة والانصار ، ولأحتج به ابو بكر وعمر يوم السقيفة ، ولا كان اجتراء الانصار على المطالبة بالامارة ، ونحن نوباً بالانصار وقد نصروا رسول الله وايدوه ان يطلبوا الخلافة لأنفسهم ، وهم من غير قريش ، وهذا الحديث معروف بينهم ، ورسول الله لما يدفن ، ولما يوارى التراب ...

وكذلك نرى ان الخليفة عند السنة (١) رجل كغيره من المسلمين

(١) والسنة هم الاكثرية الساحقة من المسلمين ، لان الشيعة لا يعدون اكثر من ٤ مليوناً ، واذا اضفنا اليهم بقية الفرق لم يزيدوا عن عشرين مليوناً فيبقى في العالم ما يزيد عن ٢٥٠ مليوناً من السنيين . – دائرة المعارف الاسلامية – الطبعة الانكليزية –

لا يستطيع ان يتقدم او يتأخر عن ما جاء في القرآن الكريم ، واقرته الاحاديث الموثوقة ، وليس هو افضل من غيره من المسلمين إلا بالعمل الصالح ...

واكثر صلاحيات الخليفة التي انعقد عليها الاجماع كالصلاة بالمسلمين اماماً في المسجد مثلاً ، وقيامه فيهم خطيباً يوم الجمعة ، لا يستقل فيها وحده ، بل يستطيع اي مسلم القيام بها ، اذا رضيت به الجماعة الاسلامية ، ذلك ان الاسلام لا يعرف نظام الكهنوت ، ولا يقره ، وليس هناك فئة من المسلمين تستطيع القيام بعمل معين من اعمال الدين لا يستطيعه غيرها من المسلمين ، والعلماء في الاسلام جماعة انصرفوا الى دراسة الشؤون الدينية ، والعلوم الفقهية ، وليس لهم صلاحيات خاصة بين الناس بسبب تجردهم لهذه الدروس ، وليس هناك نص في القرآن ولا حديث مشهور يجعلهم فئة خاصة ، لها امتيازاتها وحقوقها ، وانما هم جماعة انصرفوا لهذا العمل بملء ارادتهم ، واحترمهم الناس لعلمهم وفضلهم — كما احترموا غيرهم من العلماء الذين حذقوا الفنون والمعارف الاخرى وتخصصوا فيها — لا لأنهم يؤلفون هيئة معينة دينية خاصة ، تستحق هذا الاحترام والاجلال .

وما يقال في العلماء يقال في الائمة الذين يصلون بالناس ، ويلقون الخطب الدينية يوم الجمعة او يدرسون في المساجد المختلفة ، فهؤلاء صار تعيينهم لهذه الوظائف — التي قد يستطيع القيام بها كل مسلم صالح لها — في العصور المتأخرة ، بعد ما رؤي من المناسب اختيار امثالهم ، ليكون المختار المكلف بهذه الاعمال حاضراً في المسجد وقت الصلاة ، فلا تتأخر الصلاة ريثما يختار المصلون من يصلي بهم اماماً ، وكذلك الحال في صاحب خطبة يوم الجمعة ، فانها لما تحتاجه من استعداد سابق ، رؤي ان

يكلف بها شخص معين ، ليكون مستعداً لالقائها في اوقاتها ، لا ان يترك الامر للمصلين ، وقد لا يكون بينهم من هو على استعداد للخطابة والوعظ والارشاد في الوقت المعين ...

واذاً فالخلافة في الواقع مع صفتها الدينية الضيقة ، لا تنعم بشيء من الصلاحيات الدينيه ، وما يعطيه هذا المنصب لصاحبه من صلاحيات دينية ، لا يرفعه عن غيره من المسلمين ، لان هذه الصلاحيات هي سواء عند الجميع ، لا تتعلق به وحده ، في كثير ولا قليل .

وكذلك تختلف الخلافة عن الامبراطورية الرومانية المقدسة من حيث ان الاخيرة قد انهارت واندثرت ، وقد انهارت واندثرت ولفظت انفاسها ، قبل ان يعلن نابليون في سنة ١٨٠٦ انه لا يعترف بوجودها ، وليس هناك اليوم احد من ملوك الفرنجة يفكر في بعثها ، واما الخلافة فانها اذا لم تكن قائمة فعلاً عند المسلمين بعد ان صار الغائها في تركيا – في ٣ اذار ١٩٢٤ – فانها امر يفكر به الجميع ، ويعمل له الجميع .

ديموقراطية

ومن المؤكد ان السبب في هذه النظرية الخاطئة التي فشت بين المستشرقين من وجود ملابسة عظيمة بين الخلافة والامبراطورية الرومانية المقدسة تعود على الارجح الى ان المستشرقين نظروا الى الخلافة ، نظرهم الى البابوية ، ويقول (ارنولد) في كتابه الخلافة حين يبحث هذا الامر ما يأتي :

« ان العقيدة الاسلامية المتعلقة بالله وصفاته تختلف اختلافاً عظيماً عن الصفات الالهية في الدين المسيحي ، فالاسلام يعتبر صفات الله ، شيئاً خاصاً بالله دون غيره من المخلوقات لا يشاركه فيها احد ، ولا يتعلق

ببعضها احد ، وهي الى ذلك تربط العلاقات بين المسلم وربه ارتباطا يختلف كل الاختلاف عن العلاقات المقررة بين المسيحي والله في الدين المسيحي،والسنة في الاسلام– وهي ما وافق عليه اكثرية المسلمين–تقرر ان احداً من المسلمين لا يستطيع ان يقول انه اقرب الى الله من غيره ، وكل المسلمين سواء في طاعة الله والانقياد لاوامره ونواهيه وتقديم العبودية له على وجه يخالف كل المخالفة ما عند غيرهم من ذلك ...

« وليس يوجد في الاسلام الى ذلك انفصال بين الدولة والدين كما يوجد في المسيحية وهو امر كان سبباً في حدوث اختلافات عظيمة في المسيحية في القرون الماضية .

« وليس يمنع ذلك ما كان يقوم به العلماء في الاسلام من وقت الى آخر ، من انتقاد اعمال الخليفة حين خروجه عن العدل والانصاف ، ومطالبتهم اياه بالعودة الى اوامر الدين ونواهيه ، لأن هذه الانتقادات لم تكن موجهة الى رئيس الدولة من جماعة من الكهنة، وانما كانت تصدر من جماعة من العلمانيين الى آخر مثلهم ، ولكي نفهم نظام الخلافة ، يجب ان نعلم ان الخليفة موظف سياسي قبل ان يكون موظفاً دينياً ، وان الواجبات الدينية الملقاة على عاتقه لا تعطيه حقوقاً دينية او روحية تجعله يمتاز بها عن غيره من المسلمين » .

شروط الخلافة

والخلافة ضربان : اختيارية وقهرية .

والاختيارية هي التي تكون نتيجة انتخاب الامة وبيعتها ورضاها ويشترط فيمن يكون مستحقاً لها ان يكون جامعاً للصفات المطلوبة ، والشروط اللازمة لها ، اربعة : العلم والعدالة ،والكفاية وسلامة الحواس

والاعضاء ، بما يؤثر في الرأي والعمل ، واختلفوا في شرط خامس هو النسب القرشي ، وقد بسطنا رأينا في هذا قبلا ، وقلنا ان الحديث الذي ينص على ان تكون الخلافة في قريش موضوع ما في ذلك شك ولا ريب .

والقهرية هي التي نالها صاحبها بالغلب والقوة ، ويرى بعض الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها ، حتى لا تكون فتنة عامة وثورة جارفة ، تمزق المجتمع الاسلامي ..

واذا كانت الشروط الاربعة التي قدمناها ضرورية لكل مرشح للخلافة ، فان الرأي الخامس وهو النسب القرشي لم يجز اجماع الناس ليصبح قاعدة مقررة ، خصوصاً وليس في الاسلام تفضيل لعربي على عجمي من المسلمين الا بالتقوى والعمل الصالح ، فاذا كان الاسلام يمنع المفاضلة بين العربي والعجمي ، فمن المفروض ان يمنعها بين العربي والعربي .

وفي رأينا ان كل مسلم يستطيع ان يكون خليفة اذا جمع الى الشروط الاربعة المقررة في كل خليفة ، وهي العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء ، وقرر المسلمون انتخابه ، والاسلام الدين المتواضع ابعد الاديان عن الاثرة ، وتفضيل جماعة على اخرى من المسلمين خصوصاً والله سبحانه وتعالي لم يرسل رسوله الى قريش وغير قريش وانما ارسله هادياً ونذيراً الى البشر عامة .

اختيار الخليفة الاول

والمستشرقون يعجبون كيف ان رسول الله لم يعين خليفته من بعده في حياته ، وبعضهم يذهب الى انه ترك الحرية للمسلمين ليختاروا الزعيم الذي يشاورنه ، لان هذا الاختيار اكثر انطباقاً على العادات البدوية

والحربة العربية .

وكان من عادة القبائل العربية اذا مات زعيمها ان تختار مكانه من رجال القبيلة من ينعم بمثل زعامته ونفوذه ، او يكون من الرجال الذين تحترمهم القبيلة لسنهم ونفوذهم او لخدماتهم العظيمة في سبيلها ، وهذا الاختيار قريب من البساطة ، واعلق من غيره بالعقلية البدوية في ذلك العهد .

وكذلك كان اختيار الخليفة الاول ابي بكر ، وسنبحث شكل الانتخاب قريباً ، واما الخليفة الاول فقد اختار عمر بن الخطاب ، ولم يترك اختيار خلفه لجماعة المسلمين كما فعل رسول الله ، وبعض المستشرقين يذهبون الى ان هذا الانتخاب كان منتظراً ، لان عمر بن الخطاب وقد اختاره ، او كان السبب المباشر في اختيار ابي بكر للخلافة ، وكان الى ذلك الحاكم الحقيقي في عهد ابي بكر ، فقد كان مرشحاً اكثر من غيره ليلي الخلافة بعد الخليفة الاول .

وهذه النظرية تحتاج الى بعض التعليق ، فليس صحيحاً ان عمر بن الخطاب كان الفعّال لما يريد في عهد ابي بكر ، لان المصادر التاريخية التي بين ايدينا لا تدع مجالاً الى الشك في ان عمر بن الخطاب كان يختلف كثيراً مع ابي بكر في شؤون الحكم ، اختلف معه في مسألة الردة ، واختلف معه في ابقاء خالد بن الوليد قائداً بعد مقتل مالك بن نويره ، واختلف معه في كثير من المسائل الادارية الاخرى (١) ، والشيء الثابت ان الخليفة الاول كان يأخذ رأي الفاروق في كثير مما يعرض له من امور الدولة ، كما كان يأخذ رأي سواه ايضاً ، ولكنه كان الى الفاروق ورأيه اقرب وبه اعلق .

(١) انظر الطبري وابن الاثير وكتابنا « عمر بن الخطاب » .

وكذلك اختلف الفاروق مع ابي بكر في مسألة خطيرة جداً وهي مسألة العطاء ، فقد ساوى ابو بكر المسلمين في العطاء ، — وهو المال الذي كان يصار الى توزيعه بين المسلمين من واردات الغنائم والفتوحات الجديدة — واما عمر فقد رفض الاخذ برأي ابي بكر لما ولي الخلافة ، وقال : « لا اعتبر من حارب رسول الله كمن حارب معه » وراح يقرر في العطاء خطة جديدة ، وهي تقديم انسباء الرسول ثم صحابة واهل بدر والمسلمين الاولين على غيرهم من المسلمين ..

حكم الخلافة

ويرى بعض المسلمين من المتأخرين طبعاً ان نصب الخليفة واجب اذا تركه المسلمون اثموا جميعاً ، وبعضهم يحاول تخفيف الاثم ، ولكنهم يجمعون على وجوب نصب الخليفة ، وابن خلدون يقول : ان هذا مما انعقد عليه الاجماع ، والدليل على ذلك اجماع الصحابة بعد وفاة رسول الله على بيعة ابي بكر ، ثم اختيار ابي بكر لعمر ، ثم عهد عمر لاهل الشورى باختيار خليفة منهم ، ولكن الشيء الواقع هو ان احداً من العلماء لا يستطيع ان يقيم الدليل القاطع على وجوب ذلك بآية من القرآن الكريم ، ونريد طبعاً آية صريحة لا سبيل الى الشك في مدلولها ومعناها .

والعلماء السابقون يقرون بانعدام نص في الكتاب بهذا المعنى ، ويردون الامر كله الى الاجماع .

وكما انه ليس في القرآن نص على الخلافة والامامة فكذلك لا يوجد في السنة ، ونعني بالسنة (الحديث) نص يعترف بوجود الخلافة او الامامة العظمى ، بمعنى النيابة عن رسول الله والقيام مقامه من المسلمين .

واذا فكما ترك رسول الله امر تعيين خلف له من بعده، فعل القرآن مثله فلم يعرض لمسألة الحكم بعد رسول الله، كما ان الحديث لم يبحث امر الخلافة بعد محمد .

ولكن رسول الله كان رسولا وكان حاكماً سياسياً في الوقت نفسه، فقضاؤه بين الناس وارساله القضاة الى القبائل ، وتعيينه بعض العمال في عهده ، وقيادته الجنود والزحوف وغيرها ، يمكن اعتبارها كلها من اثار الدولة ، ومظهراً من مظاهر الحكومة ، ومن نظر الى اعمال رسول الله من هذه الجهة ساغ له ان يقول : انه كان رسولا وكان ملكاً سياسياً ايضاً ...

وهنا تعرض لنا مسألة خطيرة جديرة بالتفكير ، وهي : هل كان تأسيسه صلى الله عليه وسلم للملكة الاسلامية ، وقيامه ببعض اعمال الملك السياسي فيها شيئاً خارجاً عن حدود رسالته ، ام كان جزءاً مما بعثه الله له ، واوحى به اليه ؟؟

وكتاب السلف لم يعرضوا لهذه الناحية على الوجه الذي اشرنا اليه ولكن ابن خلدون عرض لذلك بما يشير الى ان الاسلام دون غيره من الملل الاخرى قد اختص بانه جمع بين الدعوة الدينية وتنفيذها بالفعل ، وقد بينه بنوع خاص في الفصل الذي شرح فيه اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية (١)

والذي يبدو لنا ان محمد بن عبدالله كان رسولا وانه لم يكن له ملك ولا حكومة ، وانه صلى الله عليه وسلم لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم (سياسياً) من هذه الكلمة ، وان ما اجراه من نظم سياسية حكومية في عهده كانت اقرب الى الفطرة والبساطة منها الى الملك

---

(١) المقدمة (ابن خلدون)

واصول الحكم ، ولو ان رسول الله رغب في تأسيس الملك على النحو الذي نفهمه من هذه الكلمة لعرض لاصول الحكم ونظام الخلافة من بعده ، ولقرر جميع ذلك ومتعلقاته ، كما قرر الامور الدينية والاجتماعية ، ما فرط في شيء من هذا ، ولا تركه لمن بعده يجرون فيه على اختيارهم وهواهم .

ولكن الرسول كان رسولا ، جاء الى العرب بهذا الدين المتواضع الساذج البسيط ، ورغب الى خلفائه من بعده نشر هذا الدين في العالم ودعوة جميع الشعوب اليه بالحسنى والموعظة الحسنة .

الشورى

ولما طعن عمر فكر في اول الامر على ما يظهر ،ان يفعل ما فعله رسول الله قبله ، فيترك المسلمين وشأنهم يختارون من يريدونه ، ولكن بعض الصحابة خوّفوه الفتنة ، فاوصى بالشورى وهم ستة نفر ، علي بن ابي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ،وسعد بن ابي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيدالله ، على ان يجتمعوا ويختاروا واحداً منهم ، وامهلهم ثلاثة ايام لاقرار هذا العمل واختيار الخليفة .

وبعض المستشرقين خصوصاً « كيتاني » يشك في هذا الامر ، ويذهب الى ان عمر بن الخطاب لم يعين احداً من الشورى ، وان الناس من بعده ، اجتمعوا على هؤلاء الستة الذين توفي رسول الله وهو راض عنهم فكلفوهم اختيار الخليفة .

ولكن المصادر التي بين ايدينا تنفي هذا الرأي كل النفي ، ويصعب علينا الايمان بان الناس بعد عمر اجتمعوا على ستة نفر فقط ، وفوضوا اليهم اختيار الخليفة ، مع ما نعلمه من حب الناس للحرية واعتبار كل

واحد منهم نفسه مثل غيره من المسلمين ، ومن المؤكد لدينا ان عمراً اختار الستة ولولا ذلك ما اجتمعوا ، ولا اتفقوا ، ولا اتبعهم الناس .

وفي اجتماع الشورى صار اختيار عثمان بن عفان ، وكان علي اقرب منه للخلافة ، لو سار على رأي عبد الرحمن بن عوف ، ووعد بالسير على سيرة صاحبيه ابي بكر وعمر ، ولكنه رفض هذا الشرط ، وطلب ان يترك الامر لاجتهاده ، فخشى عبد الرحمن بن عوف منه هـذا التشدد ، وصرف الامر عنه الى عثمان بن عفان ، لان الناس في ذلك العهد كانوا كما يظهر – ونحن هنا نتكلم عن اهل المدينة لأن احداً سواهم لم يتعرض للانتخاب ولم يؤخذ رأيه فيه – منقسمين كما يظهر بين علي وعثمان ، بعضهم يؤيد هذا ، والبعض الآخر يؤيد الآخر ...

وهنا يحار المرء في بحث ناحيه خطيرة في هـذا الانتخاب ، وهي تتعلق في موقف الامويين من انتخاب عثمان ، وهل كانوا من الكثرة بالمدينة بحيث استطاعوا ان يجمعوا حولهم عدداً لا بأس به من الناس استطاع مزاحمة انصار علي وحمل عبد الرحمن بن عوف على تقديمه وترشيحه ؟؟

هل كانت الارستوقراطية المكية التي حاربت رسول الله من القوة في المدينة بحيث استطاعت مزاحمة على نفسه في الانتخاب ، وحمل الناس على تأييده ورفع عقيرتهم بهذا التأييد لما راح عبد الرحمن بن عوف يدور بين القوم هـذه الايام الثلاثة التي سبقت الانتخاب ليتعرف على رأي الناس ؟؟

هذه مسألة من الخطورة بالمكان الارفع ، ولكن شيئاً في المصادر التاريخية لا يؤيدها ، لانه كما يظهر لنا لم تكن هناك اكثرية لواحد من المرشحين في المدينة ، على الآخر ، ولو كانت هناك اكثرية ظاهرة قوية ،

لأخذ عبد الرحمن بن عوف بها ما في ذلك شك ولا ريب ، وهو شخص لا يشك احد في اخلاصه ، بعد ان اخرج نفسه من الخلافة ، وتخلى عن حقه في الانتخاب .

والواقع ان اختيار الخلفاء الراشدين الاربعة ،كان انتخاباً ديموقراطياً حراً ، لان الخلافة في عهد بني امية اصبحت ملكاً لا شأن للرعية فيه ولا رأي لها في اقراره ، وان كان الانتخاب في عهد الراشدين ضيقاً لايتعدى اهل المدينة كما قدمنا ، ولا يؤخذ فيه رأي الامصار البعيدة ، بسبب بعدها ، وضرورة اختيار الخليفة قبل حدوث فساد ، وظهور اضطراب.

لقب الخليفة

ولقد نعم الخليفة بثلاثة القاب : (الخليفة) و (امير المؤمنين) و(الامام) ، اما لقب الخليفة فقد ورد في القرآن غير مرة ، ولكنه لم يرد بالمعنى الذي صار استعماله في عهد الدولة الاسلامية ، واول من استعمل هذا اللقب الخليفة الاول ابو بكر .

وكان يطلق على ابي بكر (خليفة رسول الله) ، فلما ولي عمر كانوا يخاطبونه اول الامر قائلين : ياخليفة خليفة رسول الله ، وكان هذا اللقب ثقيلاً على الاذان ، فدعت الحاجة الى استعمال لقب آخر اسهل وافضل واقصر ، فاستعملوا لقب (امير المؤمنين) وعمر بن الخطاب اول من لقب بذلك ، وقد تردد عمر في قبول هذا اللقب اول الامر ، لما فيه من الزهو والخيلاء ، ثم ارتضاه وقبله ، حين لم يجد افضل منه .

واما كلمة (امام) فقد وردت في القرآن، وكانت تعني اول الامر ما تعنيه كلمة (خليفة) ولم تستعمل عند السنة الا قليلاً ، واستعملها الشيعة اكثر منهم ، فاخذوا يطلقونها على ائمتهم من ولد علي بن ابي طالب

وفاطمة بنت محمد ، ( )

ومما يجب ان يصار الى ذكره قبل ختام هـذا البحث ان تكليف رسول الله في مرضه لابي بكر بالصلاة في المسلمين ، كانت من الاسباب الفعالة في قبول الناس بيعته دون ما اعتراض ، لان امامـــة الصلاة كانت خاصة برسول الله في المدينة دون غيره ، وكان الخلفاء بعـد رسول الله يؤمون الناس بالصلاة الى زمن متأخر ، وكانت هـــذه الوظيفة من اجلّ اعمال الخليفة .

اعوان الخليفه

ولم يكن للخلفاء الراشدين اعواناً معينين ، ولا وزراء مستشارين في اول الامر ، وكان الخليفة الاول ابو بكر يستشير اصحاب رسول الله في كل ما يعرض له من امور الدولة ، كما كان يفعل محمد قبله ، فقد ثبت ان رسول الله كان يشاور اصحابه في الامور العامة والخاصة ، وكان يشاور ابا بكر في امور اخرى ، حتى ان العرب الذي اختلطوا مع الفرس والروم قبل الاسلام ، وعرفوا اسم الوزير منهم ، كانوا يسمون ابا بكر وزير النبي صلى الله عليه وسلم .

ولكن لفظ الوزير لم يكن معروفاً عنـد العرب في ذلك العصر ، لبساطة الاسلام ، وبعده عن ابهة الملك (٢)

وفعل عمر بن الخطاب مثل ابي بكر فقـد كان يشاور اصحابه في مختلف الامور التي تعرض له من شؤون الدولة الجديدة ، وكذلك كان

(١) استعمل لقب (الامام) المأمون من خلفاء العباسين ٨١٣-٨٣٣ ونقش هــذا اللقب على العملة في عهده .

(٢) ابن خلدون (مقدمة)

شأن عثمان وعلي بعدهما، ولما افضت الخلافة الى بني امية اتخذوا المستشارين من رجالات دولتهم وانصارهم ، ومع ان احداً في عهدهم لم يلقب بوزير الخليفة ، الا اننا نجد زياداً حاكم العراق يطلق عليه لقب وزير معاوية في عهده .

ونجد فوق ذلك ان معاوية لما حاول تولية العهد لابنه يزيد كتب الى زياد يستشيره ، فنصحه زياد ان لا يفعل ، وان لا يعرض لهذا الامر لخطره واهميته ، فسكت عنه حتى توفي زياد فعاد معاوية واقره.

المسجد مركز الادارة الاسلامية الاولى

وكان المسجد دار الندوة الاسلامية الاولى او البرلمان المعاصر ، اذ كان يشبه البرلمان المعاصر في كثير من الوجوه ، ففيه كان مقام الخلفاء الاولون ، وفيه كان يجتمع كبار الصحابة حول الخليفة ، وفيه كانت تقرر كل شؤون الدولة الاسلامية عهد الخلفاء الراشدين ، فمن اراد شيئاً من الخليفة ذهب الى المسجد ، ومن رغب في التحدث اليه ، تحدث اليه في المسجد ، واذاً فلم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب – كما اصبح بعد ذلك – وانما كان ايضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية للدولة الاسلامية ، ففي المسجد كان يجتمع رسول الله الى اصحابه ، ويقرر الغزوات ، ويرسل البعوث ، ويبعث السفراء ، وفي المسجد كان يخطب الناس مختلف الخطب السياسية والدينية والاجتماعية ، وفي المسجد استقبل محمد مختلف نواب القبائل التي جاءت الى المدينة ، وفيه استقبل سفراء الممالك المختلفة والجماعات المستقلة كاهل نجران مثلاً ، وفي المسجد بسط ابو بكر الصديق الخليفة الاول في الاسلام سياسته العامة ، وفي المسجد كان يبايع المسلمون الخليفة بالخلافة ، ومن فوق منبر المدينة اعلن

عمر للناس تقهقر جيوش المسلمين في العراق ، واستحث المجاهدين على المسارعة الى الحرب والجهاد ، وفي المسجد قام عثمان بن عفان يدافع عن سياسته ، كما بسط عمر قبله سياسته العامة للناس يوم ولي الخلافة ، واذاً فالمسجد كان دار اجتماع المسلمين ، كما هو حال البرلمانات اليوم ، وكما يبسط رؤساء وزارات الدول المختلفة في العصر الحاضر سياستهم الخارجية والداخلية للامة في برلماناتهم المختلفة ، وكما تلقى خطب العرش على منابرها ، فان الخلفاء الاولون كانوا يفعلون ذلك في المسجد ، منذ نيف والف وثلاثمائة سنة .

واذن فالقول بانه يجب حصر المساجد بالصلاة فقط قول ضعيف ، فالمسجد كان وما يزال المكان الذي تجتمع فيه العائلة الاسلامية للصلاة وبحث امورها العامة الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها ..

ثم ان المسجد كان في العصور الماضية مركزاً للثقافات الاسلامية ، ففيه كان يجتمع العلماء ، وفيه درست علوم الحديث والتفسير والفقه والادب وغيرها ، وفيه كان يجتمع علماء مختلف هذه العلوم للدرس والمناقشة والتعليم ، وفي المسجد كان يجلس القضاة لعقد جلساتهم واصدار احكامهم ، وفي المسجد كانت توجد مختلف الكتب الدينية والعلمية والادبية ، وبذلك يكون المسجد الاسلامي داراً عامة للمسلمين ، ومركزاً علمياً ودينياً للطالبين .

وبمضي الايام فقد المسجد مكانته السياسية ، فلم يعد يبسط فيه الخليفة سياسته العامة ، ولا يجتمع فيه الى وزرائه ولا مستشاريه ، ولا عاد يجلس فيه الوالي لانصاف الناس ، ولا القاضي للفصل في الخصومات ، وغدا عمله مقصوراً على اقامة الخطبة الدينية والصلاة ، وتدريس المسلمين شؤون دينهم بشكل عادي بسيط ، لا يتناسب مع

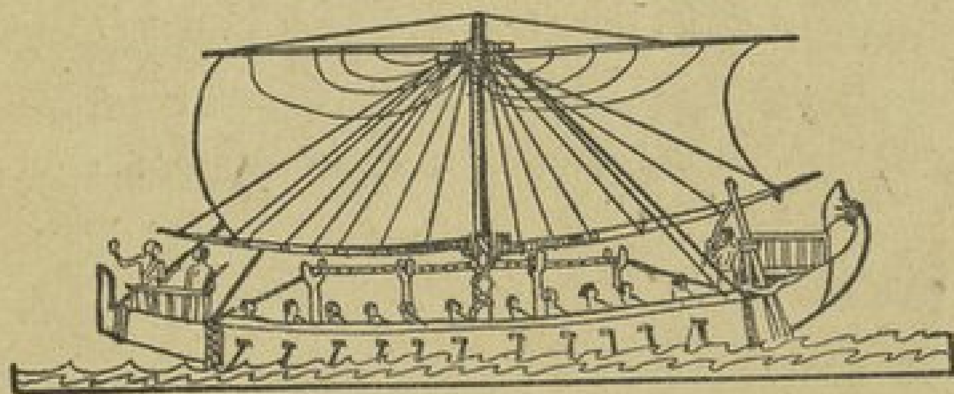
مقامه السابق ، وخطره العظيم .

وما يقال في المسجد يقال في الخطبة – خطبة يوم الجمعة خاصة – فقد كانت الخطبة تشريعاً وانذاراً وبسطاً للسياسة العامة في العصور الاولى ، وكما خسر المسجد مركزه السياسي مع الايام خسرت الخطبة مقامها الواسع العالي مع الايام ايضاً ، ومرد ذلك انه كان في ايام رسول الله مسجد واحد ، واما بعده فقد اصبحت المساجد تعد بالمئات اولا ثم بالآلاف ، ولم يعد يطوق الخليفة اسماع صوته لغير اهل بلده ، فقل الاهتمام بالخطبة ، واصبحت اداة للنصائح الدينية .

ولكن الخطبة مع ذلك احتفظت بشيء واحد من شأنها السياسي الاول ، وذلك انها بقيت محتفظة بذكر اسم الخليفة القائم ، والدعاء له بالنجاح والصلاح وطول العمر ، كما انها اصبحت في الايام الاخيرة سبباً في حيرة بعض الدول الاوروبية التي استولت على بعض الامصار الاسلامية ، اذ كيف تسمح بذكر اسم ملك مسلم ليس له سلطان على المصر الذي تحكمه – وقد يكون هذا الملك الخليفة معاكساً لسياستها ، مختلفاً معها ... وطبعاً وقع هذا الاختلاف ايام الدولة العثمانية التي كان يطلق على سلاطينها لقب الخلفاء ايضاً ، ولكن لقب الخليفة عند الاتراك لم يدم طويلاً بعد الحرب العظمى ، اذ ألغته الحكومة التي اصبحت جمهورية في اذار سنة ١٩٢٤ بقرار من المجلس الملي الكبير ، وارسلت آخر سلطان حمل هذا اللقب وهو السلطان عبد المجيد الى المنفى .



نماذج من الفن العربي



المراكب الفينيقية القديمة يوم كانت تمخر عباب البحر المتوسط

- ٨ -

السياسة الخارجية

العلاقات الدولية

يعرض هذا البحث الى لون جديد من الوان الحضارة العربية ، وهو هذه العلاقات الدولية الخارجية التي كانت بين الدولة العربية الاسلامية الاولى وبين الدول الاخرى ، وان كانت هذه العلاقات قليلة متقطعة لا كثيرة متعددة ...

ولقد عرف بعض العلماء (الدبلوماسية) بانها :

« استعمال الذكاء والكياسة في ادارة العلاقات الرسمية بين الدول المستقلة ، متعدياً ذلك احياناً الى علاقاتها بالدول المستعمرة » .

والعلاقات الدبلوماسية قديمة جداً على ما يظهر ، وقد رأيناها بين القبائل العربية حين كان يصار الى انتداب شخص او اشخاص من ذوي المقدرة والكياسة والدهاء لتسوية بعض المنازعات بين قبيلتين مختلفتين .

في العهد الاول

وكان عمر بن الخطاب يسمى سفير قريش في الجاهلية ، اي انه كان رسولها عند القبائل الاخرى لفض المنازعات التي قد تقع بين قريش وهذه القبائل.

ولكن عمر بن الخطاب لم يكن من اهل اللين بل كان من اهل

الشدة ...

واول ما نراه من تدبير محمد رسول الله وعلاقاته الدولية ، هذه العلاقات التي كان يحاول توثيقها مع قريش ، لأن قريشا – بعد هربه الى المدينة – اصبحت خارجة عن تأثيره ، بعيدة عن سياسته ، واصبحت في الواقع امة خارجية يصح ان يجري معها في علاقاته على النحو الذي يجري فيه مع كسرى فارس او قيصر الروم او غيرهما من الملوك والامراء ، كما وقع فعلاً في المراسلات الدبلوماسية التي ارسلها اليهم يدعوهم الى الاسلام والايمان بالله لا آله إلا هو .

السياسة وعهد الحديبية

وفي عهد الحديبية تجلى تدبير محمد في سياسة خصومه وسياسة اتباعه ، وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود .

بدأ بالدعوة الى الحج فلم يقصره في تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته ، بل شمل به كل من اراد الحج من ابناء القبائل العربية التي التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي اليه ، فجعل له وللعرب اجمعين قضية واحدة في وجه قريش ، وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل العربية الاخرى ، ثم افسد على قريش ما تعمدوه من اثارة نخوة العرب وتوجيهها الى مناوئة محمد والرسالة الاسلامية ، وافهمهم انه وجماعة العرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم ، او يقطعون ما بينهم وبين آبائهم واجدادهم ، فاذا خالفوا قريشاً في شيء فذلك شأن قريش وحدهم او شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة وليس هو بشأن القبائل اجمعين .

ثم افسد على قريش من جهة اخرى ما تعمدوه من اغضاب العرب

على الاسلام بما ادعوا من قطعه للارزاق ، وتهديـــده للاسواق ، التي يعمرها الحاج ويستفيد منها الغادون الى مكة والرائحون منها ، فاخذ محمد معه المسلمين الى مكة كما يأخذ معـه من شاء مصاحبته من غـير المسلمين قصاد البيت الحرام ، فاذا حال بينهم حائل وبين مـا يقصدون اليه فالاثم اثم قريش وحدهـا فهي التي تمنع الناس عن الوصول الى الكعبة ومكة ...

ولم يكن رسول الله لير كن الى السيف وحده ولا الى السلم وحده، ولكنه كان يضع كليهما حيث يجب ان يوضع ، ويدفع كليهما حيث ينبغي ان يدفع ، وقد خرج النبي الى مكة في رحلة الحديبية حاجا لاغازيا يقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه لمن سأله ، ويثبت نية السلم بالتجرد من السلاح الا اقله .

فلم يفصل بهذه الخطة بين العرب وقريش فحسب ، بل فصل بـين قريش ومن معهم من الاحابيش من انصارهم ، وجعـل الزعماء وذوي الرأي يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسلك في دفعه او قبوله وقل من اتباعه من ادرك قصده ومرماه حتى الصفوة المختارين .

العهد

ولما اتفق الطرفان – المسلمون وقريش – عـلى التعاهد والتهادن كانت سياسة النبي في قبول الشروط التي طلبتها قريش غاية في الحكمة والقدرة الديبلوماسية .

ولما طلبوا منه ان يحذف كلمة رسول الله من الاتفاق فعـل ، لان غايته كانت السلم لا الحرب ، وغرضه كان ابعـد مدى من بقاء لقبه او حذفه ...

وكان في المعاهدة ان من اتى محمداً من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه ، وانه من احب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه ومن احب محالفة قريش فلا جناح عليه ، وان يرجع محمد واصحابه عن مكة عامهم هذا على ان يعودوا اليها في العام الذي يليه ، ويقيموا بها ثلاثة ايام ومعهم من السلاح السيوف في قربها ، ولا سلاح غيرها .

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال انهزم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمون لوجب ان يكتب على غير هذا الاسلوب ، فيعترف المشركون كرهاً او طوعاً بصفة النبوة ولا يردون احداً من مواليهم او قاصريهم يذهب الى النبي ويلحق بالمسلمين .

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش انها هي الخاسرة بذلك الشرط الذي حسبته غنماً لها وخذلاناً لمحمد صلوات الله عليه ، فان المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد في حوزته رعاية لعهده ، قد خرجوا الى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش وهي امان في عهد المدينة بين الطرفين ، فلا استطاع المشركون ان يشكوهم الى النبي لانهم خارجون من ولايته بحكم المدينة ، ولا استطاعوا ان يحجزوهم في مكة كما ارادوا يوم املوا شروطهم في عهد الحديبية ، ولو قضى العهد بولاية للنبي على من ينفر من مسلمي مكة لجاز للمشتركين ان ينقضوه او يطالبوا النبي بالمحافظة عليه .

وعندئذ جهر بمحالفة النبي من لم يكن يجهر بولائه ، واستراح النبي من قريش ففرغ ليهود خيبر وللممالك الاجنبية يرسل الرسل الى عظمائها بالدعوة الى دينه ، وفتح الابواب لمن يفدون اليه واطمأن

الى سنة هادئة يرتب فيها شؤونه وينظم اموره وسياسته .

وهكذا تجلت عبقرية محمد في سياسة الامور كما تجلت في قيادة الجيوش ونال بالسياسة والمهادنة ورحابة الصدر فوق ما كان يناله بالحرب والقتال .

محمد وملوك عصره

ولعل اعظم حادث سياسي وعسكري في عهد رسول الله ، هو معركة مؤته ، فان هذه المعركة الصغيرة البسيطة كانت انذاراً عربياً صريحاً للامبراطورية البيزنطية ، ودليلاً على ان العلاقات الدبلوماسية بين الروم والعرب لم تكن على ما يرام ...

لقد دعا محمد بن عبدالله قيصر الروم الى الاسلام ، كما دعا كسرى الفرس ومقوقس مصر ، وجماعة غيرهم من الامراء والحكام في عهده ، يبلغهم عهد الله عليه بان يدعو العالم كله الى دينه .

وكانت هذه السفارات حديثاً غريباً فريداً في تاريخ الانبياء والمرسلين فما نعلم احداً من الانبياء خاطب ملوك عصره بمثل ما خاطبهم به رسول الله ، في زمن لم يكن فيه الاسلام قوة يصح ان تقف في وجه كسرى وقيصر ، ولا كان الى ذلك قوة تبسطت في مواطن الجزيرة كلها ، ولكن محمداً أرسل الى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، فكان حقاً عليه ان يؤدي رسالته ، ويبلغ صوته الى الملوك والامراء الذين يحكمون العالم في عهده ، ويسيطرون على شعوبه وامصاره في زمنه .

وكان من نتائج هذه السفارات ان رد بعض الملوك عليها رداً شديداً ككسرى الفرس مثلاً ، وكان غيرهم ليناً رقيقاً كقيصر الروم وملك الحبشة ، وكانت العلاقات السياسية مع الحبشة حسنة جداً ، وكان

النجاشي كثير المجاملة للمسلمين رحب بهم عند قدومهم اليه ، وتولاهم بالعناية مدة اقامتهم ، بحيث يصح ان نقول انه كانت هناك علاقات ودية بين الدولة العربية الجديدة الناشئة وبين الدولة الحبشية .

وكانت هذه السفارات عملاً بديعاً من اعمال السياسة وهي اول عمل قام به الاسلام في هذا الميدان ، وكانت الى هذا نذيراً للمالك التي حول الجزيرة بان هناك قوة جديدة قد ظهرت في الجزيرة ، وان هذه القوة ستكوّن خطراً عظيماً على الامصار التي حولها والممالك التي تجاورها ان لم يتقبل اهلها الاسلام ديناً ، او يعملوا على التفاهم والاتفاق مع رجال هذا الدين الجديد ...

معركة مؤته

وحدثت معركة مؤته بعد هذه السفارات ، وكانت السفارات من اسبابها ما في ذلك شك ولا ريب ، لان رسول الله اراد ان يقتص من عامل الروم على البلقاء من ارض الشام لقتله احد رسله ، وحدثت هذه المعركة في الوقت الذي كان البيزنطيون يحتفلون بانتصارات هرقل على الفرس ، وبعودة الصليب الحقيقي الى مكانه في كنيسة القيامة ، بعد ان انتزعه الفرس منها لسنوات خلت ، وبينما كان الامبراطور هرقل في القدس ، انبأه قواده بصدهم قوة عربية تقدمت نحو مؤته على حدود البلقاء شرقي جنوبي البحر الميت ...

ومن المؤكد ان هرقلاً لم يأبه لهذه المعركة الصغيرة ، ولا فطن الى خطورتها ، ولا استشعر قواده — وقد ردوا العرب بالاقل من العناء والتعب — خوفاً ولا ارتياباً ، وكان من المستحيل في ذلك العهد ان يفطن احد الى ان هذه المعركة ليست إلا مقدمة الزحوف العربية

الكبرى التي ستشهدها سوريا بعد سنوات قليلة ، بسبب رفض هرقل رسالة محمد ، وبسبب موقف عامله في البلقاء من رسول محمد .

ويرى المستشرقون ان الغرض من تحدي المسلمين للروم في معركة موءته ، يعود الى سببين : اولهما الانتقام من الغساسنة الذين قتلوا سفير رسول الله ، والسفير لا يقتل وفاقاً للعرف الديبلوماسي ، وثانيهما الحصول على السيوف التي كانت تصنع في القرى حول مؤته ، والتي كانت تعد سلاحاً ماضياً في ذلك العهد .

وكانت هذه المعركة الصغيرة التي انتهت بفشل المسلمين وتراجعهم ، النذير الاول لمعركة ضخمة طويلة تدوم اجيالا واجيالا بين العرب والروم حتى يأذن الله باحتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

وكان على هرقل نفسه ان يشهد بام عينيه انهيار امانيه في سورية وغير سورية من امصار الامبراطورية ، فما كادت تنتهي حروب الردة في الجزيرة حتى اصدر الخليفة الاول امره لثلاثة من قواده بالزحف على سورية ، انتقاماً لقتلى المسلمين مؤته ، وتحقيقاً لامر رسول الله بنشر الدين ، وسيادة العالم ، فمشى عمرو بن العاص ، ويزيد بن ابي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، في كتائب عربية صغيرة لا يزيد عدد رجال الواحد منها عن ثلاثة آلاف مقاتل ، ثم تتابعت الامدادات الى القواد الثلاثة حتى صار كل واحد منهم في سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل ، ثم سرح الصديق بعدهم ابا عبيدة عامر بن الجراح في مثل هذا العدد ، بحيث كانت تتراوح قوات العرب المسلمين الذين مشوا لمحاربة الروم بين الثلاثين والخمسة والثلاثين الف مقاتل على اوسع تقدير ...

وكانت الدبلوماسية عهد رسول الله والخلفاء الراشدين والامويين ضيقة الحدود ، محدودة المسالك ، ذلك ان العهد كان عهد فتح وانشاء ، ولم يكن من السهل ان ينشأ بين المسلمين والامم الاخرى التي كانت تقوم الى جوارهم علائق دبلوماسية قبل استكمال الفتوح ، وتحديد الحدود ، اللهم إلا ما كان يعقب فتح كل قطر من عقد الصلح والتعاهد كما حدث في سورية ومصر ايام عمر بن الخطاب ، وهذه علاقات دبلوماسية ضيقة محدودة كما قدمنا ، ولم تكن الى ذلك مع دولة خارجية ، وانما كانت تقع بين المسلمين وبين بعض رؤساء الملل الذين دانوا لسلطان المسلمين ، كهذه المعاهدة التي صار عقدها بين عمر بن الخطاب وبطريرك القدس قبيل تسليم المدينة ، والمعاهدة التي صار عقدها بين المقوقس وعمرو بن العاص قبيل تسليم الاسكندرية .

والعلاقات بين الدولة الاموية والدولة البيزنطية كانت محدودة ايضاً ، إلا ما كان من هذا الاتفاق الذي تم اولاً بين معاوية وامبراطور الروم ، ثم بين عبد الملك بن مروان وبين الروم ايضاً ، واضطرار الخليفتين لدفع مبلغ من المال الى قيصر القسطنطينية ليربحا حياده موقتاً ريثما يستتب لهما الامر في داخل الامبراطورية العربية ، حتى اذا كان ذلك امراً واقعاً اوقفا دفع المال ، وعادا الى ما كانا عليه من الحرب والقتال والسياسة المسلحة .

الاسلام والديانات الاخرى

هزة عظيمة

يقول فون كرمر المستشرق الالمـاني : ان البحث في التأثير الاسلامي على غيره من الديانات ، وتأثير هذه عليه ، لا يزال في اوله ، وان المجال لا يزال واسعاً لدرسه والتبسط فيه ، ونحن مـع اقرارنا وايماننا بهذا التأثير لا نرى بدآ من تناوله بشيء كثير من الاعتدال لإن البحث كما قدمنا لا يزال فتياً يحتاج الى كثير من التمحيص والتحقيق.

ففي القرن السابع الميلادي ولاول مرة في تاريخ الجزيرة العربية ، حصلت فيها هزة كان من نتيجتها تأسيس دولة عربية عالمية .

وليس بالمستبعد حصول مثل هـذه الهزة في العصور النائيـة من التاريخ ، لما اخذ الساميون من سكان الجزيرة بالهجرة الى البلاد المجاورة كالعراق وسورية ومصر وغيرها ، وما حصل في القرن السابع لم يكن إلا تتمة لهذه الموجات السابقة ، التي هيأت الاسباب للموجة الكبرى في القرن السابع ، ولكن الامر الذي يثير الاهتمام هو ان الموجـات السالفة لم تكن تحمل طابـع الفتح ولا الاحتـلال ، فقد كان العرب الساميون يغادرون مواطنهم الاولى الى مـا حولها من البلاد طلبـاً للسكن والعيش مع السكان السابقين ، الذين كانوا يعارضونهم احياناً ، او لا يعارضونهم ابداً ، واذا حصلت معارضة فان هذه المعارضة تكون محلية لا شأن لها ، ولا تتعدى موضعها ...

وكذلك سمعنا من كسنوفان سنة ٤٠١ قم بوجود قبائل عربية كانت تعيش الى شرقي الفرات في العراق ، وسمعنا في القرن الاول المسيحي في عهد سترابون ان نصف سكان بلدة (كوبت) الواقعة في مصر العليا هم من العرب ، كما حملت الينا المصادر التاريخية قبل الاسلام ان العرب السوريين من رعايا الامبراطورية البيزنطيـــة ، والعرب العراقيين من رعايا الامبراطورية الفارسية كانوا يشتركون في الحروب التي تقع بين الدولتين اشتراكاً فعلياً ...

في القرن السابع

واما في القرن السابع الميلادي فقد تبدل كل شيء ، وخرجت من الجزيرة العربية موجة جرفت كل مـــا امامها ، واستولت على بلاد وجماعات كانوا يفوقون العرب الفاتحين في المعارف والعلوم والحضارة ، ومع ذلك فان العرب لم يفنوا ذاتيتهم ولا شخصيتهم كما فعلت القبائل الجرمانية لما استولت على روميه المتحضرة ، وكما اضاع المغول شخصيتهم لما تقدموا الى آسيا ، ولكنهم حفظوا عصبيتهم ، وفرضوا دينهم ولغتهم على كل الممالك والجماعات التي سقطت تحت لوائهم ، وكان كل هذا بدون ضغط منهم ، لانه في الواقع لم يكن من مصلحة السياسة المالية للدولة الاموية اقبال غير المسلمين على الاسلام ، لما يتبع ذلك من سقوط الجزية عنهم ، ونقص الوارد الى بيت المال ، وكان هذا النقص في نظر بعض الامراء ، ابعد اثراً ، واعظم خطراً من انتشار الاسلام وتبسط الدين .

عند الفتح

ولما فتح العرب العراق ، كان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة

ومضر ، وبعض الفرس والنصارى ، ولما فتحت فارس ، كان فيها عدا سكانها من الفرس ، يهود وروم من الذين أسروا في الحروب الفارسية الرومانية ، او من الذين جرى نقلهم من بلادهم الى فارس .

واما سورية فقد تداولت عليها قبل الفتح الاسلامي امم مختلفة ، من فينيقيين ، واموريين ، وكنعانيين ، ومصريين من عهد الغزو الفرعوني ، ويونان وروم وعرب من الغساسنة ، ثم اصبحت سورية قبل الفتح الاسلامي اقليماً رومانياً تأثر بالثقافة الرومانية البيزنطية ، وغلبت على ابنائه الديانة المسيحية ، كما ورث في الوقت نفسه كثيراً من عادات الامم السالفة وحضارتها وتقاليدها .

وكان يسكن هذه البلاد عند الفتح ، السوريون اهل البلاد ، والارمن واليهود ، وبعض الروم ، وبعض القبائل العربية ، كغسان ، ولخم وجُذَام وكلب ، وقضاعة وطائفة من تغلب ، وكانوا في القسم الجنوبي من سورية اكثر منهم في القسم الشمالي بحكم الجوار لبلادهم ، وكانوا يتكلمون لغة هي مزيج من الارامية والعربية ، وكان يعدون انفسهم سوريين لا تربطهم بعرب الحجاز إلا العلاقات التجارية ، وقد ايدوا الرومان ضد العرب عند الفتح بعض التأييد ...

واما مصر مهد المدنية القديمة ، والوارثة لحضارة قدماً المصريين واليونان والرومان ، والتي فيها الاسكندرية مركز المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية ، وملتقى الآراء الشرقية والغربية ، فقد كان يسكنها المصريون ومزيج من امم اخرى كاليهود والرومان ، ولما فتحت افريقيا كان يسكنها البربر والرومان ، فكان من اثر كل هذه الفتوح العربية ان اتصلت كل هذه الامم المختلفة الاغراض والمشارب والمذاهب واللغات ، والاديان والتقاليد بعضها ببعض ، وان احدثت ،

ما في ذلك شك ولا ريب ، نوعاً من المزج في الدم والنظم الاجتماعية والعقلية والعقائد الدينية ، وكان سبب ذلك ما اتبعه العرب في فتوحهم ، من استرقاق الذين غلبوهم ، او تركهم احراراً ، وكان هذا الامر متروكاً للخليفة نفسه يفعل فيه ما يشاء وفاقاً للمصلحة والحاجة ، فقد حرر عمر بن الخطاب كل سواد العراق ، وفرض على كل شخص من الموسرين في العام ثمانية واربعين درهماً وعلى غير الموسرين اربعة وعشرين ، كما نرى ان عمر بن العزيز امر باسترقاق بعض اسرى الترك في ايامه .

الرق والموالي

وكان الرق شائعاً في العالم ، لم تتخلف عن استعماله امة من الامم ، أكانت كبيرة ام صغيرة ، استرق اليونان في عهدهم ، وفعل الرومان مثلهم بعدهم ، ومنح القانون الروماني للمالك الحق في قتل عبده ، او استحيائه ، وجعله مستقلاً غير مسؤول عن تصرفه في عبده ، وكثر الرقيق عند الرومان ، حتى زادوا على عدد الرومانيين انفسهم ...

وكان الرقيق موجوداً عند العرب في جاهليتهم ، ولما جاء الاسلام ظل الرق امراً واقعاً وكثر الاسترقاق من الامم المفتوحة كثرة هائلة ، ووزع المسترقون رجالاً ونساء وذراري على العرب الفاتحين ، فكان للزبير ابن العوام الف عبد والف أمة ، ولغيره اقل ، وهذا الرقيق يعد مملوكاً للسيد كالمتاع ، له الحق في بيعه وهبته واذا كان امة جاز للسيد ان يستمتع بها ، واذا ولدت الامة من سيدها فالولد ابنه ، وتسمى الامة (ام ولد) ، وتبقى ملكاً له بعد ولادتها ، ولكن لا يجوز له ان يبيعها او يهبها ، واذا مات عنها فهي حرة .

وقد اوجب الاسلام حسن معاملة الرقيق ، وحبب العتق ، وجعله كفارة عن كثير من الجرائم .

ومتى اعتق الرجل عبده او امته ورد اليها حريتها ، تبقى هناك صلة بينهم وهذه الصلة تسمى الولاء ، ويظل العبد المعتَق ينسب الى من اعتقه فيقولون : زيد بن حارثة مولى رسول الله اي عتيقه ، واذا كان العتيق من قبيلة فقد ينسبون المولى الى هذه القبيلة فيقولون مولى بني هاشم ، ويظهر اثر هذه الصلة فيما اذا مات المعتَق من غير وارث فان المعتِق يرثه .

هذا هو نظام (المولى) او الرقيق من الوجهة القانونية ، واما من الجهة التاريخية فقد كان يقال : موالى الرجل ، ويعنون حلفاءه وورثته من بني عمه واخوته وسائر عصبته ، والموالى العصبة ، فلما دخلت العجم على العرب بعد الفتوح الاسلامية اطلق عليهم اسم الموالى ، بعد ان اصبحوا عصبة لهم ، كما انه لما كثر الرق والعتق كثر استعمال الموالى بمعنى المعتقين ، وقد تأثر الموالى بالعصبية العربية فكان موالى كل قبيلة ينتسبون اليها ، ويحاربون معها ، ويستخدمونهم في شؤونها ، فنرى من ذلك ان كلمة (موالى) قد حرّفت عن معناها العربي القديم ، وصارت تطلق بعد الفتوح على العجم والروم وغيرهم من غير العرب ، وعلى الذين صار إعتاقهم من غير العرب ايضاً من العجم والروم وغيرهم ، مع كونهم من المسلمين ...

ومع ان الاسلام يؤيد المساواة المطلقة ، فقد كان العرب خصوصاً في الدولة الاموية ، ينظرون الى الموالى نظرة فيها شيء من الازدراء ، ولكن هذا لم يكن عاماً ، لاننا نرى العرب في المدن الكبرى تكرم فقهاءها من الموالى تكريماً عظيماً ... ولكن موقف الامويين هذا ، وموقف بعض عمالهم ، اغضب الموالى ، وحملهم على الحقد عليهم

والعمل على تأييد كل من حمل لواء الثورة ضدهم .

ويذكر لنا بعض المؤرخين ان معاوية بن ابي سفيان قال : « اني رأيت هذه الحمراء – يعني الموالي من الفرس والروم – قد كثرت ، وكأني انظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت ان اقتل شطراً ، وادع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق » ولكن معاوية لم يفعل ممـــا قال شيئاً ، وكلمته هذه تدل على بعد نظره ، وعلى انـه احس بالخطر الذي يهدد الدولة العربية من جراء تكاثر الموالى ، خصوصاً وان العرب الذين نزلوا العراق وسورية ومصر وغيرهـــا من الامصار كانوا اقلية بالنسبة الى المسلمين وغير المسلمين من غير العرب ...

ولقد وُزع كثير من ابناء البلاد المفتوحة ونسائهم – كأنهم غنائم – على الجيش العربي ، – ونعني بالبلاد المفتوحة البلاد التي حاربت الفاتحين ، ولم تقبل منهم الصلح ، فصار اقتحامها عنوة – ، فكان لكل جندي تقريباً بعض العبيد والاماء يستخدمهم في حوائجه ، ويستولد الاماء ان شاء ، فنتج عن هذا ان دخلت البيت العربي عناصر فارسية ورومانية وسورية ومصرية وبربرية ، ولم يعد البيت العربي بيتاً عربياً ، بل بيتاً مختلطاً ، ورب البيت هو العربي . ولكن هذا لم يكن عاماً طبعاً ...

ثم ان الاماء كنّ يلدنَ اولاداً يحملون الدمين معـــاً ، الدم العربي من جهة الاب ، والدم الاجنبي من جهة الام ، وكان عدد هـذا النوع كثيراً ككثرة الفتوح التي فتحها المسلمون في عهد عمر ومن بعده ، وكان بين الاسرى ايضاً او السبي نساء من بنات الملوك او من اشراف القوم ، كما يقال ان ثلاثاً من بنات يزدجرد ملك الفرس ، تزوجهن ثلاثة من ابناء الصحابة الحسين بن علي ، محمد بن ابي بكر ، وعبـدالله بن عمر ، فأولدوهن ثلاثة ابناء فاقوا اهل المدينة فقهاً وورعاً وعلماً .

ثم هناك ايضاً من تقبل الاسلام من غير العرب ، ونزلوا في الحواضر العربية ، وامتزجوا بالعرب ، فصارت البلاد مسكونة بالفاتحين وخصومهم قبل الفتح ، ومن اهل البلاد وغير اهل البلاد ، من الذين تركوا بلادهم ونزحوا الى غيرها ، واخذ جميع هؤلاء يشتركون في الحياة الاجتماعية والاقتصادية الجديدة ، وفي كثير من الحواضر كان غير العرب اكثر من العرب ، كالكوفة مثلاً ، فان نصف سكانها كانوا من الموالى وكانوا يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة ، وكان اكثرهم فرساً ، في جنسهم ولغتهم ، جاءوا الكوفة اسرى حرب ، ثم دخلوا في الاسلام ، ثم اعتقهم مالكوهم العرب ، فكانوا موالى لهم ، وبذلك صاروا احراراً ، ولكنهم ظلوا في حاجة الى حماية ساداتهم ، فهم حاشية العرب واتباعهم في السلم والحرب .

وكذلك كان الحال في غير الكوفة ، من الامصار العربية ، وما مقتل عمر بن الخطاب إلا مرده وجود بعض الفرس في المدينة عاصمة الخلافة ، ولم يكن العرب اكثرية إلا في الجزيرة نفسها ، واما في الممالك المفتوحة فقد كان العنصر الاجنبي اعظم واكثر .

وطبعاً ساعد هذا الامتزاج العربي الاجنبي ، على امتزاج العادات العربية والقضاء العربي الذي صار وضعه من القرآن والسنة ، والحكم العربية ، بالعادات الاجنبية ، والقانون الروماني والفارسي ، والحكم الفارسية والرومانية ، كما صار اقرار النظام الاداري للدولة العربية على غرار النظم الفارسية والرومانية القديمة ، حتى العقيدة الاسلامية لم تخل من التأثر بهذا الامتزاج ، فالذين دخلوا الاسلام من الامم الاخرى لم

يتفهموا الاسلام كما تفهمه العربي ، حتى المخلصون منهم في اعتناقهم الاسلام انما فهموه مشوباً بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة ، وعقائدهم السابقة .

والواقع ان العرب في تساهلهم بشأن الموالى ، وباكثارهم من التزوج بنسائهم ، قد افقدوا الشعب العربي كثيراً من حيويته وقوته ، كما انهم خلقوا في الاسلام اول عهده مشكلة الموالي ، ليس من الوجهة السياسية فحسب ، وانما من الوجهة الدينية ايضاً .

وكانت للموالى عصبية سياسية غير العصبية العربية ، ولهم تقاليد دينية كان لا بد ان ينزعوا اليها ويخالفوا بها النزعة الاسلامية العربية البسيطة ، ولذلك نرى الاسلام في اول عهده وبعد الفتوح ، يواجه حروباً جديدة غير حروب السيف والرمح ، كانت هناك حرب بين الاسلام والديانات الاخرى ، وحرب بين اللغة العربية واللغات الاخرى ، وحرب بين النظم الاجتماعية العربية وبين النظم الاجتماعية الفارسية والرومية ، وبذلك اصبحت المملكة الاسلامية ميداناً فسيحاً لهذه الحروب تتنازع فيها الآمال المختلفة ، ففرس يحنون الى مملكتهم القديمة ويعتقدون انهم ارقى من العرب ، وروم كذلك ، كما ان النظم السياسية كانت متضاربة بين العرب والروم والفرس ، وكذلك كان هناك من الفرس من اسلم ومنهم من ظل على مجوسيته ، ومثل هذا كان حال الرومان والمصريين واليهود ، كما ان اللغة العربية كانت تقف امام لغات الامم الاخرى التي نزلت تحت حكمها ، وكلما كثر الذين يتقبلون الاسلام ، كلما ضعف شأن العرب ، لأنه لم تبق هناك امة عربية لغتها واحدة ودينها واحد ، وآمالها واحدة ، وانما كانت هناك امة اسلامية مؤلفة من امم ، ونزعات ، ولغات مختلفة ، تحاول كل واحدة

منها ان تتحكم في غيرها ، وان تسيطر وحدها .

وفي اثناء هــذا العراك العظيم الذي تبسط حتى شمل المملكة الاسلامية كلها ، انتصر العرب في شيئين عظيمين ، اللغة والدين ، فاما لغتهم فقد سادت هذه الممالك جميعها ، وانهزمت امامها اللغات الاخرى ، وصارت لغة السياسة ولغة العلم ، وظل هذا الانتصار حليفها حتى اليوم في اكثر هذه الممالك ، واما الدين فقد ساد هذه الاقطار ، وفاز اكثر من فوز اللغة العربية ، وقل من بقي من سكان هــذه البلاد على دينه الاصلي .

اوان التأثير

ويذهب بعض المستشرقين الى ان كثيراً من الآراء الاسلاميـة والمذاهب الفلسفية والاجتماعية صار اقتباسها من اهل الكتاب ، ونحن وان كنا لا ننكر هــذا التأثير على الفلسفة الاسلاميـة والثقافات الاسلامية ، إلا اننا لا نرى بداً من الاشارة فقط الى ان هناك اختلافاً عظيماً بين المؤرخين في مقدار هـذا التأثير وخطره ، فقد كان قوياً في ناحية ضعيفاً في الاخرى ، واما تأثير اهل الكتاب على المذاهب مثلا ، فقد يصح اذا كان هذا التأثير مما ثبتت صحته ، وتأكدت روايته ، واما تأثير الاسلام على المسيحية فليس من شك فيه عند المؤرخين اليوم ، ففي القرن الثامن الميلادي ظهرت فئة من الكاثوليك في فرانسا تنكر الاعتراف للكهنة ، وتقول ان الاعتراف لا يكون إلا لله ، ومعلوم ان الاعتراف ليس بوجــد عند المسلمين ، لعدم وجود الكهنة عندهم ، واصحاب هذه النظرية انما تأثروا بالتعاليم الاسلاميـة التي غزتهم من اسبانيا ما في ذلك شك ولا ريب .

ثم جاء البروتستانت بعـد مئات السنين فاعتنقوا هذه الفكرة وايدوها . وهناك مذاهب مسيحيـة اخرى اشار اليها بعض مؤرخي المسيحية كالمستر « هين » في كتابه (المسيحية والاسلام في اسبانيا) اقتبست بذورها من التعاليم الاسلامية ، حتى ان بعض اصحاب هـذه المذاهب ذهبوا يعملون للتقريب بين المذهبين ليصار الى توحيد المسلمين والمسيحيين بازالة سوء التفاهم بينهم حول بعض الامور الدينية .

وهناك كلوديوس مطران (تورين) الذي صار تعيينه مطراناً لها سنة ٨٢٨ ، فان اول اعماله كان منـــع الرسوم والصور والتماثيل في ابرشيته ، وكان هذا طبعاً من تأثير الاسلام عليـه ، لانه ولد ونشأ في اسبانيا الاسلامية .

المسيحيون عند الفتح

ومن المؤكد اليوم ان اسباب هذا التأثير تعود الى هذا الامتزاج بين المسلمين وغير المسلمين بعد الفتوح الاولى ، وقد اشرنا الى ذلك فيما تقدم ، وتعود في الوقت نفسه الى تسامح المسلمين ورحابة صدرهم ، وهو ما اشار اليه المستشرق (فون كرمر) فان المناقشات التي كانت تجري بين المسيحيين والمسلمين في دمشق والتي حفظ لنا التاريخ بعضها ، في آثار يوحنا الدمشقي ، وتلميذه تيودور ابو قره ، تؤيد هذا التسامح وتؤكده ... ولولا ذلك ما كان بمقدور يوحنا الدمشقي وتلميذه ان يضعا الرسائل في الرد على المسلمين ومناقشتهم ، وفي تأييد المسيحيـة ومذاهبها المختلفة في وسط مسلم ، وتحت سلطان حكومة مسلمة ، والاسلام لا يزال في نشأته ، لولا تسامح المسلمين والحكومة الاسلامية العربية .

وكان الموظفون المسيحيون واليهود في عهد معاوية وبعـــده ، يملاون دوائر الدولة ، وكان سرجيوس والد يوحنا الدمشقي مستشاراً في عهد عبد الملك بن مروان ، ولما توفي قام ابنه مكانه ، وكان بمقدور المسيحي في هذا العهد ، ان يحمل صليبه على صدره ، ويمشي بـين الناس في دمشق ، وليس من شك في ان هذه الاتصالات الودية التي كانت تجري بين المسلمين والمسيحيين في دوائر الدولة والاسواق العامة ، ادت الى الاتصالات الثقافية ايضاً ، فتعلم المسلمون الفلسفة اليونانية من اخوانهم المسيحيين ، كما تعلموا فنون المنطق والوانه ، واطلعوا على الاختلافات المذهبية للتي كانت تستعر في الكنيسة ، كما ناقشوا المسيحيين في هذه الاختلافات والمذاهب .

وكما بحث المسيحيون في صفات الله ، بحث المسلمون في صفاته جل جلاله ، ثم اداهم هذا الى بحث القضاء والقدر ، ومـا ينعم به الانسان من ارادة في الحياة ، وهل هو مخير او مسير ، ثم انتقلوا الى النار وهل هي ابدية ام غير ابدية ، لمن يرتكب جريمة الكفر مثلاً ، ام ان الله يعفو بعد ذلك ويصفح ، وكان اول من طرق هذا البحث في الاسلام جماعة المرجئة الذين ظهروا في اواخر عهد بني امية ...

ثم هناك القدرية : وهؤلاء ايضاً ظهروا في عهد اميـة ، وكانوا اساس مذهب المعتزلة ، ومذهبهم فيـه كثير من الفلسفة اليونانيـة ، خصوصاً هـذه الفلسفة التي كانت مدرسة دمشق تعمل على ذيوعهـا وانتشارها .

واذا كان القدرية والمرجئة قـد نشئتا في دمشق بسبب التأثير اليوناني ، فقد عاشت في الاراضي الخصبة الواقعة حول ما بـين النهرين في عهد الفتوح العربية جماعات تنتمي الى مختلف العقـائد والاديان ،

فالفرس اعتنقوا مذهب زرادشت ، وكان بينهم انصار (ماني) وهو دين مزيج من الزرادشتية والمسيحية والمذاهب الهندية ، وكان في العراق ايضاً بعض المسيحيين ، وبقايا الوثنيين ، ومن هؤلاء جميعاً من اعتنق الاسلام وحملوا معهم تقاليدهم ومذاهبهم القديمة المختلفة .

ومن المؤكد ان كثيراً من اصحاب هذه المذاهب المختلفة لما اعتنقوا الاسلام لم يعتنقوه بقلوب صافية ، ولا تفهموا اوامره ونواهيه المتواضعة كل التفهم ، فكان من اثر ذلك ان مزج بعضهم العقيدة الاسلامية بما كان عنده سابقاً من تقاليد ومعتقدات دينية ، فاذ الاسلام مع الايام وبين هؤلاء يختلف كل الاختلاف عن الاسلام المتواضع الهين اللين الذي نعرفه ...

وظهرت هذه المعتقدات الدينية الجديدة الغريبة عن الاسلام اول ما ظهرت في الفتن المختلفة ، فكان حزب الخوارج اول الاحزاب ظهوراً ، والخوارج حزب ديموقراطي جمهوري مغرق في تطرفه ، لا يعرف الاعتدال ورحابة الصدر في اقرار مذهبه ، فكان شره اكثر من نفعه ، وكان انصاره امعن في التفرقة وتقسيم المسلمين من اي حزب آخر .

وقام حول بعض الائمة احزاب مختلفة ، نظروا اليهم كاصحاب الحق الشرعي في الخلافة دون غيرهم ثم تطور هذا الحزب مع الايام حتى اصبح مذهباً سياسياً دينياً ، حيك حوله ما اخذوه من النظريات الفارسية الاصل في حق الملكية الالهي ، ثم هناك الاعتقاد بالرجعة – اي انتظار رجوع بعض الائمة الى الحياة بعد موتهم او اختفائهم – وهذه النظرية ليست من الاسلام في شيء ، يردها المستشرقون الى اهل الكتاب ..

الحضارة العربية والحضارات الاخرى

حضارة غربية

فاذا اشرفنا علـــى الوان الحضارة العربية في الادارة والسياسة والتشريع والعمران ، وجدنا بعض المستشرقين يذهبون الى انه لم تكن هناك حضارة عربية ، وانما كان هناك حضارة امم اسلامية ، يروجون بذلك الى ان الامم التي دخلت الاسلام حملت معها حضارتها وثقافتها ، فنشأت من هذه الحضارات والثقافات الحضارة الاسلامية ، واذاً فالحضارة الاسلامية لا يمكن ان تنسب الى العرب وانما يجب ان ترد وتعود الى هذه الامم المختلفة التي خضعت للاسلام .

ومع ان المؤرخ المعاصر لا يستطيع ان ينكر ما افضى به كل شعب اعتنق الاسلام للحضارة العربية الاسلامية ، فانه لا يستطيع ان ينكر في الوقت نفسه ان هذه الامم التي خضعت مصائرها للاسلام من حدود الصين والهند الى جبال البيرنه ، قد حملت معاً للحضارة العربية ، لان الحضارة العربية في الواقع تختلف كل الاختلاف عن الحضارات السابقة ، وليست وليدة عنها فحسب ، وسبب ذلك ان هذه الامبراطورية الاسلامية التي ترامت اطرافها ، وتعددت ممالكها ، كانت ترتبط إما سياسياً او دينياً او تجارياً بعضها مع بعض ، وكانت فيها دائماً وابداً عوامل تعمل على نقل الحضارات والثقافات من بلد الى آخر ، ولا ادل على ذلك من هذا الاجتماع العام الذي يعقـــد في كل سنة في مكة ، وهو ما يسمونه

بموسم الحج ، فان هذا البلد الذي كان يجتمع فيه الوف المسلمين المختلفين في الاخلاق والعادات والثقافات منذ نشوء الاسلام الى اليوم ، قـد ساعد دون ما شك ولا ريب على توثيق العادات الثقافية والاجتماعية والتجارية بين الامم العربية الاسلامية بعضها مع بعض ، كما ساعد على نقل الثقافات والحضارات المختلفة من بلد الى آخر .

وكذلك ليس من شك بان الشعلة التي اضاءت في دمشق اولا ثم في اسبانيا ، والتي انارت في الوقت نفسه الظـلام الحالك الذي كان يغمر العالم في القرون الماضية ، كانت لها اثرها وكان يشع نورها على المواطن البعيدة الواقعة حول نهر الكنج وبحر قزوين .

واذاً فنحن امام حضارة واحدة عاشت اجيالا عديدة واستطاعت في اثناء ذلك ان تصهر في بوتقة واحدة الثقافات الاسلامية وغير الاسلامية ، وان تسيرها في خدمتها ، مدى اجيال ، وتفرض عليها المضي في الطريق الذي شقته لها ..

عوامل الحضارة

ومن المؤكد ان اهم عامل من عوامل الحضارة والتقدم هو اتصال الجماعات بعضها مع بعض ، وتقدم امة او تأخرها ، لا يفسر بقيمـة عقائدها الدينية ، ولا بالعوامل العنصرية فيها ، حتى ولا باهميـة البيئة التي هي فيها ، وانما يفسر بالمركز الذي احتلته هـذه الامة في مختلف الاوقات من تاريخها وتأثيره عليها من حيث اتصالها بغيرها من الامم .

ومهما يكن من اهمية العنصرية الهندية الاوروبية وتفوقها على غيرها من العنصريات الاخرى ، فلولا هذا الاتصال الوثيق بينها وبين الامم الاخرى ، ولولا المركز الذي احتلته في تاريخها وساعدها على هذا

الاتصال ، لظلت الشعوب الهندية الاوروبية متوحشة متأخرة .

وكذلك مهما يقال في منافع الاقليم الاوروبي على غيره من الاقاليم، ومهما يقال في المركز الجغرافي الذي تحتله اوروبا والذي يتفوق على غيره من المراكز ، فان اوروبا اخذت تسيطر على العالم لما تمكنت من السيطرة على طرق المواصلات الثقافية في العالم .

ولذلك يجب ان يدرس تاريخ الثقافة الاسلامية على النحو الذي اشرنا اليه ، من حيث ان هذه الثقافة سيطرت على العالم لما حصرت طرق المواصلات في يدها ، فلما تخلت عن هذه الطرق الخطيرة ، انهارت حضارتها ، وضعفت ثقافتها ، وقامت مكانها الامم التي استولت على هذه المراكز الخطيرة منها ..

العراك بين المسيحية والوثنية

لقد ادخلت المسيحية نظرية جديدة في الحياة ، تمخضت عن حملة شديدة على الوثنية اليونانية والرومانية ، وعلى الشرق القديم .

وقبل ان تتمكن المسيحية من اقرار دعوتها ، والنجاح في خطتها ظهر الاسلام ..

والعراك الذي قام بين المسيحية والوثنية لم يتعلق بالدين فحسب ، بل تعداه الى العلوم والفنون الوثنية ،خصوصاً وان ايمان المسيحيين الاول بقرب انتهاء العالم جعلهم لا يكترثون للعلوم والفنون الوثنية القديمة ، ولا للنظم الحكومية المعروفة قبل عهدهم .

ومع ان المسيحية ساعدت كثيراً على اضعاف الثقافات الوثنية القديمة ، إلا انها في الوقت نفسه رفعت مستوى الجماعات العامة ،ومكنتهم من قراءة الانجيل في لغاتهم الخاصة ، كما مكنت هذه الجماعات من

الاشتراك في الخلافات الدينية خصوصاً في المدن التي كانت تنعم بشيء من الحضارة ، وشيء من نظام ثابت من نظم الحكم .

وكانت الامصار الاسيوية ومصر التابعة للحكم الروماني احسن حالا وانعم حياة اجتماعية من غيرهــا من الامصار الاخرى ، خصوصاً في الوقت الذي اجتاح فيه البرابرة الالمان رومية وامبراطوريتها ، واجتاح فيه السلاف البلقان ، يهدمون ويمزقون الحضارات القائمة التي كانت تنعم بها هذه الجماعات في رومية وفي البلقان .

مدن جديدة

وفي الوقت الذي كان فيه تأثير الفكر اليوناني والحضارة الاغريقية على اشدهما ، ظهرت مدن جديدة في آسيا ومصر ، كانت تساوق رومية نفسها في السعة والعظمة والجمال ، فالاسكندرية في مصر ، وانطاكية في سورية ، وسلوقية على نهر دجلة ، كانت جميعها لا تقل عن رومية سعة وعمرانا ، وفي مثل هذه المدن الكبيرة وغيرها من المـدن التي اسسها اليونانيون ، كان السكان الاصليون يؤلفون الجماعات المتواضعة المتوسطة ، والى هؤلاء السكان ادار المبشرون المسيحيون انظارهم ، ومـع انتشار الانجيل بـين السكان في اليونانية ، انتشرت ايضاً مؤلفات اخرى في السريانية والقبطية ، كما انتشرت في الوقت نفسه اداب مسيحية في لغات الامم المختلفة المعروفة في ذلك العهد ، كالنوبية والحبشية في افريقيـا ، والجيورجية في آسيا ، والاثار التي بين ايدينا تقطـع بان العربية كانت مستعملة في الكنيسة ، ولكن ليس لدينا ما يثبت انه كانت هناك اداب مسيحية في اللغة العربية قبل الاسلام .

ولقد تبسطت المسيحية في اثناء النزاع السياسي الذي كان يقوم بين

رومية وفارس ، وكانت مواطن هذا النزاع حول ما بين النهرين في العراق ، حيث كان الزعماء المحليون ، ينضمون الى احد الخصمين وفاقاً للظروف والاحوال .

كما ان بلدة (اورفا) الواقعة الى شرقي الفرات ، وعلى طريق المواصلات بين سورية والعراق ، كان لها تأثير عظيم في تاريخ الكنيسة ، والحضارة السورية.

فادغار التاسع ١٧٩—٢١٦ مسيحية ، امير (اورفا) كان من الزعماء الاوائل الذين اعتنقوا المسيحية ، واصبحت (اورفا) مع الايام مركز الحضارة السورية والاداب السريانية ، وفي القرن الخامس ظهرت في هذه البلدة المدرسة اللاهوتية الايرانية التي كان لها تأثير عظيم في توطيد المسيحية ونشرها في ايران ، ومن (اورفا) ظهر اول كاتب سوري (بارداسان) ١٥٥—٢٢٢ م ، وكان وثنياً اعتنق المسيحية ثم عاد الى وثنيته ، وكان آخر ممثل لمذهب الشكوكيين ، الذي كان مزيجاً من التعاليم الوثنية والدينية وغيرها .

ولما كان مفروضاً على المبشرين المسيحيين تعلم الفلسفة والمنطق لمقاومة الشكوكيين والوثنيين وفلسفاتهم ومنطقهم ، فقد ظهرت عدة مذاهب فلسفية وثنية ، كمدرسة الاسكندرية التي اعتمدت فلسفة افلاطون ، ومدرسة انطاكية التي ايدت مذهب ارسطو ، ومنذ القرن الرابع نرى الاختلافات الدينية تستعر في وسط الكنيسة ، ونرى كنائس الشرق مختلفة متفرقة .

فمن الكنيسة الملكية ( ) خرج اليعاقبة ، الذين كان لهم رأيهم في المسيح عليه السلام ، والنسطوريون الذين كانوا يختلفون مع غيرهم

(1) Melchits

في مركز العذراء عليها السلام ، ولما اضطدتهم الامبراطورية البيزنطية هربو الى ايران واستقروا فيها .

وفي اواخر القرن الخامس هرب النسطوريون من (اورفا) بعد ان هدم الامبراطور زينو المدرسة الفارسية فيها ..

• وكذلك نرى ان فارس الساسانية كانت في القرن الخامس موئلا وملاذاً لكل هذه المذاهب المختلفة ، من المسيحيين واليهود والوثنيين الذين كانوا مضطهدين في الامبراطورية البيزانطية .

وقبل هذا العهد ، وفي الحروب التي كانت تقع بين فارس والرومان نرى الفرس في تقدمهم في البلاد السورية يجبرون بعض سكان المدن على الانتقال الى بلاد فارس ، خصوصاً اصحاب الحرب والصناعات منهم ، وكذلك كانوا يفعلون مع الرومان الذين كانوا يقعون اسرى في ايديهم اذا كانوا من اصحاب الحرف والصنائع ، يبنون لهم الحصون والسدود وغيرها ، واذا اردنا المقارنة بين الامبراطورية البيزانطية في القرون الخامسة والسادسة والسابعة بعد المسيح ، وبين الفرس في هذه القرون الثلاثة ، نرى ان الاولين وان كانوا ينعمون بمركز ابرز في الحضارة ، الا ان الساسانيين الفرس كانوا اكثر تقدماً ...

وليس من شك في ان الفرس في القرن السادس كانوا امضى قدماً في سيرهم نحو الحضارة ، وفي هـــذا القرن الذي عرف انهيار الحضارة الوثنيـــة في الامبراطورية البيزانطية ، نراه في فارس عصر اتصال بالحضارات الوثنية المختلفة ، ففيه صار ترجمة كتاب « كليلة ودمنة » من الهندية الى الفارسية ، وفيه كانت الفلسفة الاغريقية تترجم وتدرس في فارس ، وفيه قدم بول الفارسي كتابه عن ارسطو الى خسرو الاول في اللغة السريانية ، وقد حاول فيه ان يبرهن على تقدم العلم على الايمان ،

لان العلم الذي لا يضطرب بالشك يساعد على توطيد السلام بين الشعوب، واما الايمان الذي يبحث عن المجهول فانه ابداً اداة اختلاف وشقاق .

اما التجارة والصناعة الفارسية فقد وصلا الى ابعد الغايات في القرن السابع اي قبيل الفتوح العربية .

وقبيل الفتح الاسلامي ايضاً وقعت بين الفرس والرومان البيزنطين حروب طالت الى سنوات (٦٠٤ – ٦٣٠) ، استولى الفرس اثناءها على كل امصار الامبراطورية الاسيوية ومصر منها ، وكان نائب كسرى لهذه الامصار يقيم في الاسكندرية التي لم ينلها ما نال المدن السورية من الخراب والتدمير ... واما انطاكية فقد اصابتها الكارثة قبل الفتح الفارسي ، وذلك في القرن السادس سنة ٥٤٠ لما نزلت بها هزة ارضية دمرتها تدميراً ، وقد اعاد الامبراطور جوستينان عمارتها ولكن على منوال اصغر ، وفي القرن السابع دمر الفرس جميع المدن السورية التي مروا فيها ، وقطعوا اشجار الزيتون في المدن التي نزلوها ، وظلت آثار هذا التدمير ماثلة للعيان الى ما بعد مائة سنة من هذا التاريخ ، ولما كان الفرس قد وصلوا في زحفهم الى جوار القسطنطينية فاسيا الصغرى قد اصابها ما اصاب سورية حتماً من التدمير ، ولما تمكن الروم اخيراً من كسر شوكة الفرس، قاموا في البلاد الواقعة تحت الحكم الفارسي بمثل ما قام به الفرس في بلادهم، وساعدهم انصارهم الخزر، وقد اعادت معاهدة الصلح التي وقعت اخيراً بين الدولتين كل الامصار التي احتلها الفرس قبلاً الى الامبراطورية البيزانطية ، وربح الرومان بعض الاراضي العراقية ، وكان فشل السلاح الفارسي سبباً في سقوط خسرو الثاني ٦٢٨ كسرى الفرس ، وقيام الثورات في فارس . وما كاد الرومان ينتهون من حربهم مع الفرس حتى عادوا الى اضطهاد

(الكفرة) او المراتقة الذين كان يخالفون مذهب كنيسة القسطنطينية كما اضطهدوا اليهود والوثنيين ايضاً مما جعل كل هؤلاء انصاراً للعرب فيما بعد .

ولما ظهر المسلمون بدأ انحطاط الامبراطورية البيزانطية ثقافياً وحضارة ، وانتقلت الحضارة العالمية الى العرب الذين ظلوا يسيطرون عليها الى اجيال عديدة .

اهل الكتاب والحضارة العربية

وليس من شك اليوم ان حالة المسيحيين في الحكم العربي كانت افضل واحسن من حالتهم في عهد الامبراطورية البيزانطية .

وفي العصر الاول الهجري ، ظهرت آثار ادبية وعلمية في اليونانية والسريانية في مصر وسورية والعراق ، يعود الفضل فيها الى المسيحيين من سكان الامبراطورية العربية .

وكان يعقوب الاورفي ، وهو من اورفا (٦٤٠ – ٧٠٨ م) عالماً مشهوراً ، ويصفه مؤرخو الكنيسة بانه كان للكنيسة اليعقوبية كما كان القديس جيروم للكنيسة الرومانية .

ومن المعلوم ان الامراء المسلمين استعانوا باهل الكتاب في العمارة والادارة ، وقد بني المسيحيون كنائس جديدة في ابان الحكم الاسلامي ولم يعترضهم احد من العمال والامراء ، لاننا نرى آثاراً مسيحية كثيرة تمتد الى العهد الاسلامي الاول ، ولم يكن المسلمون يمنعون المسيحيين من الاتصال باخوانهم خارج البلاد الاسلامية ، وفي الاجتماع الذي عقد في القسطنطينية ٦٨٠ – ٦٨١ ، نرى مسيحياً من دمشق يمثل المسيحيين فيها .

وحوالى سنة ٧٢٠ انتقل نشاط المذاهب الفلسفية اليونانية من الاسكندرية الى انطاكية .

وفي اواسط القرن الثامن اتصل المسلمون بالعلوم اليونانية بواسطة المسيحيين ، وفي هذا العهد سأل الخليفة المنصور ٧٥٤–٧٧٥ الامبراطور في القسطنطينية ان يبعث له ببعض الكتب الرياضية .

وفي القرن التاسع نرى حنين بن اسحق اول مترجم للاثار اليونانية الى العربية ، يصرف سنتين في القسطنطينية يدرس فيهما اللغة اليونانية ، ثم لما عاد الى بغداد حمل معه كثيراً من المؤلفات اليونانية .

وهناك ما يؤيد تعلم المسلمين اللغة اليونانية ، وكانوا يتعلمونها من المسيحيين الموجودين بينهم .

وكان (تيوفيلوس) من اورفا ، فلكي بلاط المهدي ، وكان مكلفاً بدراسة العلوم الفلكية وهو الذي ترجم الالياذه والاوذسية الى السريانية .

والظاهر ان الحرية التي اعطتها الدولة العربية الاسلامية للشعوب التي لم تكن مسلمة ولا عربية ، قد خلقت فكرة الشعوبية عندهم ،فاخذوا يقولون انهم افضل من العرب ، ويؤلفون الكتب في ذلك ، مما دعا العرب الى الرد عليهم ، وانتقاد موقفهم .

وكذلك كانت تنعم الخلافة بشيء لم يكن ينعم به غيرها ، وهو انها جمعت تحت سلطانها ، مختلف الفنون والعلوم والثقافات والجماعات المتحضرة ، وكان التسامح الاسلامي – وهو ما لم يكن ينعم بمثله الرومان – مساعداً وعاملاً فعالاً في تنشيط المعارف والعلوم وانصراف المسيحيين وغير المسيحيين الى الارتواء من هذه المعارف والعلوم .

ومع ان المسلمين قد اخذوا معارفهم – اليونانية والرومانية وغيرها –

عن المسيحيين ، فان المسيحيين في الواقع لم يكونوا اكثر من واسطة ، ولم يظهر بين غير المسلمين العرب مفكر واحد ، استطاع ان يخلق شيئاً جديداً لم يكن معروفاً ، ولا تمكن احد منهم من شرح المذاهب الفلسفية اليونانية شرحاً جديداً فيه خبرة ودراسة بارعة ، بخلاف المسلمين الذين اخرجوا امثال الفارابي ، وابن سينا ، والبيروني ، وابن رشد وغيرهم مما لا مجال الى تعدادهم .

وكان تلامذة الاساتذة المسيحيين باكثريتهم من المسلمين ، ومع الايام اصبح المسلمون يسيطرون على المعارف والعلوم والثقافات اليونانية القديمة التي كان يسيطر عليها المسيحيون قبلاً ، كما بدأ المسيحيون في الوقت نفسه يعنون بدراسة الآداب العربية بعد ان ظلوا زمناً طويلاً لا يفكرون بها ولا يدرسونها ، مقتصرين على الآداب اليونانية القديمة .

والذي نريد ان نقوله بعد ما تقدم هو ان الحياة الثقافية المسيحيين الشرقيين في المدة التي تلت الفتوح الاسلامية لم يكن لها كبير قيمة في نفسها ، ولا اثرت على الثقافة العالمية ، ولمدة طويلة كانت زعامة العرب المسلمين في العلوم والفنون اكثر ظهوراً ، وابرز انواعاً ، وان كانت اقل عدداً ...

وفي سورية ومصر كان المسيحيون حتى منتصف القرن العاشر يسيطرون على وظائف الكتبة والطبابة ، وكان اليهود ابرز في التجارة . وفي القرن الثاني عشر كان السوريون اول من قبل الاتفاق مع الكنائس المسيحية الاخرى على ان يحترم كل فريق الاخر ، وكان الاتفاق الاول بين اليعاقبة والنساطرة .

ومن القرن التاسع ابتدأ شأن غير المسلمين بالانحطاط ، وسبب ذلك

ذهاب الحاجة اليهم في العلوم والفنون بعد ان اتقنها المسلمون ، كما ان الامبراطورية البيزانطية كانت تعامل اهل الكتاب المقيمين تحت السلطان الاسلامي ، معاملة قاسية ، فاحتقرتهم ونبذتهم ، ولكن المسلمين وان استغنوا عن اهل الكتاب في العلوم والوظائف وغيرهما ، الا انهم لم يضطهدوا احداً منهم بحال من الاحوال ، وظل هؤلاء ينعمون بمركز ممتاز في الامبراطورية الاسلامية ، حتى ان بعض كبارهم كانوا يرتدون الملابس التي كان يرتديها كبار المسلمين .

واخذ المسيحيون مع الايام يتقبلون الاسلام ، فخسرت المسيحية بلاد فارس ، وضعفت كثيراً في مصر ، ولم يبق منها إلا الاقل في سورية ، وانقرضت تماماً في افريقيا الشمالية .

ويظهر ان مشارقة النصارى كان اقرب الى العرب المسلمين منهم الى الشعوب الاخرى، ففي الحروب الصليبية كما يقول احد الكتاب الروس من الذين ارّخوا للكنيسة « كان الكهنة والشعب المسيحي يفضلون الحكم العربي الاسلامي على بقاء الحكم الاورو . »

وليس بمستبعد ان يصل الشرق الى عهد ، يكون للوطنية فيه اثراً اكبر من اثر الدين في نفوس شعوبه وجماعاته .

الاقبال على العربية

ولقد ثبت اليوم بما لا يقبل الشك ان الشعوب المختلفة التي كانت تسكن امصار الامبراطورية العربية وجدت من مصلحتها تقبل الاسلام والانضمام الى الدين الجديد ، وكان ذلك امراً واقعاً فاخذ الفرس والسوريون والقبط والبربر يتقبلون الاسلام ، وحين يتقبلون الاسلام كانوا يسمون انفسهم عرباً ،وراحوا يقدمون ذكاءهم وعلومهم ومعارفهم

لتعزيز الدين الجديد، واخذوا في الوقت نفسه يكتبون بالعربية ويؤلفون بالعربية ، واذاً فمع اعترافنا بان الامم التي عززت الحضارة العربية الاسلامية كانت باكثريتها من غير العرب إلا ان هذه الامم نفسها حين تقبلت الاسلام ، خصوصاً في سورية ومصر وافريقيا تقبلت معه العنصرية العربية ، واخذت تتوالد وتعيش بين العرب وتحت ظل الحكومة العربية .. بحيث اصبحوا عرباً مع الايام وتناسوا تقاليدهم الماضية وثقافاتهم السالفة .

ولم يعمل العرب لنشر الاسلام ، ولم يكن عندهم مبشرون ولا كانوا يحسنون التبشير، والذين كانوا يحسنون التبشير منهم هم المسيحيون الذين اسلموا والذين تعلموا التبشير من المسيحية .

الحضارة متقاربة

والحضارة قبل الاسلام كانت تقريباً متقاربة في مختلف المواطن ، فالحضارة الاغريقية غلبت الحضارة الرومانية في القسطنطينية،التي اخذت الكثير من الحضارة الفارسية لاتصالها حكومياً وسياسياً وحروباً بعضها مع بعض ، كما اخذ الفرس من اليونان قبلهم ...

وكانت الحضارة في آسيا الغربية مزيجاً ، نعمت بالتأثير اليوناني والسامي والفارسي كما نعمت بكل ثقافة خارجية اتصلت بها .

ومن المؤكد ان الحضارة الاسلامية كانت في اول الامر مزيجاً من الحضارتين الارامية والعربية ، ولكن هذا لم يطل طويلاً ، فما لبثت الحضارات الاخرى ان اتصلت بالحضارة الاسلامية ، التي اتصلت بدورها بالحضارات اليونانية والرومانية والفارسية وحضارات وسط آسيا كتركستان والصين والهند .

ما اخذه العرب

ويقول بعض المستشرقين ان العرب اخذوا ادارتهم عن الفرس والرومان ، والفلسفة والعلوم الطبيعية عن اليونان ، وفن العمارة عن البيزانطيين والفرس ، واخـذوا منهم وكتابة التاريخ عن الفرس ، واستقل العرب بشعرهم وادبهم ، وقضائهم وتشريعهم ، لان ما اخذوه من الامم المختلفة من هذه العلوم والفنون كان هيناً لا يذكر .

اللغة العربية في فارس

ومن الدلائل على تأثير العرب على الفرس ، انه لمـا قتل يزدجرد كسرى الفرس سنة ٦٥١ ، انهارت الامبراطورية الفارسية والديانة الفارسية واللغة الفارسية ايضاً ، وقامت العربية مقام اللغة الفارسية فاصبحت اللغة الرسمية ، ولغة العلوم والفنون ايضـاً ، وادى هذا على وجه التحقيق الى اضعاف اللغة الفـارسية اضعافاً عظيماً ، فأصبحت اللغة العربية لغة سكان نيسابور ، وسكان كوم وهرات ، يتكلمون بها ويكتبون ، واصبحت العربية لسان الطبقة الراقية ، حتى في خراسان غلبت العربية الفارسية .

وبعد الفتح العربي لم يبق لسكان فارس من وسيلة لاظهار عواطفهم والاعراب عن امالهم ومشاعرهم الا بالشعر ، وفي الشعر قلدوا الشعر العربي مع بعض التعديل القليل .

وفي عهد المأمون فقط اخـذت فارس تعود الى نفسها ، وبدأت الحركة الاستقلالية الداخلية فيها ، وظهر فيهـا بعض الامراء الذين اخذوا يعملون لهذا الاستقلال ، كبني طاهر ، وبني بويه وغيرهم ، وقد

لعب الشعر الفارسي دوراً عظيما في تنشيط هذه الحركة الاستقلالية كما اذكى روح الوطنية .

نظامان كبيران

والخلاصة ان الفكر العربي خلق نظامين كبيرين : اولهما امبراطورية عربية خلقها العرب وحكمها العرب، واستفاد منها العرب وغير العرب، وصار حكمها وفاقاً للنظم العربية نفسها ، وهذه الامبراطورية انتهت بانتهاء امية ، وثانيهما الامبراطورية الاسلامية التي كان العرب فيها جماعة من المسلمين ، والتي قام بها وحكمها ووطدها جماعات اسلامية مختلفة منهم العرب ، وهذه الدولة دامت مئات السنوات وظلت حية حتى السنوات الاخيرة ، ولم تضعف إلا بتقدم الحضارة الاوروبية التي حلت محل الحضارة الاسلامية ، ومع ان هذه الامبراطورية لم تكن عربية بكل ما في الكلمة من معني ، وكان اكثرية سكانها والعاملين فيها من غير العرب ، فانها اخذت نظمها وروحها من النظم العربية السالفة، وكان من مظاهر التأثير العربي فيها ان المسلم الاعجمي كان يسمي نفسه باسماء عربية، ويتعلم العربية ، ويؤلف بالعربية ، ويدين بالاسلام الذي هو دين العرب، ويقرأ القرآن الذي هو افصح كتاب في العربية، فكيف لا يصبح عربياً ، وسنوات قليلة تكفي في الوقت الحاضر لقبول اي اجنبي يعيش في احد البلاد المتحضرة الحاضرة ليصبح من اهلها وابنائها ؟..

ماذا قدم العرب

ولقد قدم العرب للعالم ديناً جديداً ، حدد علاقة الانسان بربه تحديداً معقولا ، قوى الدعائم مسبوك الحدود ، ورفع من شأن المرأة

عما كانت عليه في الجاهلية ، وخلق الوطنية العربية ، ولم تكن هناك قبـل عهده وطنية في الجزيرة ، وحرّم الاشربة المسكرة التي لا تزال تعيث فساداً في المجتمع الغربي حتى اليوم ، واما هذه المساواة الانسانية وهذه النظم الاشتراكية التي تجعل من المجتمع الانساني مجتمعاً متحداً يعمل كل واحد للمجتمع ، ولا تستثمر جماعة من هذا المجتمع غيرها ، فانه في الواقع شيء جديد يجعل الانسانية في نعيم دائم ، ونظام كأنه الربيع الاخضر ...

ومن المؤكد اليوم ان كثيراً من الهدوء العقلي السليم ، والتفكير الهادىء المستقيم ، اللذين وصلا الى الامم الاوروبية مع عصر النهضة ، وصلاها من عرب اسبانيا وتفكيرهم المنطقي ، وتحكيمهم للعقل في كثير من شؤون الحياة ومشاكلها والوانها . (١)

ولكن العرب الى ذلك لم يوفقوا الى خلق نظـام دائم ثابت كالامبراطوريات المعاصرة ، او كالامبراطورية الرومانية السابقة ، ونظمهم الحكومية التي استقامت في عهدهم تساوق النظم الاغريقية قوية جبارة في نشأتها ، ضعيفة مع الايام ، مهددة بالسقوط والانهيار ابـداً ودائماً .. لانها نظم تظهر فيها الفردية اكثر مما يظهر فيه عمل الجماعة المتكتلة القوية .

والعرب مع ذلك لم يفتحوا المدن فحسب ، وانما حملوا ايضاً سكان هذه البلاد المفتوحة على تأثرهم والجري على غرارهم ، وقد تقبلت هـذه الجماعات لغتهم اول الامر ثم دينهم ، وهم من هـذه الناحية اعظم الامم المستعمرة في العالم لان احداً من المستعمرين لم يوفق الى ما وفق اليه العـرب من اخضاع المحكومين للغته ودينه وعاداته ...

(١) ريشار كوك في كتابه – مركز العرب في الشمس – ص (٥٣)

ومع ان الامبراطورية قد نشأت وقامت على سيوف جماعات مسلمة من غير العرب ، فان هذه الجماعات لم توفق الى التغلب عـــلى التأثير العربي إلا في بعض الاحوال والحالات ، وظلت الامبراطورية العباسية امبراطورية عربية مسلمة ، تتنازعها مؤثرات عديدة ، عربية وغـير عربيـة .

وهذه العناصر الغريبة عن العرب كانت في الوقت نفسه تعمل لمصلحة العرب ، والحضارة العربية ، وكذلك رأينا الفن والفلسفة والعلم عنـد اليونان تعود سيرتها الاولى في عهد الحضارة الاسلامية العربية ، كما شاهدنا الصوفية الهندية الفارسية تقدم ثمارهـا ، وكما استفاد العرب من هؤلاء جميعهم استفادوا ايضاً من الفن العسكري عند الترك ، والفن المالي عند غيرهم ، وحب البحر الذي كان خاصاً بالشرقيين من سكان السواحل .



التنظيم الاداري في عهد الخلفاء الراشدين

الخليفة الاول

كان الحكم في عهد الخلفاء الراشدين شيئاً اقرب الى الامور الدينية منه الى سواها وغيرها ، وهو في الواقع حكم الفطرة لم تستقم فيه سيطرة لسلطان ، ولا حرس لخليفة ، ولا دائرة لحكومة ، ولا موظفون يتفرغون للنظر في شؤون الدولة ومناهج الحكم ، بل لقد كانت الحالة في عهد الراشدين شيئاً بسيطاً هو اقرب الى حكم العائلة منه الى حكم مملكة فتية جديدة كثيرة الامصار عظيمة الشأن والسلطان .

لقد انتظمت الحكومة في عهد الراشدين ، بل في عهد الخليفة الاول في شخص واحد هو الخليفة نفسه ، فكان صاحب التشريع والتنفيذ ، وكان الحاكم والقاضي ، والمنفذ لما يصدره من اوامر ، وما يشرعه من حدود ، وهي ظاهرة تراها في حياة العائلة عن الرومان والعرب البدو وهي الى ذلك كله ، كانت ظاهرة واضحة في عبد الخليفة الاول الذي كان كل شيء في الدولة ، إلا حين يعهد ببعض واجباته الى غيره من الصحابة في المدينة التي كانت عاصمة الدولة الاسلامية الناشئة في عهده ، كما وقع فعلاً ، وقد ذكر المؤرخون انه ولى عمر بن الخطاب القضاء في المدينة ، وعهد الى ابي عبيدة عامر بن الجراح بامانة بيت المال قبل تعيينه قائداً لاحد الجيوش العربية في الشام .

ولم يتخذ ابو بكر كاتباً معيناً فكان يكتب له زيد بن ثابت ، وعثمان

بن عفان وعلي بن ابي طالب ، وكان يكلفهم بالكتابة له حين تدعو الحاجة ويكون الى ذلك سبيل .

والذين كان يكلفهم ابو بكر بالعمل له في بعض الحالات ، كانوا يفعلون ذلك دون ما اجر ، فلا يصح والحالة هذه ان نعتبرهم من الموظفين في الدولة .

اما الدولة الاسلامية في عهد الخليفة الاول فكانت مؤلفة من الجزيرة العربية نفسها،لان الاقطار الجديدة المفتوحة في العراق ومشارق الشام لم تكن لعهده قد تقررت وانتظمت شؤون الحكم فيها ، وكانت لا تزال تحت الحكم العسكري للقواد المختلفين الذين كانوا يفصلون في شؤونها ويشرفون على مصالحها وامورها .

اما الجزيرة العربية فقد جزأها الخليفة الاول الى ولايات ، وجعل على كل ولاية اميراً من قبله ، وكان الامير يقيم الصلاة ، ويقضي في القضايا ويقيم الحدود ، فكان كالخليفة حاكماً وقاضياً .

وكان الخليفة الاول يرتزق اول الامر من استغلال ارضه ، وعمل يده ، وقد ظل ستة اشهر من خلافته وهو على حاله هذا ، لا ينفق على نفسه من بيت المال شيئاً ، حتى اجتمع بعض كبار الصحابة وقرروا له شيئاً من بيت المال ، ففرضوا له قوت رجل من المهاجرين ليس بافضلهم ولا اقلهم شأناً ، وكسوة الشتاء والصيف .

وقدر بعض المؤرخين ما فرض له بستة الاف درهم في السنة فلما حضرته الوفاة امر برد ما اخذه من الاموال العامة ، فباع ورثته ارضاً له حتى استقام لهم تنفيذ رغبته .

وكان جند المسلمين في عهده من المتطوعة لا يكلفون بيت المال قليلاً ولا كثيراً ، وانما كانوا ينفقون من اموالهم ، ثم مما يصيبون من الغنائم

في الحروب التي يشتركون فيها ، ذلك انه كان للمقاتلة اربعة اخماس الغنيمة ، سوى ما يناله الجندي من سلب من يصرعه في الحرب ، وكان امير الجيش الى ذلك يفضل الممتازين من الجند بالبلاء والجرأة على غيرهم وسواهم بالعطاء والنوال .

وكان الخليفه الاول يسوى في العطاء بين الناس ، ولا يميز احداً عن احد ، فقيل له :

– كيف تسوى بالسالفين الاولين غيرهم ؟

فقال : اولئك قوم عملوا لانفسهم ، وسبقوا الى الدخول في الدين ابتغاء مرضاة الله فوقع اجرهم على الله ، واما انا فلا افضل احداً على احد.

وكان يرد الى بيت مال المسلمين خمس الغنائم الحربية ، وصدقات المسلمين ، وجزية اهل الذمة ، فكان يأخذ الخليفة من هذه الاموال عطاءه ، ويدفع منها رزق عماله ، وولاته على الامصار في الجزيرة ويقسم الباقي بين المسلمين المتخلفين في المدينة وغير المدينة ، والذين سبقوا الى الاسلام وشهدوا بدراً واحداً في عهد رسول الله .

نشر الاسلام

ومما يجب ان يصار الى ذكره بمناسبة الكلام عن الخليفة الاول ايمانه المطلق بالدعوة الاسلامية ، وقيامه بنشرها على الوجه الاكمل والاحسن، وموقفه من المرتدين ، يوم اضطربت القلوب ، وضعفت العزائم ... وهو اول من ادرك ان الامة العربيـــة لا تستطيع ان تنشر دعوتها اذا لم توحد صفوفها ، وتمشي الى العالم صفاً واحداً وقلباً واحداً ، وقد اثبتت الايام بعد نظره ، واتزان تفكيره ، فلما توحدت العربيـة ، اصدر امره الى العرب بالزحف الى العراق وسورية ، ولولا توحيـــده

الصفوف ، وقضاءه على الاختلافات الداخلية ، لما كان بطوق العرب ان يبسطوا سلطانهم الواسع ، ودينهم المتواضع على البلاد المجاورة والامصار البعيدة .

والمستشرقون يختلفون فيما بسطناه اختلافاً عظيماً ، بعضهم يقول ان رسول الله لم يفكر ابداً في بناء دولة ضخمة كهذه الممالك التي كانت تقوم على اطراف الجزيرة — الامبراطورية الفارسية او الرومانية مثلاً — وان جل ما كان يرمي اليه هو نشر دعوته بين العرب وفي جزيرة العرب...

وبعضهم يقول ان رسول الله كان يسعى الى انشاء امبراطورية اسلامية عالمية ، ويقول دي غويي (De Goeje) ان ابا بكر ارسل البعوث العسكرية الى سورية لثلاثة اسباب :

١ — رغبة محمد في نشر الاسلام بين كل العرب .

٢ — رغبة محمد في ان يسود الاسلام العالم .

٣ — رفض كسرى الفرس وقيصر الروم قبول الاسلام لما دعاهما محمد الى ذلك في مراسلاته الدبلوماسية .

واما (كيتاني) المستشرق الايطالي الكبير فينكر ذلك كل الانكار ، ويقول : « ان العرب لم يكونوا يفهمون من انشاء الممالك كثيراً ولا قليلاً ليضحوا بانفسهم في هذا السبيل ، وان محمداً لم يكن عنده مشروع للسيطرة على العالم ، وانه لم يترك شيئاً من ذلك لخلفائه من بعده ، ويذكر لنا ما يذكره (اليعقوبي) من ان ابا بكر لما ارسل الزحوف الى سورية لم يكن يرمي من وراء ذلك لغير غارة موقتة كهذه الغارات البدوية المعروفة ...

والواقع ان كيتاني ومن يؤيده يجوزون لانفسهم انكار حقيقة اصبحت امراً واقعاً ، ايدتها الفتوحات الاسلامية ، وايدها القرآن

نفسه ، وايدتها سياسة ابي بكر العسكرية نفسها ... فلو كان ابو بكر يريد غارة ، لاكتفى بالغارة التي ارسلها بقيادة اسامة بن زيد بعد وفاة رسول الله بايام الى مشارف الشام ، للاقتصاص من بني قضاعه ، وقد نجحت الغارة كما هو معلوم ومعروف .

ولكن الجيوش الاربعة التي ارسلها ابو بكر لسورية بعد هذه الغارة ، وبعد الانتهاء من حروب الردة ، وتعيينه مراكز معينة لكل قائد من قواد هده الجيوش ، لاقتحامها واحتلالها ، تدل دلالة واضحة على رغبة الخليفة الاولى بالتوسع ونشر الدين ، وهو مـا لبس يتفق ومبدأ الغارة ...

وهناك نصوص صريحة في القرآن تدل على ان الله التي بعث رسوله الى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وفي الحديث ما يدل على مثل ذلك ، ولو مدّ الله في عمر رسوله لكان رسول الله اول من جهز الجيوش وبعث البعوث للامصار التي حوله ...

عمر ابن الخطاب

ويجمع المؤرخون على ان عمر بن الخطاب اول منظم اداري للدولة الاسلامية الناشئة ، وعمر بن الخطاب باجماع مؤرخي العرب والفرنجة شخصية خرجت على غير مثال وقانون ، وهو في نظر الجميع يقف وحده وفي الصف الاول بين حكام العالم من عرب وعجم ، والمؤرخون الافرنج يقدرون فيما يقدرونه فيه شخصيته النادرة وبراعته ، وبعد نظره ، وهدوء أعصابه وجرأته وحسن ادارته ، وقد تمكن بها جميعاً من تسيير دفة الفتوحات في طول الارض وعرضها وهو في مكانه بالمدينة .

ويقول نولدكه في وصفه : انه كان وهو في مقره بالمدينـة يدير

حركات الجيوش العربية الفاتحة ، وكان يعيش عيشة بسيطة متواضعة تثير الاعجاب حقاً ، بينما كانت الزحوف العربية تدر على بيت المال الغنائم الوفيرة ، والثروات الطائلة ، والاموال العظيمة فلا يأبه لها ، ولا يكاد يرمقها ، وهذه ظاهرة فريدة في تاريخ العباقرة في التاريخ ، تدل على ان عمر بن الخطاب كان فذاً بين الرجال والابطال .

واول عمل سياسي خطير اقره عمر بن الخطاب هذا التشريع الذي اصدره ، بشأن اجلاء غير المسلمين عن الجزيرة العربية ...

ويرجع السبب في هذا التشريع الى ما افضى به رسول الله قبل وفاته ، من المضي في ارسال الغزوة ضد الروم بقيادة اسامة بن زيد ، وتقسيم غلال خيبر ، واخراج غير المسلمين من الجزيرة (١) .

وقد صار انفاذ الامرين الاولين في عهد الخليفة الاول ، وفي عهد عمر صار اقرار الامر الاخير ، وفي المصادر التي بين ايدينا ما يدل على ان هناك جماعة من اليهود كانوا لا يزالون في خيبر ، وجماعة من النصارى في نجران ، من اعمال اليمن ، وان عمر بن الخطاب وجد من الحكمة وحسن الرأي ان يكون الاسلام في مواطنه بمنجاة عن الشكوك والبدع التي كانت تعصف في ذلك العهد ، فاستقر رأيه اخيراً على اجلاء غير المسلمين ، ويرى بعض المستشرقين ان عقليته الدينية ، وجهوده العظيمة لبث الاسلام ونشره ، كانا يدعوانه الى مثل هذا العمل ، ولو لم يأمر به رسول الله ويدعو اليه ، والذي يدعو الى الاعتقاد بان رسول الله نفسه لم

---

(١) هناك اختلاف عظيم بين المؤرخين حول الامر الذي يختص باخراج غير المسلمين من الجزيرة ، فبعضهم ينكر ان يكون رسول الله قد امر به ، ودعا اليه . على ان هناك نظرية ثانية وهي ان (البخاري) يعتبر بلاد العرب – التي يجري فيها هذا الجلاء مثلاً – هي مكة والمدينة ، واليمامة واليمن . وما عدا ذلك فخارج عن الجزيرة بالمعنى الصحيح المعروف في ذلك العهد .

يأمر باخراج غير المسلمين من الجزيرة ، ان سكان نجران جاؤا الى ابي بكر بعد وفاة رسول الله وطلبوا منه تجديد العهد لهم ، فكأنهم بذلك كانوا يعتقدون ان العهد الذي قطعه لهم محمـــد بن عبدالله كان عهداً شخصياً لا يربط خلفاءه من بعده ، فلما تولى عمر الخلافة اجلاهم واليهود.

وقد صار اجلاء اهـــل الكتاب عن الجزيرة في كثير من اللطف ورحابة الصدر ، فلم يكلفهم احد تبديل دينهم ، وقدرت اموالهم غير المنقولة ، فاعطوا ما يقابلها في البلاد التي نزلوها ، كما خيروا في البلد الذي يريدون السكنى فيـه ، والمستشرق كيتاني يقول : ان هـذا الاجلاء كان حادثاً فردياً كما يظهر فقد بقي بعض المسيحيين واليهود في الجزيرة ، ولكنهم كانوا من القلة بحيث لم يفكر احـد في ترحيلهم ، واما مسيحيو نجران فكانوا يؤلفون عدداً ضخما ، قدرهم ابن سعـــد باربعين الفاً ..

وقد ذهب اهل نجران الى سورية والعراق ، ورفعت عنهم ضريبة الجزية مـدة اربعة وعشرين شهراً ، واعطوا من الارض مـا يكفي حاجتهم .

اما يهود خيبر فلم يكن في العهد الذي اعطي لهم عهد رسول الله ما يدعو الى بقائهم مكانهم ابد الدهر ، اذ اشار العهد الى انهم يظلون في خيبر لمدة موقتة ، وقد صار اجلائهم عن خيبر في عهد عمر فذهبوا الى سوريا ، بعد ان دفعت الخزانة العامة ما يوازي او ما يقل قليلاً عن ما كان يملكونه في خيبر من الاموال .

العرب قوة عسكرية

والامر الثاني الذي اقره عمر في عهده ، منعـــه العرب من مشترى

الارض والاقامة فيها في البلاد المفتوحة ، ليظلوا قوة عسكرية متحركة ، وليظلوا مجاهدين غازين ابداً ، تحت تصرف الدولة .

وهذه الفكرة ، مع خطورتها واهميتها لم تنجح كل النجاح ، فعاد العرب بعد وفاة عمر الى شراء الارض ، وزرعها والاقامة فيها ، ولكنهم في ايام عمر اقاموا في المعسكرات ، فكان العرب في سورية يقيمون في الجابية ، وحمص ، وامواس وطبريه ، واللد ، والرمله ، وفي مصر نزلوا الفسطاط والاسكندرية ، وفي العراق اقاموا بالكوفة والبصرة ، وتركوا الارض لاصحابها يزرعونها ويدفعون الخراج عنها .

فلما توفي عمر وكان عهد عثمان عاد الناس سيرتهم من الاخذ بامور الدنيا ، وشراء الدور والعقارات ، ففسدت وصية عمر التي اراد بها ان يظل امسلمون جيشاً متأهباً متحفزاً ، وحركة دائمة غير متصل بالارض في كثير ولا قليل .

والواقع ان عمر بن الخطاب كان رجلاً شديداً - باجماع المؤرخين - ضيق على قريش انفاسها ، فلم ينل احد معه من الدنيا شيئاً اعظاماً له وإجلالا ، وتأسياً به واقتداء ، فلما وليهم عثمان وكان رجل لين فعلوا ما فعلوا للسبب الذي اشرنا اليه من لطفه ووداعته ، وبعده عن الشدة والاخذ بالقسوة والضعف .

ولقد اشار عثمان نفسه الى خوف الناس من عمر في عهده ، فلما انكروا على عثمان ما انكروه وقف على المنبر وقال يخاطب المهاجرين والانصار :

« اما والله لقد عتبتم عليّ اشياء ونقمتم اموراً قد اقررتم لابن الخطاب مثلها ، ولكنه وقمكم وقمعكم ، ولم يجترىء احد يملأ بصره منه ، ولا يشير بطرفه اليه »

الولاة

ثم نظر عمر الى الاقاليم العربية المفتوحة فقسمها الى اقسام ليسهل حكمها ، ويشرف على موارد ثروتها ، وهي : ولاية الاهواز والبحرين وولاية سجستان ومكران ، وولاية طبرستان وكرمان ، وولاية خراسان ، وجعل بلاد فارس ثلاث ولايات ، وقسم العراق الى قسمين ، حاضرة الاول البصرة ، وحاضرة الثاني الكوفه ، وقسم بلاد الشام الى قسمين : حمص ، ودمشق ، وجعل فلسطين قسماً قائماً بذاته ، وقسم افريقية ثلاث ولايات : مصر العليا ، ومصر السفلى ، وغرب مصر وصحراء ليبيا .

وكان امير الولاية يعين من الخليفة نفسه ، وينوب عنه في حكم الولاية ، وكان للقضاء والصلاة والخراج والجند والشرطة وما اليها من مهام الدولة ، على ان عمر بن الخطاب عاد فعين لفلسطين ودمشق وحمص وقنسرين عمالاً للصلاة بالناس واقامة العدل بينهم وهم القضاة .

واختار عمر الولاة من العرب وسار على هذه السياسة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين والامويين .

وكان عمر حريصاً كل الحرص على ان يأخذ عماله سيرته ، ويتحرون صراحته واساليبه ، ويتأثرون اخلاقه وآدابه ، وهذا سبب مراقبته لعماله ، واستطلاع اخبارهم ، واخذ المذنب منهم بالقصاص الشديد والعقوبة البليغة .

وكان عمر قد اقام محمد بن مسلمه مفتشاً عاماً يرسله الى كل بلد شكا اهله من اميرهم ، وكان عمر يثق به ثقة عظيمة ، ومما ساس به الفاروق عماله انه كان يحصي عليهم اموالهم قبل توليتهم ، فاذا زاد لهم مال بعد

ولايتهم صادرهم . عليه كله او بعضه ، ذلك انه كان يرى ان لا يتناول العامل من مال الامة فوق كفايته ، فان كثر ماله كان اما مريباً اخذه من غير محله ، وبيت مال المسلمين اولى به ، واما ان يكون راتبه فوق كفايته ، والمسلمون اولى بما فضل من كفاية العامل الذي يعمل بالاجر .

فعمر اذاً لم يختر للاعمال إلا افاضل الرجال ممن كانوا على غراره وزهده ، وكان الى ذلك يستشير كبار الصحابة في عماله ، ثم يقرر ما يراه في شأنهم .

ولقد صادر عمر عامله على مصر عمرو بن العاص ، لانه فشت له فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان ، لم تكن له حين ولي مصر ، فادعى عمرو : ان ارض مصر ارض زراعة ومتجر ، وانها - اي امواله الزائدة - اثمان خيل تناتجت ، وسهام اجتمعت ، وانه يصيب فضلاً عما يحتاج اليه لنفقته ، ومع ذلك قاسمه عمر ماله .

وصادر عمر اموال ابي هريرة عامله على البحرين لانه اجتمعت له عشرة آلاف وقيل اضعاف ذلك من الدراهم ، وقد ادعى ان خيله تناسلت وسهامه تلاحقت وانه اتجر ، فقال له عمر : انظر رأس مالك ورزقك فخذه ، واجعل الآخر في بيت المال .

يريد بذلك ان يحصر العامل كده في خدمة اهل عمله ، واما الاتجار وتثمير الاموال فهذا ليس من شأن عمال الدولة ... واما الادارة في عهد عثمان وعلي فانها كانت على غرار الادارة في عهد الفاروق .

النظام الاداري

ولقد ظل النظام الاداري في عهد الخلفاء الراشدين وصدراً من

الدولة الاموية على ما كان عليه في بلاد الفرس والرومان ، وسبب ذلك ان العرب وجدوا في البلاد التي احتلوهـا نظاماً ادارياً ثابتاً ، فاقروه وابقـوه ، حتى لا يضطرب الامر ، وتعتور الادارة الفوضى بسبب الانتقال من نظام الى آخر ، ولكنهم احدثوا ما يتطلبه الاصلاح من التغيير والتبديل مما لا غنى للعرب عنه ، ومما يتفق مع عقائدهم الدينية ، ويساير مصلحة الشعوب التي خضعت لهم ..

واما القضاء والصلاة فكانا من الامور الجوهرية التي تناولها التبديل لارطباطها ارتباطاً وثيقـاً بالدين ، وكان النظام الاداري في صدر الاسلام بسيطاً جداً ، فلم يكن فيه توزيع للاعمال ، وتقسيم للواجبات ، فكان الخليفة او العامل يقوم بكثير من الاعمال دفعة واحدة ، وكان الموظفون عهد الخلفاء الراشدين عدداً محدوداً ، ولم يكثر عـددهم الا اواخر عهد الامويين وفي عهد العباسيين .

الديوان

ومن الامور التي اقرها عمر بن الخطاب نظام الديوان في الاسلام ، وهو عمل من اجل الاعمال واعظمها ، وسببه انـه لما توالت الفتوح الاسلامية ، وكثرت وازدادت واردات الدولة ، رأى عمر توزيع هذه الاموال على المسلمين مراعياً في ذلك مراتبهم واستحقاقهم ، فاخذ يفكر في الامر واحسن الوجوه لاقراره ، فاشار عليـه احد الفرس بادخـال نظام الدواوين الذي كان يسير عليه الفرس لضبط دخل الدولة وخرجها فعمل عمر بمشورته ، ودوّن الدواوين وفرض العطاء .

ولاجل تقسيم الواردات او (العطاء) صار احصاء المسلمين ، فكانت عائشة ، وزوجات رسول الله اول الجميع ، وكانت عائشة تنال من بيت المال

١٢٠٠٠ درهم في السنة ، ثم يأتي آل البيت ثم المهاجرون فالانصار ، كل واحد منهم وفاقاً لما قدمه لرسول الله والاسلام من خدمة وتضحية ، ويتراوح عطاؤه بين ٤٠٠٠ — ٥٠٠٠ درهم في السنة ، ثم يأتي بعد هؤلاء رجال القبائل العربية من المجاهدين والفاتحين — وكان يقدم منهم من يحفظ القرآن — وكان اقل عطاء المحارب من ٥٠٠ — ٦٠٠ درهم ويدخل في العطاء النساء والاطفال والموالى ويأخذون من ٢٠٠ — ٦٠٠ درهم وفاقاً لمركزهم .

الكاتب

ومن اعوان الخليفة منذ نشوء الدولة الاسلامية الكاتب ، فقد كان السواد الاعظم من العرب لا يعرف القراءة والكتابة ، وكانوا يختارون كتابهم من الذين يجيدون الخط ، فكتب بعض الصحابة لرسول الله ، وكتب لابي بكر غير واحد من الصحابة ايضاً ، وكتب لعمر وعثمان وعلي جماعة من الصحابة ، ولم يكن الكاتب يتناول اجراً في هذا العهد ، فكانت الوظيفة فخرية ، ولكنها كانت مصلحة ضرورية من مصالح الدولة ، ولم تصبح الكتابة وظيفة رسمية يتناول صاحبها راتباً من الدولة إلا في عهد الامويين ...

واما الحاجب فلم يكن معروفاً عهد الخلفاء الراشدين بالمعنى الذي صار اليه بعد ذلك ، لانهم لم يكونوا يمنعون احداً من الدخول عليهم ، واول من اتخذ الحجاب معاوية بن ابي سفيان وجرى من بعده على اثره[١] .

(١) ولكن الحاجب كان موجوداً في عهد رسول الله وعهد الخلفاء الراشدين ، ولكن هذا الحاجب كان للخدمة اكثر منه لمنع الناس من الدخول الى الخليفة ، ووظيفته لم تكن تتعدى تنظيم اجتماعات الخليفة الاول ومن بعده ، واما منع احد عن الوصول الى الخليفة فلم يكن معروفاً عهد الراشدين .

وعمر بن الخطاب اول من وضع النظام السياسي للدولة الاسلامية كما قدمنا ، وكانت سياسته ترمي الى تماسك بلاد العرب ، وادماج القبائل بعضها في بعض ، قضاء منه على روح الجاهلية ، وعصبيه القبيلة ، ليخرج العرب من هذا الصهر الاجتماعي امة واحدة .

وكان من سياسته عدم اختلاط العرب باهالي البلاد المفتوحة حتى لا تضيع قوميتهم ، ولو امدّ الله في عمره ، وتمكن من اقرار اغراضه هذه لتبدل وجه الاسلام ، ولا كانت وقعت هذه الفتن التي حدثت بعده ، والتي كانت من الاسباب التي دعت الى ظهور روح العصبية الجاهلية التي حاول عمر القضاء عليها فلم يوفق في المدة القصيرة التي قضاها في الحكم .

المفتش العام

ومما يجب الاشارة اليه هو ان محمد بن مسلمة الذي عينه عمر بن الخطاب مفتشاً على الحكام والامراء في عهده ، لم يحصل على وظيفته هذه عفواً ، ولا اجراها امير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه اعتباطاً ، فقد كان محمد بن مسلمة من انصار رسول الله الاول ، وكان رسول الله كثيراً ما ينيبه عنه في المدينة اثناء غيابه ، ولما توسعت الفتوح في عهد عمر بن الخطاب ودعت الضرورة الى ارسال الحكام والامراء الى المدن المفتوحة ، وكان عمر من اعظم الناس واكبر الخلفاء ايماناً بحق رعيته عليه ، وضرورة اخذ حكامه وامرائه على اتباع الطريقة المثلى والحكم بالحق . وعدم ايثار القربى والصداقة على غيرهم من الرعية ، فقد تفتقت له الحيلة تعيين محمد بن مسلمة الصالح الورع والفاضل الحازم ليكون مفتشاً عاماً على هؤلاء الحكام والامراء .

ومن اعمال المفتش العام انه لما شكا بعضهم سعد بن ابي وقاص سنة

٢١هجرية وهو بطل القادسية ، ومع الخطر الذي كان لا يزال يهدد المسلمين في بلاد فارس والعراق ، من حيث ان المعارك الحربية لم تكن قد انتهت ، وكان الفرس لا يزالون يجمعون الجيوش ، ويرسلون البعوث ، اصدر عمر بن الخطاب امره الى محمد بن مسلمة ليذهب الى الكوفة ويقوم بالتحقيق عما اسند الى سعد بن ابي وقاص من اعمال تخالف سياسة الفاروق الحكومية ، فذهب المفتش العام الى الكوفة ، وبحث وحقق واتى بسعد بن ابي وقاص معه الى المدينة ليحقق معه عمر بنفسه .

وكذلك ارسل عمرو بن الخطاب محمد بن مسلمة الى مصر ليحقق في الاموال التي جمعها عمرو بن العاص ،فذهب وحقق وشاطره نصف امواله .

وكذلك كانت سياسة عمر مع عماله ، لا يسمع عن احدهم شكوى إلا ارسل اليه من يحقق معه ، ولا يبلغه عن واحدهم تقصير إلا بعث اليه مفتشه ، احقاقاً للحق ، وانصافاً للناس ، ومنعاً للعمال عن استخدام نفوذهم لمصالحهم الشخصية .

ومما لا شك فيه ان شخصية مثل عمر ، تستطيع ان تفرض على عمال الدولة وموظفيها اخذ الناس بالانصاف والعدل ، ولكن متى كان الخليفة ضعيفاً ، فان الفساد طبعاً يدب الى العمال ، خصوصاً اذا لم يكن فوق رؤوسهم وازع يأخذهم في الجري على سنن العدل والانصاف ...

وعمر بن الخطاب كان ما في ذلك شك ولا ريب ، من اعظم الخلفاء معرفة بنفسية الناس في عهده ، فلما بعث معاوية الى الشام - او حين عين معاوية ليكون عاملاً على دمشق بعد وفاة اخيه يزيد بن ابي سفيان - بعث معه بقاض يقيم الصلاة ويحكم بين الناس ، لانه كان يعرف اطماع معاوية ودهاءه وبعد نظره ورغبته في تألف الناس حوله ، فكان يخشى ان تحمل هذه السياسة معاوية على البعد عن الحق في احكامه رغبة منه في تألف الناس ،

وهو ما ظهر من معاوية بعد وفاة عمر بن الخطاب .

وليس ادل على بعد نظر الفاروق ، وعظيم همته فيما تكلفه من الاحكام والوان التشريع من ان الخلافة بعده اصبحت عارية عن كل ما كانت تنعم به من قوة في عهده ، فلما ولي عثمان وكان شيخاً ليناً رأينا بني امية من اهله يفرضون سلطانهم على الدولة وامرهم على شؤون الخلافة ، بحيث ثارت الفتنة ، ونقم الناس .

ولو كان عثمان مثل عمر قوة ودهاء وبعد نظر وعزيمة لما كانت الفتنة، ولا كان هذا الشقاق الذي دب بين المسلمين .

عمر وسياسة القومية

وكان لعمر بن الخطاب سياسة عربية قومية مقررة ، ويظهر لنا هذا، من اجلائه لغير المسلمين من الجزيرة ، فقد اراد ان يجعل الجزيرة عربية بعيدة عن كل تأثير اجنبي ، فتصبح والحالة هذه مادة الاسلام ، يؤيد ذلك هذه السياسة التي اجراها في الجزيرة كما قدمنا ، ثم منعه المسلمين من استعمال غير اللغة العربية من اللغات ، وامره الى المسيحيين في الوقت نفسه بتعلم اللغة العربية والكتابة العربية .

ويظهر لنا ايضاً من العهود التي قطعها عمر لغير المسلمين انه لم يكن يفكر في تعريب احد منهم ، وانما كان همه ان يجعل العرب عنصراً خاصاً بعيداً عن العناصر الاجنبية الاخرى ، لا يتصل بها ولا يتزاوج معها ، محافظة منه على نقاوة دمه ، كما هو الحال مع بعض دول اوروبا المعاصرة ، وكلمة عمر (ان العربي لا يكون عبداً) تصور لنا سياسته تصويراً واضحاً ، فالعربي في سياسته هو السيد المطاع ، والحاكم الفاتح، والجندي الشاك السلاح .

ومما يدل ايضاً على سياسة عمر الوطنية ، وحبه للوحـــدة العربية والدم العربي ان قبيلة عربية هربت عند ابتداء الفتوح الى آسيا الصغرى، وكانت هذه القبيـــلة العربية مسيحية لم تؤمن بالاسلام ، فكتب عمر الى امبراطور الروم يردها ، او يرسل اليه كل المسيحيين في البـــلاد المفتوحة ، فاعادها الامبراطور الى الحدود ، ووزعها عمر بين القبائل .

ومما يؤيد سياسته الوطنية العربية ايضاً معاملته للعرب المسيحيين فيما يتعلق بالجزية المفروضة عـــلى كل من ليس مسلماً ، واعتراض العرب المسلمين على كلمة جزية ، وهي تعني الذل والصغار ، فبدل عمر الكلمة ، ورضي ان يأخذ منهم مبلغاً من المال (كزكاة) على نحو زكاة المسلمين اسوة بابناء عمهم المسلمين .. (١)

ايام عثمان

وفي ايام عثمان كثرت الولايات بتكاثر الفتوح ، وكان حاكم سورية معاوية بن ابي سفيان ، والظاهر انه في هذا العهد وبسبب لين عثمان اخذ معاوية يعين الحكام والموظفين للمدن السورية الواقعة ضمن ولايته مثل حمص وقنسرين والاردن، وفلسطين والساحل ، كما عين القضاة ايضاً...

وكانت تأتي بعد الشام من الولايات : الكوفة ، ثم البصرة ، وقرقيسيا واذربيجان ، ونهاوند ، والري ، وهمذان ، واصفهان ، وحلوان .

وكانت افريقيا او ما صار فتحه من افريقيا تابعاً لامير مصر ...

وكان شرقي الجزيرة العربية — البحرين وعمان — يحكمهان من امير البصرة ولم يحدث تبديل عظيم في عهد عثمان في دواوين القضاء .

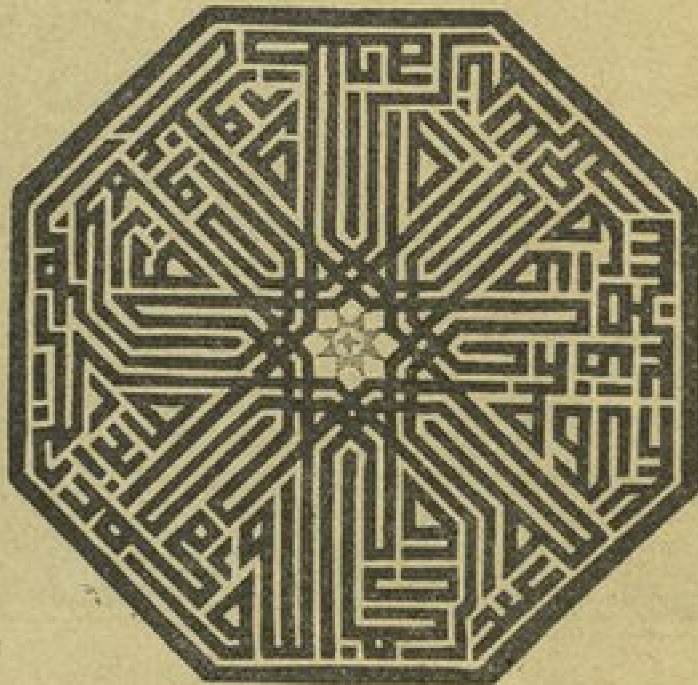
والذي نعرفه انه عين قاضياً خاصاً في المدينة ، وذلك نيابة عنه .

---

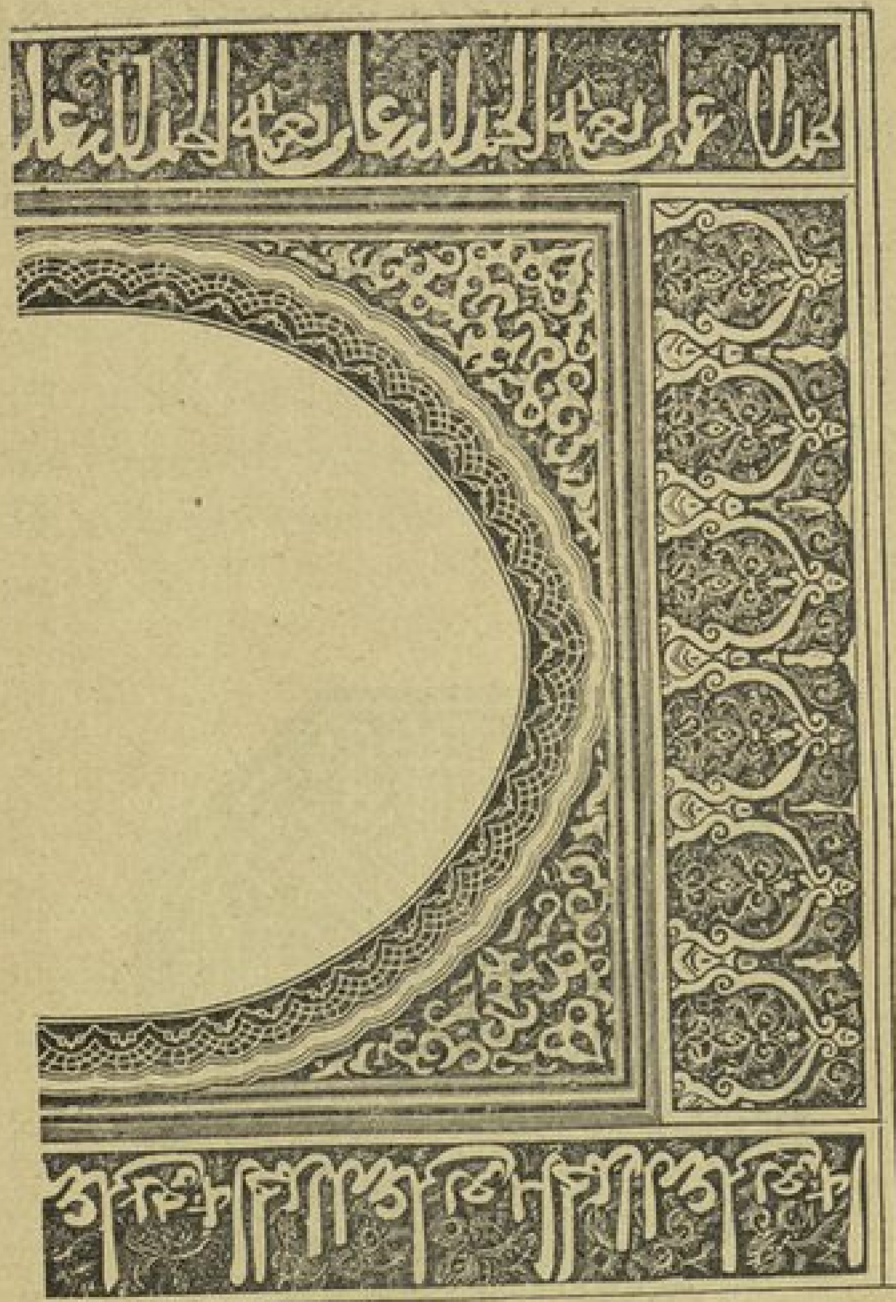
(١) العقد الفريد

وبعد ان اصبح عاجزاً عن الجلوس للقضاء بين الناس .

والظاهر ان القضاة لم يكونوا يرسلون الى كل بلاد الدولة الجديدة ، وانما الى المدن الكبرى فقط ، واما المدن الصغيرة ، فكان العامل يقوم مقام القاضي فيها ، كما كان يقوم بالصلاة وغير ذلك . واما علي بن ابي طالب فلم يتمكن من عمل شيء يذكر في عهده بسبب الثورات الداخلية التي حصلت ، وصرفه همته لحرب معـــاوية ، ولكننا نعلم انه الغى ما الزمه عثمان من ارض في العراق الى اخصائه واهله ، كما عزل بعض عمـــال عثمان واستبدلهم بسواهم ، واصلح بعض الاخطاء ، وقد تمكن من اقرار اصلاحاته هذه في العراق والحجـــاز وفارس ، ولمدة قصيرة في مصر .



نماذج من الفن العربي



الفن الاسلامي

النظام المالى فى عهد الخلفاء الراشدين

العرب قبيل الفتح

لم يكن للعرب حين اقتحموا امصار الامبراطوريتين الفارسية والرومانية دواوين مدونة ، ولا نظام معلوم للضرائب إلا نظام الاعشار او الزكاة او الصدقة وهي واحد كما يظهر (١) ، وكانت هناك احاديث تتعلق بالضرائب التي وضعها رسول الله على اراضي اليهود والنصارى كالتخميس، والتنصيف ، ولكنها كانت دون الغاية لبلاد قطعت في الحضارة شأواً بعيداً ، كالامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، وكمصر مثلاً حيث كانت الحضارة والتجارة والزراعة في حالة راقية رفيعة ، ولهذا لم تكد الفتوحات العربية تستتب وتستقر في بعض هذه الامصار والبلاد حتى دعت الحاجة الى انشاء بيت للمال يقوم على صيانة الواردات وحفظها لمصالح الدولة الاسلامية الجديدة ...

ولهذا لم تكد الجيوش العربية تحتل البلاد المذكورة حتى اخذ عمر منظم الدولة العربية وواضع دستورها يبحث عن نظام للضرائب جديد يضمن لبيت المال مصلحته ولا يكون مجحفاً بحقوق الاهالي الذين دخلوا في ذمة المسلمين ، فكان له أما ان يتبع سنة النبي في الجزيرة واما ان يسير في طريق آخر اقتضته الاحوال وسنة التطور ، فرأى بعد

(١) العشر والصدقة والزكاة واحد قال ابو يوسف « الصدقة على المسلمين والجزية على اهل الذمة » .

التحري والتفكير ان يقرّ الاراضي في ايدي اصحابها السابقين ويأخذ منهم الجزية التي كانوا يؤدونها لاصحاب السلطة قبله فكان من ذلك ان اتبع في السواد وبلاد فارس وتوابعها النظام الفارسي او نظام بني ساسان، (١) وفي سوريا ومصر وشمال افريقيا النظام البيزنطي وهو ما يؤيده البحث التاريخي ولا ينكره كتبة المسلمين .

ويقول ابو يوسف في كتاب الخراج : ان عمر بن الخطاب لما اراد مسح السواد ارسل الى حذيفة ان ابعث الي بدهقان من (جوخى) ، وبعث الى عثمان بن حنيف ان ابعث اليّ بدهقان من العراق ، فبعث اليه كل منهما بواحد ، ومعه ترجمان من اهل الحيرة ، فلما قدموا على عمر قال : — كيف كنتم تؤدون الى الاعاجم في ارضهم ؟

وبعد ان استشارهم اصدر قراره وفاقاً للمعلومات التي اخذها منهم وفعل مثل ذلك في الشام ومصر والامصار الاخرى التي كانت تحت الادارة البيزنطية ، وهذا سبب ما نراه من اختلاف بين احكام الجزية او الخراج في العراق وفارس عن مثلها في سورية ومصر اول الفتوح .

ولعل سبب ذلك اختلاف الدواوين في الاراضي المفتوحة ، فلم يكن بمقدور امير المؤمنين وهو يحمل اعباء هذه المسؤوليات الحربية العظيمة في تلك الفترة من الزمن ان يعمل على نقلها الى العربية ، وان

---

(١) ترك عمر بن الخطاب الارض في السواد بايدي سكانها الاصليين يزرعونها ويفلحونها ويدفعون ضريبة الرؤوس او الجزية عن انفسهم ، لانهم من غير المسلمين ، وضريبة الخراج المفروضة على الارض ، ولم يستعبد عمر سكان السواد ، وانما تركهم احراراً ، وسمح في الوقت نفسه بتقسيم الاموال المنقولة الموجودة في السواد من حيوانات وغيرها على الفاتحين كغنائم حرب .

وكانت قبيلة « بجيلة » قد وعدت بربع أرض السواد مقابل مساعدتها لجيش المسلمين ، ولكن عمراً بعد المعركة اشترى منها هذا الحق مقابل الفي درهم تدفع لافراد القبيلة كل سنة من بيت المال .

يستخرج منها نظاماً واحداً يفرضه على الامبراطورية الجديدة من اقصاها الى اقصاها – وهذه الدواوين كما نعلم لم تفكر الدولة العربية في نقلها الى العربية إلا بعد خمسين سنة من هذا التاريخ – على ان كل هـذه المشاكل العظيمة التي كان يحمل اعباءها – كما يظهر – لم تكن لتمنعه عن النظر احياناً في الانظمة التي صار اقرارهـا ، ولم تكن تصرفه عن التدقيق في الضرائب وموارد الخلافة ، فقد ذكر ابو يوسف في كتابه « الخراج » ان عمر قال للدهاقين الذين دعـاهم يستفسر منهم عن مقدار الضرائب التي كانوا يؤدونها الى الاعاجم وعن طريقهـا ، وانه فرض على بعضهم اكثر مما كانوا يدفعونه ، كما يقول في موضع آخر : ان عمر قال لما رفع اليه ما فعله عثمان بن حنيف في السواد « انهم يطيقون اكثر من ذلك » .

تعليق

فاذا صحت هذه الروايات فان عمراً يكون قـد ادخل بعض التعديل عـلى نظام الضرائب الذي كان متبعاً في عهد الامبراطورية الفارسية ، ولكن الذي يظهر لنا ان في هذه الاخبار والروايات بعض النظر ، لان حب عمر للعدل ورفقه باهل الذمة معروف مشهور ، فـلا يجوز والحالة هذه ان يكون قد عمل على اضعاف الضرائب عليهم ، وهو المشهور بانه كان يساعدهم ويحسن اليهم ، والاقرب الى الرأي والظن ان هذا حصل بعد عهده ، ثم نسبه بعض المؤرخين اليه باعتباره المنظم الاول للسياسة المالية في الدولة العربية .

هذا الى ان عمراً كان يطلب من عماله في الامصار وجباة المال « ان يقصدوا العدل فيما بين اهل الارض وبين اهـل الفيء من غير زيادة

تجحف باهـل الخراج ولا نقصان يضر باهل الفيء » (١) . ومن يدقق في اقوال مؤرخي العرب عن سياسة عمر الاقتصادية واقواله في وجوب مراعاة العدل ، ويدرس احوال البلاد المغلوبة درساً منزهاً عن الغرض لا يسعه الا ان يقرّ بان الجزية التي كان يؤديها اهل الذمة في خلافته لم تكن باهظة ولا مجحفة بحقوقهم وهو ما يقول به مستشرقو اوروبا ايضاً (٢) . وقد اجمع اصحاب التاريخ وكتب الخراج او كادوا يجمعون ان جزية مصر كانت في خلافة عمر دينارين على الحالم ما عدا النساء والصبيان والشيوخ ، وكانت جزية اهل السواد درهماً وقفيزاً على كل جريب وثمانية واربعين درهماً على رأس الموسر ، واربعة وعشرين على الوسط ، واثني عشر على الفقير او العامل بيده او الصانع (٣) فاذا صح ذلك كان ما اقره عمر على اهل الذمة من الجزية يتراوح بين دينارين ودينار اي نحو جنيه ونصف جنيه مصري على رأس الحالم كان يؤديها ورقاً وذهباً او عرضاً كالدواب والمتاع وهي جزية معتدلة اذا قابلناها بما يؤديه الفلاح اليوم في سوريا ومصر والعراق ، واذا اعتبرنا ان اهل الذمة لم يكونوا في ذلك العهد يؤدون غيرها من الضرائب لا على بيوتهم ولا على تجارتهم ولا على شيء آخر .. ، وكانت الجزية تؤخذ من رقاب او عدد سكان القرية او الرستاق بالتخمين لا عن مساحة الارض (٤) وقد بقي هذا النظام متبعا الى اوائل حكم بني امية حين

---

(١) الاحكام السلطانية للماوردي ١٣٣ .

(٢) انظر Becker H. Islamstudien ص ٢٣٥ .

(٣) ابو يوسف - ٦٩

(٤) انظر كلمة « جزية » Encycl. Musulmane . (الترجمة الفرنسية)

بدأوا يفرقون بين ضريبة الرؤوس او الرقاب ، وبين ضريبة الاراضي ، او بالاحرى خراج الاراضي او ايجارها ، فسموا الضريبة الاولى جزية واطلقوا على الثانية ، كلمة خراج وهي كلمة يونانية كانت معروفة في مصر وسوريا قبل ان يفتحها العرب ، وكانت تستعمل للدلالة على ما كان المزارع يؤديه عيناً لصاحب الارض اي للحكومة او البلدية ، او المالك الذي يؤجره ارضه على شروط معروفة ، وهم في كل ذلك يتبعون نظام الضرائب البيزانطي او الفارسي الذي كان يفرق بين ضريبة الرؤوس (رأسية) او (رجولية) (١) وبين ضريبة الاراضي او الخراج ،الا ان كتاب العرب خلطوا بين الكلمتين فكانوا تارة يسمون الجزية خراجاً وطوراً يطلقون كلمة خراج على الجزية والخراج وانتقل هذا الخطأ الى مؤلفاتهم (٢) .

ولعل السبب انه لما كان الخراج اعظم الضرائب واهمها ، وكانت تتوقف عليه حياة المملكة وسعادتها ، تغلبت هذه الضريبة واسمها على سائر الضرائب ومنها الجزية .

واهم من كل ذلك ان المسلمين بعد ان كانوا يؤدون في بلادهم عشر عن أرضهم ، اصبحوا بعد ان انتقلت اليهم اكثر الاراضي المفتوحة بطريق الاقطاع او الشراء او القوة ، وبعد ان اعتنق الاسلام اكثر سكان البلاد المفتوحة ، يؤدون عن اراضيهم الخراج كاهل الذمة الذين ظلوا على دينهم ، فادى هذا الى انتشار كلمة (خراج) لان اكثر الاراضي صارت ارضاً خراجية ، وساعد على ذلك ان اهل الذمة وقد اصبحوا اقلية في البلاد الاسلامية ، لم يعودوا يؤدون الجزية — ضريبة

(١) المستشرق « بكر » في كتابه (ابحاث في الاسلام)

«٢» انظر كتاب ابي يوسف في الخراج، وفتوح البلدان والمغازي والاحكام السلطانية

الرأس والرؤوس – او صاروا يؤدونها نادراً ، بعد ان اصبحت الدولة الاسلامية لا تكترث لها لقلتها .

واردات بيت المال

اما المال الوارد لبيت مال المسلمين فاما ان يكون ضريبة عن الارض او عن اشياء اخرى غير الارض (١) :

فضريبة الارض تسمى عشراً وخراجاً ، ويؤخذ العشر من غلة الارض التي اسلم اهلها بدون حرب ، او التي فتحت عنوة ، فصارت غنيمة للمسلمين ثم صار تقسيمها بين الفاتحين .

الخراج

ويؤخذ الخراج – وهو مقدار معين من المال او الحاصلات – عن الارض التي فتحها المسلمون عنوة اذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ووقفها على مصالح المسلمين بعد ان عوّض المحاربين عن نصيبهم فيها او استرضاهم كما فعل عمر بن الخطاب ، وكان يؤخذ الخراج ايضاً عن الارض التي افأ الله بها على المسلمين فملكوها وصالحوا اهلها على ان يتركوهم فيها بخراج معلوم يؤدونه الى بيت مال المسلمين .

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال او غلة كما صنع عمر في ارض السواد ، واما حصة شائعة مما يخرج من الارض وهو ما يسمى بالمعاملة او المزارعة ، كما عامل رسول الله اهل خيبر على نصف ما يخرج من الارض قليلاً كان او كثيراً .

ولقد مسحت أرض السواد في زمن عمر بن الخطاب فبلغت

(١) انظر « الصولي » .

٣٦،٠٠٠،٠٠٠ جريباً ، فوضع عليها مقادير معينة من الدراهم تختلف باختلاف مقدار الارض من درهمين الى عشرة دراهم عن كل جريب ، وقد بلغ ما جبي من خراج العراق في عهد عمر ١٨،٠٠٠،٠٠٠ درهم ، متوسط جباية الجريب ٣،٥٥ درهماً ، فاذا كان الفدان يساوي ٣،٥ من من الاجربة فتكون ضريبة الفدان المزروع قمحاً ١٤ درهماً .

ولم يكن ايراد الخراج ثابتاً ، فقد كانت ضريبة الارض تقل وتكثر حسب اهتمام اهلها بتعميرها واصلاح جسورها وخلجانها ونحوها .

وكانت ضريبة الارض هذه او خراجها ، تدفع من المسلمين وغير المسلمين على السواء .

وكان النظام المالي المتبع اول الامر ، هو النظام الذي كانت عليه الارض والناس عهد الفرس والروم ، وكانت ضريبة الارض مختلفة وفاقاً لخصب الارض وجدبها .

وكانت هذه الضريبة تدفع اقساطاً من حاصلات الارض ويستثنى من ذلك النبيذ والحيوانات الحية .

ولم تكن الارض تعد من الغنائم ، وانما الغنائم الاسرى والاموال المنقولة ، كما وان الارض وما يخرج منها من الخراج كان ملكاً لكل المسلمين .

جباية الخراج

وكان جباة الخراج او عماله مستقلين عن الولاة والقواد ، يدفعون من الواردات التي تصل اليهم ارزاق الجند في المصر المكلفين بجباية خراجه ، وما تحتاجه المصالح العامة ، ويرسلون الباقي الى بيت المال في العاصمة .

وكانت الضرائب في عهد الخلفاء الراشدين هينة لينة ، وكان العهد عهد تسامح وعدل لم يشتد فيه الولاة في جمع الجزية ، وكانت الضرائب المفروضة على الارض تقدر حسب مساحة الارض وجودتها ونوع محصولها ، ولم تكن تدفع كلها نقداً ، بل كان بعضها يدفع عيناً ، وقد عنى الولاة بامر الري لضمانة جباية الخراج ، فعنوا بمراقبة السدود ، وانشاء الترع والجسور والعمل على صيانتها ، وكانت الضريبة تخفض اذا قل المحصول لسبب من الاسباب .

وكان الخلفاء يشرفون بانفسهم على جباية الخراج ويحاسبون الولاة وعمال الخراج حساباً عسيراً ، وقد بلغ من شدة مراقبة عمر بن الخطاب لعماله ، ان كان يحصي اموالهم قبل توليتهم ، فاذا انتهت ولاية احدهم احصى ثروته من جديد ، وما زاد صادره كله او بعضه ورده الى بيت المال ، ويعرف هذا بنظام المقاسمة .

وكان هناك غير الخراج من الضرائب ، كانت هناك ضريبة (العشر) وقد فرضها عمر بن الخطاب على السفن التي تمر ببعض الثغور وهو ما يسمى بضرائب الجمرك اليوم .

الزكاة

وكانت هناك ضريبة (الزكاة) او الصدقة ، وهي كل ما يؤخذ من اغنياء المسلمين ، ولم يكن المسلم يدفع غير هذه الضريبة عن امواله ومتاجره ، الا ضريبة الارض عن الارض التي في يده ، والزكاة كانت تؤخذ من المسلمين الاغنياء كما قدمنا ، وتوضع في ديوان خاص في مركز الخلافة له فروع في سائر الولايات ، ومقدارها ربع العشر عما يمتلكونه من المال ، ذهباً كان او فضة ، واما زكاة الغنم ويلتحق بها العنز ،

فكانت تؤخذ بمقدار واحدة من اربعين فما فوق الى مائة، ومن ١٠١—٢٠٠ واحدة في كل مائة ، وفي الابل عن كل خمس، شاة الى اربعة وعشرين ، فان كانت خمسة وعشرين فعليها بنت مخاض (ناقة صغيرة بنت سنة او اقل) والجاموس والبقر كل ثلاثين عليها واحدة (بنت سنة الى سنتين) . فاذا بلغ العدد ستين ، كانت بمقدار واحدة بنت سنتين ، والخيل اذا اعتبرت آلة من آلات الحرب فلا زكاة عليها ، كل هذا اذا كانت هذه الحيوانات تأكل من الكلاء المباح، فان علفها صاحبها فلا زكاة عليها، واذا دخلت في التجارة فتقوّم ويدفع عنها زكاة التجارة.

وكانت الزكاة تقسم على الفقراء والمساكين والايتام الفقراء والمستحقين.

وكان معاوية يأخذ ٢ ونصف بالمئة من عطاء كل مسلم كزكاة وهذا يشابه اليوم ضريبة الدخل في الدول الاوروبية الحاضرة .

الجزية

والجزية ضريبة يدفعها غير المسلم ، وهي موضوعة على كل رجل غير مسلم في الدولة الاسلامية عن الصبيان والنساء والشيوخ .(١)

وانما وجبت الجزية على اهل الكتاب وغير اهل الكتاب ، كما وجبت الزكاة على المسلمين ليتكافأ الفريقان — وهما رعية دولة واحدة — في المسؤليات والاعباء، كما تكافآ في التمتع بالحقوق وتساوياً في الانتفاع بالمرافق العامة للدولة ، — اذ ليس في مواشي اهل الذمة من الابل والبقر والغنم زكاة — ولا يدفع الزكاة الا المسلمون .

ومتى مات غير المسلم ممن تجب عليه الجزية او اسلم ، تسقط عنه الجزية .

«١» الصولي

ولما اخذ الناس يتقبلون الاسلام خصوصاً الموالى ، هرباً من الجزية ، ورغبة في الانضمام للجيش العربي ، خسرت الخزانة العامة مورداً عظيما ، فقرر الحجاج رد الموالى وغيرهم الى الاراضي الزراعية التي تركوها ، والتحقوا بالمدن تهرباً من العمل الزراعي ، ورغبة في الحصول على حياة الراحة التي تنعم بها المدن المتحضرة ، كما تقبلوا الاسلام ليكونوا كالمسلمين ، وينعموا بما ينعم به المسلمون من عطاء واعمال في الجيش وغير الجيش ، مما اضر بالحياة الزراعية وافقر الارض ، فردهم الحجاج الى الارض ، واقرّ عليهم الضريبة التي كانوا يدفعونها قبل الاسلام ، وفعل مثل ذلك بالعرب المسلمين الذين اشتروا الارض ، ففرض عليهم ضريبة الخراج المقررة عليها .

فلما كان عهد عمر بن العزيز حاول اعادة الحالة الى ما كانت عليه عهد عمر بن الخطاب ، من رفع الضريبة عن المسلم إلا ما كان من الزكاة ، وضريبة الخراج عن الارض ، لان هذه الضريبة تعود للجماعة الاسلامية ، كما منع في عهده بيع ارض الخراج الى العربي او المسلم ، وقرر اذا تقبل الاسلام احد من اصحاب الارض ، فارضه تعود الى سكان البلدة الواقعة فيها الارض ، وصاحبها يكون مستأجراً لها ، ولكن هذه الطريقة لم تنجح فما كاد يموت حتى عادت الحالة الى ما كانت عليه ...

والواقع ان كل ما كان يربحه العربي في عهد عمر بن العزيز من قبول الاسلام هو رفع الجزية عنه لا غير ...

وكانت تجب الجزية على الرجال الاحرار العقلاء الاصحاء القادرين على الدفع ، ولا تؤخذ الجزية من مسكين يعيش من الصدقة ، ولا من عاجز عن العمل ، ولا من الاعمى والمقعد والمجنون ، وغيرهم من ذوي

العاهات ، ولا من الرهبان واهل الصوامع إلا اذا كانوا من اهل اليسار والمال ، ولا من الاطفال والنساء والشيوخ ، ويلاحظ من ذلك ان الشرع لم يفرض الجزية إلا على الاشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد .

اما مقدار الجزية فقد ذهب ابو حنيفة في تصنيفها الى ثلاثة اصناف:

١ – اغنياء يؤخذ منهم ثمانية واربعون درهماً .

٢ – ومتوسطون يؤخذ منهم اربعة وعشرون درهماً .

٣ – وفقراء يكسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهماً .

واما جباية الجزية فقد اوصى الشرع الاسلامي بالرفق والانصاف في جبايتها من اهل الكتاب ، وصيانة ارواحهم واموالهم من العدوان وعبث الجباة والولاة ، وتقضي القاعدة الفقهية او دستور الاسلام فيما يتعلق بطريقة اخذ الجزية من دافعيها بانه « لا يضرب احد من اهل الذمة في استيدائهم الجزية ، ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم في ابدانهم شيء من المكاره ، ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم » (١)

ومن الامثلة عن معاملة الخلفاء لاهل الذمة ما روي ان عمر بن الخطاب مرّ على باب قوم عليه سائل يسأل وكان شيخاً كبيراً ضرير البصر ، فضرب على عضده من خلفه وقال له : من اي اهل الكتاب انت ؟

فقال : يهودي .

فقال : فما الجأك الى ما ارى ؟

فقال : اسأل الجزية والحاجة والسن .

---

(١) ولا يباع في الجزية بقرهم ولا حميرهم ولا مواشيهم ، وقال ابو عبيد : انه لا يجب تكليفهم فوق طاقتهم .

فاخذ عمر بيده وذهب به الى منزله ، فاعطاه شيئاً مما في المنزل ، ثم ارسله الى خازن بيت المال فقال :

– انظر هذا واشباهه ، فوالله ما انصفناه ، اكلنا شبيبته ثم نخذ له عند الهرم ، انما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين اهل الكتاب... ووضع الجزية عنه وعن امثاله .

وقد كتب ابو يوسف قاضي هرون الرشيد اليه يقول :

« قد ينبغي يا امير المؤمنين ايدك الله ، ان تتقدم في الرفق باهل دمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم ، والتفقد لهم ، حتى لا يظلموا ، ولا يؤذوا ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شيء من اموالهم إلا بحق يجب عليهم ، فقد روى عن رسول الله انه قال : من ظلم معاهداً او كلفه فوق طاقته فانا حجيجه .

وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته : اوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يوفي لهم بعهدهم ، وان يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم .

والجزية ليست من محدثات الاسلام وانما هي قديمة ، فرضها اليونان على سكان اسيا الصغرى حول القرن الخامس قبل الميلاد ، كما وضعها الرومان على الامم التي اخضعوها ، وكانت اعظم من الجزية التي وضعها الاسلام .

وهناك (الفيء) وهو كل مال وصل من المشركين عفواً من غير قتال فهو كمال الهدنة والجزية والخراج يذهب خمسه لرسول الله وبعد موته لمال المسلمين ، وكانت الاربعة اخماس الباقية تقسم في صدر الاسلام بين الجند في الاعمال الحربية لشراء الاسلحة وغيرها ، حتى دون عمر الدواوين وقدر ارزاق الجنود .

وهناك (الغنيمة) وهي كل ما اصاب المسلمون من جند العدو بالقتال وتشتمل علـــى اربعة اقسام : الاسرى ، والسبي ، والارض ، والاموال ..

فالاسرى من يقع في الاسر من العدو المحارب .

واما السبي فالنساء والاطفال الذين يقعون في ايدي المسلمين ،وهؤلاء لا يجوز قتالهم ، وانما يقسمون في جملة الغنائم .

والارض التي تؤخذ في الحرب عنوة يُخرج اهلها منها لانهـــا غنيمة كالاموال ، وقـــد فرقها بعضهم بين المحاربين ، وحبسها عمر لصالح المسلمين .

واما (الاموال) المنقولة فهي ما يمكن نقله كالماشية والمال والاسلحة والثياب والدواب وغيرها ، وكان رسول الله في اول الامر يقسمها وفاقاً لرأيه ، ثم نزلت الآية بتقسيمها ،فصارت اربعة اخماسها للمقاتلين الفاتحين، والخمس الباقي للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، ولما مات رسول الله ذهبت حصته الى بيت المال .

مقدار جباية الخراج

والواقع ان المورد المقرر الثابت للخزانة العامة كان من الخراج والجزية ، وهي اقل من الخراج مورداً ، واقل ثباتاً ايضاً لان الجزية كما قدمنا كانت تفرض على غير المسلمين فاذا تقبل احدهم الاسلام سقطت عنه ، واما الخراج فكان يؤخذ من الارض ، والارض اثبت ، ومع ذلك فمن الصعب تعيين مقدار الواردات من الخراج في عهد الدولة الاسلامية حتى اواخر عهد الامويين لان مؤرخي العرب كانوا كثيراً ما يجمعون بين الجزية والخراج في تقديراتهم التي بين ايدينا ، وربما ادخلوا معها العشور

ايضاً ، ومع ذلك فنحن ذاكرون فيما يلي امثلة من جباية اعمال المملكة الاسلامية في عصر بني امية .

وارادات العراق

فالسواد في العراق بلغ ارتفاع خراجـــه في ايام عمر بن الخطاب (سنة ٢٠ للهجرة) ١٢٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم .(١)

وبلغ خراج السواد في عهـد عمر وعثمان مائة الف الف درهم ، فلما ولي معاوية صار الى خمسين الف الف ، وهدايا النيروز والمهرجان خمسون الف الف ايضاً اخذها لنفسه ولجيبه كما يظهر ، وكان قد اصطفى اموال كسرى من الارض ، فكان يقطع فيها ويصل ويجيز من يشاء ، ثم بلغ الخراج في عهد ابن الزبير ستين الف الف ، والهدايا التي اشرنا اليها عشرين الف الف ، فلما ولي الحجاج صار الى اربعين الف الف ، وما كان يصل الى ذلك الا بالشدة والعنف ، فلما قتل ابن الاشعث عمـــد الحجاج الى روساء اهـــل السواد فانتقم منهم لانهم ايدوا ابن الاشعث ، فخربت الارض ، ووصل الخراج الى خمسة وعشرين الف الف ، فلما صار الامر الى عمر بن عبد العزيز عاد الى سيرة عمر بن الخطاب فجبا الخراج ستين الف الف ، ولم يقبل الهدايا... وهناك مصادر تذهب الى غير ذلك فتقول

ان عبيد الله بن زياد جباه (٦٢ هـ) ١٣٥،٠٠٠،٠٠٠ درهم .

وجباه (العراق) الحجاج بن يوسف (٨٥ هـ) ١٨٨،٠٠٠،٠٠٠ درهم .

وجباه الخليفة عمر بن عبد العزيز (١٠٠ هـ) ١٢٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم .

وكان ابن هبيرة امير العراق بعـده يجبيه (١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم سوى طعام الجند وارزاق المقاتلة .

---

(١) السوداء الارض الخصبة في العراق وهي سوداء فسميت السواد لسوادها

ثم كان يوسف بن عمر يحمل منه الى دار الخلافة من ستين الى سبعين مليوناً من الدراهم ، وينفق على من معه من جند الشام ١٦،٠٠٠،٠٠٠ وعلى البريد اربعة ملايين وعلى الطوارق مليوني درهم ، ويبقى عنده للنفقة على بيوت الاحداث والعواتق عشرة ملايين ، فكان مجموع جباية السواد مائة مليون درهم .

اما مصر فقد جباها عمرو بن العاص ١٢،٠٠٠،٠٠٠ دينار ، وهذا الرقم يجب ان يضم الجزية والخراج طبعاً .

وجباها بعده عبدالله بن سعد بن ابي سرح ١٤ مليوناً ، وقل خراجها في ايام بني امية ، حتى اذا كان عهد هشام بن عبد الملك بعث الى عامله عليها ان يمسحها ففعل ، وجباها اربعة ملايين دينار ، ويجب ان ننظر في هذه المناسبة الى ان كثيراً من الذين تقبلوا الاسلام سقطت الجزية عنهم ، فقل وارد الجزية ...

وجباها اسامة بن زيد في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ هـ – اي قبل عهد هشام – اثني عشر مليوناً من الدراهم ، ولما صارت الى بني العباس انحط خراجها حتى بلغ اقل من مليون دينار في السنة .

واما الشام فقد بلغ خراجها في ايام عبد الملك بن مروان ١،٧٢٠،٠٠٠ دينار ، منها ١٨٠،٠٠٠ من الاردن ، و ٣٥٠،٠٠٠ من فلسطين ، و ٤٠٠،٠٠٠ من دمشق ، و ٨٠٠،٠٠٠ من حمص وقنصرين والعواصم .. (١)

(١) كان خراج الشام في عهد عمر بن الخطاب خمسمائة الف دينار ، فلما افضى الامر الى معاوية قطع الوظائف على اهل المدن ، فوظف اهل قنسرين ٤٥٠،٠٠٠ دينار ، وعلى اهل دمشق ٤٥٠،٠٠٠ دينار ، وعلى الاردن ١٨٠،٠٠٠ دينار وعلى فلسطين مثل ذلك ثم جعل بعد ذلك يصطفي الارض الجيدة ويدفعها الى الرجل بخراجها وعلوجها والخراج على اصله لا ينقص منه شيء « الصولي »

والواقع ان الواردات العامة للدولة الاموية امر يصعب تحقيقه ، فقد ضاع اكثره في الحروب المختلفة ، والثورات العديدة ، وليس بين ايدينا من المصادر ما يساعدنا على اجراء حساب عام لكل موارد الخزانة العامة ، ولكن ما اثبتناه من واردات بعض الامصار يدل على مبلغ الثراء الذي وصل اليـه سلطان الامويين ، وكان الاعتماد في الواردات كما يظهر على العراق والجزيرة والشام ومصر ، واما الاطراف فقد كان خراجها يذهب بين العمال والكتاب والجباة والجند ، وبعضها لم يكن يدفع شيئاً يستحق الذكر .

مصارفات الدولة

اما مصارفات الدولة الاسلامية فكانت محصورة محدودة عهد رسول الله والخلفاء الراشدين ... ولم يكن يوجد عهد رسول الله موظف واحد للدولة ، وكانت اعطيات المسلمين او المقاتلة غير محدودة ، وانما كانوا يأخذون حصتهم من غنائم الحرب .

وكان الجند او المقاتلة كل المسلمين في ذلك العهـد ، او كل من يستطيع حمل السلاح منهم ، وكان رسول الله يقسم بينهم مـا يرد من خراج الارض التي بقيت في ايدي اهلها ، كالواردات التي كانت ترد من خيبر مثلاً ... وما يرد من غنائم الحرب ، وكل ذلك كان قليلاً جداً ...

وكان رسول الله في عهده يدفع من واردات الدولة في حياته ديون من يموت من المسلمين (١)

واذاً فقد كان رسول الله يعتبر المسلمين عائلة واحدة ، يساعد بعضهم

---

(١) يوجد حديث بهذا المعنى في البخـاري ، ذكره البلاذري ، واسنـد الحديث الى ابي هريرة .

بعضاً ، واما اذا ترك احد المسلمين مالاً ، فانه يذهب الى ورثته .

عهد ابي بكر

وفي عهد ابي بكر بدأت الفتوحات العربية ، ولكنها كانت لا تزال في اولها ، فلم تحمل الى بيت المال الاموال الوفيرة والغنائم العظيمة التي حملتها ايام عمر بن الخطاب ، وقد سوّى ابو بكر بين المسلمين في العطاء في ايامه ، وكانت الواردات توزع كلها دفعة واحدة على المسلمين عند قدومها ووصولها ، فترى انه دفع في السنة الاولى من ولايته – في المدينة – تسعة دراهم ونصف لكل مسلم رجالاً ونساء واولاداً واحراراً وموالى ، ودفع في السنة الثانية عشرين درهماً لكل واحد .

وكان ابو بكر يسأل المسلمين قبل توزيع العطاء فيما اذا كان واحدهم قد دفع ما عليه من الزكاة ، فاذا كان الجواب بالرفض ، حسم من عطائه مقدار الزكاة ، واذا كان بالايجاب ، دفع له عطاءه كاملاً (١)

والزكاة كما هو معلوم ضريبة دينية اسلامية تؤخذ من الاغنياء وترد على الفقراء ، وكانت مفروضة على كل عقار او مال او تجارة صار استثمارها في بحر السنة المنصرمة ، ولم يكن هناك من زكاة على الرقيق والخيول ، وان كان ابو حنيفة قد اجتهد فاجرى ديناراً على الفرس الواحد .

عمر بن الخطاب والاحصاء

فلما كان عهد عمر بن الخطاب واجه الفاروق موقفاً جديداً يحتاج الى سياسة جديدة ، بسبب تكاثر الفتوح ، وتكاثر الغنائم والاموال

---

(١) شرح الموطأ .

والارزاق ، فصار اقرار (ديوان العطاء) ، وصار في الوقت نفسه (احصاء المسلمين) ...

وكان احصاء المسلمين عملاً جباراً من الطراز الاول ، وصار اقراره ووضعه وضعاً ممتازاً ، بحيث أحصيت كل قبيلة من القبائل المسلمة رجالا ونساء واطفالا ، كما تركت اماكن خاصة للمواليد الجدد من المسلمين ...

ويظهر لنا ان المؤرخين لم يفطنوا الى خطورة هذا العمل ، وكونه الوحيد من نوعه في ذلك العهد البعيد ، وانه حادث تاريخي من الطراز الاول ما في ذلك شك ولا ريب ، وليس سبب ذلك احصاء عمر بن الخطاب المسلمين ، فان مثل هذا العمل ليس جديداً ، فقد سبق الفاروق الى مثله بعض اباطرة القسطنطينية ورومية ، ولكن غرض هؤلاء كان يختلف كل الاختلاف عن غرض الفاروق ، فاباطرة الرومان قد احصوا رعاياهم لزياد الضرائب عليهم ، والعمل على اقفال كل باب من ابواب النجاة من وجه مأمور الضرائب ، واما احصاء عمر ، فهو احصاء جديد لم يسبقه الى مثله احد ، هو احصاء حكومة لرعاياها لتوزع على كل منهم حصته من الاموال العامة ...

تنظيم العطاء

ولقد تقرر قبيل التوزيع العام والاحصاء ان الاموال التي ترد على الدولة من الغنائم والضرائب وغيرهما خاصة بالمسلمين كلهم ، وانه يجب ان توزع عليهم ، وان التوزيع يجب ان يجري وفاقاً لدرجات المسلمين من رسول الله وخلفائه من بعده .

وكان عمر يفضل اهل السابقة ثم الذين يلونهم ، وكان يقول : « لا اجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، وكان ابو بكر

قبله يسوى بين الناس في العطاء ولا يفضل اهل السابقة ، ويقول : انهم عملوا لله فاجورهم على الله ، وانما هـذا المال عرض حاضر ، يأكله البر والفاجر وليس ثمناً لاعمالهم .

وعلى هذا الاساس صار تقديم نساء رسول الله على الجميع ، فتقرر لعائشة زوج الرسول وابنة ابي بكر الخليفة الاول اثني عشر الف درهم في السنة .

وتقرر لبقية زوجات رسول الله عشرة الاف درهم ... (١)

ثم جاء دور الهاشميين وابناء عبد المطلب ممن حضروا بدراً .

ثم الهاشميين الذين تقبلوا الاسلام بعد ذلك ..

ثم جاء دور المهاجرين والانصار من الذين حضروا بدراً، او اعتنقوا الاسلام اولا ، او افضوا الى رسول الله والاسلام بخدمات ملحوظة .

وعلى هذا اعطى عمر كل من شهد بدراً ٥٠٠٠ درهم .

واعطى الحسن والحسين مثل ذلك .

وقرر لمن كان اسلامه كاسلام اهل بدر ولم يشهدها ٤٠٠٠ درهم .

ويقال انه خصص للعباس خمسة الاف درهم وبعضهم يقول عشرة الاف .. وبعضهم يقول اقل .

وقرر ٣٠٠٠ درهم لكل من انضم الى رسول الله قبل فتح مكة

ولمن تقبل الاسلام بعد فتح مكة ٢٠٠٠ درهم .

ومثل هذا المبلغ لابناء المهاجرين والانصار من اهل بدر .

واعطى اربعة آلاف درهم لكل من كان رسول الله راضياً عنهم

---

(١) يقول الماوردي انهن اخذن ١٠٠٠٠ درهم، واما ابو يوسف فيقول ان الجميع اخذن مثل عائشة .

كأسامة بن زيد مثلاً، واعطى لأبنه -اي ابن عمر- ولبعض ابناء المهاجرين والانصار ٣٠٠٠ درهم .

واعطى اهل مكة ٨٠٠ درهم لكل واحد منهم .

واعطى افراد العرب من اليمنية والقيسية الذين يسكنوا سورية من ٣٠٠ الى ١٤٠٠ درهم ، وفاقاً لجودتهم في حفظ القرآن .

واعطى بعضهم اكثر من ذلك .

واعطى النساء ممن غادرن مكة بعد هجرة رسول الله ١٠٠٠ درهم واقل واكثر ، ففرض لصفية بنت عبد المطلب ٦٠٠٠ درهم مثلاً ، وذلك لقرابتها من رسول الله .

وقرر لسائر الناس مبالغ تتراوح بين ٣٠٠ - ٤٠٠ درهم .

وقرر لنساء المهاجرين والانصار مبالغ تتراوح بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٤٠٠ ، ٦٠٠ درهم .

وخصص عطاآت سنوية لغير العرب من الفرس اصحاب الاملاك في العراق ، ولبعض المسيحيين في الحيرة (١)

ونصح عماله بمعاملة المسيحيين معاملة المسلمين ، لا فرق فيما بينهم من حيث انصافهم والعدل بينهم ، واذن لهم ان يؤلفوا قبيلة لانفسهم .

وخصص لاولاد ونساء الرجال الذين سقطوا في الحروب او كانوا في الحرب عشرة دنانير في السنة .

ولم يترك العبيد ، فاعطى ٣٠٠٠ درهم لكل عبد من العبيد الثلاثة الذين حاربوا في بدر اول معركة ظفر فيها المسلمون على خصومهم من اهل مكة ...

وكان ينال سكان المدينة ايضاً بعض الحنطة وشيئاً من الاغذية التي

« ١ » فون كرمر

كانت ترد من الخارج .

والواقع ان واردات الدولة الاسلامية عهد الخلفاء الراشدين كانت توزع على اهل الديوان ، وكان الديوان يشمل اسمـــاء المسلمين من المهاجرين والانصار ومن تابعهم ومقدار اعطياتهم ، وفاقاً للنسب النبوي والسابقة في الاسلام ، وكان لكل مسلم راتب يتناوله لنفسه، ورواتب لأهله واولاده .

وكانت هناك مصارفات اخرى غير العطاء الذي وصفناه ، وكانت هذه المصارفات تدور حول ثلاثة ابواب ...

١ – ملابس الجنود الذين يحاربون لنشر الاسلام وسلاحهم .

٢ – دفـــع اجور الموظفين الذين يجمعون الضرائب وغيرهم من الموظفين .

٣ – مساعدة الفقراء والبائسين من المسلمين ...

رواتب الموظفين

والظاهر ان عمر بن الخطاب لم يقدر الرواتب إلا في ولاية عمار بن ياسر على الكوفة ، فقد اجرى عليه ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه امور الدولة في كل شهر .

واجرى عليه في كل يوم نصف شاة ، ونصف جريب من الحنطة .

واجرى على عثمان بن حنيف وقد ارسله معه ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه ، وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم .

واجرى على عبدالله بن مسعود مائة درهم في الشهر ، وربـع شاة كل يوم .

واجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر ، وعشرة اجربة .

وانما فضل عماراً عليهم لانه كان على الصلاة .

وعين عمر في الوقت نفسه قاضياً على البصرة ، واجرى عليه راتباً شهرياً ، ويظهر ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب قد عين القضاة على المدن الكبرى ، وان كنا لا نرى تأييداً لما نذهب اليه في كثير من الكتب التي لم تعرض لهذا الامر في كثير ولا قليل .

عمر واعماله المالية

والواقع ان عمراً اول من وضع النظام المالي للدولة العربية ، فهو الذي قرر الرواتب المختلفة على الموظفين ، وهو الذي احصى المسلمين ، وهو الذي مسح ارض السواد وكلف بذلك عثمان بن حنيف ، فمسح هذا الارض على قدر طبعاً ، لاننا لا نعتقد ان هذا المسح كان حاسماً ولا دقيقاً . فكانت النتيجة ٣٦ مليون جريب ، كل جريب يساوي ٣٦٠٠ يرد مربع (١) واليرد العربي ٣٤ انشاً ، وعلى اساس هذا المسح صار اقرار ضريبة الارض وهي المسماة بالخراج .

كما رفع عمر ضريبة الجمرك ليسمح للبلاد العربية خصوصاً الجزيرة نفسها بالتموين بما تحتاجه من الحبوب وغيرها من مصر وغير مصر من مدن الامبراطورية الجديدة .

كما اصدر امره الى عامله على مصر بوصل النيل مع البحر الاحمر بواسطة قناة قديمة كانت تبدأ من بابليون — القاهرة ، وتصب في البحر الاحمر ، وقد صار فتح هذه القناة التي سميت بقناة امير المؤمنين في سنة واحدة ، وعلى الاثر اخذت القوافل تحمل الميرة من مصر الى نهر النيل . فالبحر الاحمر ، فالحجاز ، فسقطت اسعار الحبوب في الحجاز خصوصاً

« ١ » او مليون وثمن المليون من الهكتارات .

في مكة والمدينة ، بعد ما اصبح ورود الحبوب اليها متتابعاً .

وسبب فتح القناة على ما يظهر المجاعـة التي حصلت في الجزيرة ، والطاعون الذي ظهر في الشام سنة ٦٣٩ فذهب بخلق كثير .

مسألة الزكاة

اما مسألة الزكاة فكانت ضريبة تؤخذ من اغنياء المسلمين كما قدمنا لتنفق على فقرائهم ، وكانت الحكومة في اول الامر تقوم بجمع هـذه الضريبة وهي ٢ ونصف بالمئة ، على الوجوه المقررة بشأنها في كتب الشريعة ، وتضعها في صندوق خاص ، ثم يصار الى انفاقها على المسلمين الفقراء والمساكين وابناء السبيل .

وكان المسلمون يدفعون غير الزكاة العشر من حاصلات الارض التي بايديهم ، مقابل اخذهم العطاء من خزانة الدولة واربعة اخماس الغنائم اذا كانوا من المقاتلة في الحرب .

والعرب لما استولوا على (السواد العراقي) وهو هذه الارض الخصبة المشهورة في التاريخ والتي سميت بالسواد لسواد ارضها (١) لم يفطنوا الى خطره واهميته وعظيم ثروته ، وكانوا لا يدركون الى ذلك اهمية المال ، ولا ما يتصعد من الارقام ، حتى ان بعضهم لم يكن يعرف فوق الالف رقماً .

وكذلك لم يفطنوا في اول امرهم الى اهميـة الجواهر ، والذهب ،

« ١ » السواد هو الارض التي قامت عليها امبراطورية البابلونيين ومن سبقهم وهو القسم الجنوبي من العراق ، لان القسم الشرقي قامت عليه امبراطورية اشور . وفي السواد كانت الحيرة ، كما كان يوجد في الانبار مركز الحكومة الفارسية ، وكانت الابلة مرفأ السواد العظيم .

الذي حملته الغنائم ، وفضلوا عليها الحيوانات الداجنة ، والارض المزروعة .

بحث سياسة عمر المالية

ومن المؤكد ان سياسة عمر المالية كانت موافقة لروح ذلك العصر ، اذا اعتبرنا ان المسلمين كانوا اقلية ، وان غير المسلمين كانوا اكثرية ، وان الثروة كانت عظيمة ، فكان بمقدور عمر بن الخطاب والحالة هذه ان يخصص لكل فرد من المسلمين مبلغاً يتقاضاه من بيت المال ، بحيث كان المسلمون والحالة هذه بمثابة جيش عظيم من الجند والموظفين يقومون بحماية ارض واسعة الاطراف عظيمة المساحات كثيرة الخيرات ، على سكانها والمزارعين والفلاحين فيها ان يقدموا لهذه الاقلية الاسلامية مبلغاً من المال ، يقوم باودهم مقابل حمايتهم والدفاع عنهم ، هذا مع الاعتبار بان المبلغ الذي كان يدفعه غير المسلمين كان ضريبة معتدلة مقررة اذا قيست بالضرائب التي كانوا يدفعونها للحكومات السابقة الفادحة الغير مقررة .

لقد كانت واردات السواد وحده في عهد عمر بن الخطاب ١٢٠ مليوناً من الدراهم وكان السواد لا يقل عن ٣٨ مليون جريب ، وضع عمر على كل جريب درهماً ومقداراً معيناً من غلة الجريب .

وكان غير المسلمين من سكان الارض يدفعون ما يأتي عن كل جريب :

لكل جريب مزروع نخلا	١٠ دراهم .
» » » عنباً	١٠ »
» » » قصباً	٦ »
» » » حنطة	٤ »
» » » شعيراً	٢ »

وكان على كل شخص من غير المسلمين ان يضع حول رقبته اشارة يأخذها من عامل الخراج تدل على انه من الذين يدفعون ضريبة الجزية او الرووس ، وهي ٤٨ درهماً للموسرين ، و ٢٤ للمتوسطين ،و١٢لاهل الطبقة الثالثة ، واما النساء والاولاد والشيوخ فلا ضريبة عليهم .

وهذه « الاشارة » وزع منها عامل عمر بن الخطاب في السواد فقط ٥٥٠ الفاً ، وهذا يعني ان سكان السواد في عهد عمر كانوا يزيدون عن نصف مليون ، واما عدد المسلمين فلم يكن يزيد عن مائتي الف شخص .

ولقد وصى عمر من بعده من الخلفاء برحمة الرعية من سكان السواد ، ولكن بعض الامراء اخذوا يعتبرون مقدار الخراج عن الارض شيئاً ثابتاً لا يجوز نقصانه ، مع ان سكان السواد كان يقل عددهم ، فلم يكن بمقدور الباقين في الارض دفع الخراج المطلوب عن الارض كلها ، مما جعل الكثيرين من سكان السواد يتقبلون الاسلام ، خلاصاً من الضريبة ، وكان هؤلاء اذا فعلوا ذلك يأخذون معهم اموالهم المنقولة فقط ، واما الارض نفسها فتظل ملكاً للدولة .

ولما اخذ الناس عهد عثمان بن عفان يستملكون الارض خلافاً لوصية عمر ، اخذ غير المسلمين ايضاً يستملكون ارضهم ويحتفظون بها .

السواد

والسواد – وهو الارض السوداء في العراق – كان على اقسام ، فالارض التي صار الاستيلاء عليها حرباً كان يستطيع الخليفة تقسيمها على المحاربين او حفظها لبيت المال مقابل « خراج » يدفعه اهلها .

واما الارض التي صار الاستيلاء عليها بالصلح والاتفاق ، فتبقى مع اصحابها مقابل دفع الخراج عنها وهي (ارض الصلح) .

وقد نهى عمر بن الخطاب عن استملاك ارض الخراج ، وامر بترك اهلها لتكون مادة للمسلمين ، ولأن المسلم لم يتعود دفع الضرائب ، ولا الاشتغال بالزراعة ، فترك الارض والحالة هذه في ايدي اصحابها كان معناه حفظها ، ورعايتها ، بحيث يعمل فيها اصحابها الاصليون او الذين كانوا يعملون فيها ، ويأخذ لبيت المال منها ضريبة يوزعها على المسلمين .

ثم انه ترك الارض في ايدي اصحابها كان رحمة لاصحابها الذين كانوا يعيشون منها ، فحفظ عمر بعمله هذا حقوق اصحاب الارض الاصليين ، وحفظ للمسلمين ثروة عظيمة ، او حفظ لبيت مال المسلمين ثروة عظيمة يصار الى توزيعها عليهم او لما يعود لمصلحتهم .

وكذلك نهى عمر عن شراء ارض شخص من غير المسلمين حفظاً للخراج المقرر عليها لان انقطاعه كان مضراً ببيت المال .

واما اذا ورث مسلم ارضاً من والد غير مسلم فعليه دفع خراجها .

حكومة عمر العجيبة

والواقع ان حكومة عمر بن الخطاب كانت حكومة عجيبة ليس لها مثيل في العالم ، فهي حكومة مستقاة من هذه الدولة العربية المتواضعة التي اسسها محمد بن عبدالله في المدينة ، والتي كانت حكومة ديموقراطية جمهورية اشتراكية لا شك فيها ، لان الزكاة المقررة في الاسلام ، ليست في الواقع إلا ضريبة تفرض على رأس المال ، وتوزع على الفقراء والمستحقين ، واذا نظرنا الى اهتمام رسول الله بالزكاة ، وجعلها من اركان الاسلام ، ادركنا الغاية الاشتراكية العظيمة التي كان يرمي اليها الاسلام ، والتي كان يريد من ورائها ان يجعل المجتمع الاسلامي مجتمعاً

سعيداً يعمل فيه الجميع لخير الجميع ، لا اثر فيه للخصومات والحزبيات التي خلقها رأس المـــال في العصر الحاضر ، والتي جرّت الكثير من الحروب والدماء .

ومع ذلك فان بعض المستشرقين يحاول رد الزكاة الى انها من اصل فينيقي او كنعاني ، واما حجتهم في ذلك ، فلان هناك ضريبة كان يدفعها الاغنياء عندهم لتوزع على الكهنة ، والكهنة عـــلى كل حال ، ليسوا فقراء الامة ، والاشتراكيه المعاصرة لا توزع مساعداتها عـــلى الكهنة ورجال الدين ، وانما توزعها على الفقراء ، والاسلام اول مــن ابد فكرة الاشتراكية في العالم فجعل للفقراء حقاً في الحياة ونعيم الحياة .

حكومة عمر

واذاً فقد كان عمر بن الخطاب يرى ان من حق كل مسلم ان ينعم بشيء من بيت المـــال ، ولكن وفاقاً لقرابته من رسول الله وخدماته للاسلام ، وعلى هذا الاساس وضع نظام العطاء ، وجمع اصحاب رسول الله فقال لهم :

– اني قد رأيت ان افرض العطاء لأهله .

فقالو : نعم الرأي يا امير المؤمنين .

قال : فيمن ابدأ .

قالوا : بنفسك .

قال : لا ، ولكني اضع نفسي حيث وضعها الله ، وابدأ بآل رسول الله اولاً .

ولما جاء قوم عمر بن الخطاب – بنو عدي – يقولون له :

– انت خليفة رسول الله وخليفة ابي بكر ، فلو جعلت نفسك حيث

جعلك هؤلاء القوم الذين كتبوا .

قال لهم : بخ . بخ . بني عدي ، اردتم الاكل على ظهري ، وان اهب حسناتي لكم ، لا والله حتى تأتيكم الدعوة ، وان يطبق عليكم الدفتر – يريد ولو ان تكتبوا آخر الناس – ان لي صاحبين رسول الله والصديق ابي بكر ، سلكا طريقاً فان خالفتهما خولف بي ، والله ما ادركنا الفضل في الدنيا وما نرجو الثواب على عملنا الا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو شرفنا ، وقومه اشرف العرب ، ثم الاقرب فالاقرب .

وكذلك نرى ان عمر بن الخطاب اعتمد في تقرير العطاء على مركز كل مسلم من رسول الله قريباً كان او محباً له ... فقدم قرابة رسول الله على المسلمين اجمعين ، وكانوا القوم اذا استووا في القرابة قدم اهل السابقة ، ووضع نفسه بعدهم وهو الخليفة ، ولو قدم نفسه ما عتب احد ، بل لقد طلب الصحابة منه ان يقدم نفسه فابى ووضعها في المركز الذى اعتقد انه مركزها .

لقد فرض عمر لاسامة بن زيد ، وهو ابن خادم رسول الله ، اربعة الاف درهم ، وفرض لعبدالله بن عمر ابنه ، ثلاثة الاف ...

ولعبدالله سابقته وعلمه ومركزه. فراح عبدالله يعتب عليه وقال له:

– فرضت لي ثلاثة الاف، وفرضت لاسامة اربعة الاف وقد شهدت ما لم يشهد اسامة .

فقال له عمر: زدته لانه كان احب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وكان ابوه احب الى رسول الله من ابيك ...

-١٣-

النظام المالى فى العهد الاموى

العطاء في عهد معاوية

لما احتاج معاوية الى تأييد الناس له في العهد الاموي ، زاد في اعطيات الجند بصورة خاصة ، وكان جنده يعد ستين الفاً ينفق عليهم ستين مليون درهم في العام ، فيلحق كل رجل الف درهم ، وهذا اضعاف ما فرضه عمر بن الخطاب ...

وكان في مقدمة القبائل التي اخذت بيده وحاربت معه ، وايدت دعوته قبائل اليمن ، فجعل معاوية اليمنية فرقة خاصة ، وعدتها الفا فارس وفرض لهم عطاءً مضاعفاً ، وجعلهم جنداً مستقلاً لا يختلطون بسواهم وكان يستشير امراءهم وقوادهم ويقربهم ، فاستفحل امر اليمنية ، حتى خشي معاوية منهم ، فقرب عندئذ القيسية ، واعطاهم مثل عطائهم وصار يغزي البحر باليمنية والبر بالقيسية ، فشق ذلك على اليمنية وعاتبوه ، فجمع بين القبيلتين واغزاهم .

وزاد معاوية في عطاء من رأى الحاجة تدعوه الى اصطناعه ، واخذ يتصرف في بيت المال تصرفاً ما رأى المسلمون قبل ذلك مثله ،اعطى عمرو بن العاص مصر طعمة له في حياته مقابل تأييده لسياسته ضد علي ، وقد قدروا غلة مصر باثني عشر مليوناً من الدراهم ، واخذ يوزع الاموال ذات اليمين وذات اليسار على انصاره ومن يريد اصطناعه من الناس حتي انه لما انتهى من حربه مع علي ، واطمأن الى الخلافة وجد

الخزانة العامة تكاد تكون فارغة ، مما اضطره الى حسم الزكاة من العطاء لتثبيت الموازنة التي افقرتهـا الثورات والحروب السابقة والهبات الكثيرة ...

وكان معاوية يزيد العطاء او ينقصه او يقطعه وفاقاً لموقف صاحب العطاء من الحكومة القائمة والنظام الجديد ، زاد في اعطيات انصاره ومعاونيه ، وانقص عطاء بعض خصومه من شيعة ، علي او منع عنهم العطاء منعاً باتاً ...

وكان من سياسته استرضاء آل البيت ، فوسع عليهم في العطاء ، فيقال انه بعد ان كان عطاء الحسن والحسين في ايام عمر بن الخطاب خمسة آلاف درهم في السنة ، جعله معاوية مليون درهم ، وزاد في عطاء عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن جعفر بن ابي طالب وغيرهما ، وكما قدّم عمر بن الخطاب من شهد (بدراً) اول غزوات رسول الله على اهل مكة ، على غيرهم بالعطاء ، قدّم معاوية من شهد معركة صفين معه ، وسار خلفاء بني امية على خطوات معاوية فاعطوا احزابهم ، وفرضوا الاعطية للشعراء ايضاً – وهم كالصحف اليوم – فخرجوا بذلك عن سنة عمر بن الخطاب في العطاء الذي اجراه على الناس وفاقاً لمقامهم في الاسلام وخدماتهم لرسول الله ...

الواردات في ايام معاوية

وكانت واردات الدولة الاموية في عهد معاوية تدور حول الابواب الآتية : ١ – الجزية . ٢ – الخراج . ٣ – الزكاة .
٤ – عشر حاصلات الارض التي بيد المسلمين .
٥ – ضريبة عن التجارة وهي اشبه بضريبة الجمارك اليوم .

٦ – ضريبة تؤخذ عيناً من الشعوب المحكومة بموجب اتفاق صار عقده في اول الفتح .

٧ – مبالغ تدفع نقداً من المدن او الامصار التي صار فتحها صلحاً وبموجب اتفاق .

٨ – مبالغ تؤخذ من الامم التي انتصر عليها العرب في الحرب .

٩ – خمس الغنائم في الحروب .

وهناك مورد عاشر ، وهو تضمين الخراج إما للعمال الذين يتولون الامصار ، او للملتزمين وهم اناس من اهل الغنى والنفوذ كانوا يضمنون الاراضي من متولي الخراج بمال معين يقع عليهم بالمزايدة فيضمن الواحد قرية او بلداً او كورة فيزرعها ويستغلها ويدفع ما عليها من الخراج ويستولي على الباقي .

وهذه الطريقة ليست من مخترعات الاسلام بل هي قديمة من ايام اليونانيين وقد اقتبسها العرب عن الرومان الذين اخذوها عن اليونان .

اما مقدار الواردات في عهد معاوية فيصعب تقديرها لقلة المصادرة وندرتها ، بل واختفائها تماماً ، ولكننا نعلم ان السواد – وهو ودمشق ومصر والجزيرة اعظم موارد الدولة في ذلك الحين ، لان بقية الاطراف لم تكن وارداتها لتفي بمصارفاتها – بلغت غلته في ايام عمر بن الخطاب ١٢٠ مليون درهم – سنة ٢٠ هجرية – ، وفي ايام عبيد الله بن زياد – في خلافة يزيد بن معاوية – (٦٢ هـ) ١٣٥ مليون درهم ، واما مصر فقد اخذها عمرو بن العاص طعمة له ، واما الشام فقد كان خراجها ايام عبد الملك بن مروان ١،٧٢٠،٠٠٠ ديناراً ، بحيث يستطيع المؤرخ المعاصر ان يقول ان الواردات في اواخر ايام معاوية لم تكن لتزيد عن ٣٠٠ مليون درهم مثلاً ، والدرهم يساوي فرنكاً من الذهب ..

او ما يبلغ ١٥ مليون ليرة ذهبية ...

الحالة المالية بعد معاوية

وقد سار عبد الملك بن مروان على سياسة معاوية في استرضاء الاحزاب والتوسع بالعطاء ، كما راح عامله على العراق الحجاج بن يوسف يزجل للناس العطاء لحثهم على حرب الخوارج وحرب الترك وغير الترك ، حتى انه صرف على الجيش الذي سار الى رتبيل – في الهند – وعدته اربعين الفاً مليوني درهم سوى اعطيات الجند فضلاً عما اعطاه لقوادهم ، ولما تولي الوليد بن يزيد بن عبد الملك زاد العطاء عشرة دراهم ، فلما خلفه يزيد الثالث اعاد العطاء الى ما كان عليه قبلاً .

وزادت الواردات بعد معاوية زيادة حسنة ، فقد بلغت واردات السواد – العراق – في عهد الحجاج ١٨٨ مليون درهم ، سنة (٨٥ هـ) وبلغت واردات مصر في عهد هشام اربعة ملايين دينار ، ثم تدنت الواردات باضطراب الامر وقلة الايدي العاملة في الزراعة ، واقبال الناس على الاسلام ، فقلت جباية العراق في عهد عمر بن عبد العزيز وضعف امر الجباية في مصر عما كانت عليه في عهد هشام حتى بلغت الى مليون دينار ...

وكان يصرف من بيت المال في عهد بني امية مبالغ حسنة لتحسين الترع الكبيرة والمجاري التي تأخذ من الانهار الضخمة كدجلة والفرات لنقل الماء الى الاراضي البعيدة ، كما كان بيت المال مسؤولاً عن حفر الترع للزراعة وغيرها .

وكذلك كان على بيت المال النفقة على المسجونين واسرى الحرب ، من مأكل ومشرب وملبس .

وعليه النفقة على المعدات الحربية وصنعها ،وصرف الرواتب المقررة للموظفين المختلفين في الدولة .

وكان كذلك – اي بيت المال – مرتعاً خصباً للشعراء والادباء ومن يرى الخليفة من زعماء الناس ارضاءه وتقريبه .

ومما يجب ان يصار الى ذكره ان بيت المال اصبح منذ عهد عثمان بن عفان – اذا استثنينا عهد الامام علي – تمتد اليه يد المستحق وغيره ، ففي عهد عثمان حصل بعض اقربائه على مبالغ حسنة من بيت المال ،ومن امثلة ذلك ان عثمان اعطى مروان بن الحكم كاتبه خمس غنائم افريقية وقد قدرها بعضهم بمئات الالوف من الدراهم ، كما انه تسامح في مسألة الاراضي المشاعة فاقطعها معاوية وغير معاوية ، ويظهر انه لم يأخذ من الذين اقطعهم اياهــا اوراقاً تثبت ان الارض انما هي لبيت المال او للمسلمين جميعهم ، وانه اقطعها لمدة محدودة من الزمن ..

مثال ذلك ان المسلمين لما فتحوا الشام واقروا الارض في ايــدي اصحابها ،كان جانب كبير منها ملكاً للبطارقة قواد جند الروم ، فلما ُغلبت الروم وفرّ البطارقة ، او قتلوا ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها ، فاوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يضمنون غلتها فيعطون بيت المال قسما ، ويأخذون الباقي ، فلما ولي عثمان ، طلب منـه معاوية اقطاعه هذه الاراضي التي لا مالك لها ، وليست من قرى اهل الذمة ولا الخراج ، وحجته ان الذي اجراه عليـه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل امرائهم ورسل الروم ووفودهم .

فاقطعه عثمان هذه الاراضي ، وانتقلت من معاوية الى اهل بيته . وفعل عثمان مثل ذلك بالاملاك العامة في السواد خصوصاً التي كانت تخص

ملوك الفرس ، والاراضي التي تركها اهلها ، وهذه الاملاك اعطاهـا عثمان بالايجار الى من يهمه امرهم مقابل خمسين مليون درهم ، كما سمح لبعض اهله بشراء الارض التي حظر عمر على المسلمين شراءها ومهما يكن من امر فان تلزيم عثمان لهذه الاراضي او اقطاعها كان مخالفاً لسياسة عمر ووصيته .

سياسة عمر والايام بعده

واذا كانت سياسة عمر بن الخطاب حسنة موفقة في وقته وعهده ، فانها اصبحت بعد مائة سنة شيئاً لا تستطيع الدولة القيام به ولا تنفيذه .

اصبح العطاء مع الايام مبلغاً ضخماً فادحاً ، وكثر عدد من يأخذون العطاء بسبب هذه الزيادات التي ادخلها معاوية وغير معاوية من الخلفاء بعده على ديوان عمر .

فلما كان عهد عمر بن عبد العزيز وذلك بعد ان اصبح النقص ظاهراً في الخراج وبعد ان قلت الفتوحات ، وقلت معهـا الغنائم والثروات العظيمة التي كانت تحملها هذه الفتوحات ، حاول عمر ان يعود بالعرب الى سياسة سلفه عمر بن الخطاب ، وان ينشر الاسلام بـين الشعوب المختلفة ، فمنح الموالى الحقوق التي كان ينعم بهـا المسلمون من العرب وحدهم ، واعفاهم من الجزيه التي كان يدفعها غير المسلم ، ثم جعل لهم حق مقاسمة اخوانهم المسلمين من العرب نصيبهم من الاعطيات السنوية .

ولكن بيت المال لم يكن في حالة تمكنه من القيام بكل هـذه الفروض الجديدة ، وكانت الحالة المالية في هذا العهد تتطلب اصلاحاً عاجلاً ، بعد ان انضبت الاعطيات السنوية في العراق بيت المال ، وبعد ان قلّ الوارد اليه من جراء الغاء الجزية في خراسان باقبال الناس على

الاسلام ، وارتفاع الجزية عنهم باسلامهم ، ولذلك لم تدم هذه السياسة المالية التي اجراها عمر بن عبد العزيز في عهده طويلاً . فما لبث خليفته من بعده وهو يزيد ان اعاد الحالة الى ما كانت عليه سابقاً ، فاغضب الموالي الذين اسلموا ، وقتل آمالهم في المساواة ، وكان من حق عمر بن عبد العزيز ان يقضي على العطاء قضاء مبرماً ، وان يجد اعمالاً جديدة غير الغزو والفتح للمرابطين في الولايات الاسلامية من جند العرب حتى لا يكونوا عالة على بيت المال ...

واذا كانت سياسة عمر بن الخطاب في العطاء في عهده موفقة لما فرض العطاء لكل مسلم باعتباره جندياً موظفاً في الدولة ، على الدولة ان تقدم له ما يحتاجه ، وعليه ان يقوم بخدمتها ... فان عدد الجنود في عهد عمر كان محدوداً ، وكان غير المسلمين اكثر من المسلمين ، وكان هؤلاء يقومون بالزراعة والتجارة وغيرها من الاعمال التي تدر على بيت المال الاموال اللازمة لصرفها على جنود الدولة ، وكانت هناك ايضاً الجزية المفروضة على غير المسلمين والتي كانت مصر وحدها تقدم منها مبلغاً عظيماً ، ولكن الحالة تبدلت بعد عهد عمر ، وتقبل الاسلام اكثر المسيحيين الموجودين في الدولة ، وزاد الجند عن حالة الدولة ، وقلّت الفتوحات ، فقلت الاموال التي ترد الى الدولة من الفتوحات ، كما نقصت الجزية باسلام غير المسلمين ، فاصبح بيت المال والحالة هذه لا يستطيع القيام بالاعباء المفروضة ، والتي تفرض لكل مسلم عطاء من بيت المال ، وكانت سياسة عمر تحول دون ملكية الجند للارض ، لان الجند في ذلك الوقت كانوا اقلية والفتوحات في اولها ، وليس يصح ان يلهو الجند بالزراعة وامامه ما امامه من سياسة التوسع والتبسط في الارض ، فلما انتهت الفتوحات اواخر عهد الامويين اصبحت الحاجة

ماسة الى تبديل السياسة القديمة ، وترك الجند يستغل الارض ويعمل فيها ، فتنجو الدولة من شر العطاء ، وتزداد الواردات بما تدره الارض المستثمرة الجديدة من الخراج للخزانة العامة ، ولكن عمر بن عبد العزيز ، وقد فكر في الاصلاح لم يفطن الى هذا الامر الخطير ، فاراد العودة الى عهد عمر جده ، وعهده غير عهد عمر ، وقرر منع الجند من التوطن في الارض ، واعطاء الموالي من المسلمين الاعطيات من بيت المال ، مع ان الضرورة كانت تدعو في ذلك الوقت الى الغاء الاعطيات التي كانت تمنح للعرب انفسهم .

وكذلك حالت سياسة عمر بن عبد العزيز التي انضبت بيت المال ،دون نجاح سياسته العامة التي كانت تومي في ذاتها الى الاصلاح واعفاء المسلمين الجدد من الجزية ، فلما عاد خلفاؤه الى الغاء ما قرره ، وارجعوا الضرائب المفروضة على الذين اسلموا – رغبة منهم في رفع الجزية عنهم – بدأ الاضطراب يظهر في الدولة الاموية ، وتنكرت جماعات كبيرة من المسلمين غير العرب لسياسة الدولة المالية التي غدت في نظرهم عبئاً ثقيلاً لا قبل لهم باحتماله ، وهي السياسة التي اتبعها الامويون ولا سيما في خلافة هشام بن عبد الملك ، بعد فشل الاصلاح الذي قام به عمر بن عبد العزيز .

وهناك شيء آخر ايضاً ، وهو انه يجب ان ينظر الى هذه الاصلاحات مع ما كانت تنعم به من خطأ وفوضى بعين الاهتمام ، ذلك انها كانت سياسة جديدة ، وكانت هذه السياسة الجديدة مفيدة ناجحة لولا ما اصابها من العوامل التي افسدتها واضرت بها ...

كانت الغاية التي قصد اليها عمر بن عبد العزيز من رفع الجزية عن الشعوب التي اسلمت – وذلك وفاقاً لسياسة عمر بن الخطاب ، ونقضاً

لسياسة الحجاج الذي اقر الجزية على المسلمين من الموالي ايضاً - ان يساوي بين العرب المسلمين وغير العرب من المسلمين ، وكان عدم المساواة سبباً دائماً من اسباب الثورات والاضطرابات والقلق في قلب الدولة ، وكانت الحالة تدعو الى ذلك ، لانه كان من مصلحة الامويين مساواة المسلمين بعضهم مع بعض ، بعد ان اصبح عدم المساواة خطراً يهدد سلامة الدولة .

واذا لم تكن هذه المساواة من مصلحة الدولة المالية ، أفلم تكن من مصلحة الاسلام ؟ بعد ان تبدلت الارض غير الارض ، وتوقفت الفتوح بعد الوليد ، واصبحت الحاجة ماسة الى اصلاح داخلي عظيم يهدم سياسة العطاء هدماً ، فلا يجعل قسماً كبيراً من المسلمين يعيشون على حساب الدولة ، كما انه كان من الواجب خلق موارد جديدة مالية لتسديد المصارفات ، واحلال التوازن في الخزانة العامة ، واقرار سياسة مالية حازمة مقررة تكون مواردها مقررة معروفة ، وتكون مصارفاتها محددة معينة ...

ولكن عمر بن عبد العزيز كان شخصية محافظة لم يفطن الى سياسة عمر بن الخطاب وفائدتها في عهده ، وضررها بعد عشرات السنين بعده ، فراح يحاول العودة الى هذه السياسة التي كان يجب تعديلها ، وراح يحاول التوسع في مسألة العطاء توسعاً قضى على بيت المال ، وجعل من الصعب قيامه بهذه الاعباء الجديدة التي فرضها عليه ، فكان من اثر ذلك ان الموالي الذين كانوا يؤملون رفع الجزية عنهم بعد اسلامهم اسوة باخوانهم المسلمين الآخرين ، لم يوفقوا الى الوصول لغرضهم هذا ، مما كان سبباً في قلقهم واضطرابهم ، وتأييدهم للثورات التي قامت بينهم وحولهم ...

الضرائب في عهد امية

ولقد زادت الضرائب في عهد الامويين زيادة محسوسة ، ولم يراع الخلفاء الامويون القواعد التي قررها اسلافهم ، بل تجاوزوا حدود الضرائب التي فرضوها ..

وقد كتب معاوية الى وردان عامله على مصر : « ان زد على كل امرىء من القبط قيراطاً »

فكتب اليه وردان « كيف ازيد عليهم وفي عهدهم ان لا يزاد عليهم ؟ »

وكانت الحالة في الولايات العربية مثل ذلك ، فقد صادر احد اخوة الحجاج ببلاد اليمن املاك الناس ، واثار حقدهم وسخطهم بفرضه عليهم ضريبة معينة ، وذلك عدا العشر الذي قرره الاسلام .

وفي عهد عبد الملك صار احصاء السكان عامة في خراسان وكلف كل شخص بسداد ما فرض عليه من الضريبة ، وزادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير عما كانت عليه من قبل ، وكذلك كانت الحالة في العراق ، حيث زيدت الضرائب الاستثنائية زيادة فادحة اثقلت كاهل السلطان .

ولم يكن كل عمال بني امية من اهل الاخلاص والانصاف ، فان منهم من كان ينظر الى الولاية والامارة كوسيلة للاثراء والانجار ، ولم يكن الرؤساء وحدهم هم الذين يثرون على حساب بيت المال ، فقد كانت هناك طائفة من صغار الموظفين تسير على سننهم وتعمل على سياستهم .

وكان بعض الخلفاء يحاسبون العمال حسابا عسيراً ، ويفرضون عليهم الغرامات الفادحة لاسترداد الاموال التي جمعوها من ولاياتهم ، فيغضبون

بعملهم هذا قبائلهم ، وكان من الحق ان لا يتركوا لهم الحبل على الغارب منذ اول الامر ، ولا يعينوا في هذه الوظائف العالية الا من ثبتت كفاءته ، واشتهر عنه الفضل والاخلاص والانصاف والذمة .

بحث الضرائب في عهد امية

وبين الاوراق التي صار العثور عليها في مصر ، ما يتعلق بالضرائب بين سنة ٨٠–١٠٠ هجرية ، ومنها يظهر انه كانت هناك عدة ضرائب على غير المسلمين ، منها ضريبة الارض التي كانت تدفع عيناً ونقداً ، اي مالاً وحباً او حبوباً ، ولسنا على يقين من هذه الضريبة اكانت واحدة ام انها كانت مؤلفة من ضريبتين !!

وهناك ايضاً ضرائب مختلفة هي اقرب الى التكاليف الحكومية الغير مقررة ، ولكنها كانت تجبى دائماً .

اما المسلمون فلم يكونوا يدفعون إلا ضريبة العشر عن ارضهم ، والزكاة التي كانت تأخذها الحكومة وتضعها في بيت المال ، على ان تصرفها على الفقراء والمساكين .

وليس هناك بين هذه الاوراق ما يدل على ان المرأة كانت تدفع الجزية او ضريبة الرؤوس ، وهذا ما تؤيده المصادر الاسلامية .

وكذلك لم يكن يدفع هذه الضريبة كل الناس ، فبعض الكهنة كانوا يدفعونها ، وبعضهم لم يكونوا يدفعونها ، وكذلك لم يكن يدفع ضريبة الرؤوس او الجزية صغار الاولاد ، وكان يدفعها كبارهم .

اما ضريبة الرؤوس فلم تكن مستقرة على معدل واحد ، فقد كان يؤخذ من الشخص الواحد ثلاثة دنانير في السنة ، ومن غيره دينارين ، ومن ثالث اربعة دنانير والى القارىء نماذج من هذه الضريبة التي كانت

تقيد في الاوراق المذكورة على حساب اكثر من شخص واحد ..
فمثلا دفع ٩٥ شخصاً ٢٣٠ ديناراً .
و « ٥ اشخاص سبعة دنانير وسدس الدينار .
و « ٧ اشخاص سبعة عشر دينار .
و « ١٥ شخصاً ثمانية وثلاثين ديناراً ونصف .
و « ٧ اشخاص عشرين ديناراً ونصف .
و « ٥ اشخاص ١٣ ديناراً وهكذا ...

الارض

اما الارض فكان يؤخذ الخراج المقرر عليها نقداً وعيناً دراهماً وغلالا من محصولاتها .

واصحاب الارض حتى النساء من غير المسلمين كانوا يدفعون هذه الضريبة ، ويظهر ان الاشخاص الذين لم يكن عندهم ارض كانوا يدفعون ضريبة القمح والغلال... كما ان الارض المزروعة قمحاً او عنباً كانت تختلف الضريبة عليها باختلاف محصولها وما يزرع فيها .

وكانت تؤخذ ضريبة عن الارض التي يزرع فيها الطلح او شجر السنط والنخل ايضاً .

واختلفت الضريبة على الارض ، ولكننا نأخذ نماذج مما وجد في الاوراق المذكورة عن ضريبة الارض التي صار تأجيرها الى المسلمين والعرب مثلا:

فقد كان المأمور المكلف بالشؤون المالية والخراج ، يؤجر ٤٠ فداناً من الارض العامة بثلاثين ديناراً .

واجر خمسين فداناً بخمسين ديناراً .

وكانوا يأخذون ضريبة ديناراً واحد ، وعشر ارادب من الحنطة

وثلاثة ارادب ونصف من الشعير عن الفدان الواحد .

وفي ورقة اخرى نجد ان مأمور الخراج كان يأخذ ديناراً واحداً و ١٥ اردباً من الحنطة عن الفدان المزروع حنطة .

واما الارض التي تزرع شعيراً فكانوا يأخذون عنها ديناراً واحداً ونصف اردب من الحنطة ، وسدس اردب من الشعير ...

وفي القرن الاول للهجرة نرى الضرائب الفردية قليلة ، وهذا يدل على ان الارض التي كانت لدى الافراد لم تكن عظيمة المساحة ، فاقصى ما وصلت اليه الضريبة على الفرد الواحد سبعة دنانير .

اما قيمة العملة وقوتها الشرائية في ذلك العهد اي (القرن الاول الهجري) فهي كما يلي :

ففي سنة ٨٠ للهجرة كان ثمن عشرين اردب من الحنطة ديناراً واحداً.

وفي سنة ٨٨ كان ثمن اثني عشر اردباً ديناراً .

ونرى بعد هذا التاريخ الدينار الواحد يساوي عشرة ارادب من الحنطة وعشرين من الشعير .

وفي سنة ٩٢ هجرية كان الخروف الواحد يساوي نصف دينار .

اما اجور العمال فكانت زهيدة جداً ، فكانت اجرة العامل في صناعة السفن لا تزيد عن دينارين في الشهر . واجرة النجار ثلثي الدينار، واجرة النشار احد عشر ديناراً في السنة .

وهنا لا بد من الملاحظة ان العمال كانوا على درجات من حيث براعتهم واحسانهم في صنعتهم .

والظاهر ان الحكومة المركزية – او مأمور الخراج في العاصمة – كان يفرض مقدار الخراج على بلدة او محلة ، ويترك للموظفين المحليين امر تقسيمها بين الناس .

فقد كتب قره بن شريق امير مصر الى سكان بلدة في مصر يقول :
« المقرر عليكم من الضريبة لعام ٨٨ هو ما يأتي :
« ١٠٤ دنانير وثلث الدينار ، واحد عشر اردباً وثلث الاردب من الحنطة ، كتبه رشيد في صفر سنة ٩١ » .

والاختلاف بين التاريخين يعود الى الاختلاف بين التاريخ الشمسي والقمري.. وكانت هناك ضرائب تؤخذ من الكنائس وغيرها وهي اقرب الى التكاليف الحكومية كما قدمنا، وهذه لم تكن مقررة، وانما كانت تفرض عند اللزوم كما يظهر .

اختلاف الضرائب

والواقع ان نظام الضرائب كان يختلف في كل مصر من امصار الامبراطورية عن غيره ، فقد كانت الضرائب التي فرضت على غير المسلمين عهد رسول الله والخلفاء الراشدين اقل بكثير من الضرائب التي فرضت عهد خلفاء امية .

فقد قرر رسول الله على غير المسلم في كثير من الحالات ديناراً واحد في السنة ، فلما كان عهد ابي بكر وصار فتح بصرى ، فرض ابو بكر على اهلها ديناراً واحداً وجريباً واحداً من الحنطة .

وعومل سكان انطاكية مثل ذلك بعد هذا العهد لما صار فتحها .

وفي ايام عمر زادت الفتوحات زيادة عظيمة ، فكان غير المسلم يدفع في اول الامر ديناراً واحداً وجريباً ، ثم ادخل عمر بعض التعديل على هذا التشريع المالي الاول .

ففرض خالد بن الوليد على دمشق ديناراً وجريباً، وزيتاً وخلاً،(١)

(١) فتوح البلدان .

واما ابو عبيدة فوضع ضريبة مقررة على كل بلدة ، لا تزيد اذا زادوا ، ولا تقل اذا قلوا (١) .

وفي حالات اخرى صار دفع الضريبة على الجماعة وفاقاً لمقدرتهم على الدفع ، فاذا زادت ثروتهم زيدت الضريبة ، وان قلت صار انقاصها .

واما في الرقة فقد دفع كل شخص ديناراً ، وبعض الحنطة والخل والزيت والعسل ..

وفي الجزيرة – شمالي العراق – اخذت الضريبة عيناً من الحبوب والزيت والخل ، ثم عدّلها عمر بن الخطاب .

وبعض المدن دفعت مقداراً معيناً ، فدفعت الحيرة مبلغاً يتراوح بين الثمانين والمائة الف درهم في السنة .

ودفعت الانبار ٤٠٠ درهم والف ثوب (٢) .

وحصل مثل ذلك في الرها ، وحران ، فانها دفعا مبالغ مقررة .

واما حمص فقد دفعت ١٧٠ الف دينار ، وهذا مبلغ عظيم ، ولكن الطبري يقول : ان اهلها دفعوا عن كل واحد منهم ديناراً واحداً وبعض الحبوب ، فهل يعني هذا ان اهل حمص وما جاورها كانوا يعدون عند الفتح مائة وسبعين الفاً من السكان ؟؟

واما مصر فالارجح انها دفعت دينارين عن كل شخص من سكانها ، واكثر المؤرخين على انها دفعت المبلغ الذي كانت تدفعه قبلاً للامبراطورية البيزنطية .

ولكن الضريبة عليها زيدت في ايام الامويين ما في ذلك من شك ولا ريب ..

---

(١) ابن عساكر في تاريخ دمشق .

(٢) البلاذري .

فقد حصل عبدالله بن ابي سرح من مصر ، اكثر مما حصله عمرو بن العاص من الضرائب .

وفي عهد عبد العزيز بن مروان – ايام عبد الملك بن مروان صار وضع ضريبة على الكهنة ، ديناراً واحداً عن كل واحد منهم ..

ويقول سيفروس (١) : انها كانت اول جزية أخذت منهم ، ولا نعلم اذا كانت الضريبة عن الرؤوس ام عن الارض التي كانوا يزرعونها !!..

وفي عهد عبد العزيز بن مروان رفعت الضريبة ايضاً رغم احتجاج السكان الى عبد الملك الخليفة .

وقد زيدت الضريبة بما يعادل الثلث ، ولكن تاريخ الزيادة غير معروف .

فلما كان عهد عمر بن عبد العزيز رفع الضريبة عن الارض التي تخص الكنيسة والاساقفة ، ولكن يزيد خلفه اعادها .

والزيادة بعد هذا التاريخ اصبحت عادية ، وسبب ذلك نقصان الضريبة بسبب اقبال القبط على الاسلام ، فكان لا بد والحالة هذه من زيادة الضرائب لسد النقص .

واما المصادر المسيحية فتقول انها – اي الزيادة – اصبحت عظيمة ، واما المصادر الاسلامية فتشير اليها فقط ، ولا تبحث مقدارها .

انواع من الضرائب على الارض

وكان الاشخاص الذين يدفعون ضريبة الارض على اقسام :

اصحاب الارض ، الذين يدفعون الضريبة عن محصول ارضهم .

---

(١) تاريخ البطاركة في مصر .

وصناع يدفعونها من واردات صناعتهم .
وتجار يدفعونها عن ارباحهم .
خذ مثلاً انواعها في العراق عن الجريب الواحد من الارض :

عنب	١٠	دراهم	
نخل	٥	»	
حنطة	٤	»	
شعير	٢	»	وغيرها

وهناك مصدر آخر يجعلها كما يأتي :

عنب	١٠
خضر	٦
قطن	٥
سمسم	٥

وكل المصادر تدل على ان الضريبة في العراق صار فرضها على حساب الجريب الواحد من الارض .

ولكن هذه الارقام تختلف عن الارقام التي وضعها ابن حوقل للضريبة على الارض في فارس مثلاً :

فقد كانت الضريبة اشد في شيراز كما يظهر ، فهو يضع ١٧٠ درهماً على الجريب الكبير – الذي يبلغ اربعة اضعاف الجريب العادي – خصوصاً اذا كان يصار الى سقيه بواسطة ماء النهر .

ويضع ابن حوقل مثلاً ١٩٢ درهماً على الجريب الكبير من الاشجار .
٢٣٧ وثلثي الدرهم على الارض المزروعة خضراً
١٤٢٥ » » » » » عنباً ...

واما في الكوفة فكانت الضرائب اقل مما ذكرنا ، فليس هناك

ضريبة على العنب والخضراوات حتى سنة ٣٠٢ هجرية (١) وحتى زمن علي بن عيسى الجراح .

ضريبة على التجارة

وقد وضع عمر بن الخطاب ضريبة على التجارة فاخذ ٢ ونصف بالمائة من المسلم وخمسة بالمائة من غير المسلم ، وعشرة بالمائة من الغريب الذي يريد الاتجار في البلاد الاسلامية .

وكانت هذه الضريبة تدفع مرة في السنة .

واما الامام مالك فيقول : انها كانت تؤخذ عن كل سفرة تجارية .

وكان الذي يعبد النار يعتبر غريباً .

وهناك من يذهب الى ان الغرباء فقط او الاجانب دفعوا هذه الضريبة .

وقد اخذ عمر بن الخطاب من النبط خمسة بالمائة من الحنطة والزيت ، وعشرة بالمائة من الحمص والفول للسماح لهم بالمتاجرة خارج مواطنهم (٢)

واما اذا كان التاجر يتاجر بالاشربة والمسكرات فيصار الى تقدير تجارته بواسطة تجار من شيعته ، واذا اثبت المسيحي التاجر ، ان ديونه توازي ما عنده من المال يعفى من الضريبة .

فيظهر من كل هذا ان التكاليف الحكومية التي كانت تؤخذ فوق الضرائب المقررة لم تكن شديدة ، وان دفع الضرائب لم يكن يحصل بالاكراه والعنف ، فكانت الدولة تسمح للاشخاص او للجماعات الذين عليهم ضريبة ما ان يدفعوها اقساطاً ، وفي بعض الحالات كانت الدولة

---

(١) ابن حوقل المسالك .

(٢) كتاب الام .

تعفي من دفع الضريبة الاشخاص الذين يثبتون عجزهم عن دفعها .

والواقع ان نظام الضرائب الذي ورثته الحكومة العربية من البيزنطيين كان فاسداً ، وكان تشربعه يساعد على دفع الضريبة نفسها وفاقاً للاهواء والغايات الشخصية .

وكانت ضريبة الارض تدفع اقساطاً ، واما ضريبة الرؤوس او الجزية فدفعة واحدة .

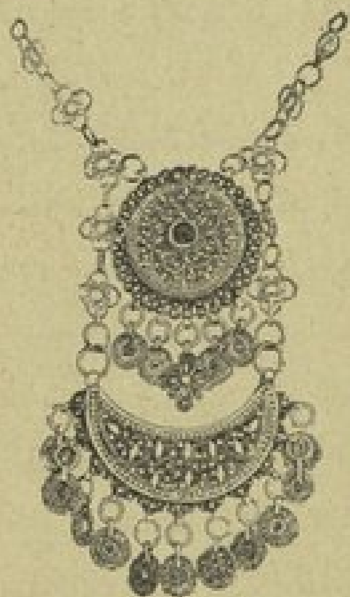
ونظام الضرائب منذ عهد عمر بن الخطاب لم يكن واحداً ، وانما كان نظاماً مختلفاً كل الاختلاف ، وفاقاً للمدن والبلاد والجماعات ، وطريقة استلامها .

ويظهر انه صار معاملة البلاد التي فتحت سلماً كغيرها من البلاد التي فتحت حرباً مع الايام ، وكان المسيحيون وغير المسلمين في اول الامر يدفعون الضرائب وحدهم تقريباً – ما عدا ضريبة العشر والزكاة التي كان يدفعها المسلمون – ثم صار الجميع سواء في دفع الضرائب ، وذلك لما كثر المسلمون وقل المسيحيون .

ولكن الاجماع ينعقد اليوم بين جميع المؤرخين على ان حالة المسيحيين في ايام امية كانت حسنة ، نعموا بالوظائف ، ونعموا بالعدل والانصاف ، وكانوا احراراً في دينهم وعقائدهم ، ما جرب احد إجبارهم على الاسلام ، ولا تدخل احد في امور دينهم وحياتهم الخاصة ، واذا كان عمر بن عبد العزيز قد اشتد عليهم قليلاً فامر باخراج المسيحيين من الوظائف ، وحظر عليهم اللباس الاسلامي ، وامرهم ان يرتدوا زياً خاصاً ، فانه كان يعاملهم كافراد معاملة كلها انصاف وعدل ، أليس يخبرنا المؤرخون انه امر بعد ان وجد الزيادة عظيمة في واردات مصر مثلاً ، ان يرد لغير المسلمين ما اخذ منهم من المال ، بعد ان ظهر له ان

واردات مصر تزيد على مصارفاتها !!

وليس يرد هذا ان من بعده لم يتأثروا سيرته ، فان سياسة الاسلام نحو غير المسلمين معروفة مقررة ، هي سياسة عدل وانصاف ، لا قهر وعسف ، واذا كان بعض الخلفاء قد اتبعوا سياسة العنف والقهر نحو بعض افراد رعيتهم من غير المسلمين فليس هذا مما يضير الاسلام في كثير ولا قليل ،لان هؤلاء الخلفاء فعلوا مثل ذلك مع المسلمين انفسهم وعاملوهم معاملة قاسية شديدة .



القضاء والتشريع

في الجاهلية

لم يكن للعرب قبل الاسلام تشريع معروف ، وانما كان لكل قبيلة عرف وعادات وتقاليد تشترك فيها احياناً مع سواها او تختلف معها، وفاقاً لبعدها عن البداوة وقربها منها ، وكان للقبيلة حاكم يحكم بين المتنازعين منهم حسب تقاليدهم وتجاربهم ، ولو تتبعنا كتب الادب لوجدنا فيها ان العرب كانوا تارة يتحاكمون الى شيخ القبيلة ، وتارة الى الكاهن ، واخرى الى من عُرف بجودة الرأي واصالة الحكم ، وهؤلاء الحكام لم يكونوا يحكمون بقانون مدون، ولا قواعد معروفة، وانما كانوا يرجعون الى عرفهم وتقاليدهم التي كونتها تجاربهم، واقرتها عاداتهم، ولم يكن لهذا القانون الجاهلي المؤسس على العرف والتقليد عقوبات ، ولا المتخاصمون ملزمون بالتحاكم اليه والخضوع لحكمه ، فهم احرار في التحاكم اليه اولاً ، وهم احرار في قبول الحكم او رفضه ، ومن رفض الحكم ولم يطعه فلا جزاء عليه اكثر من ان يحل عليه غضب القبيلة او يطرد منها ..

والقانون حكم ، ثم تنفيذ لهذا الحكم .

ولم يكن عند البدو قضاء بالمعنى الصحيح ، فاذا قتل احد البدو شخصاً ، قامت عائلته باخذ ثأره ، وهذه العادة كانت مألوفة عند كثير من الامم كما يظهر في العصور الاولى من التاريخ .

واما اذا اخلّ بدوي بالواجبات الاجتماعية كأن سرق، او خان او

اغتصب حقاً لغيره ، فان جزاءه يكون طرده من بين افراد القبيلة ، والبدوي الذي لا قبيلة له ، يكون في حالة لا تطاق ، فلا يناصره احد ، ولا يؤيده مؤيد ، وهو عرضة ابداً للاخطار التي يتعرض لها كل فرد في الصحراء .

والعربي الى ذلك لم يكن بالشخص الذي يضطهد غيره ، والاضطهاد - بمعناه المعروف عند الروم وغيرهم كاضطهاد اليهود والنصارى والمخالفين لمذهب الكنيسة الحكومية - وذلك في العصر الذي سبق الاسلام لم يكن معروفاً عند العرب ، فقد كان بوسع اليهودي او المسيحي ان يعيش مع العربي الوثني ، ولكن احداً منهما لم يكن يستطيع العيش في الامبراطورية الرومانية مثلاً ، حتى المسيحي اذا كان مذهبه يخالف مذهب الكنيسة الحاكمة .

والواقع انه لم يكن عند العرب قانون وانما كانت هناك تقاليد جرى الاتفاق على مراعاتها والعمل بها .

واما في مكة فقد كانت الحالة القضائية فيها اكمل واحسن ، وسبب ذلك ان مكة كانت بلداً متحضراً بالنسبة الى بقية المواطن العربية ، وكان اهلها قد وزعوا الاعمال الادارية في بلدهم على عشرة رجال من عشرة ابطن ، كالحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، وكان من هذه الاعمال ما يتعلق بالقضاء ، عهدوا به الى ابي بكر في الجاهلية فقد ذكروا انه عُهد اليه بالديات والمغارم ، ويدلنا على ذلك ايضاً ما رووا لنا من اجتماع بعض قبائل قريش على حلف الفضول ، فقد تحالفوا على ألا يُظلم بمكة غريب ، ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه ، حتى يأخذوا له بحقه ، ويؤدوا اليه مظلمته ، من انفسهم ومن غيرهم ...

وسبب ذلك في نظرنا ان مكة كانت بلداً مقدساً ، تحج العرب الى

كعبتها من اطراف الجزيرة ، وكانت مركزاً تجارياً خطيراً فاذا كان من ينزل فيها حاجاً او متاجراً يُظلم ويُهضم حقه ، قل الحجيج اليها ، ونقصت تجارتها ، ومن ذلك رأى اهلها ان يكونوا صفاً واحداً على كل ظالم ، وجبهة واحدة مع كل مظلوم حتى ينال حقه .

وكذلك كان التشريع في المدينة قبل الاسلام راقياً رقياً نسبياً لاختلاط العرب فيها بغيرهم ، ولاخذهم بما عند اهل الكتاب من القواعد الاجتماعية المقررة .

فلما جاء الاسلام اقر بعض التقاليد العربية وانكر البعض الآخر ، وعدّل غيرها بحيث تكون موافقة لروحه وتعاليمه .

عهد رسول الله

اقام رسول الله بمكة ثلاث عشرة سنة ، واقام بالمدينة نحو عشر سنين ، وفي المدينة نزل التشريع الاسلامي ، بما تنزل به القرآن من آيات واحكام ، وبما تحدث به رسول الله الى اصحابه من تفسير لهذه الاحكام .

ولقد تنزل القرآن على رسول الله في نحو ثلاث وعشرين سنة ، منه ما نزل بمكة ويبلغ نحو ثلثي القرآن ، ومنه ما نزل بالمدينة ويبلغ نحو الثلث ، واذا تتبعنا الآيات المكية نجد انها لا تكاد تعرض لشيء من التشريع في المسائل المدنية والاحوال الشخصية والجنائية ، وانها تقتصر على بيان اصول الدين والدعوة اليه ، كالايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والامر بمكارم الاخلاق كالعدل والاحسان ، والوفاء بالوعد ، والاخذ بالعفو ، والخوف من الله وحده ، والشكر وتجنب مساوىء الاخلاق ، كالزناء والقتل ووأد البنات والتطفيف في الكيل والميزان ،

والنهي عن كل ما هو كفر او تابع للكفر ، حتى ما شرع في مكة من عبادات كالصلاة والزكاة لم يكن على التفصيل والبيان الذي عرف بعد ذلك في المدينة ...

اما التشريع في الامور المدنية من بيع واجارة ، وربا ، ونحو ذلك ، والجنائية من قتل وسرقة ، والاحوال الشخصية من زواج وطلاق ، فكل ذلك كان بعد ان هاجر رسول الله الى المدينة .

وكان التشريع اكثر ما يكون بمناسبة حوادث تحدث ، فيتحاكم فيها المتخاصمون الى رسول الله ، فتنزل الآية او الآيات ناطقة بالحكم ، مثل ما روي ان رجلاً من غطفان كان عنده مال كثير لابن اخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه ، فترافعا الى رسول الله فنزلت الآية : « وآتوا اليتامى اموالهم » .

وكان الناس في المدينة يسيرون فيما لم يرد فيه حكم اسلامي على المألوف عندهم في الجاهلية حتى يبدله الاسلام او يقره ، ويمكن القول ان آيات الاحكام في المدينة كانت تنزل حسب تطور جماعة المسلمين فيها ، وهذا التدرج ومراعاة حال جماعة المسلمين يفسران لنا العلة في تشريع النسخ الذي نراه في الاحكام الاسلامية الاولى ، لان الاسلام دين يسر لا عسر ، فلما اراد الله منع الخمرة لم يمنعها دفعة واحدة ، وانما منعها اول الامر منعاً وسطاً فامر المسلمين ان لا يقربوا الصلاة وهم سكارى ، ثم صدر المنع البات بعد ذلك ، وبعد ان هيأ المسلمين له ، واجراهم على خطة وسطى ، لا هي شديدة ولا هي لينة رقيقة .

وكذلك نرى في الاحكام القرآنية وقد تعرضت الى جميع ما يصدر عن الانسان من اعمال ، انها لم تتعرض كثيراً للتفاصيل الجزئية ، وانما تعرضت غالباً للامور الكلية ، فهي لا تتعرض في الصلاة مثلاً الى

اوقاتها وهيأتها ، وفي الزكاة الى مقدار الواجب فيها وانواع ما يجب ، وهكذا في بقيـــة الامور الاخرى ، بل ترك ذلك لرسول الله يبينه بقوله وفعله .

والاسلام الى ذلك فيه تجديد واصلاح كثير في شؤون التشريع ، ادخل على النظام الجاهلي تغييرات وتعديلات يطول شرحها ، فهو يقلل عدد الزوجات ، ويجعل لتعددها شروطاً يصعب عـــلى الانسان المخلص الفاضل القيام بها فما بالك بغيره من عامـة الناس ، ولو كان القضاة في الاسلام من ذوي العدل والفضل والعلم ، وكانوا مـن الذين يأخذون برأي القرآن لا برأي العاطفة والمصلحة ، لكان تعـــدد الزوجات في الاسلام لا يصار الى إقراره إلا عند الضرورة القصوى والحاجة الملحة المشروعة .

ويضع الاسلام كذلك نظامـــاً للارث يخالف النظام الجاهلي كل المخالفة ، فقد كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار مـن ابناء الميت ، وانما يورثون من يلاقي العدو ويقاتـــل في الحروب ، فشرع الاسلام توريث المرأة ، وكان ذلك شديداً عـلى نفوس العرب ، حتى راح القرآن يؤكد اعطاء المرأة نصيبها ، ويزيد في حريتها .

وهناك نوع آخر في التشريع كان في عهد رسول الله ، وهو التشريع بالسنة ، او التشريع المأخوذ عن احاديث رسول الله وافعاله ، وهـذا التشريع باكثره تفسير للتشريـع القرآني الذي اشرنا الى انه عرض للامور الكلية ، وترك التفاصيل لرسول الله يقررها ويبسطها .

في عهد الخلفاء الراشدين

فلما اتسعت رقعة الفتوحات الاسلامية ، وكان عهد الخلفاء الراشدين

والامويين واجه الخلفاء الاولون امراً عظيما ، فقد عرضت لهم مسائل جزئية ، وحالات خاصة لم يكن لهم بها عهد سابق ، خصوصاً وان احداً لم يدّع ان القرآن والسنة الصحيحة نصاً في المسائل الجزئية على كل ما كان وما هو كائن ، فنتج عن هذا اصل آخر من اصول التشريع ،وهو الرأي الذي انتظم بعد القرآن والسنة وسمي القياس .

وقد جرى على هذا كثير من الصحابة ، فكانوا يستعملون رأيهم حيث لا نص ، فاستعملوا رأيهم في مسألة الخلافة ولم يكن فيها نص صحيح ، واستعملوا رأيهم في محاربة المرتدين ولم يحدث مثل هذا في عهد رسول الله ، واستعملوا رأيهم في جمع القرآن ، واستعملوا رأيهم في كثير من المسائل الاخرى ، ومن المفروض في استعمال الرأي طبعاً ان لا يكون (الرأي) مخالفاً للانصاف والعدل والعقل والذوق السليم .

ونضرب لذلك مثلاً قصة رُفعت الى عمر بن الخطاب،وهي قصة رجل قتلته امرأة ابيه وخليلها ، فتردد عمر هل يقتل الكثير بالواحد ، هل يقتل المرأة وخليلها ، وقد اشتركا بالقتل ؟ فقال له علي بن ابي طالب :

– أريت لو ان نفراً اشتركوا في سرقة (ديك) او (دجاجة) فاخذ هذا عضواً وهذا عضواً أكنت قاطعهم ؟

قال عمر : نعم .

فقال علي : فكذلك .

فعمل عمر برأيه وكتب الى عامله ان اقتلهما ، فلو اشترك في قتله اهل صنعاء كلهم لقتلتهم ..

ولما سئل علي في عقوبة شارب الخمر قال : من شرب هذى ، ومن هذى افترى ، فارى عليه حد المفتري – وهو القاذف – ومثل هذا كثير يدل على تفكير صائب وبعد نظر غريب ...

اجتهاد عمر

وعمر بن الخطاب كان اجرأ الصحابة في هذا الباب ، وهو استعمال الرأي ، وسبب ذلك انه واجه من الامور المحتاجة الى التشريع ما لم يواجه خليفة قبله ولا بعده ، فهو الذي على يده فتحت الفتوح ،ومصرت الامصار ، وخضعت الامم المتمدينة من فارس والروم لحكم الاسلام ، فكان لعمر من التشريع في المسائل الاقتصادية والسياسية والعمرانية ما كان اصلاً للفقهاء من بعده .

وقد سار عمر في اجتهاده الى اوسع مما ذكرنا ، فكان يجتهد في تعرف المصلحة التي لاجلها كانت الآية ، او الحديث ، ثم يسترشد بتلك المصلحة في احكامه ، وهو اقرب شيء الى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته .

مثال ذلك ان رسول الله اعطى المؤلفة قلوبهم من الصدقات ، والمؤلفة قلوبهم هؤلاء الذين اسلموا بعد مكة من قريش ، فكان رسول الله رغبة منه في استمالتهم يعطيهم من الزكاة ، والزكاة مفروض توزيعها على الفقراء والمساكين ، فلما كان عهد ابي بكر جاء بعض المؤلفة قلوبهم — وهم من الاغنياء طبعاً — يطلبون ارضاً من ابي بكر ، فكتب لهم بها ، وهي ارض للمسلمين ، فجاء عمر فمزق الكتاب ، وقال : ان الله اعزّ الاسلام واغنى عنكم ، فان ثبتم اليه ، وإلا فبيننا وبينكم السيف .

فنرى من هذا ان عمر علل الدفع الى المؤلفة قلوبهم لعلة هي المصلحة السياسية في ذلك الوقت ، فلما ارتفعت هذه المصلحة ، بعزة الاسلام ، وعدم حاجته الى من تتألف قلوبهم لم يستمر في اقرار الحكم .

وكذلك رُوي عن عمر انه لم يقطع يد السارق في عام المجاعة ،

وسبب ذلك ان الذين سرقوا انما فعلوا ذلك لبأ كاوا لا لشهوة السرقة ...

الاستشارة

وكان الخلفاء الراشدون يعمدون الى الاستشارة فيما يعرض عليهم من خصومات ، فكان ابو بكر ينظر في كتاب الله ، فان وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به ، فان لم يكن في كتاب الله شيء ، نظر في سنة الرسول ، فان لم يجد شيئاً سأل المسلمين هل قضى رسول الله بشيء من هذا ، ، فان اعياه ذلك استشار رؤوس الناس وخيارهم ، فان اجمع رأيهم على شيء قضى به ، وكان عمر يفعل مثل ذلك ، وينظر فيما اذا كان ابو بكر قد قضى بشيء مما هو بشأنه وإلا جمع الناس واستشارهم.

وقال الشعبي : كانت القضية ترفع الى عمر رضي الله عنه ، فربما يتأمل في ذلك شهراً ويستشير اصحابه ، واليوم يفصل في المجلس مائة قضية ...

وعلى كل فان حامل لواء الرأي كان عمر بن الخطاب ، وهذا اقرب الى طريقته في حب الاستقلال ، واشهر من سار على طريقته عبدالله بن مسعود في العراق ، فكان يتعشق عمراً ويعجب بارائه ، وكان لا يخالفه في شيء من مذاهبه ، بل كان يتأثره في كل اعماله واقواله ، واظهر مناحي عمر كما رأينا الاعتداد بالرأي حيث لا نص ، واذا علمنا ان علم اهل العراق كان عن عبدالله بن مسعود ، وان مدرسة العراق تُوجت بابي حنيفة ، رأينا السبب الذي من اجله اشتهرت مدرسة العراق تشتهر بالرأي واعمال القياس ، بخلاف مدرسة الحجاز التي كانت تأخذ بالحديث ولا تأخذ بالرأي .

وهناك مدرسة كانت بين المدرستين ، لا تهمل الرأي بتاتاً ، وهي

مع ذلك غنية بالحديث ، ولا تعمل بالرأي الا بشروط ، وعند ما لم يكن نص في المسألة ، ومن اعلام هذه المدرسة الامام مالك ثم الامام الشافعي ..

وقد ارتقى البحث في الرأي ونظم ، ووضعت له قواعد وشروط . وسمي بالقياس ، وحصر الرأي بعد وضع هذه القواعد والنظم في دائرة ضيقة محدودة .

القضاء في عهد الراشدين والامويين

ولقد رأينا موقف ابي بكر من المعضلات والخصومات تعرض عليه كيف كان يستشير فيها كبار الصحابة فيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة ، ولم يؤثر عنه انه عين قاضياً إلا حين كثرت عليه شؤون الامة فعهد بالشؤون القضائية الى عمر بن الخطاب .

ولما كان عهد عمر جرى في التشريع والقضاء على طريقة ابي بكر ، وجرى من بعده على غراره ، حتى كانت الدولة الاموية وانتقل مركز الخلافة الى دمشق ، وفي عهدها ظهر اثر الامتزاج بين العرب الفاتحين والامم المفتوحة ، ولكن هذا الامتزاج وما تبعه من تأثر الفقه الاسلامي بالقانون الروماني لم يكن خطيراً في حال من الاحوال ، ولكننا لا ننكر ان القانون الروماني افاد من ناحية عرض المسائل على الفقهاء ليبدوا فيها رأيهم حسب القواعد الكلية للشريعة الاسلامية ، ومن المحقق ان مصر والشام كانت تحكمها محاكم رومانية بالقانون الروماني ، فلما جاء الاسلام ودخلت مصر والشام في النظام الجديد ، كان من المفروض ان يعرض المحكومون تقاضيهم القديم ، واراء محاكمهم القديمة على الاسلام لينظروا ما يقر منها ، وما يرفض ، ولما كان قضاة الاسلام

في الصدر الاول ينعمون بشيء كثير من المرونة والتسامح فيما لم يخرج عن قواعد الاسلام ، فليس بغريب اذاً ان يستمعوا للمتخاصمين ، وان يعرض هؤلاء عليهم النصوص القانونية القديمة ، وان يستمع لها القضاة بشيء كثير من رحابة الصدر وحب المعرفة ..

ولم يهتم الخلفاء عهد الدولة الاموية بشيء من شئون التشريع إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ، والتشريع لم يرق تحت حمايتهم ورعايتهم ، كما كان الحال في عهد العباسيين ، وانما رقي في المدارس وحلقات الدروس فيها ، ولم يبذل الامويون محاولة في صبغ تشريعهم صيغة رسمية ، فلا نرى في الدولة الاموية مثل ابي يوسف في الدولة العباسية يحميه الخلفاء ، ويؤيدونه في التشريع ، ويوثقون الصلة بينه وبينهم ، وبينه وبين قضاة الامصار ، ولا نرى من المشترعين من اتصل بالامويين الا الزهري مثلاً .

وفي هذا العهد – الاموي – لم تكن المذاهب الاربعة قد تكونت ، وانما كان هناك ائمة كثيرون مجتهدون كالاوزاعي وغيره ممن اندثرت مذاهبهم ، وبدأ في آخر عهد الدولة الاموية يظهر امامان من الائمة الاربعة ، الامام ابو حنيفة في العراق ، والامام مالك بن انس في المدينة ، والاول ولد سنة ٨٠ في ولاية عبد الملك بن مروان ، وعاش نحو ١٨ سنة في ظل الدولة العباسية ، واشتهر بقدرته التشريعية ، وقوة حجته ، وحسن منطقه ودقته في الاستنتاج ، ومن اجل ذلك عدّ امام اهل الرأي ، ولم يصل الينا شيء من تآليفه القانونية ولا ثبت تاريخياً انه دون مذهبه في كتاب ، انما فعل ذلك ، تلميذاه من بعده ، ابو يوسف ومحمد .

وولد الامام مالك سنة ٩٦ للهجرة بالمدينة من اصل عربي ، وبها

تعلم وعلم وألّف ، واشتهر انه حجة في الحديث ، ويمتاز مذهبه باعتماده على الحديث اكثر من ابي حنيفة ، وتوفي سنة ١٧٩ هجرية ، وخلف لنا كتاب (الموطأ) وهو كتاب فقه وان ملىء حديثاً ، ولم يكن غرضه فيه ان يجمع الاحاديث المعروفة في عهده ، او التي صحت عنده ، وانما كان غرضه الاتيان بالتشريع مستدلاً عليه بالحديث ، ولذلك تجد فيه فتاواه الشخصية وآراءه في بعض المسائل .

القضاء

ولم تكن الحاجة تدعو الى تعيين القضاة عند نشوء الدولة الاسلامية ، فقد كان رسول الله مشترعاً وقاضياً ، وكان ابو بكر يقضي بالناس في عهده ، فلما اتسعت رقعة الخلافة ، وغلب العرب على غيرهم من الامم ، دعت الحال الى ادخال نظام تشريعي لفض المشاكل التي تنشأ بين الافراد من العرب وغيرهم ، وقضى هذا النظام بتعيين قضاة ينوبون عن الخليفة في فض هذه المشاكل ، وفاقاً لاحكام الكتاب الكريم والحديث الشريف (السنة) والقياس فيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة ولا اجماع .

وكان القضاء في اول الامر من اختصاص العامل اذا كانت ولاية عامة ، كأن تكون اليه الصلاة والخراج والجند والشرطة والقضاء ، وكان من مستلزمات القاضي ان يكون رجلاً عفيفاً ورعاً تقياً عالماً مجتهداً ، سليماً من العيوب التي تحول دون معرفة الحقيقة كالعمى والصمم ، لا تأخذه في الله لومة لائم .

اما مسألة اختيار القاضي وتعيينه ، فقد كانت خاضعة لنوع سلطة العامل او الامير ، فان كانت ولايته عامة ، قام الامير بتعيينه ، وان

كانت خاصة ، كأن يكون عاملاً على الخراج او على الصلاة فقط ، فاختياره يكون من قبل الخليفة مباشرة .

وقد دعت سنة التقدم والارتقاء الى اتخاذ الشهود (المحلفين) حين فشت شهادة الزور ، اذ جرت العادة ان تقبل شهادة من يتقدم لادائها ، سواء أكان ممن عرف بالخير او بالشر ، فقضى النظام الجديد بتعيين شهود عدول ، عرفوا بحسن السمعة والعفة ، فصاروا من هيئة المحكمة يعمل برأيهم القاضي فيما له علاقة بالمتقاضين .

وكان من اختصاصهم ايضاً الشهادة عـلى ما يصدره القاضي من الاحكام ، وانه غير مخالف لاحكام الشريعة الاسلامية .

وكان سلطة القضاء موزعة بين ثلاثة : القاضي ، والمحتسب ، وقاضي المظالم .

فالقاضي يفصل في القضايا المرتبطة بالدين بوجه خاص .

وللمحتسب حق النظر فيما يتعلق بالنظام العام وفي الجنايات احياناً ، مما يستدعي امر الفصل فيها الى السرعة .

ويفصل قاضي المظالم فيما استعصي من الاحكام على القاضي والمحتسب وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الاحيان الى رجل واحد ، مع ما بين العملين من التباين ، لان عمل القاضي مبني على التحقيق والافادة في الحكم ، وعمل المحتسب مبني على الشدة والسرعة في الفصل .

الحسبة

وكان للمحتسب النظر في مراعاة احكام الشرع ، والاشراف عـلى نظام الاسواق ، والحيلولة دون بروز الحوانيت مما يعوق نظام المرور ، وكان عليه رفع المضايقة عن الجمهور ، والاشراف على الموازين والمكاييل

وعلى استيفاء الديون ، وكانت سلطته من الاتساع بحيث كان له ان يستعين بالشرطة لتنفيذ احكامه وهو يساوق نظام البلديات المعاصرة .

قاضي المظالم

وقاضي المظالم كان ينعم بسلطة قضائية أعلى من سلطة القاضي والمحتسب ، تعرض عليه القضايا التي يعجز فيها القاضي عن تنفيذ حكمه في رجل من الاعيان والاشراف ، وقد دعت الحاجة الى انشاء هذه المحكمة لوقف تعدي ذوي الجاه والحسب ، ولهذا كان يسند الامر في المظالم الى رجل عظيم القدر ، كثير الورع ، ولم يجلس للمظالم احد من الخلفاء الراشدين ، لان الناس كانوا في الصدر الاول ، ولقرب عهدهم من النبوة ، عن المظالم ابعد ، والى الحق والانصاف اقرب واسرع ...

وقد احتاج الامام علي نفسه الى الجلوس للمظالم ، ولكنه لم يفرد يوماً خاصاً للنظر فيها ، وانما كان اذا جاءه متظلم انصفه ، ثم صار تخصيص يوم معين للنظر في المظالم ، واول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، لكنه كان اذا وقف منها على مشكل احتاج فيه الى حكم رده الى قاضيه ابن ادريس الازدي ، فكان ابن ادريس المباشر ، وعبد الملك الآمر ، وكانت تنعقد محكمة المظالم تحت رئاسة الخليفة او الوالي او من ينوب عنهما .

وكان صاحب المظالم يعين يوماً يقصده فيه المتظلمون ، اذا كان من الموظفين لينصرف بقية ايام الاسبوع الى عمله الآخر ، واما اذا كان خاصاً بالمظالم ، فانه كان ينظر في المظالم كل ايام الاسبوع .

وكانت محكمة المظالم تنعقد في احد المساجد ، كغيرها من المحاكم التي يعقدها القضاة ، وكان صاحب المظالم يحاط بخمس جماعات مختلفة لا

ينتظم عقد جلساته الا بحضورهم :

١ – الحماة والاعوان : وقد اختيروا بحيث يستطيعون التغلب على كل من يلجأ الى القوة والعنف ، او الفرار من وجه القضاء .

٢ – القضاة والحكام : ومهنتهم الاشارة على قاضي المظالم باقوم الطرق لرد الحقوق الى اصحابها واعلامه بما يجري بين الخصوم لمعرفتهم بشتات الامور الخاصة بالمتقاضين .

٣ – الفقهاء : واليهم يرجع قاضي المظالم فيما اشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ – الكتاب : ويقومون بتدوين ما يجري بين الخصوم واثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق .

٥ – الشهود : ومهنتهم الشهادة على ان ما اصدره القاضي من الاحكام لا ينافي الحق والعدل .

اختصاص قاضي المظالم

وكان من اختصاص قاضي المظالم النظر في القضايا التي يقيمها الافراد والجماعات على الولاة اذا حادوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى عمال الخراج اذا اشتطوا في جمع الضرائب ، وعلى كتاب الدواوين اذا حادوا عن اثبات اموال المسلمين بنقص او زيادة ، والنظر في تظلم المرتزقة اذا انقصت ارزاقهم ، او تأخر ميعاد دفعها اليهم ، وكان يستعان بشخصية صاحب المظالم ونفوذه وهيبته في التأثير على الخصم حتى يعترف بالحق ، فاذا اعترف حكم عليه باعترافه ، وتنفيذ ما يعجز القاضي والمحتسب عن تنفيذه من الاحكام ، ومراعاة اقامة العبادات كالجمع والاعياد والحج والجهاد .

وكذلك نرى ما كان لصاحب هذه الوظيفة من النفوذ ، وما كان عليه النظام القضائي في عهد الامويين من الدقة والاتقان والسعي الى احقاق الحق ، ما كان الى ذلك سبيل ، خصوصاً وهذا النظام ليس يختلف كثيراً في غاياته وطرقه عن النظام الحاضر .

حرية القضاة

والخلاصة ان الاحكام القضائية في هذا العصر لم تكن على منوال واحد وشريعة واحدة ، ، لان المجتهدين لم يكونوا على رأي واحد ، ولم تفطن الدولة الى ضرورة جمع كلمة المجتهدين على قضاء واحد واحكام واحدة ، فكان القاضي في مصر يحكم في امر واحد بما يختلف مع قاضي العراق في الامر نفسه ، والخلفاء والامراء وقفوا موقف المتفرج من هذا الامر وتركوا لكل قاض تمام حريته في الحكم بما يراه .

وكان بعض القضاة اسرع من غيرهم في المحافظة على حقوق الناس والضعفاء من الشعب ، فقد تولى القضاة مراقبة اموال اليتامى ، واول قاض نظر فيها عبد الرحمن بن معاوية بن حديج قاضي مصر ، من قبل عبد العزيز بن مروان ، فانه ضمن عريف كل قوم اموال يتامى تلك القبيلة .

وقد رأينا ان قاضي مصر فعل ذلك دون امر الخليفة والامير ، وانما اداه اجتهاده الى ذلك ، وكذلك فعلوا في مسألة الاحباس ، فان توبة بن نمر في زمن هشام بن عبد الملك اول من وضع يده عليها ، وكانت الاحباس هذه في ايدي اهلها او اوصيائهم ، فلما كان توبة قال : ما ارى مرجع هذه الصدقات إلا الى الفقراء والمساكين فارى ان اضع يدي عليها حفظاً لها من الضياع والتوارث ، فلم يمت توبة حتى صار

الاحباس ديواناً عظيماً وكان ذلك سنة ١١٨ للهجرة ، فذلك اول انشاء ديوان الاوقاف بمصر .

وكان اختيار القضاة يرجع غالباً الى امراء الامصار ، فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس ، واحياناً كان الخلفاء يولون القضاة ، واما قاضي العاصمة فيختاره الخليفة وليس له امتياز على غيره من القضاة ، ولا رأي له في اختيار احد منهم ، ومعنى ذلك انه لم يكن في عهد الامويين قاض للقضاة مثلاً كما هو الحال اليوم ، بل كان كل قاض مستقل عن القاضي الآخر في الولاية الاخرى .

وكانت مرتبات القضاة باهظة ، بحيث تكفيهم وتفيض عنهم ، وتمنعهم عن الرشوة ، فقد كان عبد الرحمن بن بحيرة يتولى القضاء بمصر ، ومعه القصص وبيت المال ، فكان رزقه في السنة من القضاء مئتي دينار ، ومن القصص مثلها ، ومن بيت المال مثلها ، وكان عطاؤه مئتي دينار ، وجائزته مائتي دينار ، اي انه كان يأخذ الف دينار في السنة ، وهذا مبلغ لا يتناوله قاض في كل البلاد الاسلامية ، خصوصاً اذا نظرنا الى مقدرة هذا المبلغ على الشراء في ذلك العصر بحيث يوازي اليوم اكثر من خمسة آلاف دينار ...

وقرأنا في الكندي امراً بصرف مرتب قاض في عهد مروان الثاني يستدل منه على ان رواتب القضاة كانت تصرف مقدماً .

النساء والقضاة

وهناك ظاهرة في الاسلام يجب ان نعرض لها ، لخطورتها وجليل امرها ... وهي ما ذهب اليه ابو حنيفة وغيره من علماء الصدر الاول في الاسلام من جواز انتخاب النساء للقضاء بين الناس . شرط ان

تكون السيدة المكلفة بالقضاء مقبولة الشهادة .

اما ابو جرير الطبري فيقول : انه يمكن تعيين المرأة للقضاء في كل الاحوال ، ويشترط في القاضي ان يكون بلغ سن الرشد ، سواء اكان رجلاً ام امرأة ، وان يكون حافظاً لقواه العقلية ، وان يكون حراً ، اما العبد فمحروم من القضاء لانه ليس مستقلاً ، واذا تحرر العبد فلا مانع من ان يكون قاضياً .

وفي الوقت نفسه يسمح للعبد باعطاء الفتاوى اذا كان يستطيع ذلك ، ومعنى الاستطاعة ان يكون عالماً في الفقه والتشريع طبعاً .

وكان من الممكن ان يصار الى تعيين القاضي بامر شفهي او خطي ، على انه كان يجب ان يذكر اسم البلد الذي عين للقضاء فيه ، واذا عزل وجب اعلام اهل البلد بخبر عزله ، حتى لا يقضي بين الناس بعد عزله .

الاسلام وحرية الرأي

ولقد وقف المصلحون المسلمون منذ نشوء الاسلام موقفاً شديداً من الذين كانوا يدعون الى الاخذ بالقديم على طول الخط ، لان مثل هذه السياسة تضر بالاسلام وتمنع تقدمه وتبسطه وانتشاره خصوصاً بعد تكاثر الفتوح وتبدل الايام ...

وكانت السنة اضيق من ان تستطيع تسوية كل امر جديد يعرض للمسلمين ، وعندئذ اصبح على المسئولين في الاسلام ان يواجهوا هذه الحالات الجديدة بشيء من رحابة الصدر ، لان الاسلام دين اليسر لا العسر ، فقام فريق من المصلحين المسلمين يقولون : بان العمل بالجديد مسموح به ، على ان يكون ذلك بواسطة الاجماع ...

فتقرر مثلاً اعتبار بعض التقاليد التي جرى عليها الناس — ولو

كانت مخالفة للسنة ، او مجهولة من السنة ، بمعنى ان السنة لم تعرض لها وتبحثها – امراً مقبولا مقرراً ..

والاجماع في الواقع اصبح مع الايام قوة ، واصبح سلطانه سلطان اي امر صدر عن السنة .

خذ مثلاً المولد النبوي فان كثيرين من المسلمين كانوا ينكرونه في الماضي ثم اصبح مع الايام عادة مقبولة معمولا بها ، لا يعترض عليها احد، ولا ينكرها انسان. وكذلك الامر في غيره من الاعياد والعادات.

وهناك بدع دخلت في الاسلام ، منها زيارة قبور الصلحاء من المسلمين ، رغبة من الزائرين في استدرار رضاهم وعطفهم ودعائهم ، وهذه بدعة مضرة ، لانها نوع من الشرك بالله ، وهو امر لا يقره الاسلام وينكره كل الانكار .

ورأى العلماء مع الايام انه اذا دعت المصلحة العامة ، الى الاخذ بالجديد فليس في ذلك خروج على السنة .

ونادى بهذا الرأي مالك بن انس نفسه صاحب المذهب المالكي فقال : « انه اذا دعت مصلحة المسلمين العامة ، فان وضع الاحكام وفاقاً لهذه المصلحة امر مفيد وضروري ولو خالفت هذه الاحكام السنة ». وايد الزرقاني هذا الرأي في تعديله وشروحه على كتاب الموطأ ، فقال في تعديل الاحكام اذا دعت المصلحة العامة الى هذا التعديل ... (١)

وهذا يدل على رحابة صدر الاسلام واستعداده للسير مع الحضارة..

---

(١) الزرقاني في شرح الموطأ ..

- ١٥ -

مائة سنة من الحضارة الاموية

المراكز المختارة

فاذا اشرفت سنة (٧٣٢م) فنحن امام مائة سنة تقطعت على نشوء الحضارة العربية ، استطاع العرب في اثنائها ان ينشئوا دولة فاقت في سعتها وخطرها ، الامبراطورية الرومانية ، وامتدت حدودها من الهند والصين الى جبال البيرنه التي تقطع بين فرنسا واسبانيا ، لا يفصل هذه الامبراطورية بعضها عن بعض بحر ولا نهر إلا ما كان من هـــذه الشقة الصغيرة من الماء التي كانت تفصل اسبانيا عن افريقيا .... والتي يقوم على ضفتها الشمالية جبل طارق نسبة لطارق بن زياد القائد العربي الذي اقتحم اسبانيا وضمها الى الامبراطورية العربية ...

والواقـــع انه باحتلال العرب لسورية وفلسطين والعراق ومصر وفارس ، سيطروا على مراكز جغرافيـة من الطراز الاول ، كانت مراكز الثقافة العالية في ذلك العهد ، فورث العربي كل هذه الحضارات القديمة التي كانت مزيجاً عجيباً من كل المعـارف والعلوم السابقة ... واخذ يعمل مع اهلها لتكوين حضاره جديدة تكون ابعد اثراً ، واكثر انسانية من الحضارات السابقة ...

وكان العربي الى هذا عملياً فما كاد ينزل الارض الجديدة حتى اظهر من حسن الاستعداد لهضم الحضارات المختلفة ما لم يكن احد يتوقعه او يفطن له ...

واذا كان العربي لم يقدم في اول الامر وفي عهد الخلفاء الراشدين للمدن المفتوحة غير دينه ولغته ، فسبب ذلك ان الزحوف كانت تستغرق كل وقته ، وان عهد الاستقرار والاعمار لم يكن قد استقر على الوجه الذي يسمح للفاتحين بالعمل المنتج ...

ولكن ما قدمه لم يكن قليلاً ، وكان الى هذا شيئاً ضرورياً يجب ان يستبق كل حضارة وعمران ، فهـــذا الدين المتواضع الذي قرر العلاقات الروحية بين المرء وربه كان ضرورة ملحـة ، وهذه اللغة التي كانت وسيلة جديدة لنشر الثقافات والحضارات القديمـة كانت امراً لا مفر منه ، بين امم اختلفت لغاتها وتقاليدها واديانها اختلافاً كان من العسير توحيدها ، إلا بلغة جديدة تربط علاقاتها بعضها مع بعض ، وتوحد صفوفها وجهودها للقيام بالاعمال الضخمة الجديدة ...

فاذا كان العهد الاموي فنحن امام شيء جديد يقدمه العربي للعالم المتحضر والشعوب المختلفة .

التقسيمات الادارية في العهد الاموي

وكانت التقسيمات الادارية للامويين مماثلة تقريباً للتقسيمات الادارية في عهد البيزنطيين . فصار تقسيم المملكة كما يلي : ١ – سورية وفلسطين ٢ – الكوفة مع كل العراق ، ٣ – البصرة ومعها فارس وسجستان ، وخراسان والبحرين وعمان ، ولا يبعد ان تكون نجد واليمامة قد ضمتا اليها ايضاً ، ٤ – ارمينيا ، ٥ – الحجاز مكة والمدينة وكانوا يرسلون حاكماً الى كل بلدة من البلدتين ، ٦ – كرمان والبلاد الواقعـــة على حدود الهند – السند ، كابول وغيرهما ، ٧ – مصر ، ٨ – افريقيـة ، ٩ – اليمن وجنوبي بلاد العرب .

ولما صار فتح الاندلس ضمت الى افريقيا .

وكثيراً ما كان يحدث ان تضم منطقة الى اخرى ، كما فعل معاوية لمـا ضم البصرة والكوفة في ايام زياد حاكم العراق ، وذلك بعد موت المغيرة حاكم الكوفة ، وبذلك اصبح العراق كله امارة واحدة ، وكان يضم اكثر بلاد الفرس ، وشرقي الجزيرة العربية ، وكانت الكوفة العاصمة ، وكان الحال مثل ذلك في ايام الحجاج ...

ثم نرى مع الايام امير العراق يرسل مندوباً عنه الى خراسان وما وراء النهر ، ومركزه في (مرو) وآخر الى السند والبنجاب .

وهذا يعني ضم هذه المناطق الواسعة الى سلطانه .

وكذلك صار ضم الحجاز واليمن ووسط بلاد العرب الى امـارة واحدة .

وضمت الجزيرة وهي القسم الشمالي من البـلاد الواقعـة بين دجلة والفرات الى ارمينيا ، ومعها اذربيجان ، وبعـض اقسام من شرقي آسيا الصغرى .

كما ضمت مصر السفلى الى العليا .

وتألفت ولاية افريقيا من افريقيا واسبانيا والجزر الواقعة بالقرب منها ، وكان مركزها القيروان . بحيث اصبحت المملكة العربية في فترة من الوقت مؤلفة من خمس ولايات فقط .

العاصمة

وفي وسط دمشق العاصمة ، وعلى مقربة من الجامع الاموي الذي اسبغ عليه الوليد بن عبد الملك كل مظاهر الفن المعروف في عهده ، كان يقوم قصر الخليفة ، قصر الخضراء الذي انشأه معاوية ، وكان غاية في

الجمال والجلال ، ازدانت جدرانه بالفسيفساء واعمدته بالرخام والذهب ، وسقوفه بالذهب المرصع بالجواهر ، كما لطف جوه النافورات الجميلة والمياه الجارية والحدائق الغناء التي امتدت حوله باشجارها الظليلة الوارفة .

وفي هذا القصر كان يجلس الخليفة للناس ، في وسط القاعة الكبرى وحوله سادات قريش وامية ، كل على مراتبهم ، ويقف امامه الشعراء واصحاب الحاجات ، وحول الجميع الحرس وغير الحرس من بطانة الخليفة ، وفي مثل هذا الجو الانيق جلس سليمان بن عبد الملك يستمع الى موسى بن نصير وطارق بن زياد يقصان عليه فتوح الاندلس ويعرضان عليه كما عرضا على الوليد قبل وفاته ، مئات الاسرى من ابناء الاشراف وذوي المكانة من القوط سكان الاندلس .

وكانت دمشق قبل الفتح العربي مقر حكام الروم ، فاصبحت عاصمة الدولة العربية في عهد معاوية ، وغدت اكبر مدن الاسلام في ذلك العصر ، وافخمها في الابهة والعمارة ، كما امتازت على غيرها من المدن بكثرة انهارها وعيونها ولطافة جوها ...

ويذكر ياقوت (١) ان دمشق كانت حصينة منيعة ، اقيمت حولها اسوار قوية بلغ ارتفاعها ثمانية امتار ، وعرضها خمسة عشر قدماً ، وكان لدمشق سبعة ابواب ، وكان القادم يرى ابراجها العالية من مسافة بعيدة ، ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة جمّل دمشق وضواحيها بالمباني العامة العديدة ، واغرق الوليد في العمارة اغراقاً عظيماً لم يسبقه خليفة قبله ولا بعده ، حتى ضربت بذلك الامثال ، وكان الناس في عهده لا يتكلمون بغير العمارة ...

---

(١) معجم البلدان .

ومن آثار الامويين الخالدة في دمشق مجاري الماء ، وقد بلغ نظام مجاري الماء من الدقة بحيث صار لكل دار في دمشق نافورة خاصة ، وذلك بفضل الاقنية السبع الرئيسية التي شقها الامويون لايصال الماء الى المدينة ، وبواسطة القناطر الكثيرة المقامة على الاعمدة، التي شيدوها لمد ماء الشرب الى الدور الخاصة المختلفة .

العملة

وكانت عملة الفرس والرومان ومملكة حمير العربية منتشرة في الحجاز قبل الاسلام ، وقد استعمل الخلفاء الاولون هذه العملة ، وفي بعض الاحيان نقشوا عليها بعض الآيات ، وصار ضرب القليل من العملة الذهبية والفضية قبل عهد عبد الملك بن مروان ، الذي كان اول من ضرب في دمشق اول دينار اسلامي ، واول درهم فضي ، وذلك سنة ٦٩٥ بم وفعل مثله الحجاج في الكوفة .

وكان لكل ولاية – قبل عهد عبد الملك – دار ضرب خاصة ، لصك ما تحتاج اليه من العملة ، ولكنها لم تكن لتفي بالغرض المطلوب منها بعد اتساع رقعة المملكة ، خصوصاً وان العملة التي كانت تضرب في الامصار المختلفة كانت بعيدة عن الضبط ، كثيرة التزييف .

ولما رأى عبد الملك هذا الاضطراب الفظيع في عملة الدولة ، بنى داراً رئيسية لصك العملة في دمشق ، وامر بسحب العملة المنتشرة ، في جميع انحاء الدولة ، وضرب بدلها عملة فضية وذهبية ، وكان يعاقب من يزيف العملة عقاباً صارماً .



البريد

وعرف العرب نظام البريد في الدولة العربية ايام معاوية بن ابي سفيان ، وصار تنظيمه في عهد عبد الملك بن مروان ، وكانت الغاية من استعمال البريد في الدولة العربية الاسراع في ايصال الاخبار او الرسائل من الخليفة الى عماله وبالعكس .

والبريد كان عبارة عن وضع خيل مضمرات في عدة اماكن من الطرق الرئيسية بين العاصمة والولايات المختلفة ، فاذا وصل حامل بريد الخليفة ورسائله الى عماله الى مكان منها ، وقد تعب فرسه ، استبدل به سواه ، وكذلك يفعل في المحطة الاخرى ، والتي بعدها ، حتى يصل الى المكان الذي يقصده بسرعة ...

ويرجع هذا النظام الى ايام اكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، واخذه معاوية عن الروم فاقره في الدولة العربية الناشئة . وكان البريد يستعمل ايضاً لنقل الجنود فكان ينقل من خمسين الى مائة جندي ، وفي عهد يوسف بن عمر حاكم العراق كلف البريد اربعة ملايين درهم ، وكان يصار الى نقل بعض الاشخاص بالبريد ، كما كان يصار الى نقل الرسائل الخاصة مقابل مبلغ صغير .

الدواوين

وقد انحصرت الاعمال الادارية في عهد بني امية في اربعة دواوين وهي : (ديوان الخراج) ، و(ديوان الرسائل وكان لصاحبه الاشراف على الولايات والرسائل التي ترد من الولاة) ، و (ديوان الايرادات المنوعة) ، و(ديوان الخاتم) .

وكان بجانب هذه الدواوين الاربعة مصالح اخرى اقل اهمية من هذه ، منها ما هو خاص بصرف نفقات الشرطـــة ، او ما هو خاص بنفقات الجند .

واما ديوان الخاتم فقد انشأه معاوية وهو اكبر دواوين الدولة ، وكان فيه كتاب يعملون على نسخ اوامر الخليفة وايداعها في الديوان بعد ان تحزم بخيط وتختم بالشمع ، وتختم بخاتم صاحب الديوان نفسه ، كما هو الحال اليوم في ديوان السجلات في الحكومات المعاصرة .

ويرجع السبب في انشاء هذا الديوان الى ان معاوية احال رجلاً على زياد عامله عـــلى العراق بمائة الف درهم ، فمضى الرجل وقرأ الكتاب ، وكان مفتوحاً لم يختم ، فجعل المائة مائتين ، فلما رفـــع زياد حسابه الى معاوية انكر الخليفة ضخامة المبلغ وقال : « ما احلته الا بمائة الف » ثم استعاد المائة الف الزائدة من الرجل ، ووضع ديوان الخاتم ، فصارت الاوامر تصدر مختومة لا يعلم احد ما تشتمل عليه ..

على ان ختم الصكوك كان موجوداً قبل ذلك ، فقد روى ان رسول الله لما كتب الى هرقل امبراطور الروم اتخذ خاتماً من فضة ونقش عليه (محمد رسول الله) ، وختم به ابو بكر وعمر وعثمان الى ان سقط من يد عثمان في بئر اريس . فصنع خاتماً آخر على مثاله .

وما زال ديوان الخاتم معدوداً من الدواوين الكبرى حتى اواسط الدولة العباسية ، ثم الغي لتحول الاعمال الى الامراء والوزراء وغيرهم ، ولما اراد الرشيد ان يستوزر جعفر بن يحيى البرمكي مكان اخيه الفضل قال لابيها : « يا ابت اني اردت ان احول الخاتم من يميني الى شمالي ، » فكنى له بالخاتم عن الوزارة ، وبلغ من اهمية الخاتم ان كان الوزير اذا تناوله ليختم به كتاباً ، وقف تعظيما للخلافة واجلالا لاسم الخليفة .

الكاتب

وفي عهد الامويين تعدد الكتاب بتعدد مصالح الدولة ، فاصبحوا خمسة ، كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضي ، واهم هؤلاء الكتاب في المرتبة كاتب الرسائل ، وكان الخلفاء لا يولون هذا المنصب إلا اقرباءهم وخاصتهم لخطورته واهميته .

الحاجب

واول من اتخذ الحجاب من الخلفاء معاوية وذلك بعد ما حاوله الخوارج الفتك به ، وذلك خوفاً على نفسه من الغدر ، وتلافياً للازدحام على الابواب ، ورغبة من الخليفة في الاحتجاب عن الناس حين يشاء .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الامناء في مصر ، او رئيس التشريفات عند رؤساء الحكومات ، ومهنته ادخال الناس على الخليفة وفاقاً لاقدارهم ، ومن رغب الخليفة في الاجتماع به من افراد رعيته ، ولكن الخلفاء كانوا يبيحون الدخول لثلاثة في اي وقت شاؤا ودون ما اذن سابق منهم ، صاحب البريد لخطورة ما يحمله من الرسائل ، وصاحب الطعام مخافة فساده ، والداعي للصلاة فانه داعي الله ، وكان هذا امراً مقرراً عند بعضهم دون سواهم ...

الولاة

واذا كان بنو امية اول عهدهم خصوصاً ايام معاوية وعبد الملك بن

مروان قد احسنوا في اختيار الولاة ، فان من جاء بعدهم لم يحسنوا في وجه من الوجوه ، وكانوا كثيراً ما يطلقون يد عمالهم في اعمال العسف وابتزاز الاموال ، ثم يحاولون حسابهم على ما نالوا من اموال الامة ، وقد يغرقون في محاسبة عمالهم حتى الموت ، بحيث يطلبون منهم اكثر مما عندهم ، او اكثر مما استثمروه اثناء ولايتهم ، مما كان سبباً في كثير من الاضطرابات الداخلية التي وقعت اواخر الدولة الاموية ، لان قبيلة العامل كانت تغضب لنكبته وتعذيبه وقد تثور في بعض الاحايين على الخليفة انتقاماً للعامل ، واخذاً بثأره ، وقد حدث هـذا في اواخر عهد امية .

ويقول السيد امير علي : (١) « ان هناك نقصاً قد تطرق الى النظام الاداري في عهد بني امية وجرّ الى اسوأ العواقب فيما بعد ، وذلك انه كان من المفروض على ولاة الاقاليم الاقامة في حواضر ولاياتهم ، واما في اواخر عهد الامويين فقد اصبحت الولايات تسند الى بعض افراد البيت المالك والى كبار رجال البلاط ، فكانوا يبقون في دمشق ويعينون من قبلهم رجالا يقومون بحكم الولاية نيابة عنهم .

وكان من اهم اغراض هؤلاء الاثراء على حساب بيت المال وارضاء هؤلاء الولاة بما كانوا يدرون عليهم من الاموال .

وقد تطورت صلاحيات الامراء والحكام بعض التطور ، فكان الامير في عهد عمر بن الخطاب الذي يفتح القطر ويستولى عليه ، فكان عمرو بن العاص فاتح مصر حاكما ، ويزيد بن ابي سفيان احد القواد في حروب الشام حاكماً على دمشق ، ثم صار تعيين اخيه معاوية مكانه بعد وفاته ، وكان الامير طبعاً في اول الامر يقوم بكل وظائف الحكم فهو القائد

(١) تاريخ العرب : السيد امير علي الهندي ..

العسكري والاداري ، والامام في المسجد والقاضي ، ومدير الشرطة وغيرها ، ثم تبدلت الاحوال في بعض المناطق فارسل عمر بن الخطاب قاضياً الى دمشق للقضاء بين المسلمين والصلاة بهم ، وعين قضاة لحمص وقنسرين والاردن ..

واما في المدينة العاصمة فالخليفه نفسه كان يقضي بالناس ويصلي بالناس ، اي انه لم يكلف بهذه الواجبات شخصاً آخر .

فاذا كان عهد عثمان بن عفان وقع الاختلاف بينه وبين عمرو بن العاص حاكم مصر بسبب ما حاوله الخليفة من تقييده وتضييق صلاحياته ثم عزله وعين غيره مكانه .

ويظهر ان عمر بن الخطاب عين للعراق اميرين ، الاول للمسائل العسكرية والنظر في امر الجماعات المحكومة ، والآخر للجماعات العربية. وسار معاوية على سياسة عثمان في التفريق بين الادارة والمسائل المالية ، وفي اضعاف نفوذ الامير او العامل ، فعين جباة خصوصيين لواردات الدولة ، يقومون بدفع المصارفات المقررة للمصر الذي يقيمون فيه ، ويرسلون الباقي الى بيت المال في دمشق ، الذي كان يتصرف فيه الخليفة كما يشاء ويريد .

واما في العراق فيقال ان معاوية كان يأخذ من اميره او عامله عليه مائة مليون درهم في السنة بعد المصارفات ... ومن المؤسف ان حساب الواردات والنفقات قد ضاعت في عهد امية فلا نعرف عنها الا القليل ، ولكن الطريقة التي اتبعها معاوية اذا صحت ليست غريبة ولا بعيدة الاحتمال ، لان زياداً كان على العراق ، وكان معاوية يثق به ويحترمه ، فلا يبعد ان يكون قد اتفق معه على هذه التسوية ، وترك ما فوق المائة مليون درهم من الواردات ، يقوم زياد بصرفها على الموظفين

عنده، وفي مصالح الدولة والادارة في عهده، ولكن هذا يقتضي ان تكون واردات العراق عظيمة جداً ، ومن المعلوم ان جباية العراق بلغت في عهد عمر بن الخطاب سنة (٢٠ للهجرة) ١٢٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم ، وفي عهد عبيد الله بن زياد – وهو ابن زياد وحكم العراق بعده – (١٣٥،٠٠٠،٠٠٠) درهم ، فاذا اعتبرنا جباية العراق في عهد زياد (١٣٠،٠٠٠،٠٠٠) درهم مثلاً ، فهل كانت تكفي (٣٠،٠٠٠،٠٠٠) درهم لنفقات الادارة في عهد زياد ، ونفقات العطاء المفروض والمقرر للعرب ، ام ان زياداً كان يأخذ جباية غير العراق ايضاً من المدن التي كانت تحت حكمه وسلطانه ؟

الوظائف

والواقع ان الوظائف في عهد امية ، وفي الامصار الكبيرة كالكوفة والبصرة ، والفسطاط اي مصر مثلاً ، كان يترك امرها احياناً للخليفة واحياناً للامير ، وذلك وفاقاً لنفوذ الامير ، ومكانته عند الخليفة ..

فكان هناك في الامصار الكبيرة صاحب خراج ، وقاض ، ومدير شرطة ، وكاتب ، وكان الكاتب ومدير الشرطة يختارهما الامير نفسه ، واما القاضي ، وصاحب الخراج ، ، فلخطورة مركزهما ، كانا يعينان احياناً من الخليفة في العاصمة ، واحياناً من الامير نفسه ، وكانت دمشق تترك تعيين القاضي ايضاً للامير ، واما صاحب الخراج فانها كانت تحتفظ به في كثير من الاحيان ... وكان يترك للامير ايضاً تعيين العمال في المناطق التي تحت سلطانه .

وكان عامل الخراج اهم العمال ، وكان يعمل مع الامير او العامل ، في ادارة شؤون الولاية ، الامير للشؤون السياسية والادارية ، وعامل

الخراج للشؤون المالية ، وكان احياناً بمثابة الرقيب على اعمال الامير ، وقد ارسل كثير من هؤلاء الموظفين الماليين التقارير السياسية الى دار الخلافة في دمشق يشكون فيها الامير وينتقدون سياسته ، وكانت السلطات في دمشق تسمع لهم ، وتأخذ برأيهم ، وهذا ما ادى الى تنازع السلطة والمنافسة بين الامير وعامل الخراج ، وهو ما يعلل قصر عهد الولاة وعمال الخراج في عهد بني امية .

وكان ديوان الخراج (المالية) يكتب بالفارسية والرومية الى عهد عبد الملك بن مروان ، فنقل عبد الملك ديواني فارس والشام الى العربية ، ثم نقل الوليد ابنه ديوان مصر ، وصار الاستغناء عن المسيحيين واليهود في الوظائف المالية وغيرها إلا اذا دعت الضرورة الى استخدامهم ، وكان عليهم استعمال اللغة العربية في دواوينهم لا اليونانية او الفارسية كما كان الحال قبلاً .

ويذهب (السيد امير علي) : الى ان النظام الاداري والسياسي للولايات الاسلامية في عهد الدولة الاموية لم يكن من عمل معاوية — وهذا صحيح — وان عبد الملك هو المؤسس الحقيقي لهذا النظام ، فهو الذي صبغ الادارة والمالية بالصبغة العربية ، وبتحويله الدواوين الى لغة العرب تقلص نفوذ اهل الذمة والمسلمين من غير العرب ، بعد ان انتقلت مناصب هؤلاء الى ايدي المسلمين العرب ، ونفذ هذه السياسة بشدة وقوة الحجاج بن يوسف حاكم العراق .

واما الامراء الذين كانت اليهم النيابة عامة ، فكانوا ينعمون بما يسمى اليوم بالاستقلال الاداري ، فكانوا يتصرفون في كل شيء ، ويعلمون الخليفة فقط بما يقع من الامور العظيمة ، واظهر ما كان هذا الاستقلال في العراق في عهد زياد وابنه عبيد الله والحجاج ، وعمر بن

هبيرة وخالد بن عبد الله القسري ، إلا ان الحجاج كان اكثرهم استقلالا للثقة التي حازها عند عبد الملك وابنه الوليد .

وكانت المشاكل تحل والمنازعات تقضى في حواضر الامارات ، إلا انه لا مانع يمنع ذا ظلامة من ان يرفع امره الى الخليفة اذا شاء ... وقد ضيق عمر بن عبد العزيز على الامراء لان ثقته بهم كانت قليلة ، وحتم عليهم ان لا ينفذوا حداً من الحدود من قتل او قطع إلا اذا عُرض عليه واقره ، اما في عهد غيره فكان الامراء يفعلون ما فوق ذلك من غير ان يعلم الخليفة بما يفعلون ، فكان احدهم يأمر بقتل الرجل على ايسر الذنوب ، ويضربه الضرب المبرح ، لا يهمه شكاه الى الخليفة او عتب عليه الناس .

والذي دعى الى تمتع الامراء بهذا الاستقلال صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق ، وبين حواضر الولايات ، فلو الزم الامير الاستشارة في كل ما يقع في دائرة ولايته ، لطال عليه الزمن ، وبقيت المشاكل من غير حل ، زمناً طويلا ، وهذا مما يدعو الى اضطراب الادارة .

ومن اعظم ما يؤخذ على بني امية في النصف الثاني من ايام خلافتهم اذلالهم الامراء ومصادرتهم في اموالهم ، واحياناً قتلهم ، بعد عزلهم ، وقد ابتدأ هذه السنة سليمان بن عبد الملك ، فاذلّ آل الحجاج ومن كانوا يلوذون به ، وفعل مثل ذلك بكثير من قواد عصره وعظماء زمانه ، كموسى بن نصير فاتح الاندلس ، وقتيبة بن مسلم فاتح الصين ، ومحمد بن القاسم فاتح الهند ، واستمر الامر على هذا الحال بعد عهد عمر بن عبد العزيز ، فكان هذا من الاسباب التي دعت الى انهيار امية وسقوطها ...

ومن اغرب ما حصل ان يوسف بن عمر الثقفي الذي ولي العراق بعد خالد بن عبدالله القسري اشترى من الوليد بن يزيد خالداً وعماله بخمسين الف الف ، فدفع الوليد خالداً اليه ، فنزع عنه ثيابه والبسه عباءة وحمله على جمل بغير وطاء ، وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة ، ثم حمله الى الكوفة فعذبه وقتله ودفنه بعباءته ، وكان خالد حاكم العراق قبله خمس عشرة سنة ، وهو بعد سيد من سادات اليمن ، فغضبت اليمن لموته ، وثاروا على امية بعدها لاجله .

الشرطة عند العرب

والشرطة جماعة من الجند كان يعتمد عليهم الخليفة او الامير لحفظ الامن والنظام ، والقبض على الجناة والمفسدين وما الى ذلك من الاعمال الادارية ، التي تكفل الامن العام في الولاية والمدن المختلفة .

واول من قام بالطواف ليلاً للمحافظة على الامن ، وتتبع اهل الريب عبد الله بن مسعود ، فهو اول من عسس بالليل في الاسلام ، امره بذلك ابو بكر الخليفة الاول ليطوف بالليل في المدينة محافظة منه على الامن ، واهتماماً بمصالح الرعية .

ويظهر ان نظام هذه الوظيفة كان كنظام البوليس والخفر ، وليس كالبوليس السري والتحري ، فقد روى ابو داود عن الاعمش عن زيد قال : « اتي عبدالله بن مسعود فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمراً ... فقال ابو مسعود : انا قد نهينا عن التجسس ، ولكن ان يظهر لنا شيء نأخذه به .

وذكر الثعلبي هذه الرواية بشكل آخر فقد روي انه قيل لابن مسعود : هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمراً ؟

فقال : انا قد نهينا عن التجسس فان ظهر لنا شيء ، نأخذه به .

وكان الخليفة عمر يتكلف في خلافته العسس بنفسه ، ومعه مولاه (اسلم) ، وكان ربما استصحب معه عبد الرحمن بن عوف ، وفي عهد علي نظمت الشرطة واطلق على رئيسها صاحب الشرطة ، وكان يصار الى اختياره من علية القوم ومن اصحاب الشدة والبأس .

وفي عهد معاوية استحدثت وظيفة (صاحب الشرطة) وهو المكلف بالمحافظة على راحة اهل المدن والسهر على الامن العام ، وكان نصير (والد موسى بن نصير) فاتح الاندلس صاحب الشرطة في عهد معاوية .

وكان زياد بن ابيه حاكم العراق اول من اتخذ العسس وسيره بين يديه بالاسلحة والحراب ، فمشت بين يديه حامية المدن بالاعمدة وغيرها ، وهو اول من اخذ على اهل السوق اجراً لمصارفات العسس ، وهذا قرب الى نظام الحراسة اليوم .

وكان من آداب الشرطة في ايامه ان لا يتكلموا او يرفعوا اصواتهم اذا ساروا بين يديه .

قال الجاحظ : كان على شرطة زياد ، عبد الله بن الحصين والجعد بن قيس النمري ، وكانا يتعاقبان مجلس صاحب الشرطة ، فاذا كان يوم حمل الحربة سارا بين يديه معاً ، فجرى بينهما كلام ، وهما يسيران بين يديه ، فكان صوت الجعد ارفع ، وصوت عبدالله اخفض، فقال زياد لصاحب حربته :

ـ تناول الحربة من يد الجعد ، ومره بالانصراف الى منزله .

ذلك لانه سمع صوت الجعد دون صوت عبدالله ، وإلا لكان الحقه به ... وقد توسعوا في وظيفة الشرطة ، فاضيف اليها تنفيذ احكام القضاة وفرض العقوبات الزاجرة ، واقامة التأديب في حق من لم ينته عن

الجريمة ، فكانت الشرطة خاضعة للقضاء ، تساعد القاضي في اثبات الذنب على مرتكبه ، وتساعد الحكومة على تنفيذ الاحكام ، ويتولى صاحبها ايضاً اقامة الحدود على الزنا ، وشرب المسكرات ، وعلى كثير من الامور الشرعية .

وكانت الشرطة تابعة للقضاء اول الامر ، يقوم موظفوها على تنفيذ الاحكام القضائية ، ويتولى صاحبها اقامة الحدود ، ولكنها لم تلبث ان انفصلت عن القضاء ، واصبح صاحب الشرطة مستقلاً للنظر في الجرائم ...

واما في عهد عبد الملك بن مروان فقد كان مدير شرطته في اول الامر روح بن زنباع ، فلما كان عبد الملك في طريقه الى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير اوجس شراً لما رآه من انحلال عسكره، وان الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله فشكا ذلك الى روح فقال له :

– ان في شرطتي رجلاً لو قلده امير المؤمنين امر عسكره لأرحل الناس برحيله ، وانزلهم بنزوله يقال له الحجاج بن يوسف .

فقال عبد الملك : فانا اقلده ذلك .

واذاً فقد كان الحجاج في اول امره موظفاً في شرطة روح بن زنباع ثم اصبح مديراً للشرطة العسكرية ثم حاكماً للعراق.

وقد ادخل هشام بن عبد الملك نظام (الاحداث) وكان يقوم صاحبه بالاعمال العسكرية التي تعتبر وسطاً بين اعمال صاحب الشرطة وقائد الجيش .

الطراز

ومما ادخله الامويون في الدولة الاسلامية (الطراز) وهو قديم كان

يجري استعماله عند الاكاسرة والقياصرة ، والطراز ان يرسم الملوك والخلفاء اسماءهم او اشارات تختص بهم في طراز اثوابهم المعدة للباسهم من الحرير والديباج وغيرهما ، وهي عبارة عن كتابة خطت في نسيج الثوب بخيط من الذهب ، او بما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة ، فلما استقرت الدولة الاموية اخذوا الطراز عن الروم والفرس ، ولم يستحسنوا اتخاذ الصور على اثوابهم كما كان يفعل الفرس والروم ، فاستعاضوا عنها بكتابة اسمائهم وكلمات اخرى تجري مجرى الفأل والدعاء .

واول من نقل الطراز الى العربية عبد الملك بن مروان ، وكان من قبله من الامويين يستعملون الطراز وعليه الكتابات الرومية ، وصار الامويون يستعملون الطراز بالعربية على اثوابهم وستور منازلهم ، وقراطيسهم (والقراطيس برود مصرية كانوا يحملون بها الآنية والثياب) ثم جعلوا الطراز على ملابس اجنادهم ، ورجال دولتهم ، يكتبون عليها شارة الخلافة ، وهي اسم الخليفة او لقبه او نحو ذلك .

وبقاء هذا الطراز على شارات الدولة ، وبنودها وكسائها يدل على بقاء سلطانها ، فاذا اراد احد الولاة الخروج من طاعة الخليفة قطع الخطبة له ، واسقط اسمه من الطراز .

وانشأ الخلفاء للطراز دوراً في قصورهم ، لنسج اثوابهم وعليها تلك الشارة ، وكان القائم على النظر فيها يسمي (صاحب الطراز) ينظر في امور الصياغ والحاكة ، ويجري عليهم ارزاقهم ويشرف على اعمالهم ، وبلغت هذه الدور اوج عظمتها في ايام الدولتين الاموية والعباسية .

التدوين في الاسلام

ومن المؤكد اليوم ان التدوين بدأ في ايام الراشدين منذ كُتب

القرآن في المصاحف في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، ولو لم يكن هناك كتب مدونة وضعت في القرن الاول ، ما كان خالد بن يزيد بن معاوية حكيم الامويين يحرص علـى نقل بعض العلوم من السريانية واليونانية الى العربية على ما اثبت ذلك التقارب المحققون ، وذلك حوالي منتصف القرن الاول الهجري .

ونريد بالتدوين تدوين الآثار الادبية او العلمية ، لا تأليف الكتب ووضعها ، لان اول من صنف عبد الملك بن جريج البصري المتوفي سنة ١٥٥ ، او ابو النصر سعيد بن ابي عروبة ١٥٦ ، او ربيع بن صبيح سنة ١٦٠ ، وهم جميعاً من اهل القرن الثاني ، ولكن التدوين كان في القرن الاول واما التأليف فلا .

وبدأ التدوين فعلاً في عهد معاوية كما يظهر ، فقد كان معاوية يحب القصص التاريخية ورواية الشعر ، وكانوا يحملون اليـه رواة الاخبار والاشعار ، ليقصوا عليه اخبار الماضيات من الايام .

ولقد ثبت على ما روى صاحب الفهرست ان عبيد بن شرية الجرهمي وفد على معاوية ابن ابي سفيان في الشام ، فسأله عن اخبار الاقدمين وملوك العرب والعجم فاجابه الى ما امر ، فامر معاوية ان يدون وينسب الى عبيد ، ولعبيد عدة كتب ذكرت في الفهرست كتاريخ ملوك اليمن ، وبقي عبيد حياً الى ايام عبد الملك بن مروان فثبت بذلك ان التدوين حدث في اوائل القرن الاول اي في عصر الامويين ، فقـد ذكر بعض الحفاظ ان زيد بن ثابت الف كتاباً في علم الفرائض وذكر البخاري ان عبـدالله بن عمر كان يكتب الحديث ، وذكر مسلم في صحيحه كتاباً ألف في عهد ابن عباس في قضاء علي ، وقـد ذكر المؤرخون انه وجد في خزانة الانبار عدة كتب بخطوط بعض الصحابة

والتابعين بل وُجد كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم من اهــل مكة كتب قبل الاسلام ..

واذاً فليس هناك مانع كان يمنع الكتاب في هذا العصر من تدوين الشعر الجاهلي واخبار العرب قبل الاسلام ، خصوصاً وان مدائن مصر والشام والعراق وفارس التي فتحت في القرن الاول كانت حافلة بالكتب والمكاتب الخاصة والعامة ، وصناعة الكتب كانت معروفة عندهم ويغلب على ظننا ان ما كتب في المائة الثانية من الهجرة انما هو منقول عن ما دون في المائة الاولى من الأخبار والاشعار والتاريخ وغيرهـا .

ولقد نشر « كرنيكو » من علماء المشرقيات في انكلترا اخبار عبيد بن شرية الجرهمي في اخبار اليمن واشعارها وانسابها وطبعها في حيدر اباد الدكن في الهند ، وما جاء فيها يؤيد رواية ابن النديم في الفهرست ونحن ننقل عنها ما يلي :

« ان معاوية امر كتابه ان يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شرية في كل مجلس سمر فيه مع معاوية ، وقد ذكر عبيد في حضرة الخليفـــة معاوية اخبار عاد وثمود وجرهم وخروجهم من اليمن الى الحرم ، وغير ذلك وكلها مشفوعة باشعارهم ، وكان معاوية يطلب الى راوبته المرة بعد المرة ان يسمعه ما قيل في كل حادثة من الاشعار ومما قاله :

« وقد علمت ان الشعر ديوان العرب ، والدليل على احاديثها وافعالهـا والحاكم بينهم في الجاهلية ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول « ان من الشعر لحكما » .

وكان معاوية معجباً جداً بما سمع من عبيد بن شرية ، وقال له مرة :

— خليق يا عبيد ان يكون هكذا ، فزادك الله علماً وفهما ، وزادنا

بك رغبة وعليك حرصاً ،فانا لا نحصي اياديك فزادك الله فضلاً الى فضل وهدى الى هدى ... »

والواقع ان كتاب اخبار عبيد بن شرية الجرهمي في اخبار اليمن من اوائل ما دون في الاسلام وبه ثبت ان المسلمين دونوا في زمن اسبق بكثير مما دون المصنفون والمؤلفون ، ولذلك حفظت السنة والاخبار والاشعار وغيرها .

وكان واثلة بن الاسقع يملي على الناس الاحاديث وهم يكتبونها بين يديه ويتخذ مستملياً محصلاً متيقظاً يبلغ عنه اكثر الجمع على عادة الحفاظ ، خصوصاً اذا كان الجمع عظيما ولا يصل صوت المتكلم او المتحدث اليهم ، وروي مثل ذلك عن ابن العباس .

وكان واثلة من الصحابة ولما مات رسول الله خرج الى الشام ومات حوالي سنة ٨٣ من الهجرة .

وفي المصادر الموثوقة ان رسول الله قال في عام الفتح : « اكتبوا لابي شاه » وابو شاه كان من الصحابة ، وهو يريد الاحتفاظ بخطب الرسول وهذا دليل على كتابة العلم في عهد الرسول نفسه .

وصح عن عبدالله بن عمر بن الخطاب انه كان يكتب حديث رسول الله ، وكان مما كتبه صحيفة تسمى (الصادقة) وهي التي رواها حفيده عمرو بن شعيب عن ابيه عنه ، وهي من اصح الاحاديث .

وعن هشام بن عروة عن ابيه ، انه احترقت كتبه يوم الحرة في عهد يزيد وكان يقول : لو ان عندي كتبي باهلي ومالي .

ليالي الخليفة في دمشق

وكما استمع معاوية الى احاديث التاريخ والادب والشعر في ليالي

دمشق استمع الى ذلك بقية الخلفاء من امية ، وفي اواخر عهد الامويين اخذ الخلفاء لا يرون كبير امر في الاستماع الى المغنين والمطربين والموسيقيين ولما كان من عادة الخليفة خطبة الناس يوم الجمعة ، فان بعض خلفاء امية في اواخر ايامهم لم يأخذوا بهذه العادة ، واخذوا يكلفون غيرهم القيام بها .

ومما لا شك فيه ان استماع الخلفاء الى الغناء والموسيقى ساعد على تقدم هذين الفنين في عهد امية بحيث اصبحت دمشق في ذلك العهد مستودعاً لبعث العلوم والفنون وتنشيطها في مختلف الامصار العربية .

وكانت دمشق سنة ٧١٠ ميلادية تعد مائة وعشرين الفاً من السكان ، وكانت الامبراطورية البيزنطية تقدم اليها الكماليات من الحاجات ، ومكة المغنين والموسيقيين ، والبصرة والكوفة آثار العقل .

ولما انهارت امية سقطت دمشق عن مكانتها التاريخية ، حتى قبور خلفائها نُبشت ودمرت ، ولا يعرف سكان قبر من قبور خلفائها وكبارها على وجه التحقيق ، إلا قبر عاتكه بنت معاوية .

وفكر المتوكل في عهد العباسيين في سكنى دمشق ، ولكن اقليمها لم يوافق صحته فعاد الى العراق ، واصبحت دمشق بعد ذلك مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية العباسية يرسل اليها الخليفة والياً من قبله من وقت الى آخر ...

ولما استولى الفاطميون على مصر ، دخلت دمشق تحت حكم الفاطميين ثم تحت حكم السلاجقة ، ثم تداول حكمها غيرهم من الامراء والدول الصغيرة ثم عادت الى بلاط مصر ، ثم نزلت تحت حكم بني عثمان ، وهي اليوم تعود الى استقلالها ، وتعمل لاعادة امجادها الماضية ، وتاريخها الضخم السالف ...

الحياة الاجتماعية

وكان السكان في العهد الاموي ينقسمون الى اربعة اقسام: العرب، والموالى، واهل الذمة، والارقاء او العبيد ...

وكان العرب قبل الاسلام وفي عهد الخلفاء الراشدين طبقة واحدة، وسبب ذلك ان العرب بتعصبها وحفظها لانسابها ظلت مستقلة بانسابها وعاداتها وآدابها، وكانت الاقليات في الجزيرة من الضعف بحيث ان احداً من العرب لم يفكر بها، او يختلط معها.

فلما كان عهد الخلفاء الراشدين خُلقت طبقة جديدة هي طبقة الموالي ثم اهل الذمة، ثم لما تكاثرت الفتوح ظهرت طبقة رابعة هي طبقة الارقاء والعبيد.

وفي عهد امية والخلفاء الراشدين كان العرب لا يزالون على تعصبهم لانسابهم وكرههم للاختلاط بسواهم، وكانت الهيئة الاجتماعية الى ذلك في بدء انتقالها من حالتها القديمة في عصر الروم والفرس الى العصر الاسلامي ...

وكان القسم الاول وهو العرب يتألف من الخليفة واهله، واشراف العرب الفاتحين والعرب الباقين على وجه الاجمال، وليس من المعروف عدد العرب في هذه الفترة من الزمن، ولكننا نعلم مثلاً ان الذين كانوا يأخذون العطاء في دمشق عهد الوليد كانوا لا يقلون عن خمسة واربعين الفاً. وفي عهد مروان كان عدد الذين يأخذون العطاء في حمص وما حولها ٢٠ الفاً، وفي العراق كان عدد العرب لا يقل عن نصف مليون، وكان سكانه في عهد الامويين لا يقلون عن مليونين على قول فون كرمر، واما في مصر فليس يعرف عـــدد العرب، وكذلك الحال في فلسطين

وخراسان وغيرها من الامصار عدا الجزيرة العربية ، ولكن الشيء الثابت ان العرب في هذه الفترة من الزمن لم يكونوا يقلون عن ثمانية ملايين من الانفس ، وهذا الرقم طبعاً يتناول العرب الاصليين في اواخر عهد امية .

مسألة الموالي

وكان العرب ينظرون الى الموالي الذين اعتنقوا الاسلام وهم من غير العرب ، ثم تعربوا مع الايام ، نظرة خاصة ويعتبرونهم اقل منهم مركزاً ومقاماً ، ولكن المؤكد ان العلماء من الموالي كان لهم مقام عظيم ، خصوصاً والاسلام قد سوى بين الناس وقال : « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » .

واما ما ذهب اليه بعض المؤرخين من ان الموالي كانوا يعاملون معاملة العبيد في عصر بني امية ، فقول مردود لا يستند الى تاريخ ولا الى سند صحيح .

والواقع ان البلاد التي كانت عواصم الاقاليم وقواعدها في عصر بني امية ، هي مكة والمدينة والبصرة والكوفة واليمن ومصر والشام والجزيرة وخراسان ، وكان لكل صقع من هذه الاصقاع امام يقودهم ويسود عليهم وهذه اسماؤهم :

كان امام مكة عطاء بن ابي رباح استاذ ابي حنيفة .
وكان « اليمن طاوس
و « الشام مكحول
و « مصر يزيد بن ابي حبيب
و « الجزيرة ميمون بن مهران

و « خرسان ضحاك بن مزاحم
و « البصرة الامام الحسن البصري
و « الكوفة ابراهيم النخعي

وكل هؤلاء إلا ابراهيم النخعي من الموالي ، وبعضهم من ابناء الأمأ ، ومع ذلك فقد كانوا سادة الناس وقادتهم ، اذعن لهم الجميع واقتدوا بهم ، واخذوا عنهم ....

فاما (عطاء بن ابي رباح) فكان شيخ الحرم واليه المرجع في الفتوى ، وعليه المعول في المسائل ، قال ابن خلكان في ترجمته .

« قال ابراهيم بن عمرو بن كيسان ، : اذكرهم في زمان بني امية يأمرون في الحج صائحاً يصيح « لا يفتي الناس إلا عطاء بن ابي رباح »

وهل يمكن ان ينادى بمثل ذلك وفي الحج بتفضيل احد الموالى على غيره من جميع الناس ، وولاة الامر في مكة كارهون ؟؟

واما (طاوس) فلما قضى نحبه بمكة ازدحم الناس في جنازته حتى تعذرت الصلاة عليه ، وكان ابراهيم بن هشام اذ ذاك والياً على مكة فاستعان بالشرطة ، ومشى في جنازته عبدالله بن الحسن حفيد رسول الله فهل بعد هذا من عز ومجد ؟

وكذلك كان شأن بقية الموالي من العلماء والفقهاء ، وهذا سعيد بن جبير وهو من الموالي اسود الوجه ، يوليه الحجاج العربي امامة الصلاة في الكوفة ، والكوفة عربية باكثريتها ، فهل يقال بعد ذلك ان الموالي كانوا يعاملون معاملة سيئة ؟

وكان القسم الثالث مؤلفاً من اهل الذمة ، وهم من المسيحيين واليهود وغيرهم من اهل الكتاب الذين كانوا يدفعون الجزية ، وكانوا احراراً في دينهم وتشريعهم الديني ، وكان لهم قضاة منهم ، وبتقدم الفتوح

الاسلامية نال هذا الحق الوثنيون ايضاً من الذين كانوا يسكنون حول الحدود الهندية والصينية من عباد بوذا وكونفوشيوس ، وبعض الفرس من اتباع زروستوا .

العبيد

وكان العبيد في الدرجة الرابعة من الهيئة الاجتماعية عهد الامويين ، واذا كان الاسلام لم يقرر الغاء الرقيق الغاء تاماً فانه اضعفه كل الضعف ، وجعل تحرير الرقيق من اعظم ما يتقرب به العبد الى ربه ، كما فرض على المسلم معاملة الرقيق بالحسنى والرحمة ..

والواقع ان العامة من اهل البلاد التي فتحها العرب كانوا يئنون تحت نير الاستعباد قبل الفتح وبعضهم كانوا ارقاء فعلاً ، ولا سيما خدمة المزارع او (الاقنان) الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك الى مالك ، فهؤلاء جاءهم الاسلام رحمة لانهم تحولوا من الرق الى الحرية ، او الى العهد ، فمن اسلم صار حراً ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن ظل على دينه دخل في ذمة المسلمين يدافعون عنه ما ادى الجزية إلا من حاربهم واسروه ، فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاؤوا ، ومن المعلوم ان الذين حاربوا المسلمين في صدر الاسلام كانوا من حامية البلاد ، وهم الجنود من الروم او الفرس ، اي من غير العامة اهل البلاد المظلومين ، بحيث ان الاسلام قلب الحياة الاجتماعية التي كانت قبل عهده رأساً على عقب ، فحرر العبيد ، واستعبد من كان يستعبدهم .

تكاثر الارقاء والاسرى

وتكاثر الاسرى في عهد الفتوح حتى اصبحوا يعدون بالالوف .

وبلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية في افريقية ٣٠٠٠٠٠ رأس من السبي ، فبعث خمسها الى الوليد بن عبد الملك ، ولم يسمع بسبي اعظم من هذا ، وذكروا ان موسى لما عاد من الاندلس كان معه ٣٠،٠٠٠ بكر من بنات اشراف القوط واعيانهم ، وقس على هذا غنائم قتيبة في بلاد الترك ، وغنائم محمد بن القاسم في بلاد الهند .

فهؤلاء الاسرى كانوا يوزعون على المحاربين ويرسل الخمس منهم الى الخليفة في دمشق ، واذا كان عدد الاسرى عظيماً كانت حصة المحارب المسلم عظيمة حتى لقد كان يضطر بعض المحاربين الى بيع اسراهم بدراهم معدودات للاسير الواحد ، خصوصاً اذا لم يكن عند المحارب مزرعة يرسل اليها الاسير ليعمل فيها ، واذا لم يكن عنده عمل واسع يستخدمه فيه ، اذ يصبح الاسير والحالة هذه عالة عظيمة ، ومصروفاً كبيراً ...

ولم يكن التصرف بالاسرى على الوجه الذي اشرنا اليه خاصاً بالمسلمين بل كان عادة درجت عليها الامم التي سبقت الاسلام ، وكان من يقع اسيراً من المسلمين في ايدي الاعداء يصبح رقيقاً حتى يفتديه المسلمون ، وكان للخلفاء عناية في فكاك الاسرى يبذلون في سبيل ذلك المال او يبادلون باسراهم اسرى عندهم ، وقد وقع كثير من هذا في عصر الامويين ولكن العدد كان قليلا لا عظيماً ...

اما الروم فقلما كانوا يفتدون اسراهم بالمال ، وسبب ذلك ان اسرى الروم يكونون في الغالب لفيفاً من رعاياهم او من الجنود المستأجرة ، وليس من الروم انفسهم ، اما المسلمون فهم غالباً المهاجمون فاذا ظفروا كانت غنائمهم من هذا النوع من الاسرى ، واذا غُلبوا فمن وقع في الاسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء ،

والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ كانت اشد وثوقاً منها بين الروم ورعاياهم واجنادهم .

ولما زاد عدد الاسرى وكثرت الفتوحات زاد الرقيق بين المسلمين كما قدمنا ، فكان يوجد عند الواحد العشرة ، او المئة او الالف ، حتى الفقراء من عامة الناس كان احدهم لا يخلو من عبد او اكثر يخدمونه ، لرخص الرقيق كما قدمنا ، واضطرار المحاربين الى بيع ما عندهم بعدة دراهم ، وكان الامير في الدولة الاموية اذا سار مشى في ركابه مائة عبد او بضع مئات او الف عبد ، وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والي خراسان سنة ٢٧٩ ه اي في عهد العباسيين اربعة آلاف عبد ولم يملك احد من ولاة خراسان قبله مثله ، وكان بعض المسلمين في معركة صفين يملك عشرة من العبيد يقومون على خدمته .

وكان الارقاء يختلفون في اشكالهم والوانهم ، فبعضهم كان اسود اللون وهو من سكان افريقيا ، واما عبيد فرغانه والصين وتركستان فكانوا اصفر الالوان ، وكان من يؤتى بهم من الشرق الادنى او شرقي وجنوبي اوروبا بيضاً .

وكانوا يسمون العبيد الاسبان الصقالبة ، وكان ثمن الواحد منهم الف دينار ، واما العبيد الترك فكانوا يكلفون ستمائة دينار الواحد ، وارتفعت اسعار العبيد بعد وقف الفتوحات ، وانتهاء هذه الموجة الجارفة من العبيد والاسرى ...

وكان الشرع الاسلامي يعتبر الولد المولود من عبد وعبدة عبداً ايضاً ، مثل ابويه ، واما الولد من عبد اسود وام حرة فحر ...

وكانوا اذا تكاثر الارقاء عند احدهم ، واراد استخدامهم في منزله جعل عليهم نقيباً يتولى النظر في شؤونهم يسمونه الاستاذ ، او يستخدمهم

للحرب والمدافعة عنه ، وكان يفعل ذلك الامراء واهل اليسار ، وكانت تجارة العبيد تجارة رابحة في هذا العهد ، وكانت في اوروبا اكثر منها في البلاد العربية ، ولم يكن كل العبيد من الاسرى ، وانما كان بينهم من صار شراؤه للتجارة وغيرها .

الخصيان في عهد امية

والخصاء ليس عادة عربية وانما هي شرقية على ما يظهر لانها كانت شائعة قديماً بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، واخذهـا عنهم اليونانيون ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج .

وللخصاء اغراض اشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن ، واول من فعل ذلك يزيد بن معاوية فاتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه « فتح » ، واقتدى به غيره ، وشاعت عادة استخدام الخصيان في اواخر عهد بني امية مع ان الاسلام يحرم الخصاء تحريماً تاماً .

الخليفة والصلاة

وكان لاختلاط العرب بالروم وغيرهم من الامم الاخرى الاثر الاكبر في تغيير عاداتهم ، وحياتهم الاجتماعية خصوصاً في عهد الامويين . فاتخذ معاوية الحشم والحجاب حوله ، ووضع المقصورة في الجامع يصلي فيها منفرداً بعد الاعتداء الخارجي عليه .

وكان من عادة الخلفاء الراشدين ان يؤموا الناس في الصلاة دائماً وابداً ، وسار على سيرتهم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، واما غيرهم فقد اقتصروا على الصلاة بالناس يوم الجمعة ، فكان الخليفـة في العهد الاموي يحضر الى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء ، وعمامة بيضاء ،

مرصعة بالجواهر ، فيخطب الناس يوم الجمعة وبيده الخاتم والعصا ، وهما شارتا الخلافة .

وكانت خطبة الجمعة في هذا العهد الاول بمثابة استعراض سياسي واجتماعي لاعمال المملكة واحداث السياسة ، يتوسل الخليفة فيها لبسط سياسته وتبرير عمله ، او حمل الناس على الاخذ برأي من الاراء وسياسة من السياسات ، كما توسل الخطيب فيها لتحذير الناس ، وانذارهم وحثهم على العمل الصالح ، والسير على سنة القرآن ، وقام القائد العسكري يوم الجمعة باثارة حماس جنده ، ودعوتهم للتأهب للمعركة المقبلة ، ولما كانت وسائل الدعاية غير معروفة في ذلك العهد ، فقد قامت الخطابة في المسجد مقام الصحف والراديو في العصر الحاضر ..

مجالس الخلفاء

وكانت مجالس الخلفاء الراشدين في المسجد او في المنزل ساذجة جداً على نحو الحياة التي كان يحياها اي عربي في عهدهم ، كانوا يقعدون على حصير او جلد ويلتفون بعباءة او نحوها ، فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويخاطبونهم باسمائهم ، لا يستنكفون من ذلك ، ولا يرون فيه كبير امر ، ولا ضعة ، واذا خرج احد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ، ولا بنود ، ولا طبول ، واوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل ، وكان عمالهم في الامصار على نحو ذلك ، على ان العمال نظراً لاقامتهم في المدن الكبرى التي عمرها الفرس او الروم استعملوا في عملهم بعض مظاهر الابهة للتأثير على الرأي العام ..

ولكن طبيعة العمران ، واستقرار الناس في المدن ، غلب على

هذه السذاجة فتدرج الخلفاء والامراء الى مظاهر الابهة واتخاذ الحجاب ، وبدأ بذلك معاوية بن ابي سفيان ، واعانه عليه امراؤه في العراق ومصر ، فعملوا مثله وساروا على اثاره ، واشار عليه من كان على علم باحوال الملوك السابقين بضروب من الفخامة تعزيزاً للملك ، وكيداً للعدو ، واضعافاً لامره ، وتخويفاً لرسله ، فدخل على الدولة الكثير مما كان عليه الاكاسرة واباطرة الروم في مجالسهم وسائر احوالهم ،واصبح الخليفة لا يصل اليه اصحاب المصالح والناس الا بعد شيء من العناء ، وبعد ان يمر على حجاب وحرس مما لم يكن موجوداً مثله في عهد الراشدين .

ولقد اختلف الخلفاء ومجالسهم باختلاف شخصياتهم ومكانتهم ، فمعاوية بن ابي سفيان مؤسس الدولة الاموية ، وعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز لم يكونوا يجلسون للمنادمة والاستماع الى الغناء والموسيقى ، وانما كانوا يعملون ويجلسون للنظر في امر الملك وتعزيز مرافق الدولة ، بخلاف غيرهم ومن اتى بعدهم في اواخر عهد بني امية ، ممن كانوا يجلسون للمنادمة والاستماع الى الوان الطرب والغناء .

شكل المجلس وفرشه

وفي عهد الامويين جلس الخلفاء في القصور ، بعد ان كان عمر بن الخطاب يجلس للناس في المسجد ، وقد اخذوا قصور الدولة التي سبقتهم وبنوا قصوراً لانفسهم خاصة ، كما فعل معاوية فانشأ قصر الخضرة في دمشق ، ونصبوا في هذه القصور الاسرة والكراسي ، وافترشوا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور واقاموا الحجاب والحراس .

واول من اتخذ الاسرة معاوية قلد بها بطارقة الروم في الشام وكذلك الستور والطنافس . اما الكراسي فيظهر انه قلد بها مرازبة الفرس ، لان اول من استخدمها من امراء المسلمين زياد بن ابيه عامله على العراق ، وقد يكون الروم اخذوها عن الفرس ، وقس على ذلك سائر ما ادخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ونقش الاشعار في صدور المجالس ، وفرش الديباج والخز واصطناع الاسرة من الابنوج والعندل والعاج والذهب وغيرها .

وليس لدينا مصدر تاريخي ثابت عن شكل المجلس في عهد الامويين ، ولكن الذي نتصوره من المجالس التي اتت بعدهم ، ان مجلس الخليفة كان ينعقد في قاعة او بهو كبير على جدرانه الستائر الحريرية ، يكسو ارضه بساط او اكثر من الديباج او نحوه ، وفي اطراف البهو مناور من الذهب او الفضة توضع عليها الشموع ، ويسبل على ابواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير او غيره مطرز بشارة الدولة او الخليفة القائم او باشعار وآيات واحاديث ، وفي وسط القاعة سدة او سرير يجلس عليه الخليفة مصنوع من العاج او الابنوس ومنزل بالذهب .

ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون في وسط القاعة ستراً يفصل بينهم وبين الجلساء ، وطبعاً كانت تختلف هيئة المجلس في الشتاء عما كانت عليه في الصيف ، فيزاد عليه مواقد النار يسجر فيها الند والعود .

الاستئذان في الدخول

وكان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين ان يقف الرجل بالباب ويقول « السلام عليكم أأدخل ؟ » يكرر ذلك ثلاثاً ، فان لم

يؤذن له لم بعدها ، وربما اقام الراشدون الحجاب لمنـــع الازدحام او للاستئذان في بعـــض الاحوال ، فلما كان عصر امية اقيم الآذنون والحجاب يتوسطون للناس بدخولهم على الخليفة حسب طبقاتهم ، وفي اوقات معينة ، لكل طبقة من الجلساء او الادباء او الشعراء او غيرهم ، اما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم .

واول من رتب المراتب في الدخول على الخليفـة زياد في العراق اشار عليه بذلك حاجبه ، ولعله اقتبسها من الفرس ، فجعل الاذن للناس على البيوتات ثم على الاسنان ثم على الآداب ، وصار ذلك سنـــة في الاستئذان على الخلفاء في عصر الامويين ، فاذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة او الامير يوذن اولاً لاشرفهم نسباً ، واذا تساووا في النسب قدموا اكبرهم سناً ، فاذا تساووا في السن قدموا اكثرهم ادباً .

وكانوا في ايام امية اذا وفد الناس على الخليفـة او الامير وقفوا ببابه يلتمسون الاذن ، فاما ان يأذن لهم او يصرفهم ، فاذا صرفهم عادوا ثانية وثالثة حتى يؤذن لهم او يملوا .

والداخلون على الخليفة كانوا يجلسون في المواضع اللائقة بهم ، وبمراتبهم ويتولى اجلاسهم الحاجب او الآذن ، وكانت الرتبة الاولى بعد الخليفة في الدولة الاموية لبني اميـــة ، يجلسون على الاسرة وبنو هـاشم على الكراسي ومن يليهم بعدهم ...

الآداب في المجالس

وكانت السذاجة لا تزال غالبة على المجالس في عصر الامويين ، وكان الخليفة اقرب الى ان يكون شيخ قبيلة منـه الى ملك متوج ، ولذلك كان الناس يخاطبون الخليفة في هـذا العهد باسمه او كنيته ، فلما ضخم

الملك عمل الامويون على التشبه بالدول التي سبقتهم ، واخذ بعض عمالهم يعظمون امر الخليفة ، ويفخمون مركزه ، وينزهون مجلسه عن مجالس سائر الناس ، واول من فعل ذلك زياد الذي اقتبس الكثير من امثال هذه التقاليد عن الفرس منذ كان اميراً على بلاد فارس عهد علي وصدراً من ولاية معاوية ، فوضع القاعدة « ان لا يسلم على قادم بين يـدي الخليفة ، » ثم منعوا الكلام في حضرة الخلفاء على الاطلاق ، واول من منعه عبد الملك بن مروان ثم عمد الخلفاء بعـد ذلك فمنعوا ان يخاطبهم الناس كما كانوا يخاطبون اسلافهم ، او ان يعظوهم وهم على المنابر ، او ان يطالبوهم بما كانوا يطالبون بـه غيرهم من الناس ، كان يقول انسان للخليفة « اتق الله » او « افعل هذا » و « امتنع عن هـذا » والوليد اول من سنّ ذلك واخذ الناس به .

ثم صارت القاعدة المرعية في مجـالسة الخلفاء ان لا يُدعى لاحد في حضرتهم . ولا ينهض لداخل إلا اذا نهـض الخليفة ، ومن آدابهم في المجلس ان لا يأمر فيه احد غير الخليفة ، واذا نهض نهض سائر الحضور ، وان يصغي الجليس الى كلامه بكليته فلا يشتغل عنه بشيء...

واذا اراد الخليفة صرف جلسائه ابدى اشارة يعرفونها فينصرفون ، فكان معاوية اذا اراد صرف الناس قال: اذا شئتم . او العزة لله .

وكان يزيد ابنه يصرفهم بقوله : على بركة الله .

وعبد الملك كان يحمل بيده خيزرانة فاذا القاها من يده عرف جلاسه انه يريد انصرافهم فينصرفون .

ومن انصرف من حاضرة الخليفة مشى القهقرى ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى .

مواكب الخلفاء

وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام لم يتكلف الخلفاء الراشدون شيئاً من هـذا ، فكان الخلفاء الراشدون يركبون ويمشون بين الناس كسائر الناس لا حرس امامهم، ولا حاجب خلفهم ، واول من اتخذ المواكب العمال في الامصار تقليداً للحكام والعمال من الروم والفرس قبلهم ، وحتى لا يتغير عـلى اهل البلد شيء مما تعودوه والفوه من ابهة الملك وسطوة السلطان ، وسبق الجميع معاوية فاقام حراساً يرفعون الحراب بين يديه او يقفون بالسيوف عند المقصورة التي يصلي فيها خوفاً من الاغتيال . واقتدى به عماله ، فاتخذ زياد في العراق رجالاً يمشون بين يديه بالاعمـدة او بالحربة ، ثم اصبح المسير بالحربة خاصاً بولي العهد ، او بكبار العمال يحملها رجـل راكب على جواد يتقدم الخليفة او الامير .

لهو الخلفاء

وكان الصيد معروفاً في الجاهلية ولكنه كان قاصراً على صيد غزال او طائر بالنبل او الفخ ، فلما تمدن العرب بعـد الاسلام وخالطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنص ، فاتخذوا الجوارح من الطير وهي الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور ، وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش ، واول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود وله كلف بالصيد ، فاتخذه للهو ، وكان يلبس كلابه الاساور من الذهب ، ويهب لكل كلب

عبداً يخدمه ، واشتغل بالصيد غيره من خلفاء امية عـــلى تفاوت في ذلك .

وكان السباق كذلك عادة شائعة عنـــد الامم التي سبقت العرب ، وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك ، وكثيراً ما نشبت الخلافات والحروب بسبب السباق ، وكانوا يرسلون خيلهم الى الحلبة – وهي ميدان السباق – عشرة عشرة ، وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السبق بعضها على بعض .

ولما تحضروا بعد الاسلام بالغوا في اتخاذ الميادين واستكثروا مـن الخيول وتفننوا في تضميرها ، وكان لمعاوية حلبة يخرجون اليها في ايام معينة للسباق ، فمن حاز قصب السبق اجازوه ، وقصب السبق قصبة يغرسونها في آخر الحلبة فمن سبق اليها واقتلعها فهو الفائز ..

وكان لهشام بن عبد الملك ولع بالسباق ، يستجيد الخيـل للسباق ، ويبذل في اقتنائها الاموال ، فاجتمع عنده (٤٠٠٠) فرس ولم يسبقه احد من العرب في ذلك ، وكان له فرس سابق اسمه (الزائد) اشتهر في ذلك العصر ، وكان يحضر حلقات السباق هو واهـل بيته والامراء ، وكانت اميرات البيت الاموي المالـك يتدربن عـلى ركوب الخيل ، ويشتركن في السباق ، وكان الوليد بن يزيـد مغرماً بالسبق ايضاً ، وكان لديه من الخيل الفاً ، اسبقها فرس اسمها (السندي) كان يسابق به في ايام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام ، وكان ميـدان السباق يومئذ في الرصافة من ارض الشام ، ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث كثيرة ، ولمحمد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة باسمائها وصفاتهـــا هي احسن ما نظم في هذا الموضوع .

مجالس الادب والشعر

واستمع الخلفاء من بني امية في اوقات فراغهم الى اخبار الحروب وسير الفرسان العرب في الجاهلية ، وكانوا يعقدون المجالس يحضرها الادباء من اهل الاخبار والنوادر والأدب والشعر ، يحدثون الخليفة بما يلذ له سماعه من اخبار العرب ونوادرهم واشعارهم كما كانوا يستمعون للشعراء ويجيزونهم ، ولكن اخبارهم قليلة مع الشعراء والادباء ، ولم يعظم مقام الشاعر في بلاط الخلفاء إلا عهد العباسيين ، ولم يتقرب من بني امية كل التقرب إلا الاخطل الشاعر ، وكان تقربه لاسباب سياسية ودواع عصبية ، واما بقية الشعراء والادباء فكان تقربهم من البلاط على قدر وفي اوقات معينة لا دائماً ولا ابداً ...

وكان اشهر من استمع من بني امية الى الشعراء يزيد وعبد الملك والوليد بن يزيد ، واما عمر بن عبد العزيز فلم يرضه شعر الشعراء ، ولا عمل على تقريبهم ولا دفع اليهم جوائزهم ، فعل عمر ذلك تورعاً ولكن بعض بني امية فعلوا ذلك بخلاً كهشام واما الوليد بن عبد الملك فقد شغلته العمارة عن كل شيء .

وكلف بعض خلفاء بني امية بالغناء والمغنين ، وقربوهم واجازوهم ، ودعوهم الى دمشق وحملوهم اليهم من اطراف الامبراطورية واشهر من فعل ذلك يزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد ابنه ، وارتفع سعر المغنيات في ايام هذين الخليفتين ارتفاعاً فاحشاً حتى كانت المغنية الواحدة تباع بعدة آلاف من الدنانير .

ازدياد الثروة والترف

وبتوسع الفتوح ، واستقرار الامور ، زادت الثروة وعمّ الترف بين

الناس ، فانتقل العرب في البلاد المفتوحة من حال الى حال واخذوا يتأنقون في طعامهم وشرابهم ولباسهم ، وقلدوا الفرس في اكثر اسباب الترف والحضارة .

وكان طعام العرب قبل الاسلام قاصراً على الالبان ، وما يستخرج منها كالسمن والزبدة والجبن ، ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على ابسط ما يكون من احوالها كما يفعل اهل البادية اليوم ، واكثر البانهم ولحومهم من الابل . وقد يصنعون منها اطعمة تتركب على نسب معينة (كالثريد) فانه يصنع من اللحم واللبن والخبز ، ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالرغيدة او يصنع من السمن والدقيق كالبكالة، او من الدقيق والسمن والعسل كالوضيعة ، وكان هذا طعام اهل اليسار .

واما طعام الفقراء من العرب فكان لحم الابل ، لا يأكلون الضان إلا قليلاً جداً ، واكثر ما يأكلون من اللحوم لحم الضّب والجراد والخنافس ، وما تناسب مع هذا من المآكل البدوية الساذجة .

فلما كانت الفتوحات دهش العرب لما شاهدوه في البلاد المفتوحة من الاساليب الجديدة في الاكل ، وكانوا في صدر الاسلام يكتفون بالقليل من الطعام ، ولم يكن طعامهم يتجاوز اللون او اللونين ، وكان خير اكلهم اللحم ، ولكنهم لم يكونوا يكثرون منه ، فابو موسى الاشعري كان يتجافى عن اكل الدجاج ، وكانوا يتجنبون الاكثار من اللحوم ، ويعتقدون فيها الضرر على نحو ما يعتقد فيها النباتيون اليوم تمثلاً بما قاله عمر بن الخطاب :

ـ مدمن اللحم كمدمن الخمر .

ولما حكم الامويون اخذوا بنعيم الحياة ومباهجها من مأكل ومشرب

على نحو ما كان الحال عند الفرس ، وتنعم معاوية بمأكله ومشربه ، واقتدى به خلفاؤه من بعده خصوصاً سليمان بن عبد الملك ، وتفننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماساً للمزيد من اللذة ...

اكلوا السكباج وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والخل ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدراج ونحوه ... والفالوذج وهو نوع من الحلوى ، كما استعملوا اللوز والسكر والجوز والخشاف والجلاب ...

وكان اهل المدن من العرب في عهد امية اكثر عناية وتفنناً من سكان البداوي في طعامهم وشرابهم ...

وكانوا يراعون قواعد الصحة ، فلا يدخلون الطعام على الطعام ، ولا يسرفون في الاكل ، وقد ورد في الحديث « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، واذا اكلنا لا نشبع » كما كانوا يغسلون ايديهم قبل الطعام وبعده ، ويأكلون بايديهم لعدم وجود الملاعق والشوك في عهدهم ، وكما كانت الحالة في اوروبا الى عهد قريب ، ومع ذلك فقد كان رسول الله يستعمل السكين في قطع اللحم ولم يكن يقطعه بيده .

وكانوا اذا اكلوا جماعة بسطوا سماطاً على الارض ، ثم جلسوا صفين حوله كما نجلس نحن اليوم حول المائدة ، وكرم العرب مشهور لا مجال لتفصيله ووصفه .

وكان من افضل اطعمتهم الثريد — وهو الخبز يفت ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم — ومنه اللمزة وهو الخبز يكسر على السمن ، والكوتان وهو الارز والسمك والاطرية ، وهو طعام كالخيوط من الدقيق ، والشعيرية وهو طعام كالخيوط صار فتلها في حجم الشعير ، والحشيش

وهو حنطة تطحن وتجعل في قدر ، ويلقى فيها لحم او تمر فيطبخ ، والعجّة وهو طعام متخذ من دقيق بعجن بسمن ثم يشوى .

ويظهر ان الخضر لم تكن مستعملة كثيراً عندهم ... وفي عهد الامويين زادت اشكال الطعام بما عرفوه من طعام الفرس والبيزنطيين، وفي عهدهم ايضاً استعمل العرب الفوط والملاعق ، وكانت الملاعق تصنع من الخشب ، كما جلبوا ملاعق الفخار من بلاد الصين ، وكانوا يجلسون على الكراسي وامامهم مائدة الطعام ، يكسوها مفرش من القماش .

البذخ في الالبسة

وكان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف بالطعم والملبس ، فكان الخليفة في عهد الراشدين يمشي في الاسواق وعليه القميص الخلق المرقوع الى نصف ساقه، او ثوب غليظ، وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه من ليف ، وفي يده درة يستوفي الحد بها ، هذا ما كان عليه عمر بن الخطاب وهكذا كان شأن عماله في عهده فقد كانوا اذا وفدوا عليه لبسوا جبةصوف وتعمموا بعمامةد كناء، ولبسوا مثل ذلك بساطة وخشونة في ارجلهم .

فلما كان العهد الاموي وتحضر الناس ، وخالطوا اهل الشرف من الاعاجم اضطروا بطبيعة الحال الى التبسط في العيش والتنعم باللباس ، واحب الامويون الوشي ، وكان اكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك فاجتمع عنده (١٢،٠٠٠) قميص و (١٠،٠٠٠) تكة حرير ، وكانت كسوته اذا حج تُحمل على ٧٠٠ جمل ، وفي ايام بني امية تسابق الصناع الى اجادة الوشي فلما كان العباسيون زادوهم وسبقوهم .

ولما اترف بنو امية لبسوا الحرير عـلى انواعه ، وتفننوا بانواع الانسجة واحبوا الوشي كما قدمنا ، واكثروا من لبسه ، فقلدهم الناس في ذلك ، فراجت المنسوجات الموشاة في ايامهم .

واتخذوا كثيراً من البسة الروم ، ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق .

وكان لباس البدو مؤلفاً من قباء طويـل مشقوق من الوسط ، ومتدل الى العقب ، ومربوط من الوسط بحزام مـن الجلد ، ولا يزال البدو من الرجال والنساء يستعملون هـذا الرداء الى اليوم . وكانوا يرتدون العباءة فوق القباء ، ويصنعونها من وبر الجمل ، وكانوا يرتدون في الحرب او عند ركوب الخيل ، اردية خاصة ، فيلبسون السروال عادة ، ورداء قصيراً بدلا من الثياب الفضفاضة المتدلية .

اما لباس الرأس فهو العمامـة ، وكان يختلف حجمها تبعاً للسن والمركز العلمي وغيره ، وكانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة ، وهو عبارة عن منديل كبير متدل على الكتفين ليقي الرقبة حرارة الشمس .

وكانت الاردية تختلف وفاقاً لثروة الناس ومركزهم الاجتماعي ، ونوع عملهم ، فكانت تختلف كسوة الفقيه او الكاتب او ثياب الجند وهكذا ، وكان رؤساء القبائل وغيرهم من عليـة القوم يرتدون قباء يصل الى الركبتين يعلوه سروال ، ثم جلباب فضفاض يتدلى الى العقبين ، ويشده من الوسط حزام من الحرير ، وفوق كل هذا الجبة او القباء ، وقد اخذها العرب عن الفرس والبيزانطيين .

وكان القباء على نوعين : احدهما له اكمام واسعة ، والثاني اكمامه ضيقة وله ازرار متقاربة ، وهذا النوع الاخير هو الذي يرتديه كبار رجال الدولة في ايران اليوم ، كما كانوا يلبسون النعال او الاحذية .

اما ثياب المرأة فكانت تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد ، وكانت المرأة العربية اذا خرجت من بيتها ترتدي ملاءة طويلة تغطى جسمها وتقي ملابسها من التراب والطين ، وكانت تلف رأسها بمنديـــل يربط فوق الجبهة ، وكانت النساء في الجاهلية يلبسن قميصاً مشقوقاً الى الصدر .

الاثاث والرياش والمجوهرات

وجلس الخلفاء الراشدون على الارض مثل سائر الناس ، وكذلك عمالهم في اول الامر ، فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصر على الارض مع العرب ، ويأتيه المقوقس ومعه سرير من الذهب محمول على الايدي لجلوسه شأن الملك يومئذ فيجلس عليه .

ولما تحضر المسلمون اتخـــذوا الاسرة من الذهب والعاج ، وفاقوا الاكاسرة والقياصرة قبلهم ، واول من اتخذ السرير في الاسلام معاوية ، ويريدون بالسرير المقعد او الكرسي الكبير ، ولم يقدم معاوية على ذلك الا بعد استئذان المسلمين والاعتذار لهم بثقل جسمه .

ولما خرج المسلمون للفتوح عثروا عـــلى كثير من الاثاث الثمين والرياش الفاخرة والجواهر العظيمة في فارس وبلاد الروم ، ولكنهم لم يفطنوا لقيمتها وخطرها في اول الامر ، حتى لقد كان العربي المقاتل يفضل الحيوانات الداجنة على الجواهر ويستبدلها بها ، فلما كان عهد امية ظهر في قصور الخلفاء وقصور الامراء والاغنياء الاثاث الثمين ، والرياش الفاخرة ، كما اخذ الخلفاء يكثرون من استعمال الجواهر ، وكان لدي الوليد بن يزيد عدداً عظيما من العقود الجميلة المجوهرة يغيرها في كل يوم كما تبدل الثياب ، وكان يجمع هذه الجواهر من كل وجه ويغالي بها ،

ومع ذلك فان الاثاث والرياش في عهد الامويين ظلت ساذجة بسيطة بالنسبة لما صارت اليه الحال في عهد العباسيين وغيرهم .

التسري

والتسري اقتنـــاء الجواري للتمتع بهن او استيلادهن ، وهو من مسببات الحضارة ومتمماتها ، وقد تكاثر عـــدد الجواري بسبب الفتوح العظيمة ، وكانت العرب تحتقر ابناء الجواري، ثم ضعفت هذه الكراهية لما كثر التسري بالجواري ، وليس المسلمون اول من اقتنى السراري ، فهذه العادة كانت شائعة عند الرومانيين قبلهم ، والسرية احط منزلة من الزوجة ، ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية .

وكثرت رغبة المسلمين في التسري في ابان الحضارة ، حتى اصبح اكثر ابناء الخلفاء من اولاد الجواري ، وتكاثر الجواري اضعف النسل العربي ما في ذلك شك ولا ريب ، والاستكثار من الجواري في اوائل الاسلام لم يكن يحتاج الى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما استقرت الفتوح ، وعظم التمدن ، صاروا يبتاعونهن ويغالون في دفع اثمانهن ، وكانت اسعارهن تتضاعف اذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء .

وكان يختلف ثمن الجارية من بضع مئات الى بضعة الوف او مئة الف دينار ، وقد اشترى سعيد بن عبد الملك الزلفاء الجـــارية الشهيرة بمليون درهم (٧٠،٠٠٠ دينار) .

واشترى يزيد بن عبد الملك سلامه المغنية بعشرين الـــف دينار ، وبيعت الجارية ضياء بخمسين الف دينار ، وبلغت قيمة الجواري في عهد العباسيين اكثر واكثر .

سخاء العرب

والواقع ان العرب حملوا معهم من جاهليتهم وصحراواتهم سخاءهم الرائع وكرمهم الجميل ، وكان الكرم صفة عالقة بهم ، يمدحهم الشاعر فيعطونه ما لديهم ، ويأتيهم المستجير فيضحون انفسهم في سبيله ، فلما تدرجوا في الحضارة والمدنية زادت جوائزهم وعطاياهم بزيادة الثروة واتساع الارزاق ، فكان الامويون يعطون بآلاف الدراهم يلحقونها ببعض الماشية او الكسوة او الخيل ، واذا توسعوا بالعطاء لمصلحة سياسية او لان المديح هزهم واثار حميتهم كانت عطاياهم بعشرات الالوف ومئات الالوف .

واقتدي بخلفاء امية امراء ذلك العهد من العرب واشتهر منهم آل المهلب الذين جمعوا بين السيف والكرم ، ومثلهم خالد القسري والحجاج بن يوسف ، وقد اعطى الحجاج للذي توسط بزواجه بهند بنت اسماء ثلاثين غلاماً مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية مع كل جارية تخت من ثياب .

وكان سعيد بن العاصي لا يرسل الى احد هدية مع عبد إلا كان العبد من جملتها .

وقصص عبد الله بن جعفر وغيره في الكرم كثيرة .

الاشربة

وكانت الخمرة شائعة قبل الاسلام بين كل الامم فلما جاء الاسلام حرمها لما فيها من المضرة ولما يتبعها من التبذل ، واقام الحدود في منعها بالجلد والحبس وحلق الرأس او اللحية او الشوارب او قطع العطاء ، وعاقبوا

بائع الخمرة وكسروا آنيته ولا سيا في عصر الراشدين ...

فلما كان عصر بني امية اخذ بعض الخلفاء يتناولون النبيذ بحجة انه غير محرم ، اتبعوا في هذا فقهاء العراق الذين كانوا يذهبون الى عدم تحريمه ، بخلاف اهل الحجاز الذين كانوا يحرمونه ...

والنبيذ يصنع من اكثر انواع الفاكهة ، ولا سيما العنب والتمر ، والزبيب والتفاح والمشمش ومن الذرة ، ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق استحضاره ، وهو عصير بعض الاثمار او منقوعها — كما ينقع الزبيب اليوم (الخشاف) — وقد يضيفون اليه العسل او الدبس او يصنعونه من احدهما ثم يضعوه على النار ، وكانوا اذا اقبلوا على شربه صفوه ، وتناولوه بالاقداح الكبيرة ، وربما صنعوا الخمر منه ، واذا صفي في القناني صعب تمييزه من الخمر او منقوع الزبيب ، او مذوب العسل ، فمن احب الشرب استحل تناوله على انه نبيذ ، فاذا اكثر من شربه فعل فعل الخمر ، وبعضهم كان يحلل قليل الخمر ، ويحرم كثيرها ، وآخرون يحللون شرب الخمر إلا اذا ادت الى السكر ...

والخلفاء العقلاء الذين ذكر التاريخ انهم شربوا في مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ وهو حلو منعش فيكثرون منه ، ويؤيد ذلك انهم كانوا يشربونه بالارطال ، وليس احد في العالم يشرب الخمرة بالارطال ، ويظل حافظاً لعقله ، ضابطــاً لأعصابه . وهذا يدل على ان النبيذ المذكور لم يكن من الاشربة المسكرة كخمرة اليوم ...

المذاهب الاسلامية الجديدة

الشيعة

كان من اثر الاختلاف السياسي بين المسلمين حول الخلافة ظهور بعض المذاهب الجديدة التي كان لها اثرها وشأنها في سياسة الدولة الاسلامية والاسلام ...

وكان اول هذه المذاهب ظهوراً المذهب الشيعي الذي نشأ في الحجاز اولا ، ثم انتقل منه الى العراق ففارس فمصر فغيرها من الامصار الامبراطورية .

وكان مدار هذا المذهب اول الامر حول التعصب لعلي بن ابي طالب واولاده من بعده ، ثم ذهبوا يوجبون الامامة فيه وفي اولاده، ويقولون - خصوصاً الامامية منهم - ان خلافة علي منصوص عليها من الرسول، ولا تكون في غير آل البيت، وانه معصوم وآله عن الكبائر والصغائر، ويزيدون ان الامامة في علي لا تخرج عنه وعن اولاده شرعاً ، وان خرجت فبظلم من الناس ، او بتقية من اولاده كما يجعلون الاعتقاد بالامامة جزءاً من الايمان ...

والشيعة عدة فرق ، منهم المغالي ومنهم المعتدل ، وقد تجاوز رأي الشيعة في الامامة القول الى العمل ، - بخلاف المعتزلة - فكان من اثر ذلك ثورات عديدة قام بها بعض الائمة في ايام امية ، وايام العباسيين فلم يوفقوا ...

الخوارج

واما الخوارج فيجوزون ان تكون الامامة في غير ابناء علي ، بل في غير قريش ، ويرى بعضهم جواز خلو العالم من امام ، بخلاف الشيعة ، ويوجبون محاربة الامام الجائر ، وينفون العصمة عن سائر البشر ، وقد نشأ مذهبهم في عهد علي بن ابي طالب بعد معركة صفين ، واختلاف الحكمين ، وهم يكفرون بعض الصحابة ، وكل من رضي بحكم الحكمين في وقعة (صفين) ، وقد افترقوا فرقاً عديدة ، وحاربوا خصومهم وحاربهم خصومهم ومزقتهم الحروب المختلفة فلم يبق منهم اليوم الا اقلهم ...

المرجئة

وكذلك نرى ان الخلاف في الاسلام اول ما شجر حول الخلافة وحول نظام الحكم في الاسلام ، فحارب الشيعة في سبيل العقيدة الملكية الوراثية ، وحارب الخوارج في سبيل تأييد المذهب الديمقراطي الجمهوري في الاسلام ، ووقف المرجئة موقفاً محايداً من كل هذه الاختلافات ، وكانوا من الجند الذين غادروا الامصار الاسلامية للفتوح والناس صفاً واحداً لا يوجد بينهم اختلاف ولا شقاق ، فلما عادوا من فتوحاتهم الى المدينة بعد قتل عثمان بن عفان وجدوا بين الناس من يقول « قتل عثمان مظلوماً » ، ومن يقول : « ان علياً اولى بالحق واصحابه » فوقفوا موقفاً معتدلاً من الجانبين وقالوا : نحن لا نتبرأ منهما ولا ننكرهما ، ولا نشهد عليهما ، ونرجىء امرهما الى الله هو الذي يحكم بينهما » .

فيظهر من هذا ان هذا الحزب الجديد كان يرفض ان يغمس يده في الفتن او ان يشد ازر فريق على فريق ، بل ولا ان يحكم بتخطئة فريق ،

وتصويب آخر ، والسبب المباشر في تكوينه اختلاف الاحزاب في الرأي والسبب البعيد مسألة الخلافة ، فلولا الخلافة ما كانت الخوارج ، ولا ظهر الشيعة ، ولا نشأ المرجئة .

ومذهب المرجئة اذاً مذهب تساهل ، وسموا بهذا الاسم من الارجاء والتأجيل ، لانهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين الى يوم البعث ، كما يتحرجون عن ادانة اي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها ، لانهم يرجون المغفرة والثواب من الله لاهل المعاصي ، فلا يحكمون على احد بكفر او فسق كما فعل سواهم ، ويقولون : ان الايمان انما هو التصديق بالقلب واللسان فحسب ، وانه لا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

ويقال ان اول من قال بالارجاء الحسن بن الحنفية ، ولكنه لم يؤخر العمل عن الايمان ، بل قال : «ان اداء الطاعات وترك المعاصي ليسا من الايمان فلا يزول بزوالها» ، وظاهر من هذا انه لا يذهب مذهب المرجئة في كل شيء ، وقيل اول من وضع الارجاء بالبصرة حسان بن بلال المزني وقيل غيره .

ويذهب (فان فلوتن) احد المستشرقين ان تسمية «المرجئة» ترجع الى بعض آي القرآن ، وعلى هذا تكون تسمية المرجئة مشتقة من كلمة ارجاء بمعنى بعث الرجاء والامل .

وكانت العقيدة الاساسية عند المرجئة ، عدم تكفير اي انسان اياً كان ، ما دام قد اعتنق الاسلام ونطق بالشهادتين مهما ارتكب من المعاصي تاركين الفصل في امره لله وحده .

وذهب جهم بن صفوان احد رؤوس المرجئة : الى انه متى آمن الانسان بقلبه بالاسلام ، فليس يضره اذا اعلن الكفر بلسانه ...

والاخبار عن المرجئة قليلة جداً ، وقدضاعت جميع المصادر التاريخية عنهم ، وما ذهبنا اليه عن مذهبهم قد اتفق عليه الاجماع ، وكانوا الى ذلك يقفون من الامويين موقف التأييد السلبي لا الايجابي ، ويرون ان حكومتهم حكومة شرعية ، ومن هذا كان تأييد بني امية لهم واعتبار بعض المؤرخين المرجئة حزباً سياسياً اموياً ...

وبعد ان كان مذهب « الارجاء » مذهباً سياسياً اصبح مع الايام يبحث الامور الدينية ، واهم ما بحثوا فيه تحديد « الايمان »و« الكفر » و« والمؤمن والكافر » وقد دعا الى هـــذا البحث انهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم ، والشيعة تنكر من خالفهم ، وغـــلا الخوارج فعدوا كل كبيرة كفراً ، وغلت الشيعة فعدت الاعتراف بالامام ركناً اساسياً من اركان الدين والايمان ، فكانت النتيجة الطبيعية ان يعرض على بساط البحث ما الكفر وما الايمان ، فرأى كثيرون من المرجئة ان الايمان هو المعرفة بالله ورسله ، فمن آمن بالله ورسله فهو مؤمن عند المرجئة ، ولكن الخوارج لا ترضى بذلك بـل تفرض على المسلم فوق الايمان الاتيان بالفرائـــض والكف عن الكبائر ومن لم يفعل ذلك واكتفى بالايمان فقط فهو كافر عندهم ، مؤمن عند المرجئة .

نشأة المعتزلة

ومما يلفت النظر في دراسة الفرق الاسلامية ان اكثرها ظهر في العراق واقلها في دمشق ، ولم يظهر في دمشق منها الا (المرجئة) او المعتزلة فقد نشأت في البصرة ، وصاحبها واصـــل بن عطاء تلميذ الحسن البصري الذي اشرنا الى ان كثيراً من المذاهب الاسلامية يُردّ اليـه ، وكان الحسن من مؤيدي نظرية حرية الرأي التي كان يقول بها القدرية ،

والقدرية اول مدرسة فلسفية في الاسلام .

ويصف لنا البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ظهور المعتزلة فيقول : حدث في ايام الحسن البصري خلاف بينه وبين واصل بن عطاء في القدر ، وفي المنزلة بين المنزلتين ، وانضم الى واصل عمرو بن عبيد ، فطردهما الحسن عن مجلسه ، فاعتزلا الى سارية من سواري مسجد البصرة فقيل لهما ولاتباعهما (معتزلة) لاعتزالهم قول الامة في دعواهما: « ان الفاسق من امة الاسلام لا مؤمن ولا كافر » .

ويقول الاستاذ براون عن نشأة المعتزلة : (١) وكل ما اتصل بنا بوجه عام عن نشأة المعتزلة وتسميتهم بهذا الاسم هو ان واصل بن عطاء الذي كان من تلاميذ الحسن البصري الفقيه المشهور قد اختلف مع استاذه في مسألة المؤمن العاصي الذي ارتكب ذنباً كبيراً ، هل لا يزال يسمى مؤمناً ام لا ؟ ويقول واصل ان مثل هذا الشخص لا يمكن ان يسمى مؤمناً او كافراً ، بل يجب ان يوضع في منزلة وسط بين المنزلتين ، وقد انتحى واصل ناحية بعيدة من المسجد ، واخذ يشرح رأيه لتلاميذه الذين اتبعوه ، فكان الحسن البصري يقول للذين التفوا حوله : بان واصلاً قد (اعتزل عنا) ، ومن ثم اطلق خصوم واصل عليه وعلى اتباعه اسم (المعتزلة) .

ويرى فون كريمر المستشرق النمسوي المشهور : ان الاعتزال قد نما وانتشر في دمشق تحت تأثير رجال الدين من البيزانطيين ، وبخاصة

---

(١) القدرية — هم المغالون في اثبات القدرة للانسان ، وانه لا يحتاج الى معونة الهية في اعماله ، وهذا مذهب قريب من مذهب المعتزلة ، وزعيم هذا المذهب (النظام) من شيوخ المعتزلة ، واول من قال بالقدر بهذا المعنى (معبد الجهني) وكان يجالس الحسن البصري ، وتبعه اهل البصرة فعذبه الحجاج وصلبه سنة ٨٠ ﻫ بامر عبد الملك بن مروان .

يحيى الدمشقي او يوحنا ، وتلميذ تيودور ابو قره ، واما ذلك الاسم الآخر الاكثر وضوحاً وهو — القدرية — الذي عرف به اهل هذه الطائفة فانه يرجع الى مذهبهم القائل بحرية ارادة الانسان .

ويرى فون كريمر ايضاً : ان معبد الجهني ٨٠ هـ كان يدين بمذهب حرية الارادة في دمشق اواخر القرن السابع الميلادي وانه تلقاه من فارسي يسمى سنبويه ، وقد صار قتله في عهد عبد الملك بن مروان .

والواقع ان اول ما يبحثه العقل البشري هو مسألة الجبر والاختيار ، هل ارادتنا حرة نعمل ما نشاء ونترك ما نشاء ، ام اننا مجبرون على عمل ما نعمل فلا نستطيع ان نعمل غيره ، ولا نستطيع ان ندفعه عنا ؟

وقد نشأت الابحاث الدينية في هذا الموضوع لما نظر الانسان فرأى انه — من ناحية — يشعر بانه حر الارادة يعمل ما يشاء ، وانه مسئول عن عمله ، وهذه المسئولية تقتضي الحرية ، فلا معنى لان يعذب ويثاب اذا كان كالريشة في مهب الريح تتحرك بحركته وتسكن بسكونه .

ورأى من ناحية اخرى : ان الله عالم بكل شيء ، احاط علمه بما كان وما سيكون ، فعلم ما سيصدر عن كل فرد من خير او شر ، وظن ان هذا يستلزم حتما ان الانسان لا يستطيع ان يعمل الا على مشيئة ما علم الله ، فحار في ذلك بين الجبر والاختيار ، واخذ يفكر هل هو مجبر ام حر الاختيار ؟؟

ولما انتهى المسلمون من الفتح وهدأت الاحوال واستقرت الامور اخذوا يفكرون بهذه المسألة التي شغلت الامم التي سبقتهم فظهر في الاسلام قوم يقولون بحرية الارادة ، معارضين الفكرة الشائعة بان الانسان مسير لا مخير ..

ويقول المؤرخون ان اول من تكلم بالقدر معبد الجهني وغيلان

الدمشقي ، وقد قتل الحجاج معبداً كما قدمنا ، واما غيلان فكان يسكن دمشق ، وكان رجلاً مفوهاً ، اكثر الناس من الوقيعة فيه فامر هشام بن عبد الملك بقتله .

وقد روي ان غيلان وقف يوماً على ربيعة الرأي فقال له :

— انت الذي تزعم ان الله يحب ان يُعصى ؟

فقال له ربيعة : وانت الذي تزعم ان الله يعصى قسراً .

وهذا يدل على ان فكرة القضاء والقدر التي نشأت في البصرة قد انتقلت الى الشام وان الناس اخذوا يبحثون فيها ...

الجبرية

وعلى عكس القدَرية ظهرت الجبريّة ، وكان من اولهم جهم بن صفوان ، وكان يقول : ان الانسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة ، وانه لا يستطيع ان يعمل غير ما عمل ، وان الله قدر عليه اعمالاً لا بد ان تصدر عنه ، والله قدّر لفلان فعل كذا ، وقدر له ان يثاب ، وقدر على الآخر المعصية وقدر ان يعاقب .

وقتل جهم هذا في ثورة الحارث بن سريج في خراسان في اواخر عهد امية ، وايام امارة نصر بن سيار .

وتعرض الجهم لمسألة اخطر واهم ايضاً ، وهي القول بنفي صفات الله ، ذلك انه وردت في القرآن آيات كثيرة تدل على ان لله صفات من سمع وبصر وكلام ، فنفى الجهم ان يكون لله صفات غير ذاته ، وقال : « ان ما ورد في القرآن مثل سميع وبصير ليس على ظاهره بل هو مؤول لان ظاهره يدل على التشبيه بالمخلوق ، وهو مستحيل على الله فيجب تأويل ذلك » وقال : لا يصح وصف الله بصفة يوصف بها خلقه لان

ذلك يقتضي التشبيه ، وقال : ان القرآن مخلوق خلقه الله ، وكان ذلك نتيجة طبعية لنفيه الصفات ، فاذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن كلام الله القديم إلا على التأويل ، وانما خلقه الله ، وغير ذلك من الآراء التي لا مجال للتبسط فيها الآن ...

مذهب الاعتزال

ولقد ذابت القدرية والجبرية في غيرهما من المذاهب الجديدة التي نشأت بعدهما ، وظهر على اثرهما مذهب الاعتزال ، وكثيراً ما يسمى المعتزلة بالقدرية ، لانهم وافقوا القدرية في قولهم « ان للانسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى ، ونفوا ان تكون الاشياء بقدر الله تعالى وقضائه . »

واخذت المعتزلة عن الجبرية او عن جهم بن صفوان احد زعمائهم مسألة القول في نفي الصفات عن الله وفي خلق القرآن ، وقولهم ان الله لا يرى .

واما اسم « المعتزلة » فقد اختلف في اسبابه المؤرخون وليس فيما اوردوه من حيث اساس هذا الاسم ما يقنع ، ونعتقد انه صار اطلاق هذا الاسم على جماعة اعتزلت جماعة او جماعات اخرى لاختلافها معها دينياً وسياسياً ، لا لاعتزال فلان حلقة فلان في المسجد او غير المسجد .

والمعتزلة في الواقع جماعة معتدلة ، اعتزلت الخوارج ، واعتزلت المرجئة ، ووقفت منهما موقفاً وسطاً ...

وقد اشرنا الى موقف الخوارج الشديد وكيف اعتبروا من خالفهم في رأيهم بعيداً عن الدين والاسلام ، وكيف تساهل المرجئة تساهلاً كبيراً ، فلم يحكموا بالكفر على الامويين والشيعة والخوارج ولا على

احد ممن نطق بالشهادتين ، ولم يجزموا ايضاً بتكفير اهل الكتاب لان الايمان في القلب ، وليس يطلع عليه إلا الله ، وهذا المذهب يدعو الى مسايرة الناس ومسالمتهم جميعاً ، وهذه النظرية الكثيرة التساهل ذهب يقول فيها بعض العلماء : انها اطمعت الفساق في عفو الله ...

واما المعتزلة فقد وقفوا وسطاً بين الخوارج والمرجئة ، فقالوا وعلى الاخص : – واصل بن عطاء واتباعه – بالمنزلة بين المنزلتين ، وبعبارة اخرى قالوا : ان مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ، لان الايمان عبارة عن خصال من الخير ، اذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً ، وهو اسم مدح ، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فـــلا يسمى مؤمناً ، وليس هو بكافر مطلق ايضاً لان الشهادة وسائر اعمال الخير موجودة فيه لا وجه لانكارها ...

وقد اضطر المعتزلة الى تطبيق نظريتهم هذه على الاعمال التي عملت منذ نشب الخلاف بين المسلمين ، ايّ الفريقين كان مخطئاً ، عثمان ام قاتلوه ؟ وهل كان علي محقاً في وقعة الجمل ام عائشة ؟ وكيف نحكم على كل من كان بيدهم ادارة الحرب في صفين . من هو مرتكب الكبائر منهم ؟ ومن الذي يعدّ بحق فاسقاً ؟

وكان المعتزلة اجرأ الفرق على تحليل اعمال الصحابة ونقدهم واصدار الحكم عليهم بصورة عامة ، بينما تحاشت المرجئة اصدار حكم من هـــذا النوع ، وكانت احكام الخوارج ضيقة لا تعدو مسائل محدودة كالتحكيم وعلي ومعاوية والخلافة ، اما المعتزلة فاصدروا الاحكام بكل صراحة ، فواصل بن عطاء لم يجوز قبول شهادة بعض الصحـــابة ، وجوّز ان يكون عثمان وعلي على خطأ ، وانكر عمرو بن عبيد ابا هريرة وطعن في روايته ...

ويظهر لنا ان الدولة الاموية وقفت موقف المتفرج من المعتزلة فلم تعرض لهم بشر ولا خير ، لان نقد المعتزلة لبعض الصحابة خصوصاً لعلي كان موافقاً لسياستها واغراضها .

كما ان هناك من بني امية ومن الخلفاء من ايـد المعتزلة واعتنق فكرتهم كيزيد بن الوليد ومروان بن محمد ، وهذا مع نقـد المعتزلة لمعاوية وعمرو بن العاص ، ومـع اتهام بعض كبارهم لمعاوية باستثمار اموال الدولة لمصالحه الخاصة ..

ولا يجب ان يغرب عن الاذهان ان الذي ايد المعتزلة هم آل مروان لا آل سفيان ، وآل مروان كانوا الحكام عندئذ ، واما آل سفيان فقد انهار حكمهم بعد معاوية الثاني ..

وكان المعتزلة الى هذا يسمون انفسهم اهل العدل والتوحيد ، فاما العدل فلانهم نفوا صفات الله ، وعدوا القول بها تعديداً لله.

واما العدل فلانهم نزهوا الله عما يقوله خصومهم من انه قدر عـلى الناس المعاصي ثم عذبهم عليها ، وقالوا ان الانسان حر فيما يفعل ، ومن اجل هذا ، عذّب على ما يفعل ، وهذا عدل ...

والواقع انه ليس في القرآن ايات صريحة — لا يمكن تأويلها — تدل على ان الانسان مسير لا مخير ، لان الانسان يحاسب على اعماله ، واذاً فاعماله اساس كل شيء .

ومن المفروض طبعاً ان الله خلق الانسان ، وخلق له عقـلا ، فمن حكم عقله في اعماله فقد نجا ، ومن حكم عواطفه فقـد ضلّ ، وسبحانه وتعالى قد علم من الازل طبعاً ان فلاناً الذي خلقه سيفعل كذا كذا ، ومعرفة الله لما سيفعل فلان ليس معناها انه قد خلقه وقرر عليه العمل المذكور ، لان معرفة الله لما سيفعل فلان شيء مفروض واجب لضرورة

كونه الله ..

وكذلك الامر في انه لا يصدر عمل من انسان الا باذن الله ، يفسر ايضاً على هذا النحو ، ولكن العقل الانساني هو المقرر الاساسي لاعمال الانسان .

ولولا ذلك لما رفع الله الحساب عن المجنون وضعيف العقل ، واذاً فالعقل وكماله اساس الحساب ، ولولا ذلك لوجبت محاسبة المجنون ايضاً لانه مسير ، كما ان غيره من العقلاء مسير .

اما الآيات الواردة في القرآن من امثال « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة فهم لا يعقلون » فيجب ان تفسر على النحو الآتي :

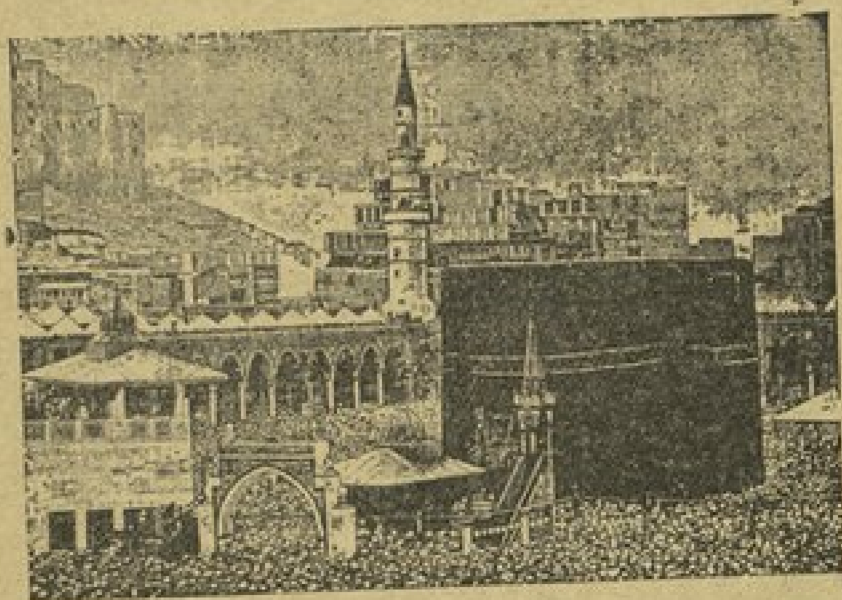
انه يتعلق بالحكمة الالهية توجيه نعمته وهديه الى الاشخاص الذين يريدهم في الوقت الذي يشاء ، وان يعزز الايمان في الاشخاص الذين عندهم استعداد عقلي وقوة ارادة ليكونوا امثولة حسنة لسواهم ، ويترك الاشخاص الذين ليس عندهم هذا الاستعداد وشأنهم ، وهذا الشر المتأصل بهم ينقلهم من سيء الى اسوأ .

ويؤيد ذلك ان القرآن يعارض في تحميل غير المسؤول غلطة المسؤول ، فلا يمكن والحالة هذه قبول فكرة ان الانسان مسير ، وانه والحالة هذه يحاسب على اخطائه وهو ليس مسؤولاً عنها ...

ولم ينتشر مذهب الاعتزال إلا في العهد العباسي ، وان كان قد نشأ في العهد الاموي ...



المدينة العاصمة الاولى للدولة الاسلامية العربية



مكة حيث ولد محمد بن عبدالله

-١٧-

التربية والتعليم في الدولة الاموية

التربية والعلوم عند العرب قبل الاسلام

ليس في العلوم العربية التي وصلت الينا عن القبائل العربية قبل الاسلام ما يستحق الذكر فقد كان العرب يعرفون في باديتهم وصحراواتهم مثل ما هو مفروض ان يعرفه غيرهم من الامم ممن كانوا في مثل حالهم ومواطنهم مثل مواطنهم .

كانوا يعرفون شيئاً عن النجوم ومواقعها لان طبيعة الصحراء كانت تحتم عليهم الانتقال بخيامهم وانعامهم من نجع الى نجع ، ومن صقع الى صقع ، فكان من المفروض ان يعولوا في الاهتداء الى السبل في الصحراء على النجوم ومواقعها لان العرب كانت تسافر ليلاً كما تسافر نهاراً ، واكثر ما كانت تسافر ليلاً لان الجو يكون ارطب والهواء ابرد .

واحتاجوا في مطاردة اعدائهم وخصومهم الى استنباط الادلة للكشف عن مخابئهم ، فاستنبطوا قيافة الاثر ، والجأهم ذلك ايضاً الى توقي حوادث الجو من المطر والاعاصير ونحوها فعنوا في التنبؤ عن حدوث الامطار وهبوب الرياح قبل حدوثها ، وهو ما يعبرون عنه بالانواء ومهاب الرياح .

ودعاهم الغزو الى العصبية يتألفون بواسطتها الاحزاب فعمدوا الى الانساب يترابطون بها ، وبرعوا في دراستها ، والارتحال والغزو ونحوه مما تفرضه حياة البادية يقتضي العناية بالخيل والسلاح ولو كانوا اهل

حضارة لاتقنوا صنع السلاح ، واما الخيل فبرعوا في تربيتها وانتقائها ومعالجة امراضها ، وكانت عنايتهم بالجمال مثل عنايتهم بالخيل .

والعلوم التي كانت شائعة عندهم قبل الاسلام كانت ضرورية لهم باعتبار الاقليم الذي نزلوا فيه ، واقاموا به ، والعرب الى ذلك لم يتعلموا هذه العلوم في المدارس ، ولا الفوا فيها الكتب ، لانهم كانوا اميين لا يقرأون ولا يكتبون ، وانما هي معلومات تجمعت في محفوظهم بتوالي الاجيال بالاقتباس والاستنباط ، وتنوقلت في الاعقاب.

واذا امعنا النظر في مصادر العلوم العربية القديمة رأينا بعضها خاصاً بالعرب ، نشأ عندهم ، والبعض الآخر دخيل صار اقتباسه من الامم الاخرى ، فالعلوم العربية هي الانساب والشعر والخطابة .

والدخيلة: النجوم والطب والانواء والخيل ومهاب الرياح والميتولوجيا والكهانة والقيافة وغيرها .

والذي يهمنا بحثه في هذا الفصل هو ان العرب في الجاهلية لم يكونوا ينعمون بشيء مما يسمى تربية في زماننا ، ولا تعليما في عهدنا ، وانهم كانوا قوماً اميين لا يعرف القراءة والكتابة الا بعض افراد منهم كانو يسكنون المدن ويقيمون فيها ..

التربية والتعليم في الاسلام

والمدارس بالمعنى المعروف اليوم لم تكن موجودة لا قبل الاسلام ولا بعده بقليل ، وفي عهد رسول الله نسمع ان رسول الله طلب من الاسرى المكيين الذين وقعوا في يد المسلمين بعد معركة بدر ان يعلم من يعرف القراءة والكتابة منهم المسلمين القراءة والكتابة .

واذاً فنحن امام اول مدرسة في الاسلام ، وهذه المدرسة كانت

في المدينة لما اخذ الاسرى المكيون من قريش يقومون بوظيفة المعلم لجهلة المسلمين ، من الذين لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة .

والظاهر ان القوم في هذا الزمن – هذه الفترة التي سبقت ظهور النشاط العلمي والادبي في عهد امية – كانوا يعتبرون المتعلم الكامل ، الشخص الذي يقرأ ويكتب ويسبح ويستعمل السلاح ، وقد نقلنا هذه الكلمة عن الاغاني ، واقحام السباحة في هذه الجملة يدل على تأثير اليونانيين الذين كانت لهم مرافىء بحرية ، او العرب من جنوبي الجزيرة الذين برعوا في ركوب البحر .

المدارس الحرة المستقلة

ولكن الشيء الذي يستلفت النظر في دراسة تاريخ التربية والتعليم عند العرب ان الذين عُنوا بشؤون التربية لم يكونوا من رجال الحكم وانما كانوا من افراد الشعب الذين تطوعوا للتعليم ، والدرس ونشر المعارف .

وفي المصادر التاريخية القديمة ان رسول الله ارسل معاذ بن جبل الى اليمن معلماً ومرشداً ...

وارسل عمر بن الخطاب عبدالله بن مسعود معلماً ومرشداً الى الكوفة ..

وهناك ظاهرة اخرى هي علاقة النظام التربوي الذي اجراه المسلمون الافراد انفسهم لا الحكومة ، بالدين وتأثير الدين عليه ، فقد دعا القرآن الى طلب العلم ، وحض محمد المسلمين على العلم ولو كان في الاماكن البعيدة القاصية ، ودونه المشاق والمتاعب ، ولتنفيذ هذه الرغبة التي ابدها القرآن ودعا اليها محمد ، نشأت مشات المدارس في

مختلف الاقطار الاسلامية القريبة والبعيدة .

ويقول الاستاذ « هل » في كتابه « الحضارة العربية » :

« اما ان المسلمين قد اسسوا مدارس للتعليم العام في بلاد العرب ، وفي البلاد المفتوحة فهذا شيء ثابت ، لا تستطيع الحضارات القديمة الاولى ان تباهي بشيء من مثله » .

وكانت المدارس الابتدائية مقدمة للتعليم العـــالي الذي كان من مظاهره حرية الرأي والتفكير ، ونشر العلم والبحث عن الحقيقة .

المدرسة الاولى

وكذلك نرى ان الاسلام منذ نشأته ، وفي سبيل العلم ، قدم المسجد ليكون المدرسة الاولى ، وليكون المكان الاول للجماعة الاسلامية ..

ولما كان المسجد للصلاة ، وكان طلب العلم من جمـلة الواجبات المفروضة على المسلم كالصلاة مثلاً ، فقد فتحت المساجد ابوابها للدرس والتعليم ...

وفي ذلك العهد الاسلامي الاول كان الداخـــل الى المسجد يشاهد منظراً عجباً ، فهناك في طرف المسجد جماعة يصلون ، وآخرون يقرأون القرآن ، وفي ركن آخر ، جماعة من العلماء والادباء يفسرون قصيدة من قصائد الشعراء المعاصر او الشعر الجاهلي ، كما نجد في ركن ثالث عالماً جلس حوله تلاميذه ، وهو يشرح لهم بعض اصول الحـديث ، او يفسر لهم بعض آي القرآن ..

المسجد اذاً لم يكن للدين والصلاة فحسب ، وانما كان مركزاً بارعاً لطلب العلم والمعرفة ايضاً ، فالحريري في مسجد البصرة القى محاضرات عن الشعر كانت بعيدة كل البعد عن الدين والصلاة ، وفعل مثله غيره

من العلماء في مختلف مساجد الاسلام .

طريقة التدريس

وكان العادة المتبعة عند العلماء ان يصار الى بحث الموضوع الذي يصار الى تدريسه ونقده في وقت الدرس نفسه ، وكان من اثر ذلك ان كان العلماء يعنون عناية خاصة بدروسهم ومحاضراتهم ، وقد حصل غير مرة ان يتوقف المحاضر في المسجد عن اتمام محاضرته ، اذا رأى من هو اعلم منه قد اقبل عليه وجلس في حلقته ، فيترك مكانه ويجلس بين يديه كاحد التلامذة الطلاب .

وكان يصار الى التدريس في حلقات يجلس فيها الناس على الارض في ركن من اركان المسجد ، ويأخذ الاستاذ مكانه في اول الحلقة ، ويجلس المستمعون لمحاضرته والتلامذة حوله .

ولما كانت العربية هي اللغة السائدة في التدريس ، فقد كان كل قادم من اقصى البلاد العربية الى المسجد يستطيع تفهم هذه المحاضرات ، وكان هؤلاء المسافرون يحملون معهم عند عودتهم الى بلادهم البعيدة ، خلاصة المحاضرات التي سمعوها ، والدروس التي حضروها ، فكانوا والحالة هذه كالمجلات والصحف والكتب السيارة اليوم تنقل المعرفة من مكان الى آخر .

ويقول المستشرقون الالمان وغيرهم : ان احداً في العالم – من الامم والجماعات طبعاً – لم يظهر مثل هذه الرغبة التي اظهرها العرب في طلب العالم ، والسعي للحصول على المعرفة من الاقطار البعيدة والبلاد السحيقة ، وان حديث طلاب العلم العرب حديث طريف جذاب لا مثيل له في تاريخ امة اخرى .

ويقول فون كرمر النمسوي : « انه لا يعرف صورة تمثل هـذه الرغبة الملحة التي ظهرت عند المسلمين في طلب العلم ، مثل قصة « ياقوت الحموي » الذي كان رغماً عن الخطر الذي يهدد بغداد من المغول ، ويهدد في الوقت نفسه الدولة الاسلامية في ذلك العهد ، لم يمتنع عن المضي في عمله العلمي في مكاتب مرو البعيدة عن وطنه ومولده .(١)

« ولما اضطر الى الهرب ، استطاع انقاذ اكثر اوراقه معه ، ومع الاضطراب السياسي الذي كان يغمر الامبراطورية الاسلامية العربية ، فقد راح يعمل على انهاء كتابه على الوجه الذي قرره ، قبل الاقدام على رحلة ثانية قد تكون الاخيرة .. »

وفي التاريخ العربي مئات من اسماء الاشخاص الذين كانوا يطوفون الارض في طلب المعرفة والعلم ، وكان اول ما طلبوه الحصول عـلى احاديث رسول الله من الصحابة الذين تفرقوا في البلاد المفتوحة بعد الغزوات العربية الاولى ، ثم اقوال الشعراء الاقدمين واخبارهم ، ثم العلوم الاخرى المختلفة .

وكانت العادة المتبعة ، ليكون المرء عالماً بالفرع الذي يريدالتخصص فيه ان يستمع الى محاضرات العالم الثقة في الفرع المذكور، ومتى احسن الاستماع ، ونجح في الامتحان امام استاذه، اجازه هذا او سمح له بتعليم الفرع الذي درسه واتقنه ..

وكان طلب العرب عظيما جداً ، وكثير هم الاشخاص الذين كانوا يتركون بلادهم وعيالهم في طلبه ، او للاستماع الى عـالم كبير طارت شهرته وفشا امره ، وليس الذ ولا اجمـل من قصة هؤلاء العلماء الذين كانوا يركبون الارض الاشهر العديدة في طلب حديث واحـد ، من

(١) ياقوت : صاحب معجم البلدان ، ومعجم الادباء

احاديث رسول الله .

وكما صار درس القرآن والحديث والادب والنحو والصرف في المسجد صار درس الفلسفة اليونانية فيه ايضاً ..

ولكن الشعراء والادباء الذين كانوا يرغبون في الحصول على اكبر قسط ممكن من الفصاحة العربية ، كانوا يذهبون الى البادية طلباً للبيان والفصاحة وفرائد اللغة ...

وكذلك كانت البادية مدرسة ادبية عالية لطلاب البيان والفصاحة من الشعراء والادباء والكتاب .

تعليم حر مجاني

وهذا العناء الذي كان يصرفه العلماء في المساجد في الدرس والتعليم ، وهذه الجهود التي كانوا يصرفونها في نشر المعرفة ، كانت مجانية حرة لا يطلبون من تلامذتهم عليها جزاء ولا شكوراً ..

وكان الامر كذلك في البادية فان التعليم فيها او طلب الفصاحة والبلاغة فيها لم يكن يكلف صاحبها مالا ، وان كان يكلفه شيئاً من العناء والمشاق طبعاً ..

والبادية كما كانت مدرسة لطلاب الفصاحة من الشعراء والادباء ، كانت مدرسة امراء امية ايضاً ، فان كثيراً من الامراء الامويين كانوا يرسلون اولادهم الى البادية تقويماً لالسنتهم ، ومنعاً لهم من الوقوع في اللحن ، الذي كان شيئاً مكروهاً في تلك الايام .

ظهور المدارس الخاصة

وفي عهد الامويين ظهر المؤدب الخاص في البيوت ، وكانت العائلات

الغنية طبعاً تستطيع ذلك اكثر من سواهـــا ، فكانت تكلف احد الاساتذة القيام بتأديب اولادها في غرفة من غرف البيت لقاء اجر معين في الشهر ، وكان على هذا الاستاذ ان يعلم الاطفال القراءة والكتابة والقرآن والشعر والادب .

وكانت المدارس الابتدائية موجودة في القرن الهجري الاول في كل قرية او بالقرب من كل جامع ..

وهذه المدارس كانت عبارة عن كتّاب او حجرة واحدة يُحشر فيها الطلاب الصغار حول استاذ يعلمهم اصول القراءة والكتابة وقراءة القرآن ، ويأخذ على ذلك اجراً معيناً من كل تلميذ ، يؤيد ذلك ان ابا مسلم الخراساني تعلم بمدرسة ابتدائية بخراسان .

واول المعلمين في الاسلام كانوا القراء حفظة القرآن ، وفي عهد عمر بن الخطاب نراه ارسل القراء الى الاطراف ، وامر الناس بملازمتهم يوم الجمعة للاستماع الى قراءة القرآن .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز ارسل الخليفة عمر الى مصر قاضياً هو يزيد بن ابي حبيب ، كان اول معلم في مصر (١)

وفي الكوفة نسمع عن شخص اسمه الضحاك بن مزاحم كانت عنده مدرسة ابتدائية صغيرة وكان يعلم الطلاب فيها مجاناً ومات سنة ٧٢٣ م وقد نقل هذا الخبر ابن سعد نفسه في طبقاته .

ويخبرنا ياقوت انه في القرن الثاني الهجري جاء اعرابي الى البصرة وفتح مدرسة مجانية ايضاً (٢) .

وكان الاساتذة في هـــذا العهد لا يرون كبير امر في استعمال

---

(١) السيوطي .

(٢) ياقوت .

التأديب البدوي ، فان الاخبار عن هذا كثيرة ، وعمر بن عبد العزيز الخليفة استعمل الضرب مع اولاده لما اخطأوا في اصول الصرف والنحو.

وفي القرن الثاني كانت توجد مدارس ابتدائية للاطفال في (تستر) من اعمال فارس ، وكان الاطفال يحضرون هذه المدارس دون اي ضغط من الحكومة ...

والظاهر ان الاطفال من سن السادسة من العمر كانوا يذهبون الى المدرسة ، وكان حضور المدرسة مباحاً للجميع حتى للعبيد .

درجات التعليم

واذاً فقد كان هناك في عهد الامويين واوائل القرن الثاني الهجري مدارس ابتدائية للاطفال . وهذه كانت تقوم اما بجوار المساجد او في غرف خاصة في مختلف البلدان العربية .

وكان هناك ايضاً مدارس للتعليم العالي ، وهذا التعليم العالي كان مقره المسجد ، ويقوم به علماء احرار لا يأخذون على دروسهم اجراً .

وكانت حرية التعليم مطلقة ، ولا ادل على ذلك من اختلاف الفرق الدينية في الاسلام اول القرن الاول ، وكان امراً عادياً ان تجد في المسجد الواحد عدداً من العلماء يدرسون مذاهب مختلفة ، يروج كل واحد منهم لمذهبه ورأيه ، مع وجود الاختلاف بينهم على امور كثيرة .

وهناك شيء آخر ، وهو انه وان لم يكن هناك نظام حكومي يجبر الناس على طلب العلم ، فقد كان الناس يطلبون العلم ، كما لو كان هناك حكومة تأخذهم بالقوة الى العلم اخذاً .

وكان صغار البنات يحضرن المدارس الابتدائية بجانب الاطفال ، ولكن التعليم كان محدوداً ، كان الاستاذ يدرس تلاميذه وتلميذاته

القرآن ، واصول الدين ، وهذا طبعاً بعد تعليمهم القراءة والكتابة ، وفي بعض المدارس صار تعليم الصرف والنحو .

وكان من جملة ما ينصح به الاستاذ تلاميذه ان يقول لهم : لا تهتموا الى ملذات الحياة فانها من الشيطان ، واعملوا كل ما يرضي الله .

وكانوا يدرسون مع العلوم العاليـــة في الدين والحديث والادب والشعر علم القانون المستخرج من القرآن والحديث والسنة ، وكانوا يقولون ان تعليم فن الطب ضروري جداً لحفظ الاجسام ...

ثم اصبحت العلوم العلمية تقدم في بعض المدارس مع علوم الدين .

وفي سنة متأخرة جـــداً عن العصر الاموي سنة ٤٣٨ هجرية نقرأ احد العلماء يقول : فمضيت الى الكتاب وتعلمت القرآن ...

ومن لطيف عـــاداتهم ان الخلفاء كانوا يحضرون تدريس اولادهم ويشيرون على اساتذتهم بتأديبهم حتى ولو اقتضى الامر الى الضرب .

وكان الشعر الجاهلي المنتخب يؤلف قسماً كبيراً من برنامج الدروس لما حواه من المعلومات الجغرافية والحوادث التاريخية ولانه كان مدرسة للشهامة والوفاء ، وكانت الخطابة وتعليم ايام العرب – اي اهم حوادثهم الحربية – تحتلان مركزاً لا يستهان به .

ومما يجب ان يصار الى ذكره في ختام هذا البحث ، هو ان اتصال العرب بامم تختلف عنهم ثقافة ولغة وديناً وعلماً ، وتعد بسبب ذلك غريبة عنهم يدل على ان التأثير الغربي لا يضعف الاسلام في كثير ولا قليل ، فالاسلام يقف كالجبار امام كل العواصف ، وقد يرى بعضهم في هـذا الكلام شيئاً من الاغراق ، ولكن هذا هو الواقــع ، فالتأثير الغربي ، والاستعباد الغربي ، والاضطهاد الغربي ، لا يضعف من عزيمة العرب ، وانما يجمعهم بعضهم الى بعض ، ويجعلهم اقرب الى الاسلام من قبل .

-١٨-

نشر المعارف والعلوم

الاختلاف

– ليس من شأننا بحث الخلافاف الدينية التي عصفت بالامبراطورية البيزانطية قبل الاسلام ، ولا التبسط في حديث النزاع الذي قام بين مدرستي الاسكندرية ورومية يوم حاول كل منهما ان يفضي على المسيحية ثوباً خاصاً ، فان لهذا الحديث مكاناً غير هذا ، يجده القاري في كثير من المؤلفات التي عرضت لهـــذه الابحاث ، خصوصاً في اللغات الاوروبية .. (١)

اما الذي يهمنا في هذا البحث فهو ان المصادر التاريخية تؤكد العلاقات الوثيقة بين الحضارة العربية في العهد الاموي وبعده ، وبين الثقافة الاغريقية، التي احتفظ بها ونشرها جماعـــة من المسيحيين لم يتمكنوا بسبب اختلافهم في الرأي مع كنيسة القسطنطينية ، وبعد ان اعتبرهم مجمع افسس هراطقة سنة ٤٣١ م ، من البقـــاء في امصار الامبراطورية فغادروها الى نصيبين من اعمـــال العراق ، وكانت لهم مدرسة فيها قبل هذا التاريخ اقفلوها لما اخذها الفرس من البيزانطيين بعد حرب من هذه الحروب الكثيرة التي كانت تستعر بينها، وذهبوا منها الى

(1) Arabic Thought : O' Leary.

وتاريخ جيبون عن الامبراطورية الرومانية، والمقالات التي ترجها عبد الرحمن بدوي عن الاثر اليوناني في الثقافات الاسلامية ..

(الرها) فكانت مركزاً للكنيسة التي ينطق زعماؤه باللسان السرياني حتى اغلقهـا الامبراطور زينو سنة ٤٣٩ فلم يجد السريان ملاذاً الا بالهجرة الى البلاد الفارسية حيث تقبلهم الفرس قبـولا حسناً بسبب الخصومة التي كانت تستعر بينهم وبين الكنيسة البيزانطية ، وفي نصيبين انشأوا مدرستهم للمرة الثانية ، ومنها انتقلوا الى بـلاد فارس ينشرون وجهاً للمسيحية مصطبغاً بالصبغة الشرقية ... مستعينين على بث تعاليمهم في الدين باقوال ومذاهب اخذوها من الفلسفة اليونانية ، فاصبح كل نسطوري-نسبة الى نسطور زعيمهم-معلماً للفلسفة اليونانية ..

وفي هؤلاء النسطوريين يقول ولس (١) : « وكان اتباع نسطور اوسع عقلا ، واعظم ادراكاً واذكى قلباً من جماعـة اللاهوتيين في البلاط البيزانطي، وكانوا اعظم علماً من امثالهم من علماء الغرب، وكانوا في الواقع العامود الفقري للثقافة العالمية في العالم الفارسي ، واحتفظوا بكثير من العلوم الطبيعية اليونانية وزادوا عليها ، وفي العهد الاموي كان اكثر اطباء الخلفاء منهم ، ومن المؤكد ان كثيراً من النسطوريين اعتنق الاسلام ، ومضى في دراساته وبحوثه الفلسفية والطبية ، كما انهم احتفظوا بكثير من اراء ارسطو مع ترجماتها السريانية بعد ان نقلوها عن اليونانية الى لغتهم ، والى هؤلاء الاساتذة النسطوريين اقبل العقـل العربي الجديد من الصحراء فتعلم منهم كثيراً ، وزاد عليهم كثيراً .. »

ومن هذا الامتزاج بين الثقافة الاغريقية التي احتفظت بها مدرسة الاسكندرية في مصر ، ونصيبين في العراق وجنديسابور في فارس ، وبين العقل العربي نشأت الحضارة العربية ، سواء منها هذه الحضارة التي نشأت في دمشق ، او التي انبثقت عنها بعد ذلك في بغداد وقرطبه ...

(1) Outline of History, p. 625.

بحيث استبق العرب اوروبا في كل المعارف والعلوم المعروفة في ذلك العهد ، والى مدارسهم — المدارس العربية — كان الطلاب الاوروبيون يهرعون من كل صقع ومصر ، فكانت جامعة قرطبة ام الجامعات العالمية ، وام العلماء الأوروبيين الذين نقلوا معارف العرب الى باريس واكسفورد. ومن الحق ان نقول « انه بواسطة العرب لا بواسطة غيرهم من الامم ينعم العالم الحديث بنعمة العلم والمعرفة » (١)

وكان استعداد العرب لقبول الفلسفة اليونانية عن طريق النساطرة وغيرهم سريعاً غريباً ، فقد تمكن العرب في مدة وجيزة بعد وفاة الرسول من نقل خير ما جادت به قرائح الرومان واليونان الى العربية ، واثرت التعاليم الجديدة في فهم العرب لمعنى القضاء والقدر ، كما تعلموا مبادىء المسببات والنتائج ...

ولم يأت عهد المأمون حتى اثبت العرب كروية الارض ، وشرعوا في مسح قطرها بالرغم من تكفير احد الفقهاء للخليفة من اجل ذلك .

وكذلك نرى انه ما كاد القرن الثالث من الهجرة ينتهي في البلاد الاسلامية حتى كان النضال شديداً بين معاقل الثقافة الاسلامية ، فان العباسيين في آسيا ، والفاطميين في مصر ، والامويين في اسبانيا ، كانوا يتسابقون لنشر العلم وتشجيعه ، ومما تجب ملاحظته ان نقل المسلمين للعلم لم يكن عن طريق يونان اوروبا ، وانما كان عن طريق الاسكندرية والنساطرة حيث نشأت الافكار المبنية على التجارب والملاحظة لا على الرجم بالغيب والفلسفة .

---

(١) ولس ص ٦٢٥

ولما جاء الاسلام كان من اهم ما دعا اليه القرآن طلب العلم والعمل على تحصيله، وحث الحديث على طلب العلم ولو كان في الصين ... كما استعان رسول الله باسرى الحرب على تعليم المسلمين اذا ما شاؤوا افتداء انفسهم، كما حرص رسول الله على ان يكون حظ المرأة مثل حظ الرجل في العلم فحث الرجال على تعليم اهلهم وذويهم ( ) كما حث على تعليم العبيد من النساء ثم اعتاقهن والتزوج بهن، واذا كان هذا حظ الامة من عناية الرسول فما بالك بالحرة المفروض في وليها ان يعلمها ويؤدبها على الوجه الاكمل والاحسن ...

ويعتبر الفقهاء ان من اول حقوق الامة على الخليفة «نشر العلوم والشريعة وتعظيم العلم واهله، ورفع مناره ومحله، ومخالطة العلماء الاعلام النصحاء لدين الاسلام، ومشاورتهم في موارد الاحكام ومصادر النقض والابرام» (٢)

وقد استفاد كثيرون من الصحابة من صحبتهم للرسول، فنبغ علي بن ابي طالب في القضاء، ونبغ معاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام، وزيد بن ثابت في تقسيم المواريث والانصبة في الغنائم وما اليها، وابي بن كعب في قراءة القرآن.

ولما بدأت الفتوح تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة في الامصار الاسلامية الجديدة، فنزل بعضهم البصرة، وبعضهم الكوفة، وبعضهم

(١) من حديث عن ابي هريرة ...

(٢) بدر الدين بن جماعة : تحرير الاحكام في تدبير اهل الاسلام، المنشور في المجلد الرابع لسنة ١٩٣٤ من مجلة «الاسلام» الالمانية ص ٣٦١ .

ظل في المدينة ، وآخرون ذهبوا الى الشام ، فاحدثوا في كل هذه البلاد حركة علمية قوية ، والتف حولهم التلاميذ يأخذون عنهم العلم ،وينشرونه بين الناس ...

ولم يكن جميع هؤلاء من العرب بل كان بعضهم من الموالي – اي من الذين اسلموا من غير العرب – ولذلك كانوا بحاجة الى تعلم العربية لغة القرآن والحديث ، ومن هنا نشأت بعض الدراسات اللغوية كالنحو والصرف ...

وكانت عناية الجميع في اول الامر مقصورة على العلوم الدينية ، وما يتعلق بالقرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، واستنباط الاحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجدّ من مشاكل خلقها تبدل الايام وتقدم الفتوح.

ولذلك كان اول ما انتشر من العلوم في عهد الامويين مرتبطاً بالدين ودراسة الدين ، مع بعض العناية بالترجمة والعلوم الفلسفية الاخرى .

عهد معاوية وبعده

وكانت سياسة معاوية الرحبة سبباً من اسباب انصراف المسيحيين المثقفين في عهد الدولة الاموية الى العناية بمختلف العلوم التي نقلوها عن اليونان وغير اليونان ، قرّب معاوية الطبيب المسيحي ابن اثال اليه ، واخذ يستمع الى القصص التاريخية القديمة ، التي كان يقصها عليه عبيد بن شريه الجرهمي (١) اما خالد بن يزيد بن معاوية فهو اول من انصرف من امراء امية الى البحث العلمي ، وهو الذي طلب من (ستيفن)

(١) انظر كتاب الفهرست لابن النديم ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، ومعجم الادباء لياقوت ...

و «ماريانوس » ترجمة بعض الكتب الى العربية .

وكان خالد مؤلفاً ايضاً ، ويذكر لنا ابن النديم في الفهرست اسماء بعض مؤلفاته ، ويذكره ابن ابي اصيبعة بمثل ذلك (١) ويقول الاستاذ شيبلي : ان الترجمة من السريانية الى العربية بدأت في عهد عبد الملك بن مروان ، واما الاستاذ لكلارك فيقول : ان ذلك وقع في ايام عمر بن عبد العزيز ...

ويقال ان عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي اهتم بالثقافة الاغريقية لما كان اميراً لمصر عهد سليمان بن عبد الملك ، حيث تعرف على « ابن الابجر » استاذ الفلسفة اليونانية في مدرسة الاسكندرية ، ولما تولى عمر الخلافة عين ابن الابجر مديراً لدائرة الطب ...

ويحدثنا بن ابي اصيبعة (٢) : بانه في عهد عمر بن عبد العزيز صار نقل العلوم اليونانية من مصر الى انطاكية وحران (٣) ومنها انتشرت هذه العلوم في البلاد الاسلامية الاخرى .

ويعتقد الاستاذ شيلي ان سبب ذلك انسحاب ابن الابجر من مدرسة الاسكندرية .

ومن جملة الاسباب التي ساعدت على الترجمة ظهور فئة من الناس كانت تحسن العربية وبعض اللغات الاجنبية الاخرى ، وهذه الفئة كانت من العرب المسيحيين الذين اسلموا اول الفتح او بعده بقليل ، او من العرب الذين تعلموا احدى اللغات المعروفة في عهدهم كصالح بن عبد الرحمن ، وعبدالله بن عبد الملك .

---

(١) اخبار الحكماء .
(٢) اخبار الحكماء .
(٣) كانت مدينة « حران » اشهر مركز للوثنية والثقافة اليونانية .

ونسمع بعد عمر بن عبد العزيز ان سالماً كاتب الخليفة هشام بن عبد الملك ترجم بعض كتب ارسطو الى العربية .

كما نقرأ ان جبله ابن سالم ورث عن ابيه كثيراً من معارفه وعلومه فترجم بعض الاثار التاريخية الفارسية الى العربية ، وقد ذكر ابن النديم اسماء كتبه المترجمة .

ويظهر ان هشام بن عبد الملك كان كثير الشوق للاطلاع على الاثار الادبية الخاصة بالامم الاخرى من غير العرب ، ويذكر المؤرخون ان من بين الاثار الفارسية التي وقعت في ايدي العرب كتاب كامل عن تاريخ فارس يحتوى على صور الاكاسرة الذين صار ذكرهم في الكتاب ، وان هشام الخليفة امر بترجمة هذا الكتاب الى العربية سنة ١١٣ هجرية ويحدثنا المسعودي انه رأى هذا الكتاب سنة ٣٠٣ في اسطخر .

وبموت هشام ، وقيام الاضطرابات الداخلية بعده ، توقفت حركة الترجمة كما يظهر ، فلا نعود نسمع عنها شيئاً ..

ولما تولى العباسيون الخلافة ، قاموا على اساس ثابت من الادارة والسياسه ، والمعارف والعلوم والفتوحات التي وضع اسسها الامويون ومكنوا لها في الارض .

مراكز الثقافة

اما البلدان اللذان سيطرا على الحركة الثقافية في عصر امية فهما البصرة والكوفة ، هذا اذا استثنينا دمشق التي كانت عاصمة الدولة ..

وقدصار انشاء البصرة والكوفة في عهد عمر بن الخطاب ليكونا معسكرين للجنود العربية ، فنشأت الكوفة غير بعيد عن مواطن الحضارة البابلونية القديمة ، وكأنها قامت مقام الحيرة عاصمة اللخميين من

ملوك العراق قبل الاسلام ، ونظراً لمركزها التجاري العجيب ، اصبحت تعد بعد سنوات قليلة اكثر من مائة وخمسين الف نسمة .

اما البصرة التي كانت تحكم خراسان ، فقـد اصبحت في سنة ٥٠ للهجرة لا تقل عن ربع مليون نسمة ، وكان فيها ما يزيد عن (١٢٠) الف قناة . وهنا على مقربة من فارس والحضارة الفارسية القديمة بدأت تظهر الدراسات العلمية في اللغة العربية ، وقام بذلك بعض المسلمين من غير العرب الذين كانوا لحاجتهم الملحة الى درس القرآن يضطرون الى درس اصول الصرف والنحو ، او الى وضع اصول للصرف والنحو ، تعصمهم عن الوقوع في الخطأ واللحن .

وكان ابو الاسود الدؤلي الذي مات سنة (٦٨٨ م) اول من بحث اصول النحو والصرف ، ومما لا شك فيه ان في هـذين العلمين بعض اثار المنطق اليوناني ، ثم جاء الخليل بن احمد وهو من البصرة ايضاً ومات (٧٩١) فوضع معجما عربياً اسماه كتاب العين هو الاول من نوعه في العربية . ثم ظهر تلميذه (سيبويه) (مات سنة ٧٩٣) فوضع اول كتاب عن النحو والصرف في العربية ، وجعـل للصرف والنحو اساساً ثابتاً مقرراً ...

ظهور الحديث وهو اساس الفقه الاسلامي

ولما كان القانون في الاسلام اعلق بالدين اكثر منه باصول التشريع على نحو ما يفهمه الاوروبيون ، فقد اخذ المسلمون يدرسون الحديث ، ويدرسون في الوقت نفسه تاريخ الرواة من المحدثين لاهتمامهم بامر الحديث وحرصهم على الوثوق من صحة رواية وامانة رواته ، ولذلك كانوا في حاجة الى تعرف حال هؤلاء الرواة ودراسة تاريخهم واخبارهم ، ومعرفة

انسابهم وقبائلهم ، فكان ذلك كله نواة صالحة وثروة غزيرة لعلم التاريخ والاخبار .

وقد اشتهر من رجال الحديث عهد الامويين الحسن البصري ، وابن شهاب الزهري (الذي مات ٧٤٢ م او ١٢٤ هجرية) وسعيد بن المسيب في المدينة، وربيعة الراي وهو شيخ الامام مالك، ومالك بن انس الذي نشأ في اواخر عهد الدولة الاموية ومات سنة ١٧٩ هجرية ، وهو صاحب كتاب « الموطأ » الذي جمع فيه ما يقرب من ١٧٠٠ حديث .

ومن الغريب ان اكثر الحركات الاسلامية الدينية ظهرت في البصرة او قام بها رجال من البصرة ، كالحسن البصري مثلاً ، فان الصوفية تدعيه ، والمعتزلة تقول إنه منهم ، وكان تأثيره من القوة بحيث انه لما مات خرجت البصرة كلها تواريه التراب تشرين الاول ٧٢٨ م وهو حادث غريب في الاسلام على رأي ابن خلكان .

واما الكوفة فكانت بسبب تشيعها اقل تأثيراً من البصرة ، وبسبب ذلك ايضاً حصل التنافس بين البلدين في كثير من المسائل العلمية والدينية واللغوية ، وكان من اشهر رجال الحديث في الكوفة عبدالله بن مسعود وهو مسؤول عن ٨٤٨ حديثاً ، ومن رجال الكوفة عامر بن شراحيل الشعبي «مات سنة ٧٢٨» وهو موضع ثقة المؤرخين في احاديثه ومن تلامذته الامام ابو حنيفه ، وقد ارسله عبد الملك بن مروان سفيراً عن الامبراطورية العربية الى بلاط القسطنطينية .

التاريخ والسير

وفي الوقت الذي كان يصار فيه الى جمع الحديث ، كان يصار فيه ايضاً الى وضع التاريخ ، وكان عبيد بن شريه صاحب معاوية اول من

البس هذا النوع الذي كان يسمى قبله قصصاً ثوب التاريخ ، وقد الف لمعاوية كما يقال كتاب « الملوك واخبار الماضين » ويقول المسعودي انه رأى هذا الكتاب سنة ٩٥٦ م .

وقد روى ان عروة بن الزبير المتوفي سنة ٩٤ ﻫ هو اقدم من الف في السيرة النبوية ، وكذلك ابان بن عثمان بن عفان المتوفي سنة ١٠٥ﻫ ، وقد جمع تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة كتابه في سيرة الرسول .

وكذلك رووا ان ابن شهاب الزهري المتوفي سنة (١٢٤ ﻫ) جمع كتاباً في المغازي ، ومثله موسى بن عقبه المتوفي سنة ١٤١ ﻫ ، وقد عثروا على قسم من كتابه طبع سنة ١٩٠٤ م .

ومن المشهورين في علم التاريخ وهب بن منبه وهو من صنعاء وتوفي سنة ٧٢٨ م ، وهو يهودي يمني من اصل فارسي ثم اسلم واخباره غير موثوقة ، وله كتاب في ملوك حمير مطبوع في حيدر اباد من اعمال الهند .

وهناك كعب الاخبار وقد مات في حمص ٦٥٢ او ٦٥٤ ، واخباره التاريخية ايضاً غير موثوقة ، وهو يهودي يمني اسلم ،وكان من مستشاري معاوية على قول بعض المؤرخين ، وبواسطة هذين الرجلين وغيرهما من اليهود دخلت الى التاريخ الاسلامي اخبار يهودية عن الحوادث السالفة للاسلام يغلب عليها الاغراق والضعف .

ولما ولي عبد الملك بن مروان ادخل كثيراً من ضروب الاصلاح على العربية ، منها تحسين الحروف العربية – وكانت خلواً من الحروف المنقوطة – ليستطيع الناس قراءة القرآن والتفسير والحديث دون ما خطأ ولا لحن .

واذا اردنا الرجوع الى علم التاريخ عند العرب في الجاهلية وجدنا ان معارف العرب قبل الاسلام في التاريخ كانت ساذجة جداً ، ولكنهم كانوا لغلبة الامية عليهم يتذاكرون ايامهم واحداثهم من طريق الرواية الشفوية على هيئة اشعار مقصدة او اخبار متفرقة ، وشذ عن تلك الحال من اطرح منهم البداوة ونزل حواضر الجزيرة وخاصة اهل اليمن والحيرة ، فقد نقش الاولون بالخط المسند على مبانيهم لمعاً من اخبار ملوكهم وشؤونهم العامة ، ودوّن الآخرون بخطهم اخبار مملكتهم واودعوها اديار الحيرة وكنائسها .

فلما جاء الاسلام ، وقامت الدولة العربية ومست الحاجة الى معرفة سيرة الرسول العربي واحواله استقصاء للسنة ، توفر رجال على جمع اخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب في الاسلام بالتاريخ ، وان كان التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه نوعاً من انواع الحديث .

وفي اثناء ذلك كانت قد تمت الفتوح العربية الكبرى ووقعت الفتن العظمى ، ونبض عرق العصبية القبلية ، وشاعت بين المسلمين اخبار الامم القديمة والديانات غير الاسلامية على ايدي رجال مثل كعب الاحبار ، وسواه فتوافرت اسباب شتى اقتضت جمع الاخبار المتصلة بكل ذلك وتدوينها ، فتدوين اخبار القدماء مثلاً دعت اليه رغبة العلماء في فهم اشارات الى الامم الغابرة وردت في الكتاب والسنة ، وميل بعض الخلفاء كمعاوية والمنصور الى الاطلاع على سياسات الملوك ومكايدهم ، هذا فضلاً عن حرص الموالي على التنويه بمجد بلادهم القديم . ثم ان تدوين الانساب وايام العرب كان مطاوعة

لحاجة الشعراء اليها عامة في مقام الفخر والهجاء ، وحاجة الدولة للانساب خاصة للاستعانة بها في تقدير العطاء للجند ، وكان الباعث الاقوى على تدوين اخبار الفتوح رغبة ولاة الامور في معرفة ما فتح من البلدان صلحاً ، وما فتح عنوة ، وما فتح بعهد ، لان لكل حكماً خاصاً من حيث الجزية والخراج ، فلما دون ذلك كله وجد الى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعه اخبار الماضين ، واحوال الجاهلية ، وحوادث الاسلام . وقد اطلقوا على ذلك كله لفظ « الاخبار » وعلى المتخصص في روايته « الاخباري » كما عرف المتخصص في رواية الحديث « بالمحدث » ونلحظ النقلة من الحديث الى الاخبار في رجال خواص منهم ابن اسحق والواقدي الذي اخذ عنه ابن سعد كتابه الكبير في طبقات الصحابة ، والمدائني المتوفي عام ٢٢٥ هـ . فكل من هؤلاء كان محدثاً واخبارياً معاً ، كما نلحظ بداية التخصص في الاخبار في مثل محمد بن السائب الكلبي المتوفي عام ١٤٦ هـ ، وكان مقدماً في علم الانساب ، وعوانة بن الحكم المتوفي ١٤٧ وقد جمع اخبار بني امية . وابي مخنف المتوفي عام ١٥٧ وله كتب في الردة ووقعة الجمل ، ووقعة صفين ، واخبار الخوارج . وسيف بن عمر المتوفي عام ١٧٠ وله كتاب كبير في الفتوح . وهشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفي ٢٠٤ وله في اخبار الاوائل وايام العرب وانسابهم واخبار الاسلام كتب كثيرة احصاها ابن النديم في كتاب الفهرست ، وطبع منها كتاب الاصنام .

وقد ظهر في هذه المرحلة نوع من التخصص المحلي في رواية الاخبار فكان لبعض الاقطار الاسلامية الرئيسية اخباريون اختصوا بجمع اخباره وتدوينها قال ابن النديم :

« قالت العلماء : ابو مخنف بامر العراق واخبارها وفتوحها يزيد على

غيره ، والمدائني بامر خراسان والهند وفارس ، والواقدي بامر الحجاز والسيرة ، وقد اشتركوا في فتوح الشام »

وكان المحدث عند جمهور هذا الزمان اشرف موضوعاً واسمى منزلة من الاخباري ، وذلك يرجع الى شرف موضوع الحديث والى ان الاخبار وخصوصاً قديمها كانت مظنة الاغراب والتلفيق والاختلاق ، ولقد بلغ من شأنهم انهم كانوا يضعفون المحدث اذا مال الى الاخبار ، فقد ضعفوا محمد بن اسحق وكان اصلاً راوية للحديث ، ثم صار ينقل عن اهل الكتاب ويسميهم اهل العلم الاول .

وجملة القول في علم التاريخ عهد بني امية ، انه ابتدأ عندهم فرعاً من علم الحديث ، فكان حرياً ان يتأثر بطريقة المحدثين في جمع الرواية التاريخية ونقدها ، وكان اهل السيرة والمغازي والاخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع اسنادها الى مصادرها الاصلية ، بمعنى انهم لم يكونوا يحاولون نقد الخبر نفسه ، وانما كانوا ينقدون ناقل الخبر ، الذي كان وقت الحادث في المكان الذي وقع فيه الحادث ، او نقل عن الشخص الذي شاهد الحادث ، وهذه الطريقة ضمنت للعرب صحة الاخبار المتصلة بالقسم التاريخي من السيرة وحوادث الدولة الاسلامية ، ولكنها عجزت عن ان تضمن لهم ذلك في اخبار القدماء ، والعرب قبل الاسلام ، والقسم الاول من السيرة ، والحق ان هذه الموضوعات الاخيرة هي اضعف واغمض نواحي كتب التاريخ عند العرب .

بين مراجع التاريخ

ونضرب الامثال على ذلك فنقول : « ان اهم ما يشترط في المصادر التاريخية ان يكون ناقلها ممن شاهدها او اشترك فيها على الاقل ، وهذه

الحالة غير متوفرة في الكتب التاريخية العربية التي لم تدون اخبار الفتوحات التي وقعت فيها إلا في اواخر عهد امية وعهد العباسيين اي بعد ان انتهت هذه الفتوحات وهلك الذين شاهدوها واشتركوا فيها .

وكان من نتائج ذلك ، ان تعرضت هذه الاخبار التي نقلت بعد وقوعها بسنوات عديدة الى كثير من الغموض ، ثم انها في الوقت نفسه عرضت للاشخاص ولم تفطن الى الامة وحالتها الاجتماعية في كثير ولا قليل .

والميزة الوحيدة لهذه الكتب ان اصحابها كانوا يأخذون اخبارهم عن طريق الرواية الموثوقة – في نظرهم على كل حال – فلذلك كانوا يجوبون الامصار في طلبها ، واشتهر من بينهم من كان يختبر الرواية ويميز بين الصحيح منها والموضوع .

وعلى كل فان سبب هذا الاضطراب الذي وقع في الروايات التاريخية الاولى يجب ان يُرد الى ان التاريخ كان في اول نشأته عند العرب ، وبعد الزمن – بين المؤلف والواقعة التي يصفها مثلاً – وعدم معرفة اصحاب المصادر المنقولة عنها الاخبار بالجغرافيا ، وتعرضهم في الوقت نفسه للنسيان والاغراق في رواية الاخبار ، ثم دخول السياسة والحزبيات الدينية ، ثم يأتي دور الناسخين الذين شوهوا كثيراً في الكتب الاولى .

ومما يستلفت النظر ايضاً ان هناك في الكتب الاولى من مصادر التاريخ الاسلامي بعض اخبار دونت في بعضها ، ولم يذكرها البعض الآخر ، ككتاب العهد بين النبي وآل المدينة ، وهو اول كتاب خطه رسول الله ووصل الينا ، فقد ذكره ابن هشام منقولاً عن ابن اسحاق وذكره ابن الاثير ايضاً لم يذكره الطبري ولا ابن سعد ، مع ان

الطبري أقدم من ابن الاثير .

التفكير اليوناني

ومن الاشخاص الذين ادخلوا التفكير اليوناني والمسيحي الى الاسلام يوحنا الدمشقي ، ومع انه كتب في اليونانية ، فانه لم يكن يونانياً ، وانما كان سورياً يحسن الارامية والعربية ، وكان جده منصور بن سرجون مدير المالية في دمشق عند الفتح ، وقد اشترك مع البطريرك في تسليم المدينة الى المسلمين ، واحتفظ بوظيفته في الدولة الاسلامية العربية الجديدة ، وخلفه ابنه في وظيفته هذه بعد وفاته .

وكان يوحنا في صغره متصلا وملازماً ليزيد بن معاوية ، وخلف اباه في مديرية المالية في دمشق ، ولم يترك الوظيفة إلا عهد هشام بن عبد الملك حيث انصرف الى صومعة او دير قضى بقية حياته فيه بالتنسك والعبادة . ومات سنة ٧٤٨ م .

ومن آثار يوحنا (حوار مع احد المسلمين حول الوهية المسيح) وهو كتاب صغير انشأه لمساعدة المسيحيين على الجدل مع المسلمين ، وصدور مثل هذا الكتاب في عهد امية يدل على التسامح الاسلامي العظيم .

ويقال ان القدرية تأثرت من بعض تعاليمه .

ومن آثار يوحنا المذكور بعض الاناشيد الدينية التي لا تزال تستعمل في الكنائس حتى اليوم .

العلوم

وكانت العلوم عند العرب تقسم الى قسمين في هذا العهد : ما يتعلق بالدين ، وما يتعلق بالجسم . فاما ما يتعلق بالدين فقد عرضنا له في مكان

آخر ، واما ما يتعلق بالجسم فهو الطب ، والطب كان في طفولته عند العرب في هذا العهد ، وكان عبارة عن بعض الشعوذات ، مع بعض النصائح باستعمال العقاقير والنباتات وغيرها .

وكانوا ينصحون باستعمال العسل في بعض الامراض ، وفصد الانسان ، وسحب الدم الفاسد منه .

والطب العالمي عند العرب مأخوذ باكثره عن اليونان واقله عن الفرس .

والواقع الذي يجب ان يصار الى ذكره هنا ، هو ان كثيراً من العلوم والمعارف القديمة العربية لا تزال ضائعة متفرقة في المكاتب الاوروبية الكبرى ، ولم ينشر منها الا اقلها .

ويقول الدكتور جورج سارتون في كتابه (مقدمة لتاريخ العلم): « ان درس اللغة العربية والاثار العربية ضروري لتفهم نزعة الفكر وتطوراته في القرون الوسطى ، وسبب ذلك انه منذ منتصف القرن الثامن الى آخر القرن الحادي عشر ، كانت اللغة العربية لغة العلم والادب والمعارف في العالم كله ، بحيث ان من يريد المعرفة وطلب العلم في ذلك العهد السحيق كان مفروضاً عليه درس العربية ، كما هو حال الشرقي اليوم اذا ما اراد طلب المعرفة فان عليه درس احدى اللغات الاوروبية المعاصرة كالانكليزية والالمانية والافرنسية .

« واما في القرن الثاني عشر ، والثالث عشر ، فقد خسرت اللغة العربية بعض قوتها ونفوذها ، ولكنها كانت ما تزال ضرورية لطلاب المعرفة . »

ولما اقتحم العرب امصار الامبراطورية البيزانطية كان العلم اليوناني اسماً على مسمى ، ذلك انه كان قد انتقل الى ايدي العلماء الذين اخذوا

يعلقون او يشرحون مؤلفات ارسطو وهيبوقراط ، وغـالن ، وبطولومي ، وارشميد وغيرهم ، واما الطب اليوناني فقـد وجد في (اثبوس) من اميدا (٥٥٤) ، وبولس الاجيني (٦٢٥) الذي كان عائشاً في الاسكندرية ، وفي اسكندر ٥٢٥-٦٠٥ الذي كان يسكن رومية ، وفي تيوفيل الذي كان يسكن القسطنطينية (٦٤٠) اعظم شراحه وابعدهم شأناً .

وقبل الفتح العربي شاهدت الاسكندرية نهضة ضعيفة في اكاديميتها القديمة ، ووُضع فيها اساس جديد لعلم الطب استندوا فيه الى مؤلفات (غالن) ، وكان الاسكندري (جوهان) يقف وحده تقريباً كمفسر ومعلم لمؤلفات ارسطو ، واما مؤلفات هيبوقراط فقد صار اختصارها بواسطة اساتذة الاسكندرية وعلمائها قبل هـذا العهد ، ولكن مصر لم تكن تصلح لتقدم المعرفة والعلوم لانها كانت مصبوغة بصبغة دينية متطرفة ، وممزوجة بكثير من الصوفية والطلاسم ، ولهذا السبب فشلت مصر ، ولم توفق لتكون واسطة بين اليونان والطب والعلوم العربية ، واخذ مكانها في هذه الناحيـة الجماعات التي كانت تتكلم السريانية وهم النساطرة .

واما المركز العلمي النسطوري الذي كان يحتوي على مدرسة طبية ، فقد صار نقله من (الرها) الى (نصيبين) في العراق ، ثم في اول القرن السادس الى (جندشابور) في جنوبي غربي بلاد الفرس ، وهناك عـدا المستشفى الكبير ، صار انشاء جامعـة كبيرة ايضاً بتأييد الملوك الساسانيين .

واما الملك الكبير كسرى انو شروان (٥٣١-٥٧٩) فقد جعل هذه البلدة اعظم مركز ثقافي في ذلك العصر ، فاليها اخذ علماء اليونان

الذين تركوا اثينا بعد اقفال الامبراطور جوستينيان المدرسة الفلسفية (٥٢٩) يفدون ويجتمون بزملائهم علماء السريان والفرس والهنود .

وفي هذه البلدة المثقفة ظهر جو علمي جديد اخذ يعمل للتوفيق بين المتناقضات الفلسفية ، وهذا الجو كان له اثره بعد ذلك في نشوء الفكر الاسلامي الاول .

ولما ولي خسرو عرش الفرس ، ارسل طبيبه الخاص الى بلاد الهند للبحث عن الكتب الطبية فيها ، وقد صار نقل بعض ما صار الحصول عليه من اللغة السكرتية الى البهلوية ، كما صار ترجمة كثير من الكتب العلمية اليونانية الى الفارسية والسريانية .

واول شخصية علمية سريانية هي سرجيوس ٥٣٦ ، ولم يكن سرجيوس نسطورياً ، وانما كان كاهناً يعقوبياً ، وكان يتزعم اطباء العراق في عهده ، حيث ولد ونشأ ، واليه يرجع الفضل على قول كثير من المؤرخين في ترجمة الكتب الطبية اليونانية الى السريانية ، ويذكرون منها الكثير من مؤلفات « غالن » ومع انها كانت تنعم بكثير من الاضطراب وعدم الترتيب ، فقد كانت كافية لاحياء الطب اليوناني مدة مائتي سنة في غربي آسيا .

وفي هذه الاثناء اخذ بعض العلماء يضعون الكتب الطبية مستندين الى الكتب اليونانية التي صار ترجمتها .

واشهر هذه الكتب ما صدر عن « هرون » وهو كاهن مسيحي وطبيب عاش في الاسكندرية قبل ظهور الاسلام .

وهذا الكتاب « الذي صدر عن هرون » صار تأليفه باليونانية على الارجح اولاً ، ثم صار نقله الى السريانية ومنها الى العربية ، ومنه عرف العرب الطب اليوناني العلمي .

ومؤلفات « هرون » هذه قد اندثرت ، ولكنها كما يظهر عرضت لمرض الجدري الذي لم يكن معروفاً في الطب اليوناني القديم .

ثم ظهرت بعض مؤلفات ارسطو مترجمة الى السريانية ، كما ظهر في هذه اللغة ايضاً بعض مؤلفات يونانية عن تربية الحيوانات الداجنة ، والزراعة ، والطب البيطري ، والاقل في علم الكيمياء .

وقد وصلت الينا بعض آثار سريانيـة عرضت للظواهر الجوية ، والارجح انه اثناء العهد الساساني كان مركز البحوث الكيماوية والظواهر الجوية يقع في البلاد الكبرى الواقعة في شرقي شمال الولايات الفارسية ، حيث كان التأثير الصيني والهندي يمتزجان سوية ويتقدمان فجر الحضارة الجديدة .

ولما استولى العرب على شمالي افريقيا وغربي آسيا تركوا النظـام البيزنطي والادارة الفارسية والمراكز العلميـة في البلاد التي استولوا عليها وشأنها . فظلت جامعة « جند شاهبور » مركزاً علمياً للامبراطورية العربية الجديدة ، ومن هذه الجـامعة كان يزور دمشق عهد بني امية ٦٦١ — ٧٤٩ ، الكثير من العلماء والاطباء ، وكان اكثرهم من المسيحيين ، الذين يحملون الاسماء العربية .

ومن اطباء العرب في القرن الاول الهجري الحارث بن كلدة وقـد مات سنة ٦٣٤ م ، وهو من الطائف ودرس في فارس ، وكان يسمى طبيب العرب ، وخلفه ابنه النضر .

ولما فتح العرب غربي آسيا كان الطب اليوناني يُقرأ في الكتب اكثر مما كان يستعمل عملياً ، وكان المسيحي ابن اثال طبيب معاوية ، وكان للحجاج بن يوسف في العراق طبيب خاص .

وهناك طبيب يهودي (١) من اصل فارس عـاش في البصرة ايام

---

(١) « مسرجويه » .

مروان بن الحكم ، وترجم في سنة ٢٨٣ كتاب ارون او هرون الذي اتينا على ذكره الى العربية ، وكان اول من ترجم الكتب العلميـة الى العربية .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز صار نقل مدرسة الطب التي كانت في الاسكندرية ومديرها ابن الابجر الى انطاكية وحران .

التجارة والسياحة

وباتساع رقعة الامبراطورية العربيـــة الاموية زادت المواصلات واتسعت اماكن الثقافة العالية ...

ولما استولى المسلمون على القدس موطن المسيحية الاول لم تنقطـع زيارة المسيحيين الى هـــذا البلد المقدس ، ففي سنة ٦٨٠ مسيحية نرى شخصاً اسمه اركولف الفرنكي يحج الى القدس ، كما نسمع في سنة ٧٢٥ عن شخص آخر اسمه ويلبيالد السكسوني زار القدس ايضاً وعـاد الى بـــلاده مطمئناً راضياً ، وهذا دليل على ان علاقات المسيحيين في الامبراطورية البيزانطية لم تنقطع مـع زملائهم المسيحيين في مصر وسورية والعراق .

واما مكة موطن الرسول ومقر المسجد الحرام والكعبة فقد كانت في القرن الاول بلداً له خطورته العالمية ، من حيث قدرته عـــلى جمع مختلف الشعوب الاسلامية في مكان واحد في ايام معدودات من كل سنة وفي موسم الحج ..

ومن منافع الحج هذه التآليف التي ظهرت في العربية بعـــد العهد الاموي ، تصف بلاد الاسلام وطرقها ، ومختلف مساجدها وعمرانها ، ولكن هذه المؤلفات تدلنا في الوقت نفسه على ان المسلمين لم يكونوا

يعنون ببلاد غيرهم ، ولا كانوا يهتمون بالممالك القائمة حولهم .

التجارة والملاحة عند العرب القدماء

وكان العرب يسافرون الى الهند بحراً ، وكانت التجارة في ايدي المسلمين براً وبحراً ، فاخترقت سفن العرب المسلمين البحر الابيض الى شواطئه ، والبحر الاحمر الى آخره ، والبحر المحيط الى سومطرا فزنجبار وما بعدهما ، وشرقاً كالكته وجزائر الهند ، والصين ، وجنوباً الى مداغسكر وسائر شواطىء افريقيا الشرقية ، واجتازوا بحر قزوين الى بلاد الخزر والروس... اما براً فاخترقوا بلاد الهند، وتركستان والتبيت حتى نزلوا بلاد الصين ، واوغلوا في افريقيا الى خط الاستواء فقربوا الابعاد بين تلك الاصقاع ، وربطوا المشرق بالمغرب .

وكان التجار المسلمون حوالي القرن الرابع للهجرة يجوبون الاقطار براً وبحراً ينقلون التجارة من بلد الى بلد بين شواطىء فارس وسواحل افريقيا والحبشة واليمن وسواحل الهند والصين ، وسائر المشرق ، ويقطعون صحارى خراسان وتركستان ، وارمينية وافغانستان ، والهند والشام ومصر والسودان وافريقية والاندلس في نقل اصناف التجارة ، بحيث كانوا في الواقع وكأنهم وحدهم تجار الارض في تلك العصور الخالية .

وكان مركز تجارة الشرق (البصرة) بحراً ، و (بغداد) براً ، وذلك ايام العباسيين طبعاً وكان البرتغاليون وغيرهم من امم اوروبا يومئذ في ظلمات الاجيال الوسطى يتنازعون على الاوهام ، ويتجادلون حول الالفاظ .

والواقع ان العرب كانوا اهل ملاحة وتجارة قبل الاسلام، واشهر

تجار العرب القدماء من اهل اليمن ، لتوسط هذه البلاد بين امم العالم القديم ، فكانت واسطة عقد التجارة من اقدم ازمنة التاريخ ، وكان بينها وبين الهند علائق تجارية لا يعرف اولها ، وكان للهنود محصولات وصناعات يحتاج اليها المصريون والاشوريون والفينيقيون وغيرهم ،فكان اليمنيون ينقلون هذه المتاجر الى تلك الامم في سفن البحر او قوافل البر ، وكان على شواطىء اليمن (مراكز) ترسو عندها السفن القادمة من الهند او وادي الفرات ، او وادي النيل ، كما ترسو اليوم سفن الانكليز وغيرهم عند (عدن) في اثناء اسفارها بين اوروبا والهند .

ولهذا السبب عمرت جزيرة سومطره يومئذ لتوسطها في طريق التجارة كما عمرت مالطة في البحر المتوسط لمثل هذا السبب .

ومن (الفرض) التجارية المشهورة في اليمن في ذلك العهد (عدن) و (قانا) — حصن غراب — و (ظفار) و (مسقط) وكانت ترسو عندها السفن الصاعدة في خليج فارس الى ما يلي .

الكيمياء

وكانت الكيمياء قليلة الاثر عهد الامويين ، واول من تفرغ لها واشتغل فيها خالد بن يزيد بن معاوية .

وكانت صناعة الكيمياء رائجة في مدرسة الاسكندرية ، فاستدعى خالد مريانوس الكاهن المسيحي وطلب اليه ان يعلمه الطب وصناعة الكيمياء، ولما تعلمها امر بنقل كتب الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربية ، وكان خالد شغوفاً بعلم النجوم ايضاً ، وقد انفق المال الوفير في طلب هذا العلم واستحضار الاته ، ولعلهم ترجموا له شيئاً لم يصلنا خبره ..

الفن والحياة الاجتماعية

اصول الفن

اقتبس الفن الاسلامي كثيراً من عناصره من المدنيات التي سبقته والامم التي نشأت قبله، ولكن هذه العناصر اضاعت شخصيتها واندمجت فيه فاصبحت عربية اسلامية في شكلها وروحها واوضاعها المختلفة .

والفن العربي الاسلامي يعبر عن شعور خاص يحسه المؤرخ المعاصر ويشعر بوجوده ، ومن السهل ان نلاحظ ان العبقرية الاسلامية في الفن كانت تميل بالفطرة الى تجريد الموضوعات الزخرفية والى تهذيبها وتنسيقها ، والبعد بها عن اصولها الطبيعية ، وقد نجحت في الجمع بين موضوعات زخرفية لم تكن من مستحدثاتها نجاحاً كان يتفاوت مداه باختلاف الطرز الفنية والدولة الحاكمة ومبلغها من الثروة .

ومن المؤكد ان ظهور الاسلام كان ايذاناً بتكوين فن جديد يحق لنا ان نطلق عليه اسم الفن العربي الاسلامي، لانه ظاهرة من ظواهر المدنية الاسلامية ، وجزء من الاساليب الصناعية والنظم الحكومية والعقائد المدنية التي اشترك فيها المسلمون في انحاء العالم .

وقد فتح العرب مصر واستقروا فيها، كما فتحوا سورية فبلاد فارس، ولكنهم لم يغيروا في بداية الامر شيئاً من نظم هذه البلاد الحكومية ، وأسس الحياة الاجتماعية فيها ، وانما فعلوا ذلك مع الايام ، ومع ذلك فانهم لم يركبوا في تعديلاتهم متن الشطط والاغراق ، فقد كانوا من الحكمة وبعد النظر بحيث تركوا جلّ النظم الحكومية والاساليب

البيزانطية الفارسية على حالها اولا ، ولم يفكروا في ابتكار نظم واساليب جديدة تقطع صلاة البلاد بحكامها السابقين .

ومن المؤكد ان الفنانين العرب كانوا يستمدون الوحي ويقتبسون شتى فنون المدنيات القديمة التي ازدهرت في العالم القديم قبلهم ، فلجأ الامويون والعباسيون الى بيزانطه وايران للاستعانة بها والاقتباس منها فكان الفن العربي الاسلامي امتداداً للفنين البيزانطي والفارسي مع بعض التعديل ..

واذا ذكرنا ان الاسلام سيّر النزعات والميول الفنية والزخرفية في اتجاه معين لم يكن باستطاعتها ان تسلك غيره ، فقد اضطر فنانو العرب الى توجيه الفن العربي في سبيل لا يخالف التعاليم الاسلامية دون ان يؤثر هذا في عناصر الزخرفة ذاتها فيجعلها قلقة مضطربه مملة .. وكان ادخال الحروف العربية في الفن عنصراً جديداً من عناصر الزخرفة ، فكان من اثر هذا هذه الرشاقة في الفن العربي التي جمعت بين الاناقة والرشاقة والجدة ..

ولما كان الاسلام يحرم الصور والتماثيل فقد كان لهذا اثره في الفن العربي الاسلامي اذ جعل الفنان حبيس نفسه ، وفرض عليه اخراج التحفة الفنية دون ان يتلقى الوحي والالهام من الكائنات حوله .. فخرجت اثاره والحالة هذه تصور العصور التي ترجع اليها، دون ان تصور لنا نفسية الفنان وروحه ..

فن التصوير عند العرب

وفن الزخرفة (الارابابسك) عند العرب خاص بهم ، ويقوم اساسه على فن عرف العرب كيف يبرعون في تعديد اوضاعه الهندسية براعة

اثارت الاعجاب .

والطراز العربي وان لم يكن مبتكراً ، الا ان ما اخذه العرب من البيزانطيين والفرس احسنوا استثماره في فنهم المعماري ، وجعلوه عربياً ظاهر الرشاقة والحسن والبراعة .

والذي يهمنا بحثه الان هو هل زاول العرب فن التصوير ام لم يزاولوه؟ لان هناك من يذهب الى ان التصوير محرم في الاسلام ، حرمه رسول الله بعد ما رأى العادات الوثنية شائعة عند غير المسلمين بسبب هذه الصور والرسوم التي تكثر في معابدهم .

والغربيون ليسو اول من خلق التصوير ، وانشاه ، وما يقولونه في تأييد حجتهم هذه من ان فن قدماء المصريين ما كان يتجاوز مجرد التخطيط ، على حين هم الذين اهتدوا الى فكرة الظلال بانواعها مما جعلهم يخرجون الصور ناطقة باصولها المأخوذة عنها ، دعوى تستوقف النظر لان الفرس لم يفتهم كما يظهر وضع هذه الظلال ، وقد وصف البحتري ايوان كسرى في قصيدة تدلّل على ذلك ، وفي كتاب كليلة ودمنة جملة تؤكد ذلك ... « كالمصور الماهر ، الذي يصور على الحيطان صوراً كأنها خارجة وليست بخارجة ،واخرى كأنها داخلة وليست بداخلة» وابن المقفع مترجم هذا الكتاب عاش في اول القرن الثاني الهجري ، ومعنى هذا ان الفضل بابتكار الظلال يعود الى الشرق وليس الى الغرب.

واغلب الظن ان الاحاديث التي اشرنا اليها سابقاً بمنع التصوير وتحريمه لم تقصد إلا التماثيل .

التصوير

ومما لا شك فيه ان تحريم التصوير خوفاً من الاشراك في الدين وعبادة

الاصنام ، وكون الدين لا يزال طرياً عند العرب ، قد منع العرب من الناس عبقريتهم في هذا الفن ، وليس هناك اليوم صورة لانسان ، او نصب لشخص في المساجد والمراكز الاسلامية الاخرى ، وكل ما قام به المسلمون هو تصوير بعض الحيوانات للزينة ، واستعمال بعض الخطوط الهندسية للزينة ايضاً ، وقد نجح العرب في هذه الناحية نجاحاً عظيما اطلق على فنهم هذا فيما بعد كلمة (الفن العربي) اذ كان خاصاً بهم دون غيرهم ، ومن الاثار العربية المصورة ما هو موجود الآن في (قصير عمرا) فهناك صور على الجدران تمثل الخليفة الوليد وورودريك ملك القوط في اسبانيا عند غزو العرب لها ، وهناك رسوم اخرى تمثل (الانتصار) و (الفلسفة) و (التاريخ) و (الشعر) ..

وهناك صورة لساحة صيد تمثل اسداً يهاجم حماراً وحشياً .

وصور اخرى تمثل بعض الراقصات ، والمغنيين ، والموسيقيين ، واهل الطرب واللهو .

قصر الحير والفن الاسلامي

وما دمنا بصدد البحث عن الفن العربي في عهد بني امية فمن الحق ان نبحث قصر الحير الذي صار اكتشافه حديثاً ، والذي يبعد ستين كيلو متراً تقريباً من غربي تدمر ، بحيث يقع منعزلا في الصحراء السورية ، ومنظره كان لسنوات خلت مبتذلا ، لان في الصحراء كثيراً من الاثار التي صار اكتشافها حديثاً ، والتي دلت الحفريات الاخيرة على انها كانت حصوناً عسكرية وبروجاً صغيرة قائمة على الحدود المحصنة الفاصلة بين الامبراطورية الرومانية والصحراء العربية ، وقد ظن الباحثون عند رؤيته اول الامر انه كامثاله من هذه الحصون التي ليس فيها كبير امر .

. ولكن هذا القصر كان فيه ما يستلفت النظر خلافاً لبقية الحصون ، فلم يكن منعزلا مثلهـا ، وانما قامت حواليه عدة آثار اخرى ، اثار حديقة كبيرة يحيط بها سور ، يساعد على ريها عـدد من الاقنية لا تزال واضحة الاثر ، واثار عـدة احواض وآثار خان لا يزال بابه — المركب من مصاريع ومن عتبة حجرية ذات قطعة واحدة — منتصباً ، كما انه كان لا يزال في الجبل آثار حاجز قوي في عرض نهر ، وخلف هذا الحاجز دورات البحيرة الاصطناعية لحفظها ، وهـذه البحيرة تشكل مخزناً للماء طوله ما يقرب من كيلو مترين ..

ولم يكن هذا المكان رومانياً بكل ما في الكلمة من معنى ، وان كان القصر نفسه بيزانطياً لا شك في ذلك ، وهو يحمل رموزاً مسيحية بينها عدة صلبان يونانية ، ولكنه كما يظهر عاش الى ما بعـد العصر البيزانطى ، ولما بدأ الحفر في هذا القصر سنة ١٩٣٨ وجد القائمون على الحفر اموراً عجيبة ، فظهرت لهم في اثناء الحفريات اروقة ذات اعمـدة منتصبة كاعمدة الاديرة ، وفي وسط الساحة وجدوا حوضاً فيـه فوارة ماء ، وكان كل ذلك مهدماً لم يبق منه الا قواعـده ، وكانت تنتثر في كل مكان بقايا زينة زاهية ، وعلى بعد خمسين متراً وجدوا بقايا مغتسل رائع ، مع آثار تصاوير على الجدران ، ومغـاطس مزدانة بالمرمر .

وعندئذ ثبت ان قصر الحير هذا لا يمت بصلة الى الحدود البيزانطية ، وليس حصناً رومانياً ولا بيزانطياً ، وليس له مظاهر عسكرية رغماً عن ابراجه واسواره ، وانما هو دار ملكية ، هو قصر اسلامي ، وكل ما فيه صار بناؤه بعد العصر الروماني والبيزانطي في سورية ، هو من بناء القرن الثامن ، في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك الاموي ، الدي كانت

الدولة العربية في عهده قد بلغت اوج اتساعها وامتدادها وحضارتها .

وقد اشتهر الامويون بحبهم للحياة في الصحراء ، حيث نبتوا وحيث نشأوا ، واشتهروا بحبهم بناء القصور خارج دمشق لقضاء الصيف فيها ، وهرباً من الامراض الوافدة التي كانت تكثر في ذلك الحين .

والحير كلمة بمعنى البستان او الحديقة ، فمن الممكن والحالة تسمية هذا القصر بقصر البستان.

ومن دراسة ما في القصر يستطيع المرء ان يتصور حياة الامراء الامويين في ذلك العهد البعيد ...

وكانوا يقسمون اوقاتهم بين القنص والوان من العبث في قصر الحير، تؤكد ذلك التصاوير وهي الآن في معرض دمشق ، ففي احدى هذه اللوحات نرى اميراً ممتطياً صهوة جواد اسود يعدو عدواً سريعاً، يصطاد الغزلان بالنشاب ، وفي لوحة اخرى موسيقيين بلباس فخم زاه ، واقفين تحت قناطر مخضرة مصفرة ، احدهما ينفخ في المزمار ، والاخر يعزف الكمان ..

واكتشاف هذا القصر يدل على الحضارة التي وصل اليها بنو امية ، وهي حضارة حاول التاريخ تشويهها في العصور التي تلت امية في بغداد والقاهرة ، ولكن الاكتشافات الحديثة اخذت تظهرها للناس ، واضحة جلية رائعة ...

وهناك صورة اخرى ، هي صورة (قصير عمرا) وهو اليوم عبارة عن بناية صغيرة مهدمة صار اكتشافها منذ اربعين سنة في شرقي الاردن وسط صحراء مجهولة كصحراء قصر الحير بعداً ، يرى على احد جدران هذا الاثر رسوماً تكاد تكون ممحية ، تمثل عدة شخصيات كتبت اسماؤهم فوق رؤوسهم باليونانية والعربية ، ومن قراءة هذه النقوش نعرف ان

هذا القصر كان حماماً لاحد الخلفاء الامويين وقد رسمت على جدرانه صور الملوك الذين انتصر عليهم .

وفي شرقي الاردن صار اكتشاف عدد من هذه الخرائب الاموية التي تصور العصور العربية السالفة اجمل تصوير ..

ولكن قصر الحير يحتل مكاناً ممتازاً بين الاثار الاموية التي صار اكتشافها ، لما وجدوا فيه من بقايا هندسية بصورة رائعة بديعة ..

دمشق العاصمة

ولقد نعمت دمشق منذ زمن قديم بمركز جغرافي جعلها وسطاً بين الشرق والغرب ، ووسيطاً موفقاً في التجارة والثقافة والمركز العسكري .

وهي في نقطة يلتقي بها الطريق الذي يخترق سورية الداخلية من الشمال الى الجنوب بنهر بردى الذي يجري من الشرق الى الغرب ، مما يجعل تنظيم الشوارع فيها سهلاً هيناً ، وتحيط الجبال بها من كل ناحية إلا من جهة البادية فهي والحالة هذه تقع في مركز تجاري يجعلها رابطة عقد التجارة بين الشرق والغرب في مختلف العصور ...

ومن سواحل فينيقيا كانت ترد الى دمشق مختلف الصناعات والمنتوجات القديمة ، ثم تذهب منها الى العراق ، وبالطريق نفسه كانت تأتي صناعات ومنتوجات بابل واشور وفارس الى سواحل البحر المتوسط ، كما كانت هناك مدن تجارية في شمالي سورية من حلب الى حماه الى حمص ، الى جنوبي سورية ومنها الى فلسطين او الى شمالي الجزيرة العربية .

واذاً فقد كانت دمشق منذ القدم مركزاً تجارياً خطيراً تقصدها

القبائل البدوية حاملة ما عندها من مختلف الحيوانات والجلود والاصواف ، يبادلون به ما في دمشق من حاصلات وصناعات ومنتوجاف ليس عندهم مثلها .

ومن المؤكد ان كثيراً من المدن التي لا اهمية لها اليوم – في سورية طبعاً – كانت تنعم باهمية تجارية عظيمة في ماضيات الايام كتدمر وحمص ، وبصرى وغيرها من المدن التي كانت تعتمد على دمشق في كثير من حاصلاتها وتجارتها .

قبيل الفتح العربي

ولما وصل العرب الى اسوار دمشق لم تكن وسيعة كبيرة كما هي اليوم ، ويمكن تقدير مساحتها من النظر الى الاسوار التي لا تزال آثارها قائمة حتى الآن ، فقد كانت تضم هذه الاسوار مربعاً مستطيلاً من الشرق الى الغرب ، وزاوية هذا المربع الغربية الشمالية مجزعة نوعاً ، اذ يرجح قيام حصن كبير في الماضي مكان البقعة التي تشغلها القلعة اليوم ، وكان علو الاسوار عشرين قدماً وسمكها خمسة عشر ، وفي بعض اطرافها من الحجارة الضخمة ما يدعو الى العجب والاكبار .

وقد بنيت هذه الاسوار بالحجارة المربعة وهي مبنية في بعض الاحيان على اساس اقدم منها بكثير ، يرجع الى ما قبل العصر اليوناني ، وكانت دمشق قبيل الفتوح العربية قد استعادت شيئاً من رباطة الجأش التي خسرتها في الحروب الفارسية الرومانية ، وكان الامبراطور ديوكليشيان قد اصلح الحصون القائمة حولها ، ليجعل منها حصناً رومانياً لحدود الامبراطورية الشرقية ، وكان يحيط بالسور خندق ملىء بمياه بردى يتراوح عرضه بين العشرة اقدام والخمسة عشر ، مما كان يجعل

هجوم العدو على المدينة صعباً شاقاً ، وكان يوجد فوق ابواب المدينة - التي كانت تصل بين سكان المدينة والخارج - وفي نقط اخرى من السور بعض ابنية صغيرة وبيوت للسكن يأوي اليها من كان يترتب عليه حراسة المدينة واسوارها .

والواقع ان المدينة كانت محصنة تحصيناً حسناً قبيل الفتح العربي وكان فيها قوة رومانية كافية .

ابواب دمشق وشوارعها

وفي المصادر الاسلامية انه لما افتتح العرب دمشق كان يوجد فيها سبعة ابواب اسماؤها اخذت من اسماء السيارات السبع ، كما اخذت اسماء ايام الاسبوع ، وكان على الابواب المذكورة صور تشير الى السيارات المذكورة .

والذي نعلمه ان عدداً من المداخل كانت تستعمل للمواصلات بين المدينة وما دونها ، وان تلك المداخل كانت تنتهي بابواب ثقيلة مصفح بالحديد مزدوجة الانطواء لكي تصد غارات الاعداء من الخارج ، وكانت تدعى البوابة الكبرى في الجهة الشرقية من دمشق بالباب الشرقي .

وكان هنالا هيكل روماني كبير امام هذا الباب ، وبقي باب الهيكل قائماً حتى سنة ٦٠٢ للهجرة ، وقد طمست اثار الهيكل كلها ولكن الباب الشرقي لا يزال قائماً مع قليل من التبديل والتغيير ويحتوي الباب الشرقي على بوابة كبيرة - وهي مسدودة الان - في وسطه ، وهي من البناء الروماني المتين ، احجارها رملية مصقولة مائلة الى الاحمرار ، وهي ذات قوس مستدير ، ويحيط بهذه البوابة الرئيسية المتوسطة بوابتان صغيرتان لهما اقواس ، وقد كانت تستعمل البوابة الكبيرة الوسطى للابل

والفرسان والدواب ، واما البوابتان اللتان كانتا على الجوانب ، فان واحدة كان يمر بها الداخلون ويمر بالاخرى الخارجون من المدينة .

وكان هناك عدد كبير من هذه الابواب ابان الفتح العربي ، فقد كانت البوابة التي في الجانب الشمالي من المدينة والتي تدعى الآن باب الفراديس ( ) مبنية كلها بالحجارة ، وليست ذات قنطرة وانما مغطاة بحجارة مستطيلة ، وهذا النوع من البناء يرجع الى ابعد العصور القديمة ، ويقول فون كريمر المستشرق النمسوي الذي نأخذ عنه هذا الوصف: ان الحرائق جعلتها سوداء قاتمة ، وانها كانت تدعى ايضاً باب الكراديس من تكاثر الجثث بعضها فوق بعض بالقرب منها .

وفي الشمال الشرقي من المدينة باب يقال له باب توما ، والاسم يشير الى توما صهر الامبراطور هرقل الذي كان حاكما للمدينة في عهد الفتح العربي .

واما في القسم الغربي من السور ، فكانت توجد بوابة في المحل الذي يدعى الان (باب الجابية) وفي الجنوب مدخلان يدعى احدهما باب كيسان والاخر باب الصغير ، والاخير يستعمل الان كما كان حاله سابقاً،وهو مبني بحجارة مقطوعة قطعاً جميلاً تشبه حجارة الباب الشرقي ، وله قناطر عريقة ، منقوشة نقشاً بديعاً .

فلما اقبل العرب على دمشق استقبلتهم بهذا المنظر الذي وصفناه ، وكان سكان المدينة قد اجتمعوا حول اسوارها ، يشاهدون الجيش العجيب الذي لم يشاهدوه قبل اليوم ، واما داخل المدينة فقد كان يلائم مظهرها الخارجي ، وكان الدرب المستقيم اهم شارع في دمشق ، وكان يوصل غربي دمشق بشرقيها لانه يمتد من الباب الشرقي لمسافة ربع

---

(١) او الجنائن والجنات .

ميل الى الباب الغربي او باب الجابية ، اما عرضه فخمسة عشر قدماً ، وهو الشارع الذي مرّ به بولس الرسول وقد ذكره الانجيل .

كنيسة صارت الى مسجد

وكان يوجد في دمشق وضواحيها خمسة عشرة كنيسة ، ما عدا كنيسة يوحنا المعمدان ، وهذه الكنيسة كانت اهمها ، وكانت تقع في منتصف الطريق بين البابين الغربي والشرقي ، وقامت مكان هيكل وثني قديم ، وبنيت جدرانها واعمدتها على اساساته القوية ، وبانيها تيودوسيوس الامبراطور الروماني وهو الذي اطلق عليها اسم كنيسة يوحنا عام ٣٩٩ للميلاد ، وكانت اقواس الابواب الفخمة المرتكزة على اعمدة كورنيثية ، والواجهات المزخرفة بالنقوش الجميلة تزين مدخل الكنيسة ، ولنا من آثار هذه الابواب القديمة التي تذكرنا ببعلبك في فخامتها واساويها نماذج محفوظة في الجانب الغربي من الجامع الاموي الحالي امام باب البريد .

وكان داخل الكنيسة اية في الجمال ، وصحن الكنيسة من عمل البيزنطيين وهو مكلل بقبة كبرى يدعوها العرب قبة النسر ، والجدران مرصعة من الداخل من كلا الجانبين بالفسيفساء الجميلة .

ومساحة هذا البناء كله من الداخل ٤٣١ قدماً في ١٢٥ ، وتمتد على الجانب الجنوبي من مربع مستطيل مساحته ١٦٣ يرداً في ١٠٨ .

وكانت هذه الكنيسة مركز حامية قوية ، وكان كثيرون من وجهاء البيزنطيين يسكنون الكنائس الاخرى .

وقد تفرعت حول الكنيسة ازقة وشوارع مختلفة في جميع الجهات للمارة حيث كانت تحفظ الاروقة المعمدة المارة من الحر في الصيف ،ومن

المطر في الشتاء ، ومن هذه الكنيسة كان الناظر يشاهد شوارع وسيعة تمتد الى اطراف المدينة وجهاتها الاربع .

وكان يصار الى نقل ماء بردى الى المدينة بواسطة اقنية عظيمة ، وقسطل عظيم بني على اروقة كبيرة من البنيان المرصوص .

وكان يوجد في دمشق عند الفتح ١٣ كنيسة مما يدل على ثروة اهل المدينة وغناهم ، وتقواهم ايضاً ، واما العمارات العظيمة التي كانت تزين شوارع المدينة الوسيعة فلا اثر لها اليوم .

ويختلف المؤرخون حول استسلام المدينة ، والارجح ان قسماً منها وهو النصف صار فتحه بالسيف ، والنصف الآخر بالتفاهم والاتفاق ... ولذلك صار تقسيم الكنيسة الكبيرة — كنيسة مار يوحنا — الواقعة في وسط دمشق الى قسمين قسم اخذه المسلمون ، وقسم ظل في يد المسيحيين كما يذهب غيرهم الى غير ذلك ...

المسجد الاموي الجديد

وفي هذا المسجد الجديد الذي انبعث من نصف الكنيسة القديمة خطب معاوية امير الشام يدعو اهل دمشق الى محاربة علي بن ابي طالب والاخذ بثأر عثمان ، وفي هذا المسجد كان يعلن انتخاب الخليفة وتصار البيعة اليه .

وقد سكن العرب اول ما سكنوا في القسم الغربي من المدينة ، ولا يبعد ان يكون سكان هذه المنطقة من المسيحيين قد تركوها للعرب ، او يكونوا قد غادروا سورية كلها مع من غادرها من الرومان واليونان ، وسكن المسيحيون واليهود الجهة الشرقية ، ولا يزالون فيها حتى اليوم . الاولون في شمالها ، واليهود في جنوبها .

ولما فتح العرب دمشق خسرت طابعها القديم كبلدة سورية يونانية، واصبحت مع الايام بلدة عربية ، واصبح العرب فيها يؤلفون الاكثرية الساحقة بعد سنوات قليلة من الفتح ، ففي عهد الوليد كان عدد الذين يأخذون العطاء من سكان دمشق ٤٥ الفاً ...

ولما كان العطاء يعطي للاشخاص الذين يحاربون او يعملون للحرب ، ولموظفي الحكومة ، فيجب ان نعد سكان دمشق من المسلمين يقاربون المائتي الف نسمة على اقل تقدير ...

ولا بد ان تكون شوارع دمشق ومخازنها في عهد امية تساوق شوارع دمشق ومخازنها في الايام التي سبقت الحرب العظمى ، ١٩١٤ — ١٩١٨ ، من حيث تعدد اصناف الناس واشكالهم ، واختلاف هيئآتهم ، ومن حيث ان ما يعرض في دمشق من حاجيات كان مزيجاً منوعاً قد صار جلبه من مختلف انحاء العالم .

البلدة العربية

وظهرت البلدة العربية بعد اتصال العرب بابناء البلاد انفسهم ، وبعد ان اخذوا بالاستقرار والاقامة ، وليس هناك حتى اليوم ، زي خاص مثلاً للبلدة العربية ، فبعض المدن صار بناؤها على زي المدن الرومانية ، وبعضها صار بناؤها وفاقاً للزي الفارسي .

ولما نزل العرب المدن احتفظوا بعاداتهم القبلية، وتقاليدهم الجاهلية، ولذلك كان الاتحاد والوفاق اقرب واوثق بين ابناء القبيلة الواحدة منه بين سكان المدينة الواحدة ..

والواقع انه لما صار بناء المدن العربية ، انشأت كل قبيلة حياً خاصاً لها في كل بلدة ، فنرى في دمشق مثلاً انه ضمن الاسوار القائمة حول

المدينة ، كانت هناك اسوار داخل دمشق تفصل كل حي عن الآخر ، او كل قبيلة عن القبيلة الثانية ، وقد حمل العرب معهم هذا التقسيم العجيب الى فارس ، فبنيت مدينة (مرو) على هذا النحو من التقسيم الغريب .

وكان لهذه الاسوار الداخلية التي تفصل القبائل بعضها عن بعض ، ابواب تقفل ليلاً وتفتح نهاراً .. ويظهر ان هذه الابواب لم تندثر إلاّ منذ مدة قريبة كما يقول بعض السواح .

واما البناء فكان من الطين ، والبنايات العامة من الحجر ، ولما استولى العرب على سورية لم يكن عندهم متسع من الوقت لاقرار لون جديد في البناء والعمارة ، فاخذوا النظام البيزنطي الموجود وقلدوه .

وفي ايام الوليد بن عبد الملك بدأ فن العمارة في دمشق يأخذ شكلاً جديداً ، خصوصاً وان الوليد كان من المولعين في فن العمارة ، وكانت الثروة والغنائم تتدفق على دمشق ، وكان الناس قد اطمأنوا واستقروا ، فاخذوا يفكرون في تزيين المنازل ، واقامة القصور الجميلة .

بناء المسجد

وصرف الوليد عناية الى اقامة مسجد في دمشق يتناسب وعظمة العاصمة وكبير مركزها ، ويختلف المؤرخون في قصة هذا المسجد وكيف اخذه الوليد من النصارى ، وقد اشرنا الى ذلك سابقاً .

ولما اخذ الوليد المسجد واراد بناءه احتاج الى الصناع فكتب الى الامبراطور في القسطنطينية ان وجه اليّ بمائتي صانع من صناع الروم فاني اريد بناء مسجد في دمشق .

وكان شقيقه سليمان بن عبد الملك على الصناع .

وحسب المؤرخون ما انفق على مسجد دمشق فكان اربعمائة صندوق ،

في كل صندوق اربعة عشر الف دينار ، فيكون المجموع ٥،٦٠٠،٠٠٠ دينار واستغرق بناء المسجد ما يقرب من عشر سنوات .

ومسجد دمشق او المسجد الاموي آية من آيات الفن العربي والبيزنطي ، ولا يزال حافظاً لرونقه وبهائه حتى يومنا هذا ، وكانوا يحسبونه في ذلك العهد من عجائب الدنيا (١) .

وكان محراب المسجد مرصعاً بالجواهر الثمينة ، عليه قناديل الذهب والفضة ، محلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية ، وقد انكر الناس على الوليد ما صرفه في عمارة المسجد ، وفكر عمر بن عبد العزيز بنزع الفسيفساء والسلاسل الذهبية لولا قدوم بعض رسل الروم الى دمشق وزيارتهم المسجد ، وظهور العجب والاضطراب على وجوههم ، وشيوع الذعر في نفوسهم ، لما رأوه من بأس العرب في هذا البناء ، وتقدمهم في الاحسان والاعمار ، فعدل عمر عما فكر فيه ، وترك المسجد وشأنه ، بعد ما شاهد من تأثيره على غير المسلمين من الروم .

الماء في دمشق

ومما يصار الى ذكره في هذه المناسبة ان الوليد جمّل دمشق وضواحيها بالمباني العامة العديدة ، وكان الناس في عهده لا يتحدثون إلا بالعمارة وجمالها ، فهو والحالة هذه اول خليفة وآخر خليفة عُني بدمشق هذه العناية العظيمة .

مدن اخرى

ولم يقم العرب في سورية ببناء مدن جديدة إلا في عهد سليمان بن عبد

---

(١) ياقوت : معجم البلدان .

الملك ٧١٥ – ٧١٧ ، لما صار بناء الرملة في فلسطين ، وقد بنيت الرملة على الطريق بين القدس والبحر ، ومع احترام المسلمين للقدس فان الرملة كانت لمدة اجيال مركز الحركة الاقتصادية في فلسطين ، ولكن تأثير « الرملة » كان محلياً فلم تؤثر بصورة من الصور على الثقافة العربية والعمارة العربية .

ولم يكن حب العمارة مقصوراً على الحكام فحسب بل نافسهم الامراء وكبار رجال الدولة في تجميل دمشق وغيرها من المدن والامصار .

فقد شيد الحر بن يوسف حفيد مروان بن الحكم – وكان والياً على الموصل في عهد هشام – داراً انيقة من الرخام الخالص والمرمر ، عرفت بالمنقوشة لما امتازت به من النقش البديع ، كما بني الفنادق في الموصل ايضاً .

ولما رأى الحر ما يعانيه اهل الموصل من المشاق في الحصول على ماء الشرب ، شق لهم قناة لا تزال باقية الى اليوم ، وغرس الاشجار على ضفتيها حتى اصبحت وكأنها متنزه عام لاهل المدينة ، وفعل خلفاء امية مثل الحر في بناء القصور لهم خارج دمشق وبالقرب من البادية ، وكانوا يفعلون ذلك هرباً من الطاعون كما يظهر ...

وكان يوجد في سورية مراكز عسكرية للجند العربي اقل اهمية من دمشق ، كالجابية ، ودابق في شمالي حلب ، وبعض هذه المدن او المراكز العسكرية اصبح مدناً كبيرة ، كالقاهرة التي حلت محل الفسطاط – المركز العسكري اولا – والقيروان في تونس ، والكوفة والبصرة في العراق ، وشيراز في فارس .

وقد ساعد العرب كثيراً على انشاء المدن في ايران وتركستان ، وكان يقوم مركز الحركة التجارية في كل هذه المدن خارج ابواب المدينة كما كان الحال عند الروم ...

واستفاد العرب من الروم كثيراً من الصناعات ، فصناعة النسيج التي كانت رائجة في مصر صار نقلها الى سورية ومنها الى فارس وتركستان ، وكذلك استفاد العرب من الروم الواناً مختلفة من فنون العمارة وكان ما اخذوه من الفرس في هذا الباب قليلاً جداً .

وصف دور الاغنياء

ويقول السيد امير علي في وصف دور الاغنياء في دمشق ما يأتي :
« لم يتغير طراز البيوت وترتيبها في دمشق عما كان عليه في عهدالامويين على الرغم من مرور مئات السنين ، فترى البواب جالساً على مقعد خشبي امام الباب كما تراه الان في منازل الاغنياء ، وترى على باب بيوت الفقراء قطعة من المعدن او الحديد تستخدم مطرقة للباب .

« وفي داخل الدار فناء مستطيل على جوانبه اروقة من الاعمدة ، واوضه من الحجارة والرخام ، وممشى مرصوف بالحجارة او الحصباء على اشكال هندسية منتظمة ، وفي الفناء نافورة يحيط بها حديقة صغيرة بها الازهار الزكية وتظلها اشجار البرتقال والليمون ، وعلى جانب الفناء يقوم الايوان وهو عبارة عن صالة قد رصعت بالرخام والبلاط الملون ، وتستعمل قاعة للاستقبال وقت الحر ، وقبالة الباب كانت تقوم او تقام عادة كوة مقفلة ، تزخرف بالاعمدة الرخامية ، ويوضع فوقها الطست والابريق للوضوء .

« وكانت قصور الاغنياء مكونة من طابقين احياناً ، وعلى يمين وشمالي الصالات ابواب تكسوها ستور كثيفة تؤدي الى الصالات والحجرات الاخرى .

« وفي الشتاء كانت تُكسى ارض الايوان الرخامية ، وكذلك

الحجرات بالسجاد الثمين وتدفأ الحجرات بالمواقد، اما في الصيف فكانت النافورات والنوافذ كفيلة بتلطيف حرارة الجو .

« وكانت سقوف الدار مزدانة بنقوش على الطراز العربي ، ومطلية بالذهب ، ولم تكن هناك مقاعد ، فاذا كان صاحب الدار من اصحاب المراكز السامية وضعت السجاجيد بعضها فوق بعض لتكون بمثابة مقعد مرتفع له . »

العمارة في غير دمشق

وكانت المباني عند العرب اول الفتوح وقبلها غاية في البساطة والسذاجة فلم يكن في مكة إلا مبان قليلة اهمها الكعبة ، وكانت منازل الاغنياء تبنى بالحجارة او اللبن بينما كانت معظم مباني المدينة من اللبن ، الذي كان يتهدم وينقض بسرعة .

وكانت المنازل في الغالب طبقة واحدة ولها فناء ، وفي وسطها بئر ، فلما اتسعت الفتوح الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب وزادت الثروة اقبل على المدينة عاصمة الدولة قبل دمشق اصحاب صناعة فن العمارة من الاجانب فارتقي فن العمارة ، وشيد مشاهير العرب في مكة والمدينة الدور الواسعة من الحجارة والرخام ، ويقال ان الدار التي بناها عثمان كانت غاية في العظمة والبهاء ، وقد هدم مسجد الرسول بالمدينة واعاد بناءه بالحجارة والرخام ، كما عمر عبد الملك بن مروان المسجد الحرام .

وجلب السوارى من البحر الى جدّه ، وسقفه بالساج ، وعمره عمارة حسنة ، ثم وسع ابنه الوليد فيه ، وحمل اليه اعمدة الحجارة والرخام ، وفعل الوليد مثل ذلك في المسجد النبوي في المدينة .

امتياز العمارة العربية

ولما استولى العرب على الشام وفارس اتخذوا لأنفسهم طرازاً خاصاً للعمارة – بعد ان استقروا كما قدمنا – يتناسب مع طبيعتهم وذوقهم ، وقد فاق هذا الطراز طراز الفن البيزنطي والفارسي من حيث الرقي وجمال التنسيق والاتقان ، والعرب الى ذلك مقلدون من الطراز الاول ، فهم يأخذون ما عند غيرهم ويزيدون من روحهم عليه .

والعمارة العربية تمتاز بالاعمدة والمنحنيات والمآذن والقباب ، وهي تماثل النخيل الذي هو اعز شيء عند العرب ، وكذلك نرى روحيتهم ونفسيتهم ظاهرة حتى في تخطيط المدن التي كانوا يحيطونها باسوار منيعة للدفاع عنهم ، ولما كانوا يكرهون المركزية ، فقد خلقوا في المدينة ما الفوه في البادية ، وراحوا يعيشون فيها كما كانوا يعيشون في البادية ، قبائل مستقلة ، لكل قبيلة حيها ومنازلها ومسجدها وسوقها ومقابرها ، وكان لكل حي ابواب منيعة تفصله عن الاحياء الاخرى ، بحيث اصبحت المدينة مجموعة مدن صغيرة ، وهذا التقسيم يلائم ما درجوا عليه من حب الحرية والانفة من الخضوع لغير زعيم القبيلة . واذا ما قامت ثورة او اضطراب في المدينة كانت تغلق الابواب فتنقطع المواصلات بين اجزاء المدينة المختلفة .

العمارة خارج دمشق

ومن المدن التي انشأها العرب ولا تزال قائمة حتى اليوم البصرة والكوفة في العراق وقد عرضنا لحديثها وكيف صار انشاؤهما لتكونا مركزاً عسكرياً للعرب ومادة للجند ...

وكذلك صار انشاء الفسطاط في مصر بامر عمر بن الخطاب ، في المكان الذي يقوم فيه حصن بابليون ، وقد اصبح الفسطاط اليوم قسماً من مدينة القاهرة ، وكانت بيوت العرب فيها اول الامر طبقة واحدة ، ثم اخذت الدور تزداد في الاتساع والعلو شيئاً فشيئاً ، حتى صار ارتفاع اغلب الدور خمس طبقات وستاً وسبعاً واكثر ، واصبح يسكنها المائتان من الناس بعد ان كان لا يسكنها إلا اسرة قليلة العدد. وظلت مدينة الفسطاط قاعدة لمصر ومقراً للامارة حتى بنيت مدينة المعسكر سنة ١٢٣ هجرية فنزل فيها امراء مصر وسكنوها .

قبة الصخرة

ومن المباني التي صار انشاؤها في عهد الامويين قبة الصخرة في القدس سنة ٦٩١ ، وذلك بامر عبد الملك بن مروان نكاية بابن الزبير لما استقل بالحجاز ، ثم اعاد المأمون تجديدها ٨١٣ – ٨٣٣ ووضع اسمه مكان اسم عبد الملك ولكنه نسي التاريخ فظل على حاله ، وعبدالملك ايضاً بني مسجداً بالقرب من القبة ، ويظهر انه مع الايام صار ضمه الى القبة فاصبح المسجد الاقصى .

البناء عند العرب

والواقع انه اذا كانت هناك اثار عربية يصح ان تسمى عمارة فقد وجدت طبعاً في اليمن قبل كل شيء ، لان اول حضارة عربية نشأت في هذه المنطقة من الجزيرة قبل غيرها ، والمعلومات التي عندنا منها قليلة لا تمكن المؤرخ من تقديرها ، وهذا الفن المعماري الذي نشأ في جنوب الجزيرة لم يكن له في حال من الاحوال تأثير على شمالها .

فقد كانت الخيم اكثر استعمالا في الشمال من البيوت القائمة من الطين والحجارة ، وكان الهواء الطلق والرمل النقي اقرب الى نفوس القبائل واشد تأثيراً عليهم .

اما سكان المدن القليلة التي كانت موجودة في شمالي الجزيرة، فكانت منازلهم بسيطة جداً ، تبنى من اللبن ، وتسقف بخشب النخل او الطين ليس فيها شيء من الترف ولا من الرفاهية .

حتى الكعبة ، وهي المكان المقدس عندهم ، لم يكن فيها شيء ، وانما كانت عبارة عن بناء مربع قائم ليس له غطاء او سقف .

واما الاثار التي وجدت في بترا ومدائن صالح وتدمر ، والاثار التي تعود الى المنذر بن الحارث الغساني، فانها ليست عربية كل العروبة ،وانما هي مزيج من آثار اليونانيين والمصريين والسوريين .

واول الاثار العربية الحقيقية توجد في المساجد كما قدمنا،حيث تجلت فيها رغبة الامة في اظهار اجمل ما عندها من فن في الاماكن المقدسة .

وقد خلق المسلمون لوناً جديداً من الوان العمارة بسيطاً وجميلاً ، اقتبسوا فكرته ،ممن سبقهم ولكنهم جعلوا فيه الكثير من روحهم وعبقريتهم .

وقد عني العرب اول ما عنوا بالمساجد كما قدمنا وكان المسجد مربعاً، ولم يقيموا حوله جداراً في اول الامر ، وانما حفروا خندقاً ...ولم يكن في المسجد من جديد الا (المنبر) وبعد سنوات صار انشاء المقصورة في الجامع ، وهي غرفة صغيرة توضع في جانب من جوانب المسجد ، وجدرانها من الخشب ، وقد استعملها معاوية بن ابي سفيان في مسجد دمشق للمحافظة على نفسه بعد حادث الاغتيال .

واما المنارات التي نراها اليوم تزين المساجد الاسلامية فلم تظهر الا

في اواخر القرن الهجري الاول، ثم ظهر المحراب بقليل بعدها، وكذلك نرى انه بعد ثمانين سنة من بناء اول مسجد في المدينة ، تمكن المسلمون من الوصول الى الكمال في بناء المساجد وزخرفتها خصوصاً بعد بناء مسجد دمشق الاموي ثم زيد الايوان على المساجد وهو عبارة عن صحن كبير تقوم فيه الاعمدة الضخمة ، ترد المطر وحرارة الشمس ، كما تقام فيه في الوقت نفسه اقنية الماء لوضوء المصلين.

والمساجد التي ذكرناها لا تحتفظ اليوم باصولها القديمة ، ولكن الفن الهندسي الذي استعمل فيها صار معروفاً ، وهو الذي يهمنا لدراسة فن العمارة عند العرب .

ومما يلفت النظر السرعة العجيبة التي انصرف فيها المسلمون بعد وفاة رسول الله الى بناء المساجد وتزيينها والاحسان فيها خصوصاً اذا علمنا شدة كلف المسلمين في هذا العهد الاول بالحياة البسيطة البعيدة عن الزهو والكبرياء والزينة .

والمسجد ما في ذلك شك هو شيء عربي ، اختص به العرب دون غيرهم ، ولا ريب ان الحج كان من الاسباب التي وحدة عمارة المساجد في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، بحيث جرى المسلمون في بناء مساجدهم على نحو واحد تقريباً .

بنو امية بين الحضارة والبادية

والواقع انه لم يأت القرن الاول على نهايته حتى كان العرب ينعمون بكثير من الوان الرفاهية ، وبعضهم كان ينعم بها على قدر ، فكان يقدم رجلاً في المدينة ، ويؤخر اخرى في الصحراء ، محافظة منهم على صحتهم وعاداتهم واخلاقهم .

وفي عهد امية نرى الخلفاء انفسهم يجمعون بين الامرين ، بين الرفاه والنعيم ، وبين الخشونة والجفاف ، كحال معاوية وعبد الملك وهشام ، وكان الخلفاء يصرفون اكثر سني خلافتهم في البوادي طلباً للصحة والهواء النقي وهرباً من الاوبئة والطاعون - وكان يكثر في المدن - فكان معاوية يقيم احياناً في غوطة دمشق ، وينصب الابنية والاروقة ، ويشتو في الصنبرة على ثلاثة اميال من طبرية ، وكان لكثير من بني امية قصور في الغوطة ، وكان لعبد الملك في البرية عدة قصور ، وابتنى الابنية حول قصر (الموقر) على ساعتين من عمان قرب قصر المشتى على مقربة من مادبا .

وسكن حصن الموقر يزيد بن عبد الملك ، واستقر الوليد بن يزيد والعباس بن الوليد في القسطل بالبلقاء ، والوليد في الزيزاء ، وقصر الازرق وقصير عمرا ، وهذا الاخير كان آية من آيات الصناعة التصويرية اذ كانت جدرانه ملأى بالنقوش الجميلة البديعة ، ولا يزال بعضها قائماً حتى الآن . وكان قصر البخراء للنعمان بن بشير وهو قرب تدمر ، وذكروا ان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتل فيه .

وكان هشام ينزل في الزيتونة في بادية الشام ، فلما عمر الرصافة انتقل اليها ، والرصافة غربي الرقة بينهما اربعة فراسخ على طريق البرية .

وكان يزيد بن معاوية يقيم في حوارين وتدمر ، وابنه خالد سكن في البلقاء . وكان سليمان بن عبد الملك يشتو بدابق ، وغيرها وينزل الوليد في حوران .



ونزل عمر بن عبد العزيز (دير سمعان) وبهمات ، وهو قرب النعمان . كما كان ينزل خناصرة وهي تحاذي قنسرين .

- انتهى -

مصادر الكتاب

ذهب بعض المؤرخين الى ذكر المصادر تحت كل فقرة او رأي من ارائهم ، وذهب البعض الاخر الى الاكتفاء بذكر مصادرهم في آخر الكتاب ، وقد ذهبنا نحن في هذا الكتاب مذهباً وسطاً فذيلنا كتابنا ببعض المصادر ، ورددنا باقيها وهو كثير الى فصل خاص بسطنا فيه كل المصادر التي اقتبسنا منها بعض مصادر كتابنا هذا ..

ومن المفروض ان تختلف المصادر باختلاف اصحابها،فبعضها ضعيف، اعتمد فيه اصحابها على كتب لم تحز الثقة المطلقة عند جماعة المؤرخين ، والبعض الاخر اضعفته عصبية مؤلفه ورغبته في اقرار مذهبه فيما اجرى قلمه فيه ، وقد اخذنا نحن بافضل هذه المصادر واوثقها ، فكانت كتب السلف من المؤرخين من اهم ما اعتمدنا عليه ، واتت كتب المستشرقين بعدها ، كما اعتمدنا في الوقت نفسه على المصادر البيزانطية خصوصاً اذا وافقت مؤلفات السلف وايدت ما ذهبوا اليه ...

واما مؤلفات المستشرقين فقد اعتمدنا مصادرهم فيما يتعلق بالادارة والشؤون المالية والعسكرية والسياسية بين الدولة العربية والدول المجاورة ، كما اعتمدنا بحوثهم الخاصة وتقسيماتهم الجديدة ، وارائهم الحديثة في بعض ما يتصل بالتقسيم والتبويب وغيرهما ، ولسنا الى هذا ممن ينكرون فضلهم وان كان بعضهم يتعدى حدود التاريخ الى اصدار احكام ليست من التاريخ واصول النقد والانصاف في كثير ولا قليل ..

ومن الحق بعد هذا ان نذكر فضل المؤلفين العرب المعاصرين الذين

سبقونا في هذه الدراسات ، وتقدمونا في بحث هذه الموضوعات ، امثال استاذنا وصديقنا الكبير الدكتور محمد حسين هيكل باشا في كتبه الثلاثة : « محمد » « وابو بكر » « وعمر بن الخطاب » ، فان طرافة ابحاثه ، ودقة دراساته ، وحسن تقسيمه قد حبب الى الناس قراءة التاريخ العربي ، وجعله ليناً هيناً عذباً ...

واما استاذنا وصديقنا الاستاذ محمد كرد علي فان فضله في « خطط الشام » « والاسلام والحضارة العربية » عظيم كبير علينا ، كما ان كتاب فجر الاسلام للاستاذ محمد امين قد هيأ الجو الذي اردناه لهـــذا البحث الجديد ، ومثل هذا نقوله في مؤلفات الاستاذ حسن ابراهيم حسن، وغيره من الاساتذة والاصدقاء ...

ونظن بعد هذا اننا نحسن صنعاً اذا ذكرنا في هذا الباب مؤلفاتنا التي استبقت كتابنا هذا والتي نشرتها المكتبة الاهلية في بيروت ، ودار احياء الكتب العربية في مصر، ودار النشر للجامعيين (مصر)، ولجنة النشر العربية في بيروت ، فان هـذه الكتب التي بيعت بالآلاف والتي نفد منها حتى الان ما يزيد عن مائة الف نسخة كانت خير مشجع لنا على المضي فيما اعتزمناه من درس التاريخ العربي الاسلامي على منوال اوسع ، وتقسيم جديد، وتبويب لطيف ، نعتقد بحق ان القراء سيتقبلونه بمثل ما تقبلوا به كتبنا السابقة من تقدير وتشجيع ...

المصادر العربية

دائرة المعارف الاسلامية ، (الطبعة العربية) . الكامل ، لابن الاثير . اسد الغابة ، لابن الاثير . الامم والملوك ، للطبري . الاغـــاني ، لابي الفرج الاصفهاني . الطبقات الكبرى ، لابن سعد .

معجم البلدان ، لياقوت الحموي . معجم الادباء ، لياقوت الحموي . الاصابة في اخبار الصحابة . فتوح البلدان ، البلاذري . مروج الذهب ، المسعودي . التنبيه والاشراف ، المسعودي . تاريخ الطبري ، لابن جرير الطبري . اخبار الحكما ، للقفطي . الفهرست ، لابن النديم . خطط المقريزي . اخبار ولاة مصر وقضاتها ، للكندي . تاريخ مكة ، للازرقي . شرح نهج البلاغة ، لابن ابي الحديد . كتاب البلدان ، للهمذاني . كتاب المسالك والممالك ، لابن حوقل . العقد الفريد ، لابن عبد ربه . تاريخ ابن خلدون ومقدمته . البخاري ومسلم ، كتاب الام ، للشافعي . مسالك الابصار في ممالك الامصار ، لابن فضل الله العمري . الفصل في الملل والنحل ، لابن حزم . تاريخ التمدن الاسلامي ، جرجي زيدان . الاسلام والحضارة العربية ، محمد كردعلي . الملل والنحل ، للشهرستاني . طبقات المعتزلة ، المرتضى . فتح العرب لمصر ، بطلر (الترجمة العربية) . شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ابي الفلاح الحنبلي . البداية والنهاية في التاريخ ، لابن كثير الدمشقي . ارشاد الساري في شرح صحيح البخاري ، القسطلاني . عيون الاخبار ، لابن قتيبة . دائرة معارف وجدي . الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، لابن عبد البر (طبعة الهند) . امتاع الاسماع ، للمقريزي . المعارف ، لابن قتيبة . شرح المواقف ، للايجي . تاريخ الحضارة الاسلامية ، لبارتولد (الترجمة العربية) . تراث الاسلام ، « لجماعة من المستشرقين » . مفكرو الاسلام ، كارادي فو (الاصل الافرنسي) . التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، (ترجمة عبدالرحمن بدوي) . الاخبار الطوال ، للدنيوري . الفخري في الاداب السلطانية والدولة الاسلامية ، ابن طباطبا . المختصر في اخبار البشر ،

ابو الفداء . نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، قدامه . كتاب الولاة وكتاب القضاة ، الكندي . الاحكام السلطانية ، الماوردي . احسن التقاسيم في معركة الاقاليم ، المقدسي . تاريخ اليعقوبي ، اليعقوبي . كتاب الوزراء والكتاب ، للجهشياري . السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية ، فان فلوتن (الترجمة العربية لحسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم . تاريخ الاسلام السياسي ، حسن ابراهيم حسن . النظم الاسلامية ، حسن ابراهيم حسن ، والدكتور علي ابراهيم حسن . كتاب المسالك والممالك ، لابن خرداذبة . وفيات الأعيان ، ابن خلكان .

الكتب الانكليزية والفرنسية

History of the decline and fall of the Roman Empire : GIBBON
History of the Arabs : HITTI — London 1943
Arabic thought and its place in history . O'LEARY — London 1939
A literary history of the Arabs : NICHOLSON — London 1941
Encyclopedia Britanica 14 th edition,
« of Islam
A short History of the Sarasens : AMEER ALI — London 1921
The Preaching of Islam : ARNOLD — London 1913
Sketches from Estern History : NOLDEKE — London 1892
The Penetration of Arabia : HOGARTH — London 1905
A Literary History of Persia : BROWN — London 1906
Arabic Literature : GIBB — London 1926
Mohammed in Medina : WELHOSEN
Life of mohammed : MUIR
Mohammed and the rise of Islam : MARGOLIOUTH
Mohammed and Islam : Bevan

The origin of Islam in its christian environment : BELL — London 1926
The Caliphate : ARNOLD — London 1924
Annals of the early Caliphate : MUIR
The Caliphate its rise decline and fall : MUIR
Contributions to the history of Islamic civilisation : KHUDA BUKHOH
Painting in Islam : ARNOLD 1928
Moslem Architecture : RIVOIRA — Oxford 1919
The Mystics of Islam : NICHOLSON — London 1914
The Religious Attitude and Life in Islam : MACDONOLD 1909
The History of Philosophy in Islam : DE BOER
Mohammedanism : SNOUCK HURGORONGEO
Histoire des Arabes : HWART — Paris
Essai sur l'histoire de l'Islamisme : DOZY
La civilisation des Arabes : LE BON — Paris 1868
L'islame : LAMMENS
The Rennaissance of Islam : METZ



وغيرها من الكتب والمؤلفات سواء أكانت في العربية ام الانكليزية ام الفرنسية ، وهذا عدا المقالات التي نشرت في المجـــلات التاريخية الاجنبية والتي تعد بالمئات بحيث اصبح من الصعب حصرها وتعدادها ..

والواقع اننا لم نترك مصدراً من المصـادر يمكن الاستفادة منه إلا اعدنا فيه نظرنا واجرينا فيه اختبارنا ، حتى خرج كتابنا هذا وقد اتى على كل ما تعلق بالحضارة الاموية مـع افضل الآراء واقومها واصدقهـا ...

فهرس الكتاب

صار طبع هذا الكتاب في مطابع
« روطوس » - بيروت ، وطبعت منه
مائة نسخة على ورق مصقول لن تعرض
للبيع
شوال ١٣٦٧
آب ١٩٤٨

